

الديانة اليونانية في بلاد جابل واشور

ترجمة : سليم طه التكريتي



وزارة الثقافة والإعلام



دار الشورون الثقافية السلام

العنوان . العراق - بغداد - اعظمية
من.ب ٤٣٢ تلکس ٢١٤٦٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الطبعة الثانية
١٤٠٦ - ١٩٨٦ م

الْأَيَّةُ الْيَوْمِيَّةُ فِي بَلَادِ بَابِلِ وَآشُورِ

تألِيف
جُونِحُ كُونِينُو

ترْجُمَةُ وَتَعْلِيقٍ
سَلَيْه طَه التَّكَرِيْتِي وَمَهَان عَبْد التَّكَرِيْتِي

كلمة المترجمين

هذا الكتاب الذي نقدمه الى القارئ ، والذى تولت وزارة الثقافة والاعلام مشكورة ، طبعه ونشره ، من أهم الكتب التي صدرت حتى الان عن مختلف نواحي الحياة العامة في العراق في تاريخه القديم الذى يعود الى بضعة آلاف من السنين *

وعلى كثرة ما نشر من كتب ودراسات مسهمة تناولت بزورغ فجر الحضارة في بلاد الرافدين ، سواء في عهد السومريين والاكيدين ام في عهود البابليين والاشوريين ، فان هذا الكتاب يتميز على تلك المؤلفات بشموليته ، لانه يصف الحياة اليومية التي كانت سائدة في بلاد الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة واضحة المعالم لكل ما كان سكان الرافدين يمارسونه من اعمال ، ويستدلونه من أفكار ، ويتحسسوه به من مشاعر وأحساس *

اما مؤلف الكتاب « جورج كوتينيو » فهو من مشاهير الاثاريين الفرنسيين والباحثين في تاريخ الشرق القديم والعراق بصفة خاصة ، ولا سيما النواحي النفسية منها ، وله مؤلفات في هذا المضمار *

اننا اذ نكرر الشكر الجليل لوزارة الثقافة والاعلام نأمل اذ لا تكون عند حسن ظن القارئ ، وان يحفزنا التشجيع الذي نلقاه الى تقديم تجاجات علمية وفكرية اخرى لا تقل قيمة واثرا عن هذا الكتاب *

المترجمان

سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي

١٩٧٨/٤/١

مقدمة المؤلف

استمرت مدينة بلاد الرافدين، منذ اوائل بداياتها في حدود سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد حتى غزو الاسكندر الكبير سنة ٣٣٠ قبل الميلاد ، قرابة ستة وعشرين قرناً .

ان عبارة مثل «الحياة اليومية» التي تطلق على مثل هذا العصر الواسع تكون عديمة المعنى . ومع ان المعرفة الناقصة قد تقودنا الى بعض الاغلاط والاخطاط القهريّة في تسلسل الحوادث ، الا اننا نجد افسنتا ملزمنا بان نقتصر على عبارة محدودة نسبياً ضمن اطار واسع . ولكن اية عبارة سنختارها ؟
لابد من ان يتحكم عاملان باختيارنا هذا ، ليس لان هذا العصر يجب ان يكون مثلاً حقاً لمدينة بلاد الرافدين حسب ، بل ويجب ان يكون ضمن ذلك الصنف الذي نعرفه كثيراً .

يقودنا هذان الاعتباران الى السينين الواقعتين بين السنة سبعماة والستة خمسماة وثلاثين قبل الميلاد . ففي خلال هذه السينين تكشفت في غربى آسيا احداث لم تجري في التاريخ قبلها . وفي الدرجة الاولى بلغت قوة بلاد آشور ذروتها ، وامتدت الى الشرق الادنى كله ، بما في ذلك بلاد مصر في وقت من الاوقات . واستطاعت بابل ، الخانعة لبلاد آشور ، وبمساعدة الماذين من الممالك الايرانية ، ان تخليع عنها التير ، وان تدمر مدينة نينوى في سنة ٦١٢ قبل الميلاد .

كان هذا فاتحة عصر الرخاء البابلي الذي ما تزال اصداؤه تصل إلينا

من صفحات المؤلفين القدامى ، والذى يرتبط باسم نبوخذ نصر بصفة عامة .
واخيرا سقطت مدينة بابل ذاتها فريسة لایران . لقد اخنى الشرق
الادنى رأسه لسيد جديد . وبقيت مصائره ، ظليلة قرنين من الزمن ، في
ايدي الملوك الاخميينين .

فبالنسبة الى هذا العصر الملىء بالاحداث التي غيرت وجه العالم القديم ،
يتوفى لدينا المزيد من مصادر المعلومات .

ولابد ان تنسب فخامة العصر الى الرقم الطينية الاصلية من بلاد بابل
واشور ، تلك الوثائق الخالدة التي عرفنا منها الشيء الكثير عن التفاصيل
الطفيفة لحياة الاسرة اليومية في عهد سلالات سرجون الحاكمة في بلاد
اشور*(١) ، اكثر مما تعرفه عن حياة الفلاح النورمندي مثلا** فلقد غطت

* وضعنا لشروحنا وتعليقانا هذه العلامة . اما بالنسبة الى شروح وتعليقات
مترجم هذا الكتاب من اللغة الفرنسية الى الانكليزية فقد وضعنا لها
ارقاما متسلسلة - المترجمان .

(١) استعملت عبارة « السرجونية » في هذا الكتاب لتشير على وجه التحديد
إلى اشور الحديثة ، وإلى العصر الذي يشمل حكم الملوك سرجون الثاني
- ٧٢٢ ق.م. ، وسنهاريب ٧٥٠ - ٦٨١ ق.م. ، وأسرحدون
- ٦٩٠ ق.م. ، واسور بانيبال ٦٦٨ - ٦٢٩ ق.م. .

** النورمان : قبائل موطنها شمال اوروبا وبحر البلطيق زحفت في اواسط
القرن التاسع على اوربا فاستولت على فرنسا وقسم من بريطانيا واطاليا
وقد سميت فرنسا باسم نورماندي نسبة اليهم .

الاخبار التاريخية الملكية ، التاريخ السياسي للعصر ، وغطت الحياة الدينية بالطقس والترانيم ، واصبحنا نمتلك ليس الاتصالات الخاصة حسب بل وكذلك مراسلات كبار الموظفين مع القصر ، والرسائل التي كانت تتبادل بين الافراد الخاسين . حيث تمثل المكتبة الرسمية في نينوى التي جمعها اشور بانيال في القرن السابع قبل الميلاد ، علوم العصر . فالواقع انت لا تستطيع ان تتوقع المزيد من الرقم الطينية .

ولدينا مصدر آخر مهم في شكل حسابات مدونة ، يرفى تاريخ القسم الاول منها ما بعد هذا العصر الذي تحدث عنه بقليل ، ثم استخلاصها من اقدم الاتصالات الاحصائية التي نعرفها بين بلاد اليونان والشرق الادنى . بين اجداد خط الرحالة المؤرخين .

واخيرا فانا نمتلك شواهد النصب التذكارية التي اكتشفت بالتتابع في خرباد ونينوى ، وفي نمرود ومدينة اشور وفي مدينة بابل ذاتها ، وقد خضعت هذه الشواهد لتحقيق دقيق ومفصل .

ينتهي هذا الكتاب في النقطة التي اوشكنا فيها السلالة الاخمينية ان تشييد قصورها الواسعة في سوسة وبرسيبولييس ، عاصمتها الامبراطوريتين .

الفصل الأول
مَعْلُومَاتٌ عَامَّة

البلاد

تُؤلف بلاد اشور في الشمال وبلاد بابل في الجنوب سوريه بلاد ما بين النهرين ، الارض التي تقع بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ؛ والتي هي مصدر الخصب الذى اثار اعجاب الرحاليين عبر التاريخ .

ولكن في الوقت الذي كانت فيه مصر ، وهي بلد مثل بلاد الرافدين ، تعتمد كلية على الري وتوصف بأنها هبة النيل ، ذلك النهر الذي تفيض مياهه بالبركة كل سنة على البلاد في صفة ودية من الغرين ، فعلى التقيض من ذلك نجد في بلاد الرافدين ان الفيضانات الواسعة لنهرى دجلة والفرات وبسبب طبيعة الارض التي يجري فيها النهران ، تصبح من الكوارث بكل يسر الا اذا تم الاحتفاظ بها تحت الرقابة الصارمة . فالنهران ينبسطان من مرتفعات ارمانيا . وكلاهما يجريان بقوة مدمرة ، ويشقان قنواتهما عبر الجبال ، ويجرفان ويصقلان كتل الصخور التي تفترض مجراهما العنيف .

وما ان يذوب الجليد وتفيض الانهار حتى تطغى المياه على السهل مخلفة الدمار في كل شيء اثناء مسيرتها .

ولقد استطاع سكان بلاد الرافين من اقدم العصور ان يسيطروا على هذا التهديد الذى يتعرضون له كل سنة ، وذلك بالطريقة الطبيعية لتنظيم فيضان الماء ، بواسطة شبكة من القنوات التي كانت في ذات الوقت تروي التربة ، وتألف ايضا مياها صالحة للملاحة تستطيع ان تنقل المزيد من الحمولة مثل طرق القوافل تماما .

بهذه الوسائل يتم خفض رأس الماء الهائل الذى يؤلفه النهران ، فلا يحدث سوى القليل من الاضرار ، بينما تستمر احواض النهر في تدفقها متعدبة ذات القنوات . فلولا بعض اجراءات من هذا النوع لتغيرت حدود البلاد بشكل غير متوقع كل سنة . ومثل هذا الامر مهم جدا لانه ما ان تختلف الجبال وراء التربة التي تتألف جزئيا من الفرين الذي توفره الفيضانات ، فان هذه التربة تتفكك بصفة نسبية وتتصبح عرضة للتحول تحت ضغط الماء . فعلى مقربة من الخليج العربي تكون التربة برمتها غرينية . فهناك اهوار واسعة حيث تبدأ الدلتا بالتجاوز على الخليج كل سنة .

فيما يلي يتناوله هذا الكتاب ، كان الخليج العربي يمتد الى الشمال ابعد مما هو عليه الان^(٢) ذلك ان نهر شط العرب لم يكن قد تكون بعد وان كلا من نهري دجلة والفرات كانوا يصبان على افراط في البحر .

واظرنا لسعتها العظى ولحقيقة ان الجبال في الشمال عالية وان ارض الجنوب منبسطة ، فقد اصبح جزءا بلاد الرافين يختلفان اختلافا كبيرا . فقد روضت الجبال حرارة الجو في الشمال ، وادت في القسم الاعلى من بلاد اشور الى ظهور نباتات تشبه بصفة عامة ما هو موجود منها في اوروبا الغربية .

(٢) اصبح هذا الرأي في الوقت الحاضر عرضة للتحدي في ضوء الابحاث الاخيرة (انظر فهرس المصادر) .

اما في السهول فمع ان الحرارة في الصيف خانقة ، ومع ان فصل الربيع قصير عمره . ومع ان انعدام الامطار وشدة حرارة الشمس تختلف كل انواع الخضار ؛ مع ذلك فان الصفة الغرينية للترابة تضمن خصوبتها ، وتعدو الحياة ميسرة عن طريق الري .

يتالف ادنى الجنوب على الاكثر من اهوار يغطيها القصب الباسق . وباتجاه الجنوب تختفي بالتدريج انواع الشجر التي تعيش في المنطقة المعتدلة، وبعد بغداد ؛ التي تقع شسالى بابل القديمة ، ت verschwindet ضفاف الانهار باشجار النخيل .

ولقد كان جنوب بلاد الراfibin اقدم موطن لحاصلات الحبوب التي كان منتوجها يؤلف مصدر دهشة ثابتة للقدماء . فهناك فقرات اخرى في تاريخ هرودوت قد تکبح سرعة تصديقنا ، لكن بلاد الراfibin قد ظفرت على حق . بلقب اتها واحد من اهراء الحبوب في العالم القديم .

كانت حياة الحيوان في العصور القديمة تشتمل على انواع غدت مميزة في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب ، من أمثال الثور الوحشي والكلب الشذوذ الطويل والقرون المتعددة ، غير ان الاغنام والماعز ما زالت تتکاثر باعداد كبيرة .

لقد كانت الماشية تنتهي الى انواع اصلية ، في حين تم تدجين البقر والثور الهندي ذي السنام في منطقة آسيا الصغرى . ولم تكن الخنازير تربى فقط ، ولكن قطعان الخنازير البرية كانت تجوب غابات القصب في الاهوار . وكانت الطيور الاعتيادية الداجنة تتالف من الاوز والبط والدجاج ، وكان طائر اللعب المألوف هو طائر الدراج^(۳) .

(۳) نوع من الدراج يشبه الديك البري .

وتتوفر كميات كثيرة من الاسماك في القنوات وكان صيد الاسماك يتم في المياه الضحلة للخليج العربي .

وكانت الحيوانات الخطيرة تشمل على الاسود وهي اقل تأثيرا في مظهرها من الاسبود التي تعيش في شمالي افريقيا ، والتمهود ، والقرود ، والضباع ، والافاعي ، والحشرات السامة من امثال العقارب . وكانت مستقعات الدلتا موبوءة بالبعوض .

وطبقة الارض في القسم الادنى من بلاد الرافدين فقيرة ، وهي بسبب صفتها الغرينية لا تحتوي على الحجر ، غير ان الحجر والمعادن تتوفّر في جبال بلاد اشور . ويتواءز هذا الامر بمنابع النفط في اواسط بلاد اشور وعلى الاخص حول كركوك في حين تتركز مستودعات الغاز في الجنوب .

ذلك هي المظاهر الرئيسية التي كنا نهتم بها بصفة رئيسية . غير ان الامبراطورية الاشورية نتيجة لفتحاتها وللحروب المتواصلة التي كانت تشنها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، قد توسيعت حتى بلغت حدود ايران الحديثة الى الجنوب الشرقي ، والى شواطئ البحر الایض المتوسط في الغرب ، والى الحدود الحقيقية لمصر ايضا . وهكذا كانت اشور في وضع استطاعت فيه ان تسيطر بطريق التجارة او الهيمنة على كل موارد العالم القديم .

السكان

البابليون والاشوريون افراد طائفة سامية عرقية ، لكنهم يضمون فيما بينهم بعض العناصر الاجنبية الممثلة اصلا بالناس الذين نعرفهم الان باسم الآسيانيين Asianic والذين اذا لم يكونوا من اهل البلاد حقا ، فانهم كانوا على اقل تقدير من بين اقدم السكان المعترف بهم في آسيا .

الصغرى؛ ويندون طائفة مميزة باللغة، والممارسة الدينية والطراز الجسمني . والمظهر الفريد جداً للغاتهم التي توجد عدة أنواع منها بين اللغات الآسيوية هو الجذر اللفظي الذي يبقى من دون تغيير في تصريف الأسماء وتكونيتها .

وكانت دياناتهم تستند إلى قوى الطبيعة العظمى مع تأكيد خاص على الخصب والنماء . وكانت مقاسات مثل هذه الجماجم التي اكتشفت أثاء التنقيب مشابهة في الواقع مع المظاهر التي اتجها نحوهم ، ولكن إذا ما تقبلنا دليلاً نصباً ، فإن مظهراً جسمنياً كان متيناً بالأنف الاقنى . الضخم ، وبالجبهة الواسعة ، وبعظم التحف العميق المائل ومؤخرة الرأس النبوطة . وهذه المظاهر تعتبر نموذجية للطائفة الارمنية الحديثة .

وعلى هذه الشاكلة يبدو جلياً أن هؤلاء السكان الآسيويين مختلفون عن الساميين والهندواربيين معاً ، ولو أن بعض علماء الآثار يميلون إلى القول بأن الطوائف التي سقطت الهندو-أوربيين يمكن تشخيصها بين البعض من هؤلاء السكان .

تمثل أقدم الأمثلة لهذه الطائفة بالسومريين (الذين يعتبرون على أكثر احتمال عنصراً متمنياً في بلاد الرافدين) ، والحيثين الأصليين في آسيا الصغرى^(٤) والهورزيين الذين كانوا يقطنون شمالي بلاد آشور وشريقيها ، والأعرق التي كانت تمتد على امتداد جبال زاغروس من القفتان إلى عيلام .

ولقد كان البابليون والآشوريون يندون في الأصل طائفة واحدة هي طائفة الأكديين . وهم ينتمون إلى الفرع السامي الذي تتمثل خصائصه النموذجية بالأنف الاقنى والجمجمة العالية المقببة . ففي اللغة السامية ،

(٤) لفرض بحث هذه الكلمة بشكل أولى انظر كتاب أو غرني O. GURNEY « الحثيون » لندن. منشورات بليكان ١٩٥٢ . الفصل الأول .

كاللغة الفرنسية ، يمكن تكوين الجذور اللغوية بالتصاريف الداخلية .

اما عبادة آلهة الكواكب فهي مظهر مهم للديانة السامية . ففي بداية العصر التاريخي في بلاد الراشدين امترج الساميون والسوسيون امترجاً كثيراً ، وقد استقرت اكثريه الساميين غربى القسم الاعلى من سوريا حيث شنوا من هناك غزواتهم على اواسط بلاد الراشدين وجنوبها ؛ والتي كانت في ذلك العصر تؤلف بلاد سومر .

واخيراً ، وفي عصرنا والذى تتحدث عنه على وجه الدقة اتخذت موجات جديدة من الساميين ، الذين عرفوا باسم الآراميين والذين كانوا من البدو في وقت لا يسكن تذكره ؛ فريقها الى داخل بلاد الراشدين باعداد كبيرة الى درجة انها كانت تؤلف عنصراً مهما في سكان هذه البلاد .

لقد استعار الساميون اول الامر عناصر من مدينة بلاد الراشدين ومن ثم اختاروها لكي تطابق عقريتهم . فلقد كان احترام احدى المراحل المتقدمة للمدينة ملماً على الدوام بين الاكديين الذين لم يدخلوا في الفالب سوى تحسينات ضئيلة على ما استعاروه من بلاد سومر . وكانت الروحية التي مارسواها هي روحية الاعجاب والتقليد ، وقد تركت هذه الروحية اثراً في كل مظاهر التفكير والمهارة المطبقة .

وكان العنصر الثالث المميز في غربى آسيا هو العنصر الهندى الاوربي . ويبدو ان هذا العنصر قد بسط تأثيره ليس عن طريق حجمه الحقيقى ، وإنما عن طريق دوره كقائد للغزوات المتواترة التي كان الآسيويون يتثنوها من ناحية الشرق طيلة عصر تاريخي .

لقد كان الهندو الاوربيون عنصراً موجهاً او قائداً في هذه الغزوات وقد تركوا سمعتهم في البلدان التي افتحوها من امثال الحثيين المنسود

الاوربيين بالنسبة الى العثرين الاصليين الاسوين والهوربيين في شمالي بلاد آشور والكشيين في بابل ، والفرس في ايران ٠

وليس من شك في ان الكثير من الفروق العميقه بين صفات الاشوريين وهم اقل تقدما ، والبابليين المتقدمين بصفة عالية ، انما تبع عن طبيعة السكان المحليين التي يجا بهونها في البلدان التي يحتلونها والتي ينصلرون بواسطتها ، او من اختلاف نسب العناصر العرقية الرئيسة الثلاثة التي مرت وصفها في الفقرات السابقة . لكن اطلاق مثل هذا القول يجعل من الخطأ ان نقلل من قيمة التأثير الذي مارسته الاجواء الواسعة الاختلاف في بلاد آشور وببلاد بابل في تكوين صفة سكانهما ٠

الالفسة

الاكديه هو اسم اللغة التي كان يتحدث بها في بلاد آشور وببلاد بابل سوية . ويتميز شكلها اللغة بصفة عملية في القواعد والمفردات ، وربما يختلفان اختلافا ملحوظا اكثرا في طريقة التلفظ ، حيث يبدو - بالنسبة الى البرهنة على اللغة في شكلها المكتوب - ان البابليين كانوا يميلون الى اضفاء الصلاحة على بعض الاصوات . ويمكن ان نجد شبهها لذلك في ايطاليا الحديثة ، حيث يتلفظ النيوبولitan الاعتياديون(*) كـلمـة « كرستـو » CRISTO بشكل غـرـشنـو - GRISTO ولكن في العصر الآشوري المتأخر والبابلي الحديث ، اهـملـتـ اللغةـ الـاكـديـةـ ذاتـهاـ ، واـخـذـتـ اللغةـ الـأـرامـيـةـ ، الـتـيـ كـانـتـ الشـعـوبـ الـمحـيـطةـ بـيـلـادـ الرـافـدـيـنـ تـحـدـثـ بـهـاـ ، تـنـتـشـرـ إـلـىـ كـلـ اـرـجـاءـ الـبـلـادـ فـقـدـ كـانـتـ الـأـرامـيـةـ تـتـمـيـزـ بـفـائـدـيـنـ عـنـ الـغـلـةـ الـاكـديـةـ :ـ فـهـيـ لـمـ تـكـنـ

(*) نيو بوليتان . Neopolitan

أكثر مرونة حسب ، بل أنها كانت تدون بكتابية الفباء وليس بالمحروف . المسارية التي كانت تؤلف اداة جد صعبة في الاعراب عن الافكار ولا يمكن السيطرة فيها على اية حالة الا من قبل طائفة من الكتبة الذين لم يكونوا يتوافقون سوى جزء ضئيل جدا من السكان

ومن ذلك العهد وما بعده اخذت اللقمان تستخدمنان بصفة مزدوجة . ولقد بقيت آثار قليلة من اللغة الآرامية وذلك بسبب بساطتها واستعمالها بشكل أكثر شيوعا ، لانه يمكن تدوينها بالحبر على مواد غير ثابتة تكون عرضة للتلف ، غير ان اللغة الakkidie بقيت تستعمل كلغة تقليدية ، ولا تستخدم الا للوثائق الرسمية ، وتدون على الرقم الطينية التي تصبح - عندما يتم صنعها . تماما - غير قابلة للتلف .

ومنذ عصر سلالة سرجون وما بعده ، وعلى الاخص في عهد البابليين . وبالفرس ، احتلت اللغة الakkidie التي كانت تدون بالحروف . المسارية منزلة مشابهة للمنزلة التي تبوأتها اللغة اللاتينية في اوربا الغربية خلال العصور الوسطى .

اما اللغة الآرامية فقد احتلت مكانة اللغة الakkidie ، كلغة للكلام الذي يجري تناوله كل يوم مثلا احتلت الakkidie مكانة اللغة السومرية على وجه الدقة .

تاریخ بلاد الراشدين في الفترة ٧٠٠ - ٥٠٠ قبل الميلاد

قبل التعرض لوصف الحياة اليومية في مدينة بابل في الفترة المارة بين سنتي سبعمائة وستة خمسة وثلاثين قبل الميلاد على اوسع تقدير ، ينبغي لنا ان نلخص بايجاز حوادث العصر ضمن موقعها التاريخي .

كانت بلاد بابل وآشور خلال الالف الثاني قبل الميلاد ملتحمة في صراع جاد من اجل السيادة . غير ان الحظ كان منذ حوالي سنة الف قبل الميلاد لصالح بلاد آشور ، وفي سنة سبعمائة قبل الميلاد أصبح تنوذها امرا لا خلاف فيه . ذلك ان الملك سرجون الثاني (٢٢٥-٧٠٥ ق.م) الذي كان قد توفي حديثا ، بذ اسلفه بان خلف ورائه على بعد عشرة اميال ونصف الميل شمالي شرقى نينوى^(٥) قصرا تأكّدت عظمته بواقع ان منحوتاته الناتحة التي يضمها اذا ما صفت الواحدة منها الى الاخرى فانها ستمتد الى اكثر من ميل .

كانت الامبراطورية الآشورية تقترب من الذروة ، وكان سنجاريب خليفة سرجون (٧٠٥-٦٨١ ق.م) قد وسع حدودها وان لم يكن مع ذلك قد اضطر الى القضاء على الثورات التي كانت تصاحب تنصيب ملك جديد عادة في الشرق القديم .

وهكذا وبعد ان دحر دعيا بالعرش ساندت ادعائه بلاد عيلام ، والآراميين المتمردين أولئك البدو الذين كانت ثروة الشعوب المستقرة بصفة أكثر تثير حسدهم ، قضى سنجاريب على الثورات التي وقعت في فينيقيا ، الضفة الغربية التي كانت مصر تساندهما معا ، ونصب مرشحا من قبله على

(٥) في خرسن باد .

عرش بابل والذي صمم في احدى المرات اذ يجرب حظه بغراء من ملوكها المخلوع « مردوك - بلدان » (**). ولقد تعقبه سنجاريب باسطوله حتى منطقة الخليج العربي التي فر اليها ، غير ان بلاد عيلام التي تقع في المنطقة الجنوبيّة الغربية من ايران الحديثة ، اقدمت على مساندة المتمردين واتهت الحملة بصفة غير حاسمة . لذلك اضطر سنجاريب الى ان يؤجل اجراءاته التأديبية لانه كان يواجه الضرورة ليس في ضرب العرب الموجودين في الجزء الجنوبي الغربي من امبراطوريتهحسب ، وليرسم خطواته التالية نحو فلسطين التي افجرت الثورة فيها ثانية .

واخيرا وقد عاد ثانية الى بابل فنهبها في سنة ٦٨٩ قبل الميلاد وعين احد اولاده حاكما عليها ، لكن الثورة افجرت في بلاد آشور ذاتها ومات سنجاريب نفسه اغتيالا .

لن يؤخرنا التحدث عن الملوك الذين اعقبوا سنجاريب ، وعلى الاقل ما يتلخص بالثورات ومكائد القصر . فقد كرس اسرحدون خليفة سنجاريب (٦٨٠-٦٦٩ قبل الميلاد) معظم قوته لمهاجمة مصر ، الخصم التقليدي لبلاد آشور في دورها كمساهم لامم الغرب التي كانت تتطلع الى تحرير نفسها من النير الآشوري .

استطاع اسرحدون ان يفتح دلتا نهر النيل في مصر ، ومن ثم وجه لطمة شديدة للثورة في فينيقا . فقد تم اسر ملك صيدا وضرب رأسه ، وهدمت المدينة ذاتها تماما ، واستبدلت بمدينة جديدة شيدت على

(**) الصواب مردوك اولاً ادن (مردوخ بلدان الثاني) الملك الرابع من سلالة بابل التاسعة دام حكمه اثنتي عشرة سنة من ٧٢١ الى ٧١٠ قبل الميلاد وقد خلع مردوك بلدان عن العرش ثم اعيد اليه ثانية ولكن لفترة لم تزد على تسعة أشهر .

موقع قريب منها ، لم تشخص بقايها ، ويبدو واضحا انها اما قد هجرت في الحال او انها لم تظفر باهمية كبيرة .

وفي الوقت ذاته كان الشرق يتعرض لخطر الماذين الذين استقروا شمال غربي ايران ، والاسكيثيين^(*) ، وهم عرق بدوي من فرع هندي اوربي ، كانوا يحاولون التغلب الى بلاد آشور عن طريق ارمينيا .

وعلى الرغم من كل هذه القلاقل فقد توفر الوقت لدى اسرحدون لتخطيط قصر جديد في نينوى ، لكن لم يكن مقررا له ان يستمتع باية راحة ، لأن مصر ثارت عليه مرة اخرى ، ولقي الملك مصرعه وهو في طريقه الى احدى الحملات ضدها .

خلف اسرحدون اخوه الاصغر آشور بانيبال (٦٢٦-٦٦٨ قبل الميلاد) الذي ورث اخوه الاصغر عرش بابل .

لقد جعل آشور بانيبال اول مهمة له هي استعادة سلطة آشور في مصر ، ولذلك تحركت القوات الاشورية من معيس الى طيبة التي تم نهبها .

لقد كان امرا محتوما ان ينتهز اخ آشور بانيبال الاصغر الوارث الشرعي لعرش بلاد آشور هذه اللحظة للثورة عليه ، وهكذا اضطرت آشور مرة اخرى ان تسلك الطريق الى مدينة بابل .

لقد تم احتلال المدينة ، ولقي الاخ التمرد حتفه في قصره المحترق (هذا هو الحادث الذي أدى الى ظهور اسطورة ساردا نابالس^(**)) وحبل

(*) السكيثيون هم مجموعة القبائل التي استوطنت البلاد الروسية (الاتحاد السوفيافي الان) واليهم ينتهي معظم الروس في الوقت الحاضر وقد عرف الاسكيثيون في مدونات المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين باسم (الاشتوذين) .

(**) ساردانابالس Sardanapalus وهو الاسم الذي اطلقه الرومان على الملك الاشوري آشور بانيبال .

ذات المصير بمدينة سوسة غاصمة عيلام التي تضاعل حجمها في عهد اخلاق
آشور بانيال .

عهد كي خسار ملك ماذى ، ونبي بلصر^(*) حاكم بابل الى اقامة تحالف ،
واعدا حملة مشتركة ضد نينوى فاستوليا على المدينة سنة ٦١٢ قبل الميلاد .
اخفقت جهود اخر ملك^(*) لتجميع قواته في شمالي سوريا ، واذ ذاك قسمت
كل امبراطورية آشور بين الحاكمين المنتصرين . وعلى هذا فقد اصبح الشمال
كله من ماذى في الشرق حتى آسيا الصغرى في الغرب يؤلف جزءا من
الامبراطورية الماذية .

اما بلاد بابل وآشور والمنطقة الساحلية فقد توحدت تحت سلطة
نبي بلصر ، وبرزت مدينة بابل كرئيسة للامبراطورية الجديدة التي عرفت
باسم الامبراطورية البابلية الحديثة . امانبي بلصر الذي حكم هذه
الامبراطورية كأول ملك لها عدة سنوات ، فقد خلفه نبوخذنصر
(٥٦٣-٥٥٠ ق.م) . وقد استطاع نبوخذنصر خلال حكمه الطويل ان يعيد
لبابل جمالها ، بعد ان نهبتها آشور بانيال ، وان يزييها بالنصب التذكاري
التي تشهد بها كتاباته ومؤلفات المؤرخين اليونانيين ، والتي ظهرت بقائها
الى النور بالتنقيبات التي أجرتهابعثة الالمانية تحت اشراف كولدوي^(**)
خلال السنوات ١٩١٧-١٨٩٩ .

(١) هو الملك سن شاراشكون (٦٢١ - ٦١٢ ق. م.) .

(٢) كي اخسار Cay Xares ملك الماذيين الذي تحالف مع نبو بلسر ملك
بابل فجهزا جيشا مشتركا هاجما به مدينة نينوى سنة ٦١٢ ق. م.
فاستوليا عليها ودمراها تدميرا تماما وبذلك قضيا على امبراطورية
الاشوريه الى الابد .

(٣) كولدوي Koldewey منقب الماني رکز عمله في مدينة بابل وكشف عن
قصر نبوخذنصر واعاد ترکيب بعض اجزائه وكان كولدوي الذى ولد
سنة ١٨٥٥ قد بدأ اولى تنقيباته سنة ١٨٨٢ في مدينة اسوس في اقليم
 مليسيانا من آسيا الصغرى ومنها انتقل الى العراق حيث استمرت
 تنقيباته فيه من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٧ في مدينة بابل وحدها . وقد
 توفي كولدوي سنة ١٩٢٥ .

ما لبث الخصوم السابقون بلاد آشور ان اتجدوا مرة اخرى في مناهضة مملكة بابل . لقد اصبح نبوخذنصر نفسه سيد القدس اثر حملتين جردهما على فلسطين سنة ٥٨٧ قبل الميلاد . وفي المناسبة الثانية لم يظهر اية رحمة . فقد قتل الكثير من السكان ، بينما تقبل «صدقيا»(*) مع امراء بيته وطبقة النبلاء والحرفيين الماهرين الى بلاد بابل .

تم الاستيلاء على مدينة صور بعد حصار طويل (لا يقل عن ثلاثين سنة حسبما ذكره المؤرخ منندر)(**). Manander كما خطط نبوخذنصر على الاقل حملة الى مصر (٥٦٨ ق.م) من قاعدة يوفرها له شاطئ البحر ، وان لم يكن يوجد سجل عما اذا كان قد قام بهذه الحملة أم لا ، واذا ماقام بها فما هي درجة نجاحه فيها .

هناك القليل مما دون خلال حكم الملك الذي اعقبوا نبوخذنصر ، ما يخل الا ضطربات المعتادة . غير ان المرحلة كانت تتسم لاجداد ذات فترة اعظم .

ثار الفرس الذين استوطنوا القسم الجنوبي من ايران ضد الماذين وحولوا اسيادهم السابقين الى دمار .

(*) صديقا . احد حكام فلسطين الذي تصدى لمقاومة يختنصر فهزمه شر هزيمة واخذ اسيرا مع افراد اهل بيته وقادته الى بابل .

(**) المؤرخ منندر Manander يقصد به المؤرخ الفارسي « ابن مهمندر » .

وصل كورش (٥٤٦-٥٢٩ ق.م) الى العرش الفارسي آثناء حكم نبونيدوس (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) في بابل^(*) والذي كان يهتم باستعادة النصب الدينية اكثر من اهتمامه بالحفظ على مصالح امبراطوريته . ومع ذلك فان خطته في ان يجمع في عاصمته تماثيل اعظم الالهة قدسية من المعابد النائية قد اثارت معارضة الكهنة ، ولذلك فلم يلاق كورش الذي وسع حدود مملكته في تلك الفترة حتى شاطئ بحر «الايون»^(**) ، سوى مقاومة طفيفة عندما وجه هجومه المباشر على بابل سنة ٥٣٩ قبل الميلاد . ولقد تميزت سياساته باعتدال لم يكن متوقعا . فقد اعاد تماثيل الالهة الى المدن التي نقلت منها .

لقد برزت في الواقع روحية جديدة تماما عند وصول الفرس . فالصلابة التي عرف بها البابليون ، والشدة التي تميز بها الآشوريون قد اوجدت مكاناً لفهم واسع ، وعلى الرغم من افجارات العنف العرضية ، ادت هذه الروحية الى نوع من الترويض كان الشرق غريبا عنه قبلا .

لقد رسمنا بياجاز خلاصة تاريخ قرنين من الزمن ، وقد حان الوقت الان ان تتساءل عن نوع الحياة الاعتيادية التي كان يعيشها ابن الرافدين في العصر الذي عاش فيه .

^(*) نبونيدوس Nabonidus ويعرف باسم نبونيد بلشاصر هو آخر ملك من السلالة الكلدانية ، اي العهد البابلي الاخير ، وقد دام حكمه سبع عشرة سنة وقد سقطت مملكته على يد كورش الاول ملك الفرس الاخمينيين .

^(**) بحر الايون Ion هو بحر ايجي احد خلجان البحر الابيض المتوسط وتعرف المنطقة الممتدة على ساحله باسم ايونيا ومنها اخذ اسم «اليونان»

لابد وان كانت هذه الحياة غير مستقرة ومفعمة بلحظات التأسي .
بالنسبة لسكان العواصم سواء في ذلك نينوى ام بابل التي دمرت اثناء هذه
الستين ، والتي كانت دون ريب اكثراً اطمئناناً من كانوا يسكنون في الارياف .
ولكن ما عدا الشك كانت تلك السنين مليء بالعمل المتواصل . ولسنا بحاجة
ان نبحث عن دليل على ذلك ابعد من الوثائق التي تدلل لنا على غنى وتجدد
المدنية التي وجدت في عهد اخر الملوك الاشوريين ، والملكيات البابلية
الحديثة .

سجل الواقع التاريخية

ينبغي لنا ، قبل المضي في بحثنا ، ان نتفهم الكيفية التي يمكن بها نسبة الحوادث التاريخية في القسم السابق الى تواریخ خاصة . فبالنظر الى العالم الحديث اصبح تاریخ الاحداث امراً بسيطاً نسبياً . فاستخدامنا للعصر المسيحي يعني ان السنوات تمضي متعاقبة من نقطة بداية ثابتة ، وبعد اجراء علاوة مستحقة ل مختلف التصویيات التي ادخلت في التقویم خلال القرون ، فأن نظام تدوین التاریخ الذي نستخدمه يشمل هذه الفترة الطويلة بثقة تامة . كذلك استعملنا اسس هذه الطريقة في وقت متأخر ، ولفرض احتساب مضي السنين قبل ميلاد المسيح فاتنا تطبق ذات الاصطلاح ، حيث تبدأ مرة اخرى من بداية العصر المسيحي . غير ان العالم القديم لا يستطيع طبعاً ان يدرك الحادث الذي ثبت نقطة البداية لنظام تسجيل الحوادث التاريخية الذي نستعمله ، ولهذا ينبغي لنا أن نتتبع طریقة مغايرة . ولقد كانت محاولات هذه الطريقة ، رغم ثباتها ، عرضة للفشل لأنها كانت ، كما هو الواقع ، تعوزها اية نقطة ثابتة .

ولقد استعمل العراقيون ، مثل غيرهم من الشعوب ، اليوم كوحدة لقياس الزمن . ومع ذلك فطبقاً لحسابهم كان اليوم يبدأ بغروب الشمس ، ولم يكن يقسم الى اربع وعشرين ساعة بل الى اثنتي عشرة فترة امتد كل واحدة منها ساعتان ، اعطت اسمها الى المسافة التي يمكن تغطيتها في ذلك الفراغ من الوقت (٧) .

وكانت الوحدة التالية لديهم هي الشهر . ولقد ادت التجديفات التي ادخلت على تقویم اوزربا الغریبة الى اختيار شهر واحد يتألف من ثمانين وعشرين يوماً ، والباقي من ثلاثة او واحد وثلاثين يوماً ، وبذلك غدت السنة

(٧) كانت تُعْصَى بُورُو Boru - باللغة الاكدية .

تتألف من ثلاثة وخمسة وستين يوماً . وكانت هذه السنة تتجاوز بضمنها ست ساعات مع السنة الشمسية وقد احسن احتساب الفرق باضافة يوم واحد كل اربع سنوات الى شهر شباط الذي يتالف عادة من ثماني عشر يوماً .

وعلى النقيض من ذلك اختار العراقيون الشهر القمري الذي يتتألف من ثلاثين يوماً . وقد ادى هذا النظام الى حدوث نقص سنوي يزيد عن خمسة ايام قليلاً ، ولذلك يصل الوقت المتأخر ، بعد بست سنوات ، الى شهر في تلك النقطة ادخل العراقيون في تقويمهم ما سموه بالشهر الكبيس ذي الطول الاعتيادي ، وبذلك امسكوا مرة اخرى بالنسبة الحقيقة .

وما ان تملأ البابليون ، كما فعلوا بذلك حقاً ، هذه الوحدة القياسية حتى استخدموها طرفيتين مختلفتين في تاريخ السنين ، والتي كانوا يعتبرونها مثلاً كانت عليه اوربا الغربية حتى عصر النهضة ، تبدأ بفصل الربيع . فطبقاً للطريقة الاولى سموا كل سنة بعد وقوع حادث مشهور فيها ، مثلاً ذلك السنة التي شيد فيها الملك فلان المعبد الفلامي ، او السنة التي دحر فيها الملك فلان عدوا محدداً ، والتي وردت في قوائم تألف دليلاً للحوادث . وبالتعاقب كانوا يحسبون عدد السنين في كل فترة من فترات الحكم .

فهذه الطريقة يمكن الاعتماد عليها وحدها حقاً في حفظ كل الوثائق في مكانها الصحيح ، غير أنها لم تكن كذلك لسوء الحظ .

غير ان البابليين قد تركوا لنا ، مثلما نعمل نحن بذلك تماماً ، قوائم لبياناتهم الحاكمة المختلفة والتي يظهر فيها كل ملك في نظام شديد من التعاقب سوية مع عدد سنوات حكمه ، في حين ان الكتاب يعطي عادة في نهاية كل سلالة حاكمة ، مجموع عدد الملوك ومجموع السنوات القاربة لحكمهم .

فمثل هذه الطريقة تكون هي الاخرى وافية كلية ولكن بالنسبة الى الاخطاء والاختزالت التي يعمد اليها قسم من الكتبة . ومع ذلك فهناك نوع اخر من الوثائق التي قد تنقذنا من كل هذه الاخطاء . فالواضح ان الملك عندما يسجل مظهراً مهما اثناء حكمه فانه يشير بذلك الى حادث ماض ، ويحدد فترة الزمن المتدخلة فيه .

وعلى هذا فان من المدهش ان تتحقق بان اعتماداً محدوداً حسب يجب ان يوضع في هذه السجلات المكتوبة . فطالما كشف القليل نسبياً من هذه النصوص ، فان في الامكان قبل صحة نظام تسجيل العوادث التاريخية الذي اعيد ترتيبه على هذا الاساس ، ولكن بنطاق متنام من التقييم وبكشف اكثر صراحة للبرهنة على تسجيل العوادث ، وان النتيجة التي لايس肯 التهرب منها هي ان هناك سلسلتين من الوثائق آشورية وبابلية ، قد تعايشتا في بلاد الرافدين . وفضلاً عن ذلك توجد ضمن كل من هذه السلسلات فروق بين مختلف النصوص في العدد التام للملوك ولسني حكمهم .

ومع ذلك فان الطريقة التي استعملها الكتبة في رسم الواحهم التاريخية، تقدم اساساً آخر بالنسبة لعدم الصحة . ففي الوقت الذي يعمد فيه التطبيق الحديث لتجمیع القوائم المماثلة ، الى حشد اسماء الملوك والامراء او العوادث التي كانت معاصرة احداها لآخر في اعمدة متوازية ، سجلها البابليون احداها بعد الاخرى .

وليس هناك ادنى شك في ان هذه القوائم كانت تمثل تفسيراً صحيحاً وذلك بفضل التقليد اللغظى الذى كان يلعب دوراً كبيراً في نظام التربية لديهم . ومن ناحية اخرى فاتنا ما نزال نعيش في ظلمة الى ان يسعينا حادث

محظوظ يكشف لنا بان ذينك الحادثين اللذين كان يعتقد قبلًا بأنهما قد فصلا نتيجة فترة زمنية ، كانوا متعارضين في الواقع ٠

ففي السنوات الاخيرة كان الاعتقاد السائد ان حمورابي ، الملك الذي ينتهي الى السلالة الاولى الحاكمة في بابل ، كان معاصرًا للشمس ادد ملك آشور ٠ وكان يظن بان الاخر عاش اكثر من جيلين بعد حمورابي ، وان هذه الحقيقة لم تتأكد الا نتيجة العثور على مراسلات بين كلا الملكين ، وذلك دليل لا مجال للخلاف فيه ، ولا يمكن تفنيده بالقوائم الرسمية ، بعض النظر عن مدى العناية التي جمعت بها هذه القوائم ٠

ولقد تم التوصل ^{التحريم} للمساعدة في ايجاد طريقة للتخلص من هذا الخطأ ٠ فاصبح مستطاعا ليس احتساب التواریخ المقبالة للطوال المتعاقبة لاحدى الظواهر كالخسوف ، او ظهور تابع للشمس ، او اختفاء كوكب ، او نجم حسب ٠ بل وكذلك تواریخ مطالعها السابقة ٠ والواقع ان العراقيين الذين كانوا يهتسون بعلم التنجيم والفلک ، غالبا ما كانوا يسجلون احداثا من هذا القبيل في التواریخ التي يكتبون بها سیر ملوكهم ٠ وبهذه الوسيلة أصبحنا نستلک الان سجلًا كاملا للاحظات فلکية عن فترة معروفة من حكم احد الملوك وهو « امي صدوقا »^(*) الذي ينتهي الى سلالة بابل الاولى ، وبذلك نستطيع - كما اوضحنا سلفا - ان نحسب التاریخ الذي وقعت فيه هذه الحوادث ٠

القلک يامار

لقد استطاع المترجم الالماني « كوغلر » ، بعد حسابات مطولة ، ان يحدد التاریخ الدقيق الذي ينبغي ان يعزى حکم هذا الملك الله ، وكذلك - بطريقة ضمنية - تواریخ ملوك اخرين ينتهيون الى تلك السلالة ٠

^(*) امي صدوقا Ammi Zaduga الملك العاشر من ملوك سلالة بابل الاولى دام حکمه احدى وعشرين سنة ١٥٨٤ - ١٥٦٤ ق.م ٠

ومع ذلك فقد توصل النجم الانكليزي « فورذنام » ، الذى كان يبحث ذات القضية بصفة مستقلة ، الى نتيجة معايرة ، في حين كرر « كوغلر » في سنوات متاخرة حساباته السابقة فتوصل الى نتيجة معايرة لتلك التي نشرها سابقاً .

ان العناصر الواضحة للخطأ الموروث في هذه الطريقة ، تعزى في الدرجة الأولى الى حقيقة ان الخيار يقع بين عدد من التواريف لا مدعى عنها .

فالواقع ان الظاهرة التجريبية الخاصة التي تمت دراستها يحدث اد تؤدي في بعض الاحيان وبمثل هذه الصراحة ، الى استعمال تاريفين او ثلاثة تواريف محتملة . وهذا هو سبب الاختلافات في الرأي بين المعينين بدراسة القضايا الاشورية الذين يقارنون هذه النتائج مع ما يبقى من الوثائق العراقية .

وعلى الرغم من هذه المصاعب المتباينة فان من المصيب ان نقول بان كل التفاسير المختلفة للبرهان تشير بنطاق واسع الى نقص في التدوين العام للاحداث التاريخية .

ان اسبق تاريخ مفترض بالنسبة الى بداية العصر التاريخي ، والذى حدد قبلها باربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، قد تم تقريره الآذى الى القرون الاولى للالف الثالث قبل الميلاد ليس الا .

وكلما اخذنا نقترب من العصر المسيحي اخذت الاخطاء تتناقض بصفة نسبية الى نقطة تختفي فيها ، ولذلك فقد تم اهمالها فعلاً بالنظر الى العصر الذي يشمله هذا الكتاب .

فقبل هذا التاريخ بعده قرون كان الاشوريون يصفون السنين المنفردة . باسم قاض ملقب يدعى « ليمو »⁽⁷⁾ وتتوفر لدينا قوائم لهؤلاء الموظفين . وفضلاً عن ذلك فان الكتبة في هذا العصر كانوا يدونون التاريخ المتواصل .

اللأحداث التي كانت تحدث في بلاد آشور وبابل والبلدان المجاورة ، وقد سلست هذه المدونات من التلف .

واخيرا وضع « بطليموس المصري » (*) للقرون الماضية قانونا للأحداث يمكن استعماله لفرض المقارنة .

وعلى هذا فحين يتحدث هذا الكتاب عن التواريχ الواقعة بين سنتي ٧٠٠ و ٥٠٠ قبل الميلاد ، فإن هذه التواريχ قد احتسبت بدقة إلى حد أشهر قليلة .

(V) الاسماء الاشورية والبابلية يكون الحرف **U** بمثابة (وو) كما ان الحرف **E** لا يتكون ساكنا .

(*) بطليموس : عالم يوناني اشتهر بعلوم الجغرافية والرياضيات وتنسب إليه كثير من الآراء والنظريات الجغرافية ومن بينها قياس محيط الأرض وما شاكلها . وقد ترجم العرب في زمن الرشيد والمأمون كل مؤلفاته ونقدوا واصلحوا الكثير من آرائه ومقولاته .

تركيب المجتمع العائلة ، البيت

مع ان الحياة اليومية لعضو من الطبقات العليا في بلاد الراغدين تختلف اختلافا بارزا عن الحياة اليومية للرجل الاعتيادي ، الا انها لا تختلف بالقليل من المظاهر بصفة عامة . ولكن عن طريق المفارقة لا يوجد شبه مهما كان نوعه بين حياة ملك بابل او آشور ، او حياة اي من رعاياه . وعلى هذا فان اهتمامنا المباشر يتركز على الرجل الاعتيادي في الشارع . اما الملوك فسيحثثون قسما منفصلا من هذا الكتاب .

اعترف المجتمع العراقي في مراحله الاولى بتقسيم ثلاثي بين افراده . فقد وجدت بين الرجل والعبد طبقة تستحق - بالمعنى الحرفي للكلمة . - ان تعتبر اقل من الاول واكثر من الثاني . ومع ذلك فلا يوجد سوى دليل مباشر ضئيل على وجود هذه الطبقة يمكن ان يستنتج منه ابتداء من عصر حمورابي وما بعده (اي في حدود القرن الثامن عشر قبل الميلاد) بأنه لم تكن لهذه الطبقة سوى اهمية ضئيلة .

وبكلمة مختصرة كانت تلك الطبقة هي طبقة الـ « مشكينو » (التي تقابل الكلمة مسكين في اللغة العربية) والتي اشتقت منها الكلمة الفرنسية « Mesquain » ، وهي طبقة من رجال لا يستحقون سوى الشيء الضئيل ، لكنهم يتميزون عن الارقاء الذين لا يساورون شيئا ما .

الرجل الحر والزواج

يقف الرجل الحر في قمة الميزان الاجتماعي ، اي الرجل بالمعنى التام للكلمة . فهو ليس ملكا واحد . والواقع انه يخضع للقانون ولكن بالنسبة الى المحاكم وبالنظر الى العقوبات التي قد يتعرض لها كان يعتبر اكثر قيمة من العبد ، الذي كان وضعه القانوني مناقضا على وجه الدقة لوضع الرجل

الحر ، مما سنأتي على وصفه فيما بعد ٠

كان الزواج اساس العائلة ٠ ومع ان تعدد الزوجات نظريا كان هو القاعدة الا ان شرية الزوجات اللواتي كن يسحبن من الرقيقات ، كان معمولا به ايضا ٠ والى وقت زواجهما تبقى الفتاة تحت حماية ابها الذى كان مطلقا الحرية في ربطها بالزواج حسبما يعتقد ان ذلك مناسبا ٠

وحتى اذا حدث ان كانت الفتاة في خدمة طرف ثالث ، مثلا كضمان للدين الذي في ذمة ابها ، فانها لن تكون اقل اعتمادا على والدها لان تتزوج او على اخواتها اذا ما مات ابوها ٠

وكان الدائن حر التصرف بها كما يشاء اذا لم يكن لها والد او اخوة ٠

يسبق الزواج حفل الخطوبة الذي يقوم خلاله الزوج المقبل بصب المطهر على رأسها ، ويجلب لها الهدايا والماكلات ٠ وبعد ذلك تصبح الفتاة عضوا كاملا في اسرة زوجها المقبل ، اي انه اذا ما توفي سوف تتزوج واحدا من اخواته ، او اذا لم يكن له اخوة ، واحدا من اقاربه الاقربين ٠

ولعله من غير المعടاد ان لا تجد احدا في عائلة شرقية قد انجز هذه الشروط ، ولكن اذا ما وجدت مثل هذه الحالة ، فان والد الفتاة سوف يحتفظ بكل حقوقه عليها ٠ ويعيد كل الهدايا التي تسلمتها ما عدا الاشياء التي تم استهلاكها ٠

والمتفق عليه ان الفتاة اذا ما توفيت وان زوجها المقصود لم يرغب ان يتزوج احدى شقيقاتها ، فانه سوف يسترجع كل الهدايا التي اهدتها اليها عدا تلك التي تتالف من الطعام ٠

ويأخذ الزوج الحقيقي ، كما نعرف ذلك من احد النصوص ، صفة تسليم الزوجة الى زوجها ، اما اذا كانوا كليهما ينتهيان الى طبقة المواطنين الاحرار ، فان الرجل يضع الحجاب على وجه عروسه بحضور شهود ، ويعلن

بكل خشنوع « انها زوجتي » .

يحدد القانون الآشوري الهمية الحجاب الذى كان مثار مزيد من البحث ، ويفسونه بالله العلامة المizza للسراة الفڑة ، وان من واجب اي فرد يصادف رقيقة او عاهرة ترتدي الحجاب ان يفضحها .

ولم يكن الحجاب في الواقع ليعطي به الوجه دائما . ذلك لانه توجد كثير من النصب الحشية الجديدة تصور نسوة يرتدين الحجاب الذي يعطي شعورهن ويتدلى على جنبي الوجه . ففي مثل هذه الحالة من الضروري سحبه معها (وحتى هذا اليوم ما تزال كثيرة من النساء الشرقيات يوثقنه بان يسكنه باستأنفهن) او ، اذا ما تجمع فوق قمة الرأس ، يدعنه يتتدلى طليقا . وطريقة ارتداء الحجاب هذه يمكن ان تشاهد في تماثيل من تدمر وفي رسوم من [دورا يوروبيوس] وهي مدينة تقع على الفرات قرب دير الزور (**) .

وهكذا ومع ان اهميته قد تغيرت فقد كان الحجاب الذي كانت النساء المسلمات يرتدينه يمتد الى احقبة بعيدة في التاريخ ومنذ ذلك الوقت جرت العادة باستعماله على نطاق واسع ، لكنه كان مقبولا قبلا في اجزاء من الشرق منذ اوائل النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد .

(*) دورا يوروبيوس . من المدن القديمة تسيدها سلوقيون الاول خليعة الاسكندر في نهاية القرن الرابع للميلاد . وقد اشتهرت كثيرا في التهد الفارسي وأستولى عليها شابور الاول فخر بها . نقبت فيها بعنة من جنحة ييل الامريكية سنة ۱۹۲۸ وكشفت فيها عن معابد تعود الى القرن الاول للميلاد . يتتألف اسمها من كلمتين : دورا ، اي الحصن . يوروبيوس وهو اسم المدينة التي ولد فيها سلوقيون الاول في مقدونيا . تعرف خرائطها الان في سوريا باسم « الصالحة » .

ومع ان الزوجات في العصر الآشوري المتأخر والعصر البابلي الحديث لم يكن يجري شراؤهن او بيعهن ، ولو بصفة ظرفية على الأقل ، فانه توجد على الأقل نصوص معينة توضح بان الشراء في صفة تنكرية قد وقع فعلًا .

فاحد مثل هذه النصوص مثلا يسجل ان سيدة تدعى نختشارو حصلت، بسرع ستة عشر شابقلا من الفضة ، على امرأة تدعى نليلها تسبنا فتملكتها بصفة عملية كيما تزوجها من ابن نختشارا .

تبين الوثيقة بصفة محددة ان ثمن الشراء قد تم دفعه تماما ، وعوض الشارى عن كل مطالبه . وقد صحب الاحتفال عقد زواج صحيح ساعد على منح المرأة لقب زوجة .

فإذا كانت مثل هذه الصفة قد الغيت ، فإن المضاجعة خلال فترة سنتين في حالة الارملة على الأقل ، تعتبر مساوية للعقد .

وكانت حياة المتزوجة تشتمل اما علىبقاء الزوجة في بيت والدها او ذهابها مع زوجها الى بيته ، ففي الحالة السابقة يقدم الزوج او زوجته مبلغا يدعى (دوميكى Duméki) لقاء صيانة البيت ، فإذا ما توفي الزوج بقيت هذه المساهمة ملکا للارملة في الحالة التي لا يخلف فيها المتوفى اولادا ولا اخوة . ويمكن اتفاق الدوميكى كله او جزء منه طبعا .

وفي القانون الآشوري يعتمد عبء اثبات دعواه على المدعي ، وعلى هذا يجبر الاولاد والاخوة على ان يثبتوا بان الدوميكى لم يتم اتفاقه كليا .

وكان مثل هذا الامر يقع صراحة عن طريق استدعاء الشهود . فإذا لم يتم التوصل الى اتفاق يقوم الاثبات بطريق اليمين او التحكيم . ولكن في الدعاوى التي تخص الدوميكى كان المدعون يعفون من طريقتي الاثبات، ويكون دليل الشهود كافيا دون شك .

ومن ناحية اخرى اذا ما اراد الزوجان اليافعان العيش في بيت الزوج
 فان الزوجة تجلب معها « شركو = Shirku » (شركة في عهد حمورابي)
 او صداق ، مع جهاز العرس ايضا في الغالب فالشركو مع الهدايا التي
 تتلقاها العروس تبقى ملكا خالصا لاولادها وليس لاخوة زوجها اي
 حق فيها ٠

وما عدا هذه الهدايا قد تتلقى العروس عقارا موهوبا لها (ندتو =
 Nudunnu) ، وبقبول هذا العقار تصبح الزوجة عرضة لديون زوجها
 بصفة مشتركة او منفردة ، بالإضافة الى هبة خاصة تريياتو Tribatu
 تقدم اليها بمناسبة خطوبتها ، وتظل ملكا خاصا بها حتى اذا ما طلقتها
 زوجها ، واخيرا تتلقى هدية من ذهب او فضة او رصاص او طعام بسيط
 يدعى [زيلتو = Zubullo] يتم تناوله دون شك في وليسه الخطوبة ٠

يقوم الفرق بين هذه الانواع المختلفة من الهبات على اساس انه ينبع
 يقى التريياتو ملكا منقطعا للزوجة ، فان الدوميكى والتدنو يسكن
 استرجاعهما ، كما هو شأن الزيللو الذي يشترط فيه بأنه ما يزال كاملا ٠

ومع ذلك يستطيع الزوج ان يحتفظ ليس بزوجته حسب وانسا
 ب (اشرتو = Esirtu) او محظية ، يحق لها ان ترتدي الحجاب
 في المناسبات التي تصحب فيها الزوجة الشرعية خارج البيت ٠ فمثل هذا الحق
 الذي منحته شريعة حمورابي للبابليين بقى ساريا في النصف الاول من
 الالف الاول قبل الميلاد ٠ غير انه لم يكن يسمح للزوج ان تكون له زوجتان ٠
 فهذا العنوان يعود الى الزوجة الشرعية منذ اللحظة التي وضع فيها الحجاب

^(٣) هذه الكلمة البابلية مقاربة لكلمة « عشيرة » العربية التي تعنى الصديقة او المحظية ، اي من المعاشرة ٠

على رأسها ، وبالمقارنة مع الاختير تكون المحظية على الدوام تحفظ بوضع لا يختلف الا قليلا . فهذه المحظية قد اختيرت في الاصل من بين الاماء ، وينبغي لها ان تنهض بواجبات وظيفتها باحترام خالص للزوجة الشرعية ، وان تحصل كرسيها عندما تذهب الى المعبد ، وان تساعدها في زيتها .

ويقدر ان تكون هناك اية حدود لحقوق الوالد على اولاده . فهو يستطيع مثلا ان يرهنهم لدى احد الدائرين كضمان لتسديد دينه . وفي بعض الوثائق القانونية كان الاب يوصف بأنه سيد او مالك ولده ، وذلك مفهوم بغاير تماما للفكرة العصرية عن الاب .

وكما شاهدنا قبلًا كانت للأب سلطة كاملة تماما بالنسبة الى قضية زواج ابنته ، وان لم ترد اية اشارة الى اي من الحقوق التي تملكتها الام .

ومما تجدر الاشارة اليه ان القانون الآشوري لم يشر الى عدد الحقوق الشرعية التي كانت ام العائلة تملكتها في عصر سابق كثيرا لعصر حمورابي .

واذا ما مات الزوج قبل الزوجة ولم يترك وصية ، فإن الارملة يتوقع لها ان تستمر في العيش في بيته ، وان تساند من قبل اولاده ؛ اما اذا كان لها اولاد من زوج اقدم فان اولادها من زواجها الثاني قد يعيدها اليهم لأن ذلك من مسؤوليتهم .

ويبدو ان سوء الطالع الطبيعي الذي تتعرض له من لا اطفال لديها قد تضاعفت شدته بعدم المصادقة الضمنية الواردة في القانون الآشوري والقضية بطرد الارملة التي لا اطفال لديها . فالقانون ينص باقتضاب قائلا «لها ان تذهب حيث تشاء » ويترك الامر عند هذه النقطة .

وسواء كانت العائلة تحتفظ ام لا تحتفظ باولاد من الزوجة الشرعية

ام من الاشترتو التي قد تصبح عضوا فيها ، فان للعائلة على الدوام حق تبني اولاد آخرين يحصلون على حق الارث مثل بقية الاولاد الذكور . الاخرين شريطة ان لا يؤدي هذا الى الحق الضرر بالاولاد الذين ولدوا بطريقه الزواج .

ويقع الاحتقال بالتبني في حضور شهود ، وينبغي للولد المتبني به ، مقابل حقوقه التي حصل عليها حديثا ، ان يقدم هدية صغيرة الى والده الجديد .

وكانت عملية التبني هذه في بعض القرون السابقة تجري بوسائل حاذقة للتحايل على القانون الذي يحظر بيع مال تم الحصول عليه باقطاع منوح من الملك لكن يسمح بانتقاله عن طريق الارث .

ولقد عثرنا فعلا على تاجر غني من القرن الخامس عشر قبل الميلاد من منطقة قريبة من كركوك(*) كان يقوم بتبني افراد اغنياء وفقراء على حد سواء ومن دون تمييز تماما ، بينما اقدم هؤلاء ، مقابل ذلك ، على تقديم هدايا الى والدهم الذي تباهم ، تتألف من مبالغ من النقود والمزارع مساوية في القيمة لما سيرثونه مؤخرا نتيجة تبنيهم (الاعمال التجارية في نوزا) .

وعن طريق التبني يحصل الاب على حقوق واسعة جدا . وهكذا يستطيع ان ينهي التبني حسب رغبته ويعيد الولد المتبني به في حين ان

(*) يقصد المؤلف بذلك مملكة « نوزي » و « ارابخا » القرية جدا من كركوك والتي كان اهلها يتحايلون على القانون الذي يمنع انتقال الملكية ، بطريقة تبني الاشخاص الاغنياء والفقرا على حد سواء . انظر كتاب « العراق القديم » دراسة تحليلية في اوضاعه الاقتصادية والاجتماعية . الفصل السابع الذي نشرته وزارة الاعلام في رئيس سنة ١٩٧٦ .

الأخير اذا ما فصل عن العائلة التي تبنته ، يفصل بكل بساطة^(٨) ويعاد الى أهله .

بعد هذه اللمحات عن عائلة الرجل الآشوري العر (Amélu = اميلو) في عصر السلالة السرجونية ، آن لنا الآن ان نعود وتحصي الوضع القانوني للارقاء ، الذى جعل منهم عددهم عنصرا مهما في المجتمع .

(٨) طبقا للمادة ١٨٦ من شريعة حمورابي . ووفقا للمادة ١٩٢ من هذه الشريعة يقطع لسان ابن المرأة المتذورة او المترهبة عندما يتبرأ منها والديه

الارقاء

قد يولد المرء عبداً إن كان ابن عبداً ، أو أن يصبح عبداً بعدد من الأسباب التي تكون متعددة بشكل واف لاحتساب الميل الدائم بالنسبة لازدياد عدد الارقاء .

واول هذه الأسباب هي العرب . فمن الأهداف الرئيسية للحملات العسكرية التلاحقة التي قام بها الملوك الآشوريون ، الحصول على قسوة عمل كبيرة بصفة تكفي لتنفيذ مشروعاتهم المختلفة .

وتصور المنحوتات الآشورية الثالثة صفوياً من الأسرى الذين تقددهم الجيوش الظافرة إلى العاصمة ، وقد اوثقت أيدي الرجال منهم واقتيدوا كالماشية تلبيم اسوات الجندي . وتعقبهم النسوة وهن يحملن اطفالهن وما ندر من امتعتهم . او ينقن في بعض الاحيان ، في عربات محملة بالقمح الذي تم الاستيلاء عليه غصباً مع السكان .

وتقدم التواريخ الملكية حسابات مفصلة عن عدد المنهوبات والأسرى معاً . وقد حصل البعض منهم للعمل كعمال بناء . وتطهير القصور ، وفي خدمة المعابد . بينما كان الآخرون منهم يباعون في الأسواق .

وقد يضطر رب العائلة بفعل الفاقة إلى أن يبيع ، كارقاء ، زوجته او اطفاليه او حتى نفسه هو اذا لم يكن قادر اطلاقاً على تسديد دين تعاقده عليه . واخيراً يشترط القانون انه اذا ما فضح ولد متبنى به نفسه بان تخلي مثلاً عن العائلة التي تبنته . فإنه قد يباع كرقيق .

ومع انه من الناحية النظرية المشددة يكون من حق الشخص الذي يباع بستابة رقيق خساناً لدين ان يسترد حريته متى ما سدد الدين ، فإنه غالباً ما يبقى في الرق بسنة غير معقوله . وان القانون الآشوري يتعهد في حالات معروفة بان لا يبقى احد في عبودية من دون سبب معقول بعد ان

ليست للرقيق شخصية انسانية ۰ فهو مجرد اداة مال حقيقي وكان يشار اليه في الوثائق القانونية بأنه مجرد وحدة رقيق ، او اذا ما ذكر اسمه يحذف اسم أبيه ۰ واذا ما أصيب بأذى فان سيده وليس هو نفسه ، يستحق التعويض ۰ وفي الوقت الذي يمثل فيه على وجه التحديد قيمة تقديرية معينة لمالكه ، فان القانون لم يواجه احتمال اقدام المالك على قتل عبده عمدا ۰

والذي نعرفه ان الرقيق كان يوسم بذات الطريقة التي يوسم بها الحيوان ، ولكن رغم الاشارات الصريحة الى هذا الاجراء ، فاننا لا نعرف على وجه الدقة ما الذي يمثله هذا الاجراء ۰ ذلك ان التعبير المستعمل بصفة عامة قولهم « انه سيحلق » ، او « انه سيوسم » تعبير غامض ، ذلك لانه وان كان حلق رأس الرجل السجين او المحتجز في اوربيا الغريبة ، يفضحه بين الرجال الاحرار ، فان مثل هذا الامر لم يكن يصدق تماما بالنسبة الى بلاد الرافدين ، ذلك لأن الرأس غالبا ما يلحق في الشرق لاسباب صحية ۰ وعلى هذا فان الوسم على اكثر احتمال ينبغي ان يكون نوعا من رمز للملكية يتم ختمه بقطعة حديد محمية كالجمر على جلد الرقيق بصفة مباشرة ۰

والواقع ان شريعة حمورابي كانت قبل اكثر من الف سنة من العصر الذي تتحدث عنه ، تحتاط بشأن قطع او حرق وسم على عبد ، وهذا يقصد به الندبة التي يخلفها الوسم ۰ فمثل هذا التصرف كان عرضة لعقاب شديد ۰ فكل من يترفه تقطع يده ، واذا اقترفه جمالة بتحريض طرف ثالث فان هذا الاخير يعاقب بالموت ۰

والشيء المؤكد بصفة معقولة ان علامه الوسم ذاتها اما ان تكون رمزا للتشخيص ، او اسم المالك احيانا ۰ فقد عرفنا من عقد يبع ان امراة

ـ تدعى بلت - سليم يعت الى شخص يدعى نبو - شوم - ليشير الذي طبع
ـ اسمه على يدها .

ـ وما خلا ذلك كان يوضع في عنق العبد لوح طيني صغير يحمل اسمه
ـ واسم مالكه ايضا ، وبذلك يستخدم هذا اللوح بثابة قرص هوية . وتوجد
ـ جملة من هذه الالواح في الوقت الحاضر في مجاميع بمتحف اللوفر .

ـ ويمثل هرب الرقيق هدف تعقب له ليس من قبل مالكه حسب وإنما
ـ من قبل السلطات العامة ايضا . ذلك ان شريعة حمورابي تخصص ما لا يقل
ـ عن ستة اقسام لهذا الموضوع الذي يرهن على الكيفية التي ينبغي ان يحدث
ـ بها . فقد كان تقديم المساعدة للعبد الآبق او اخفاوه من الاعتداءات التي
ـ يعاقب عليها بشدة ، وعلى البائع في عقود البيع ان يتعمد بان العبد ليس
ـ آبقا ، وان يدفع غرامة ثقيلة اذا ما ثبت بأنه كان آبقا .

ـ وعلى غرار ذلك ينبغي على المدين الذي يقدم عبدا رهنا ل الدين ، ان
ـ يدفع للملك الجديد غرامة اذا ما هربت « رهينته » هذه .

بيع الرقيق

كانت المظاهر القانونية لبيع احد الارقاء مطابقة لظاهر بيع السلعة . فقد كان يعطي ضمان ، مثلما هو جار بالنسبة الى الحيوان ، بان الرقيق كان مالا مطلقا للبائع ، وانه لم يكن يعني من اي مرض معد . وكانت معظم هذه الامراض واضحة بصفة مباشرة ، وعلى هذا فان الامراض المثلثة بالكلمتين « بينو Benu » و « سبتو Sibtu » اللتين توصف بهما ، غير موجودة . والترجمات المقترحة للصرع والجذام معقولة في الظاهر لكنها يجب ان تظل تخمينية .

وتتغير الفترة التي يكون فيها الضمان حسنا طبقا للاحوال الجارية وعلى هذا فهي مائة يوم بالنسبة للصرع او الجذام ولكن لا يوجد حد بالنظر الى الادعاءات التي تقع من لدن طرف ثالث .

ولقد سقطت العبارة التي كانت تتناول المرض والتي كانت شاملة في سلالة بابل الاولى ، من الاستعمال في العصر البابلي الحديث بحيث انصب التأكيد في هذا الوقت على حقيقة ان الرقيق ليس مالا ملكيا ، وانه لم يكن ابن احد الجنود [مار بنوتو Mar Banutu] او بعبارة اخرى ، حرا سواء بطريق الولادة او التبني .

يعطي عقد بيع من عهد حكم نبوخذنصر فكرة تامة عن نوع الوثيقة المستعملة .

«لقد باع أولاد ذكر بن كذا وبملء حريرتهم الى ابن فلاذ امتهن ثانا - ديرات والطفل الذي ترضعه بسرع متفق عليه هو تسعه عشر شاقلا من القضة . وسيتمهد البائعون للمشتبئ ازاء هروبها ، او اي ادعاء معاكس ، او اذا ما ظهر بانها مال ملكي او افها حرة » .

وكانت الامة تلتزم بان لا تقدم لمن اشتراها ليس عملها حسب وانما نفسها ايضا . ومن دون اي التزام مقابل من جانبه . فهو في الواقع يستطيع ان يسلّمها الى المبني . وحتى عندما تصبح محظية لشاريها ، ويكون لها اطفال منه ، فانها تبقى مع ذلك امة ، اي انها تكون عرضة لان تباع كما حدث ذلك من قبل ، لكن بعد وفاة مالكها تسترد حريتها هي وابناؤها .

وإذا ما تم شراء امة من قبل امرأة متزوجة كخادمة لها او محظية زوجها (وذلك لغرض ان تحول الزوجة اذا لم تتعجب الاطفال دون ان يتخذ زوجها محظية اخرى) فان هذه الامة تبقى ملكا خالصا للزوجة وعلى الاقل الى الوقت الذي يكون لها فيه اطفال .

ولما كان من مصلحة مالكي الارقاء ان يزيدوا عدد ارقائهم ، فانهم كانوا يشجعونهم على الزواج ، وبهذا القصد المذكور كانوا يشترون الرقيق من الذكور او الاناث طبقا لجنس اولئك الذين كانوا يملكونهم قبلا . ويصبح الاطفال الناجون عن هذا الزواج ملكا لمالك الرقيق الذى يستطيع بكل حرية ان يبيعهم على افراد اخرين ذلك . ومع ذلك كانت العادة الشائعة ان لا يتم تفريغ افراد العائلة الواحدة .

ويستطيع العبد برضاء سيده ان يتزوج امرأة حرة ، وإذا لم تجلب مهرا معها ، فانها هي نفسها واولادها يظلون احرارا .اما اذا ما جلبت بائنة معها واستمررتها بالاشتراك مع زوجها في بعض الاعمال فعند ذلك تسترد الارملة اذا ما توفي زوجها او هرب ، مهرها لكنها لا تستلم سوى نصف ارباح ذلك العمل في حين يتسلم سيد زوجها النصف الثاني .

ارقاء العبد

كان ارقاء العبد يؤلفون طبقة خاصة يتكون معظمهم من اسرى الحرب، حيث ينذر عدد معين منهم للالهة من قبل الملك بعد الحملة الظافرة ، ولو ان الكثيرين منهم كانوا يهدون الى المعبد من قبل الكرماء من الاشخاص المتلقعين .

ان مجرد الحديث عن مختلف النشاطات التجارية التي كانت المعابد تمارسها ، يدلل على حاجة هذه المعابد الى عدد كبير من الموظفين . فهؤلاء الارقاء الذين عرموا باسم (شركو Shirko) كانوا يخضعون لاوامر موظف تعينه سلطات المعبد لكي يضمن استخدامهم في افضل مصالح المعبد . ومع ذلك فلم يكن تشغيل هؤلاء الارقاء محدوداً بالمعبد ذاته ، وانما لم يكونوا يهيئون العمل الاجباري في المدن على حساب الجمهور حسب ، لكن كانوا يؤجرون ايضاً للعمل لدى المستخدمين الخاصين .

وكان وضعهم القانون افظع من وضع الارقاء الاعتياديين لانه لم يكن امامهم اي امل في التبني ، في حين يصبح اولادهم - حتى اذا كانت امهما امرأة حرة - ملكاً للاله بصفة ذاتية .

ومع ذلك ينبغي لنا ان نتحقق باذ طائفة الـ « شركو » لم تكن تشتغل على الارقاء حسب ، وانما بعض البابليين الاحرار ايضاً اذا نحن صححنا تفسيرنا لبعض الوثائق .

كان المظهر الفريد في الغالب للرق الذي مارسه البابليون والآشوريون هو ان الارقاء كانوا - على الرغم من عبوديتهم الكاملة لاسيادهم - قادرين ان يمتلكوا الاعمال التجارية ، وان يمتلكوا الارقاء على حسابهم الخاص ، وان يوفروا لهم النقود .

لقد كانت هذه الحالة بصفة خاصة خلال العصر الذي يتناوله هذه الكتاب ، وهو العصر الذي لم ينتقل فيه جزءٌ منهم من تجارة البلد الى ايديهم حسب ، بل اننا نراهم يعملون كاصحاح حرف الى جانب امتلاك الماشية ، او ممارسة الاعمال الصيرفية ، في الوقت الذي كانوا فيه يتمتعون بالحرية في الملاجنة ليس مع بعضهم البعض حسب وانما مع الرجال الاحرار ايضا ٠

فنحن نجد مثلا عبدا يستأجر بيتا من امرأة حرمة لمدة اربع سنوات يبدل ايجار سنوي مقداره اثنتا عشرة وجبة طعام كاملة في السنة مع شاقل من الفضة ٠

وفي العهد الفارسي تقدم عبد يدعى « رباث Ribat » بغيررض لاستئجار برك لصيد الاسماك من اولاد « موراشو Murasho » (وهو أكبر صيري من أصل يهودي) مقابل نصف طالين من الفضة وتجهيز مائدته بالسمك . وفضلا عن ذلك فان السيد الذى يتحقق باذن لدى عبد موهبة في التجارة ، لا يتردد عن ان يعهد اليه بالمعاملات المهمة وبمبالغ كبيرة من النقود . فنحن نجد احد التجار يقرض ٨٨٩ شاقلا من الفضة بفائدة مقدارها عشرون في المائة سنويا ٠

ومع ذلك فان الوضع القائم للعبد والذى يكون في وقت واحد مالكا للمال وملكا لسيده ، ان هذا الوضع كان مصدر خلاف دائم ٠

عقد الرقيق

هناك عامل واحد في الوضع القانوني للرقيق والذي يحيى على الدوام امله في استعادة حريته ، وان علينا ان نذكر اقسى بالظروف التي يصبح فيها هذا الامر ممكناً .

فاولا ان النسوة والاطفال الذين يودعون كرهينة لدى الدائن لايسكن باقاؤهم ل اكثر من اربع سنوات .

وتانيا ان الاولاد الناجين عن زواج بين امرأة حرة وعبد يكونون احرارا ، في حين ان الامة المحظية واولادها يستردون حريتهم بعد وفاة مسیدها .

واخيرا كان هنالك شرط قانوني يهب الحرية للعبد البابلي الذي ، بعد ان يبع في سوق اجنبية ، اعيد ثانية الى بابل ، فما عدا هذا فان قدرة العبد على ان يتملك وان يوفر القواد تمنحه فرصة استرداد حريته ، واذا ما فعل ذلك فانه يحصل عليها بصفة مطلقة بعد اقامة حفل رمزي للتطهير .

وبالموازنة كانت فرص التحول الى الرق اكثر عددا بشكل واضح من فرص التحرر منه ، وان الارقاء الذين كانوا يطالبون بحريتهم استنادا الى احد الاسس التي ذكرت الان ، كانوا اقل من اولئك الذين يصبحون ارقاء ، حيث تحققت الريادة المطردة في اعدادهم بالقانون المتعلق بالولادة ، او بالحملات العسكرية .

والشيء الواضح تماما هو ان ثراء الامبراطوريات الآشورية والبابلية ولا نزيد ان نسمى اكبر من ذلك ، كان يعتمد اعتمادا كبيرا على وضع الرق . ففي هذا العصر الذي كان فيه الاتاح يعتمد - بسبب عدم وجود كل الالات - اعتمادا كليا على العمل اليدوي ولا يمكن زيادة مطابقة

في القوة العاملة ، كان الوضع القانوني للقزن حاجزاً مطلقاً يحول دون دعمه لطالبه عن طريق العنف ، لأن يعمد إلى الإضراب للإبطاء في الاتصال ، أو أن يكون دفع الأجر غير مناسب مع قيمة ما كان يتوجه .

تلك هي الوسائل التي استطاعت بها بلاد بابل وكثير من الاقطارات الأخرى في العالم القديم أن تصبح رخية . فقد كانت اقتصادياتها الأساسية تعتمد على ما كانت تنتجه ، وعلى تجميلاحتياطي الثروة ، وما عدا ذلك لم يكن سوى مجرد عملية اتفاق احتياطي محددة من الزمن التي يحتاج إليها لاستفاده موارد البلاد .

لقد ظهرت المشكلة التي طرحتها الرقة في بعض النظريات الخاصة مثال ذلك أن «المقدم لنېفر دي نويتس» (*) وهو ضابط خيالة فرنسي متلاع ، تأكيد نتيجة دراسة تاريخية لعدة الخيل ، أن الحصان الذي يعتبر من حيوانات البر ، لا يمكن أن يستخدم بكفاية تامة إلا بعد أن يزود ببنية صلبة تستقر على كتنيه . فقبل ذلك الوقت كما تدلل الرسوم الأولية عليه ما ان يطرح حمل الحصان حتى توثق رغبته ببنية محيبة بها . ولما كانت قصبة رئته قريبة من سطح بشرته ، فإن أي جهد يبذل الحيوان يضنه ويجعله عرضة للاختناق .

من هذا استخلص المقدم «لنېفر» أن الارقاء قد وجدوا بأنهم أفضل من غيرهم للتشغيل على أساس ضعف استخدام الحصان والتخل عن استعماله نتيجة لذلك .

أن مثل هذا القول فيه غلو كبير وأن كان ينطوى على عنصر من الصحة فالسبب الرئيس للأضرار على استخدام الرقيق بصورة عامة ، يمكن دون

ريب في اليسر الذي يمكن به الاستحواذ على مثل هذا المصدر للعمل ، وفي تناضي السلطات العامة في ذلك الوقت عن هذا الاجراء المبين الذي لم يكن بعيد المدى عندما كانت حقوق الفرد تخضع لحقوق الدولة .

وهذه الحاجة الملحة لتمويل واسع من العمل في المجتمعات البدائية تجد تعبيرها في وجود عائلات كبيرة بشكل صريح . فهذا تبرز اهمية رب العائلة الذي كان حاكم المجتمع بالنسبة لكل الاغراض العملية . في حين كان مبدأ التبني بالمعنى الذي تم فهمه فيما بعد ، يشير الى ذات السبب . وكانت النتيجة الخالصة هي ان العائلة غدت قادرة على ان تزيد من حجمها بصفة اسرع مما كان في الامكان اجراؤه بالوسائل الطبيعية .

المنازل

على الرغم من عدم بقاء بيت سكن يرقى نأريخه إلى عصر متقدم محافظ على جوهره ، فإن مظهر المدن في الشرق المعاصر لا بد وأن يكون مشابهاً جداً لما كان عليه ، وأن افقر أحياء المدن الكبرى مثل مدينة بغداد ، كانت مشابهة بشكل قريب حقاً لمدينة من بلاد الرافدين في الالف الأول قبل المسيح .

فقد أظهرت التقييمات الأثرية أولاً أن المخطط الارضي للبيت في الشرق ، واسباب متنوعة ، يكاد لم يتغير عبر التاريخ . فالتفكير تان وتبيرها العملي أكثر محافظة في الشرق منها في الغرب ، في حين أن الجو بالتغييرات الشائكة في درجة الحرارة ، لا يهيء سوى باعث ضئيل للبحث والتعديل في تصميم البيت .

ولعل أبرز مظاهر مثير للجو في بلاد الرافدين هو الحرارة ، وما ان ابتدعت صنوف الاعمدة فلم يعد هنالك سوى مجال ضيق بشكل واضح للإطراد في هذا الاتجاه .

اما في أوروبا فعل النقيض من ذلك تغير مجرى الحياة بحدة وبسرعة كبيرتين ، وقد أثر هذا التغير بدوره في تصميم البيوت ومقاطعها .

والواقع أن جو أوروبا الغربي حيث تغير فيه درجة الحرارة خلال الصيف والشتاء بمقدار سبعين درجة فهرنهايت ، قد أدى إلى حدوث تغير في التجارب التي صممت في الأصل لمواجهة الحرارة والبرد .

ولقد أثرت هذه بصفة ملحوظة في تحطيط بيوت المدينة في حين أن تصاميم البيوت في الريف لم تتغير إلا قليلاً .

البيت

ان الطراز البدائي للسكن والذى ما يزال غير متبدل في الريف العراقي هو الكوخ المصنوع من الاغصان المتشابكة والذى يعطى بسقف من القش ويقوى بالطين الذي ما ان يجف حتى يمسك باطار الكوخ سوية . وما زال الطبقة التي تمثل اقدم المساكن البشرية تحفظ بيقاها شاخصة لهذه الاكواخ .

وهذا يشير الى انه كان يوجد عمود مركزي يشبه عمود الخيمة ينحني عليه اطار الجدار الخارجي ويثبت به ، وبذلك يؤلف نوعا من العقاده . وكانت الجدران تعلق بالحصر . وربما كانت للكوخ نوافذ وكانت الابواب تقوم على عمود محوري مربوط بالجدار ربطا وثيقا . [الشكل مزهرية في صورة كوخ دائري] .

غير ان تطور فن العمارة قد كرس هذا الطراز من البناء للريف ، حيث كان يستعمل في الدرجة الاولى للاصطبلات وحظائر الماشية . وما زال هذا البناء يستعمل في المنطقة باسم « صرفة » (*) .

تألف طريقة البناء من حزم اسوق القصب الطويلة وتشييئها في الارض على مسافات منتظمه في خط مستقيم . ويعاين هذا الخط المركزي عند اي من جانبيه خطان آخران من القصب الذي يثبت بشكل قوي في الارض ثم تحنى رؤوسه لتتشكل ما يشبه النفق ، ومن ثم تربط بالخط المركزي ويشد بامتداد عمود يؤلف سقف المبني . وتكون نتيجة ذلك بناء مأوى ذي سقف معقود . ويمكن مد هذا المأوى الى اية مسافة مطلوبة لكن عرضه يحدد بارتفاع القصب الذي ينمو في تلك المنطقة .

(*) ذكرها المؤلف باسم زوريف Zorife وهو تحريف الكلمة صرفة الشائعة الاستعمال في جنوب العراق بصفة خاصة .

وقد تصنع الجدران من الأغصان ؛ ومن الطين المجفف ومن الحصر ، وربما حتى من القش (مثل اليوurt التركسي)^(*) ترتبط اول علامة للعمارة الصحيحة بظهور المباني المربعة الزوايا او القائمة . وهذه لا تتشتت تقديما اجتماعيا اصيلا حسب بل ورفاهية في الغالب بالمقارنة مع الابنية ذات التصميم الدائري التي تطبق على اصغر مساحة ممكنته من الارض بالنسبة الى العيل والمواد المستعملة فيه .

غير ان البيت مربع الروايا كان يتطلب تقبل طرائق جديدة . ذلك ان اقدم البيوت من طراز ما زالت اثاره باقية ، كان قد شيد من كتل من الطين المجفف بملاء ، وثم تنظيمه في شكل نجح من عظام السمك اشبه بالاحجار غير المهدمة او المكسوة في الجدار .

^(*) يورت *Yurt* التركمانية تعنى البداد الذى كان شائع الاستعمال كرداء ايضا لدى التركمان والاكراد على حد سواء .

استعمال الطين

تم اقتباس هذا النهج كدليل من قبل مدرسة الفكر ، وهو يشير الى ان المدينة التي ابعت في بلاد الراfibin ، لم تكن من صنع السكان الاصليين . وانما من صنع شعب جاء من منطقة كان استعمال الحجر في البناء معروفاً لديها تماماً .

ومهما يكن ذلك فان سكان بلاد الراfibin في العصرين الآشوري والتأخر والبابلي الحديث كانوا يستخدمون من زمن طويل طريقة في البناء تستند الى استعمال الطين ، وتلك طريقة ظلت غير متغيرة بصفة جوهرية عبر القرون والحقيقة ان سكان بلاد الراfibin قد حذفوا استعمال هذه المادة الطبيعية الى درجة من الكمال التي يندر ايجاد افضل منها . وكما اوضحت تحريراتنا للمصادر الطبيعية في بلاد الراfibin ، فان السكان في الوقت الذي كانوا فيه يستعملون الطين بسبب عدم توفر احجار البناء فان هذا الطين كان في الواقع هو المادة التي تعطي افضل النتائج في الوضع المتأخر للبلاد .

يمكن استعمال الطين بحالته الطبيعية لصنع الاجر ، غير ان قروناً من تجربة استعماله قد اظهرت طرق المعالجة التي يمكن بها اطالة حياته .

يصب البناءون الحديثون السمنت حول محيط قضبان حديدية للتقوية لغرض ان يحولوا دون شقق الخرسانة . اما العراقيون فكانوا يمزجون طينهم مع قطع لطيفة من القصب لفرض تعزيز قوته . وكل امة تبني بالطين تعرف هذه الطريقة .

وتذكرنا التوراة بما حدث في دلتا نهر النيل عندما قام الفراعنة ، بعد ان طردوا المكسوس الفاتحين او الملوك الرعاة الذين ينحدرون من فرع سامي ، بار GAM اليهود الذين استوطنوا البلاد المصرية ، على أن يشنعوا أعمالهم

الشاقة ، وكيف ان رعمايسين - كما نستطيع ان نقرأ ذلك في « سفر الخروج » - اجبرهم على صنع الآجر للمباني التي كان يقوم بتشييدها في منطقة الدلتا . ولقد كانت مهمتهم هذه أشد تفلا لانهم أرغموا على ان يجعلوا القصب اللازم لذلك من العقول دون ان تنقص حصصهم اليومية من الآجر باية طريقة كانت .

عندما يمزج الطين والقصب المهروس سوية ، يصب هذا الخليط في قوالب خشبية منبسطة . وبعد ان يتم نقل اللبن يترك كيما يجف في الهواء الطلق ، وكانوا يصنعونه بسرعة في الصيف الحار أكثر منه في فصل الشتاء ، ولهذا السبب كان التبهر الاول من اشهر الصيف الذي يدعى « سيوانز » يعرف ايضا باسم « شهر الآجر » .

غير ان الطين الجفف وان كان يغدو صلبا بشدة ، الا ان حياته النافعة تكون اقصر من حياة اللبن المشوي . فهو يتغضن تحت حرارة شمس الشرق التي لا ترحم ، ويسهل الى التفتت عندما يتعرض لفيضانات ، وذلك ضرر وأشارت اليه النصوص السحرية التي تحدثت عن بعض العفاريت التي تشبه النهر الذي لا تصمد اسواره .

غير ان اللبن لا يمكن ان يشوى من دون وقود ، وان هذه المادة كانتقادرة الى درجة ان الآجر في الزي العصري لم يكن يستعمل الا في الابنية التي تتمتع برخاء خاص ، او تلك التي كانت تتطلب درجة خاصة من المقاومة . ومع ان عملية صنع الآجر كانت بسيطة يقدر اي فرد ان ينهض بها ، الا انها في الواقع كانت حرفه خبير .

فقد كان الآجر باحجام مختلفة والمطلوب طبقا لنوعية البناء الخاصة التي كان يجري تخطيطها ، يتغير من الآجر الواسع الذي يشبه قاشي القصر او دكته الى الانواع الاخرى التي يصعب ان تكون اكبر من الآجر الذي

يُستعمل اليوم في بناء المنازل الريفية .

وقد يظهر مخطط البيت بعض التغيير ، لكنه في جوهرة بقى دون تغيير في الشرق من اقدم المصور حتى الوقت الحاضر ، ما دام يفي بمتطلبات المناخ والحياة الاجتماعية معاً .

يتألف المخطط النموذجي من ساحة رئيسة تضيء عدداً من الغرف التي تؤدي إليها ، حيث يقع في واحدة منها تكون ضيقة وليس اوسع من الممر الا قليلاً ، باب ينفتح على الشارع .

وقد تتصل بعض الغرف احداها بالاخري ، في حين ان غيرها لا تتصل ببعضها البعض ، لكننا نقول بصفة عامة ان الباب توفر المدخل الوحيد للنور والهواء من العالم الخارجي والباب الرئيسة التي اشير إليها اعلاه هي المخرج الوحيد من البيت ، ولا يمكن لضوء النهار ان يدخل عبر الجدران الخارجية . وبعبارة موجزة تكون الباب بكل بساطة عبارة عن صندوق اقيم بدون اساس فوق ارض مداشة مستوية .

ويُستعمل اللبن حينما تكون ثلاثة ارباعه قد جفت ، وهو يبني بملاط من الطين المخفف بملاء والذي حين يجف يؤلف جداراً اذا قوة موحدة . اما ارضيات الغرف ، فانها مثل ارضيات الساحة ، سوف تصنع من التراب المداس ولو ان مالك الدار اذا كان حسن الحال ، يقسم بتعييد بعض اقسامها بالبلاط او بقاشي من الاجر الذي يصنف بشكل منحن قليلاً نحو المركز كما تستطيع مياه الامطار او المياه القذرة ان تخرج بيسراً في حين ان نظام تصريف المياه الوسحة المصنوع من انباب فخارية تمتد الى الخزانات داخل الارض .

وغالباً ان لا يتضمن البيت مطبخاً منفصلاً ، وينبئ موقع الطبخ من

التراب قبالة جدار الساحة ، اما اذا ما خصصت احدى الغرف لهذا الغرض فانها لا تحتوي على مدخنة ويترك الدخان ليجد طريقه من الباب او من فتحة اضافية فتحت في الجدار .

وتتبع الغرف الداخلية المعدة للعمل النهج التركي ، اي انها تتالف من ارضيات مبلطة وفي وسطها حفرة وهي - وان لم تكن مجهولة في بعض اجزاء اوربا الغربية - لا تفرغ الا اذا اتت الحاجة اليها .

ويحفظ الماء المعد للاستعمال الداخلي في حباب كبيرة تفرق الى حد النصف في ارض الساحة . ومع ذلك فان الآشوريين والبابليين معا ، وبالنظر الى خزن الطعام دون شك ، قد وجدوا ان الحاجة تتطلب المزيد من المنافذ في الجدران بقصد تحسين دورة الهواء . وتأخذ منافذ الهواء هذه صفة اقنية عبر الجدران تسد عند منتصف الطريق بقطع من الفخار يتخللها عدد من الثقوب واسعة الى درجة تسمح بالقليل من الهواء ووميض نور النهار ان يمر خلالها لكنها صغيرة جدا لا تسمح بمرور فتران او جرذان قد يجذبها القمح اليه

السقف والطابق العلوي

يسقف هذا الطراز من البيوت اولا بوضع شرائح من خشب اشجار التخيل على قمة الجدران بهدف تقطيع الغرف ، ومن ثم تقطيع هذه الاخفاف بالقصب وسعف التخيل ، واخيرا تضاف اليه طبقة من التراب يداس بمدخلة حجرية ليست مغایرة لتلك المداخل التي تستخدم في ساحات لعبه التنس .

وفي سوريا الحديثة لكل بيت مدخلته الخاصة به موضوعة على الدكة ومعدة للقيام بالاصلاحات التي لا تنتهي في السقف الذي يحتاج اليها بالضرورة عند سقوط اخف زخة من المطر .

اما الدكة التي تستخدم للاستمتاع بالبرودة اثناء المساء ، او السوم عليها ايام الصيف ، فيتم الوصول اليها من كل الجهات بسلم من الخشب يمتد من الساحة ، واذا كان البيت واسعا نسبيا ، فبسلم داخلي في احدى الزوايا .

والمتعدد في الحالة الاخيرة ان يصنع السلم من الطابوق وان يقطع حسب سلك العدار بمسالك عالية وضيقة .

ويأخذ السقف بصفة عامة شكل دكة لكن توجد بعض المنحوتات الاشورية الثالثة التي تصور نوع البيت القائم الزوايا الذي جئنا على وصفه الان ، ثم تشيده في ريف مكتظ بالشجر ، غير ان اي منها كان يخضع لقبة او لسقف على شكل خلية النحل .

وهنالك عدد محدد من بيوت واسعة نوعا ما كانت تسقف بمثل هذه الطريقة . وكانت القبة تغطي اما واحدة من الغرف ، او الساحة ذاتها اذا كان البيت يقوم في حديقة ويخلله الهواء بكفاية ، شريطة ان تكون القبة كبيرة جدا . ففي هذه الحالة تؤلف الساحة غرفة مركزية تفتح عليها الغرف الاخرى .

ان هذا المخطط الخاص قد استلزمه استعمال الطابوق واستخدام الزخرف في البناء ، ذلك ان التدابير في كل زاوية توفر اسسا دائريا للسقف الذي يبني بطبقات متعاقبة من الاجر الذي يثبت اما بالكلس او القار ، وتمتد كل طبقة الى الداخل قليلا فوق الطبقة التي تحتها .

وعندما يكمل السقف يترك على حاله من الداخل والخارج ليختفي المقطع المشوش من طبقات الاجر المتداخلة . وتكون نتيجة ذلك الحصول على قبة [صورة بيت قائم الزوايا وسقف يشبه خلية النحل] غير ان هذه الطريقة لم تكن تستعمل الا على سطوح صغيرة نسبيا .

كان نهج خلية النحل معايرا في السابق حيث كانت الطبقات المتعاقبة من الطابوق لا تتدخل الا جزئيا ، ولذلك كان السقف يرتفع الى نقطة معينة . وهذه الاشكال من السقوف لم تكن شائعة الاستعمال في بلاد الرافدين ، وإنما كانت اكثر شيوعا في سوريا ، حيث ما تزال كل القرى الى اليوم تبني حسب هذا النهج كما نرى ذلك في منطقة « حماة » . ولهذا النهج فائدة مزدوجة فهو ايسر بناء ويسمح باستعمال بعض المواد الغريبة من امثال كسر الاجر والذي يعتمد عليه في تشييته بالملاط وتدعمه المبني ، اكثر من الاندفاع التام للبناء ذاته ، كما هو الامر في سقوف القباب .

ومعظم البيوت في الشرق القديم تحافظ بحديقة متصلة به وليس له سوى طابق واحد . وتضم القرى في الجزيرة العربية اليوم بصفة عامة بيوتا من عدة طوابق وكان مثل هذا النهج موجودا فعلا في مدینتي نينوى وبابل . وفي المراكز الاقليمية .

وكان الطابق العلوي الذي يبني بذات الطريقة التي يبني بها الطابق الارضي ، يقوم على اساس جدار ذي سمك اضافي كيما يمنحه المزيد من القوة . ويمكن الوصول الى الغرف في الطابق العلوي عن طريق شرفة

خشبية تستند على قوائم وتمتد عبر الطريق كلها حول الساحة الداخلية .
وتكون لهذا فائدة اضافية هي حماية مداخل الغرف التي تفتح على الساحة
من الشمس والجو الريديء .

وكانت ابواب البيت تصنع من خشب اشجار النخيل ، ولكن لما كان
الخشب يصبح واهنا نتيجة تعمر الشجرة او سعة حجمها ، فان الابواب لن
تكون صلبة بالشكل الذي تعودناه . ولذلك كانت تصنع بصفة خاصة من
الواح من الخشب تصنف في اطار كما هي عليه في الشرق الحالي .

الزخرفة

الامر المحقق تماما هو ان احقر بيت في بابل لم يكن مزينا الا بطبقة من البياض ربما كان ذلك لاخفاء خشونة وجه الجدار ودكتة الطين . وكان يجري تبييض الجدران الخارجية هي الاخرى أيضا على غرار ما هي عليه اليوم، لأن العراقيين لم يخفقوا في التأكد بأن السطح الایض يمتص اشعة الشمس اقل من السطح الاسود ، وان الجدران الغبراء كانت ترقط بقطع من القش بشكل سمج :

اما في بيوت وسعي الحال ، فاذا لم تكن هنالك ألواح رسمت عليها مختلف المواضيع ، يتم صبغ اسفل الجدران الى النصف بنوع من لون غامق ، هو اللون الاسود عادة ، يستخلص من القار المحفف بالماء ، ثم يخط شريط آخر فوقه من لون آخر .

ويحدث احيانا ان تصبغ اطر الابواب باللون الاحمر ، ولكن قد يكون من الخطأ ان نعتبر هذا بمثابة تمثيل لخيار جمالي متعدد لأن اللون الاحمر ، كما نعرف ذلك من الطقوس والرقى ، كان يعتبر اللون الذي يخفيف الارواح الشريرة ويبعدها ، وبذلك يحمي المدخل من كسل التأثيرات الشريرة . وكان اللون الاحمر يستحصل من اوكيسيد الحديد على شكل صباح احمر اللون قابل للحل في الماء .

وليس من المدهش ان نجد كل نوع من المخلوقات يتطلع الى الهرب من ضربة الشمس التي لا تحتمل والتي تنصب رأسا على هذه البيوت قليلة التهوية كما هو الواقع ، وذلك لفرض الوقاية من الحر .

وكانت الجدران تعطى ليس بيقع مرطبة حسب وانما ايضا بانواع ذات الوان مختلفة من التمل والصراصير . ففي نظر البابليين كان كل شيء له اهمية خارقة للطبيعة ، وان لدينا عددا من نصوص التقطير توضح الاهمية

التي كانت تعلق على عدد من الحيوانات التي يمكن مصادفتها داخل البيت او على جدراته من امثال السلاحف وابي بريص ، والعقارب ، والصراصير ، والخناfers وغيرها من الحشرات الزائرة غير المرغوب فيها التي نواجهها في الاقطار الحارة ٠

اثاث البيت

كان الاثاث في هذه البيوت نادرا ، مثلاً هو عليه اليوم في بعض المناطق . لقد كان عضو الطبقة المتوسطة من البابليين ينام على الحص والابسطة ، في حين كان حسن الحال ينام في الاحرى على اسرة عالية ، وهي تشبه الطاولة نوعا ما ذات نهاية واحدة صنعت لتؤلف نوعا من وسادة .

وترى اسرة من هذا النوع منحوته على الواح تصور تعاوين المرض ، - الاكواخ التي تعود ، دون ريب ، الى الصباط وان لم تكن الى طبقة من افراد الجيش المحارب .

ويجلس البابليون اما على كراسي عالية مصنوعة من خشب التخليل ، او على نوع أكثر شيوعا من كراسي لها مساند ذات خلفية عميقة الحنية مصنوعة من القصب المصفور ، تشبه الكراسي التي تستعمل في الوقت الحاضر شبيها كبيرا جدا . اما بقية الاثاث فانها تتالف من عدد قليل من الصناديق . وكانت الفخاريات تلعب دورا مهما جدا في تأثيث البيت به في ذلك الجرار ذوات الاحجام المختلفة للشرب او الطعام ، والقلل ذوات الاشكال القديمة جدا التي تحتوي على عري صغيرة مقوبة يمكن امرار خيط في سلطعليقها كيلا تصل اليها الفتران والجرذان .

وكانت الاولاني الفخارية المعدة للاستعمال اليومي تتالف من اق . داح مختلفة الاعماق والاحجام ، وتحتفظ بعدد من الفطاسات الفخارية الطويلة ذات نهايات ملتوية لاغتراف السوائل منها . مماثلة تماما للمغارف المد عملة في معامل صنع الحليب في الوقت الحاضر .

وكانت الموائد الواطئة اصغر من الطباق التي تستند على قدم و عدة ، ولكن كانت لدى البابليين موائد لتناول الطعام عليها من شكل مختلف تماما لأنها تقف متتصبة وعالية عن الارض تماما مما سنتحدث عنه بصفة اكبر مؤخررا .

الانارة والتدفئة

يمكن وصف نظام الانارة البابلي بـ [ايجاز] ، بأنه استعمال المصايد البدائية والتي تصنع اصلا على شكل صحن غير عميق ذي ميزاب مخروز يمر فيه القتيل ، وهو في عصرنا ، اشبه بحذاء مدبب فيه ثقب للفتيل .

وهذا النوع من المصايد هو الرمز الاعتيادي للله [نسکو Nusku]
الله النار . غير ان العراقيين قد اعتادوا تماما استعمال النفط الخام الذي كانوا يسمونه « زيت الحجر » كأداة اعتيادية للوقود ، ومع انهم لم يعرفوا على وجه التأكيد كيفية تصفيته الا انه مع ذلك لابد وان كان يوفر لهم ضياء افضل من الزيت الذي كانوا يستخرجونه من بذور السمسم بصفة اساسية .

وكانوا اذا ما ارادوا لها من نور عمدوا الى استعمال المشاعل ، وغالبا ما يشاهد الجنود وهم يحملون هذه المشاعل في المنحوتات الناتحة التي تصور الحملات العسكرية .

وعلى الرغم من الاعتدال المعتاد للمناخ الا انه تأتي ايام عرضية خلال الشتاء باردة تماما تتطلب شكلا ما من التدفئة . فموقد النحاس الذي يحتوي على جمرات متعددة من النار التي استعملت للطبيخ ، والذي يوضع داخل قدر من الفخار ، يوفر المزيد من التدفئة عادة .

المدينة ومقطعها

تراكم البيوت في وسط المدينة ، كما هو جار في الشرق اليوم ، بشكل متقارب سوية . ويكون مقطع الشوارع الضيقة مشوشًا ، وسطح الأرض وعراً وسبب ذلك يعود جزئياً إلى أن البيوت كان يعاد بناؤها تكراراً من دون آية أسس جديدة ، فوق انفاس مسوأة اعتبرها من أسس سابقة ، وبسبب القاء النفايات في الشوارع ، لأن مالم تأكله الكلاب والحيوانات السائبة : كان يجف بفعل الشمس وتتدوّس الإقدام .

هناك مخطط لمدينة بابل سنة ٦٠٠ قبل الميلاد . مأخذ عن اونغر(*) يمثل الأيساغلا اي المنطقة التي كانت تشمل برج مردوك ومعبداته . وفضلاً عن ذلك فبتناقض البناءيات المتكررة كان سطح الأرض يرتفع تدريجياً .

وكانت البيوت تختلط سوية كما هو شائع الآن في المدن الشرقية ، وفي الضواحي وحدها حسب تقدم البيوت التي لها حدائق .

وهكذا فإن المدينة وإن كانت تمتد فوق مساحة واسعة فإن كثافة البيوت في آية نقطة معينة لا تكون بالضرورة متناسبة مع كثافة السكان .

ولكن على الرغم من أن معظم الأحياء المأهولة بالسكان بشكل كثيف لم تكن تبني وفق أي مخطط ، فإن العراقيين لم يكونوا يراعون آية مبادىء معينة في تحضير مدنهم الكبيرة وإن المقطع الذي يشبه لوحه الشطرنج ويضم مجسومات من البيوت تقوم على زوايا صحيحة والتي كان نلاحظها في المدن التي يعود تاريخها إلى عصر الاسكندر : كل هذه كانت هي القاعدة العامة المتبعة في بلاد الرافدين منذ عدة قرون سابقة .

(*) اونغر Unger من مشاهير علماء الالمان الذين تعرفوا على دراسة الكتابات المسماوية وقد وضع عدة مؤلفات في ذلك من أشهرها كتابه المعون [بابل : المدينة القديمة] الذي صدر سنة ١٩٣١ .

مدينة بابل

لقد اعانتنا التقييمات التي اجريت في مدينة بابل على ان نعيد تشكيل مظهر المدينة في اواسط عهد حكم نبوخذنصر ، والذى كان يشمل اواسط العصر الذي تتحدث عنه الان ٠

كانت المدينة مقسمة الى عدد من المستطيلات بممرات واسعة تفسح الطريق امام السابلة والماكب والسلع سوية الى مركز المدينة والى مختلف القطاعات التي كانت البضائع تفرغ فيها وت تخزن في المخازن ٠

وكانت هذه الشوارع التي كانت تشبه ابواب المدينة ، تسمى باسماء الالهة العظام لجمع الالهة في بابل ٠ وهكذا على الجهة اليسرى من نهر الفرات كانت شوارع الالهين مردوك وزبايا تلتقي في زوايا صحيحة غالبا مع شوارع الاله سن ، الاله القمر ، والليل سيد الارض ، في حين يمتد على الضفة اليمنى من النهر شارع « ادد » الذي يتقطع مع شارع شمس ، اي الاله شمس ٠

ويبين البيوت الاعتيادية التي تسكنها الطبقة الواطئة ، والتي جئنا على وصفها قبلًا ، والقصر الملكي او الدوائر العامة الكبرى ، تقوم بيوت كثيرة ذات حجم متوسط ٠ ذلك ان من يسلك مزرعة كبرى يسكن في بيت اكبر مشيد وفق ذات المخطط لكن يتم توسيعه بكل بساطة عن طريق تكرار الوحيدة الاصلية المؤلفة من ساحة ومن غرف تؤدي اليها ٠ ففي هذه الحالة تستبدل احدى الغرف بآخر يؤدي الى ساحة اخرى توفر مدخلات الى الغرف الاخري المطلوبة ٠

ولقد عثر على بقايا بناء كبيرة في مدينة بابل في حي عرف باسم « مركز »(*) والذي لابد وان كان يؤلف مركز المنطقة التجارية فيها ٠

(*) اوردها المؤلف بهذا الاسم ، "Merkes" وهي تعنى نفس ما تعني الكلمة العربية « مركز » ذاتها ٠

وهذا يشير بكل قوة الى انه حتى وان كانت سياسة ادارة البلدية قد قررت اشادة المدينة حسب مخطط منتظم فان السكان لم يأبهوا له اكثر من . الحاكمين . ان في الاستطاعة ان نصادق على ذلك في امثلة محددة .

فعندما قامت بعثة «بوتا»(**) بالتنقيب في قصر الملك بمدينة خرساباد على مقربة من نينوى ، تم الكشف عن مخطط القصر ، ولكن طبقا لما كان جاريا في اواسط القرن التاسع عشر ، افترض بأن الخطوط كانت تتقاطع في زوايا صحيحة ، بدلا من الشكل الذي رسمت به الغرائب الجغرافية ، اما في مجال مخطط موسع او مكثف .

وكانت نتيجة ذلك ان القصر كان يبدو متناسقا كلية اشبه بالمباني التي وجدت في فرنسا في القرن السابع عشر .

على ان هذا لم يكن صحيحا في الواقع . فعندما واصلت البعثة الامريكية التنقيب في حدود سنة ١٩٢٧ ودقت مخطيطات «بوتا» اتضحت لها تماما بان القصر كان شبه منحرف قليلا في شكله وانه لم يكن متناسقا كما افترض ذلك ، في حين ان هذا يصدق ايضا على القصور الملحوقة التي لم يكتشفها بوتا ، وعلى قصر نبوخذنصر في مدينة بابل ، والذى اكتشفت البعثة الالمانية التي نقبت في المدينة مخططه .

والواقع ان سكان بلاد الرافدين لم تكن لديهم اية حماسة بالنسبة الى التناسق المتأخر وبالنظر الى المظاهر المتوازنة بعد ان ظلوا طيلة قرون متالية يتطلعون الى ابداعاتهم العمارية العظيمة .

(**) بوتا Boota واسمه الكامل باولو اميليو بوتا ولد في مدينة تورين سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٧٠ . عين وكيل قنصل لفرنسا في الموصل وقد شرع بالتنقيب في منطقة قوينجق (نينوى) سنة ١٨٤٢ ولا لم يعثر على =

المباني الكبيرة ، المركز

يبين فحص البناء الكبيرة في بابل التي تدعى بالمركز بأنها قد شيدت على مخطط شبه منحرف ، وان ثلاثة من جهاتها ، طول كل جهة منها حوالي أربعين او خمسين يردا ، كانت مضرسة مثل اسنان المشارف .

وليس من شك في ان هذا التصميم كان نتيجة الرغبة في كسر اطراد النسق للسطح الطويل البسيط وذلك بایجاد مستويات بديلة للنور والظل تتغير كلما مضى النهار واضافة عنصر زخرفي .

فما عدا هذا المظهر كان المخطط مماثلا للمخطط الذي وصفناه قبل ، والذي يحتوي على سلسلة من الباحات التي تربط احدها الاخرى غرف تفتح عليها ، وان الفارق الوحيد هو اتنا نجد بدلا من غرف البيت الاعتيادية ، صالات أوسع وأقل عددا ، وذلك ترتيب أكثر ملاءمة دون ريب لبنياسة تستعمل لاغراض تجارية في الدرجة الاولى .

وكان للمدن في بلاد الرافدين مظهر آخر مميز ، وتنقصد به الهياكل الصغيرة او المذايحة المكرسة لمختلف انواع الالهة ، والتي كانت تقام في مخابىء الجدران ، والتي تذكرنا بقبور ، « ترب » السلاطين او عليه القوم التي تقطع خط الشارع مباشرة في اسطنبول .

غير ان الفارق الرئيس بين مدينة من هذا الطراز كبابل ، ومدينة في اوروبا الغربية ، هو ان الشوارع في المدينة الاولى تشبه الشوارع السكنية في الشرق الادنى في الوقت الحاضر والتي يكون لها جدار صوري على اي من جوانبها . فهي تستمد حياتها ونشاطها من المارة فيها ليس الا .

— اشياء مهمة ترك الموقع وانتقل الى خرسناد سنة ١٨٤٣ فاستمر بنقب فيها مدة ثلاثة سنوات وقد نقل من هذا الموقع منحوتات حجرية واثاراً اخرى كثيرة الى باريس عرضت في متحف اللوفر وما تزال فيه حتى اليوم .

نهر الفرات وجسره

يمتد أحد الأسوار في بابل إلى نهر الفرات . وفي العصر الذي تتحدث عنه كان النهر ينفتح على أرصفة وقوات لتصريف المياه القذرة لغرض اقاذ المدينة من الفيضان ، وكان يقطع النهر جسر دائم يستقر على خمس قناطر .

وكان هذا الجسر مصدر دائم لدهشة المسافرين ذلك أن بعدها مثلا . ومن دون سبب ، يقيس إلى وقت متاخر جدا لا تملك سوى جسر من القوارب كانت القنطر التي انشئت مخروطية الشكل كيما توفر أقل مقاومة ممكنة لضغط الماء على الجسر ، قد صنعت من الحجر وغطيت بالواح عريضة من الخشب .

ولقد تغير حوض النهر خلال القرون ، وما تزال بقايا الجسر حتى اليوم ترى في وسط الخراب المحيطة بها .

ومن ثم كانت الحياة التجارية للسيينة ، كما هو الامر الآن ، تتركز في الارصفة ، في حين ادت أهمية النقل النهري في بلد كان نظام القنوات فيه يؤلف الوسائل الرئيسة للمواصلات بين مختلف المدن ، إلى اقامة الدوائر على امتداد ضفاف النهر ، والتي كانت تسسيطر على مجرى الاعمال التجارية .

وقد كانت هذه الدوائر في بعض الاحيان اشبه بالغرف التجارية العصرية : فقد كانت اسعار التحويل تنظم هناك ، وفي الوقت الذي تتحدث فيه اوروبا الحديثة عن التحويل ، كان العراقيون يطلقون على المكان الذي انشئت فيه هذه الدوائر اسم (كروم Karum) اي رصيف الميناء .

الموقع الحقيقي لسوق مدينة بابل ما زال مجهولا ، ولو انه كان يقع في المركز على وجه التحديد ، اي في حي الاعمال .

ولابد ان كان هذا السوق يشبه في مظاهر اخرى ، الاسواق الحديثة
في مدن الشرق من امثال اسطنبول ، وحلب ، وطهران ، او اصفهان ، اي
في منطقة لها صفتها الخاصة بها ، تغلق ابوابها ليلا ، وتكون لها مراتب
ضيقة تظللها مظللات تحتوي جدرانها على عدد لا يحصى من الاكشاك ونضم
كل انواع التجارة ، لكنها تتجمس على غرار ما كانت عليه في اوربا خلال
العصور الوسطى ، بتراث اسماء شوارعها من امثال شارع الشامبلية او
شارع الغرب . وبين تقاهة الاسواق العصرية بكل جلاء مدى استحالـة
تعيين موقع هذه الاسواق في مدن الشرق القديمة .

ولم تكن المدينة مبلطة ولا مجاري فيها ، والواقع ان هذا لا يتوفـر
في العاصمـة والمدن المهمـة في الشرق حتى اليوم .

غير ان الاشوريين الفوا فكرة تبليط الشوارع . فعندما شيد سرجون
الثاني قصره في خرسـباد خـلال عـشر سـنوات من حـكمـه ، وضع مخططا لمـديـنة
كان يعتزم انشـاءـها والـمـضـيـ في ذلك وقد شـيدـ السـورـ المـحيـطـ بها فـعلاـ .

ولقد عـبـدتـ الـبـوابـاتـ التي يـسـرـ خـالـلـهاـ الىـ المـدـيـنةـ بـقطـعـ كـبـيرـةـ منـ الـحـجـرـ
بـكـلـ عـنـاـيـةـ ، فـيـ حـينـ مـاـ يـزـالـ مـمـكـنـاـ اـنـ نـرـىـ بـاـنـ الـطـرـيـقـ الـذـيـ يـؤـديـ الـىـ
خـارـجـ المـدـيـنةـ قـدـ عـبـدـ هوـ الـاـخـرـ اـيـضاـ الـىـ مـسـافـةـ قـصـيرـةـ . وـسـرـعـانـ مـاـ اـنـحـطـ
الـىـ مـسـارـ وـمـنـ ثـمـ اـخـتـفـىـ تـامـاـ .

تجهيز الماء

يمكن رؤية الاهتمام الذي كان الحكام يتحسسوه لتأمين تجهيز ماء الشرب ، بيكايا مجرى ماء فوق قنطر بناء الملك سنحاريب من « جروان » ، وهي قرية تقع على بعد بضعة أميال عن نينوى ، وذلك لتزويد عاصمه بالماء . فقد سبق هذا المجرى التصميم المتأخر بكل تفصيل . ذلك ان الماء كان يجري في أنبوب مقوى ذي ارضية من الطين الصلب ، مغلف بالقار ومحصن بالبلاط .

وكان المجرى يعبر الاودية على قنطر ، ويروى من عدد من الجداول الصغيرة لكي يضمن تأمين الماء الكافي للمدينة .

وإذا لم تأخذ مدة لحظة بنظر الاعتبار ، الفراغات الهائلة التي كانت المعباد تقام فيها فإن « زقرة » المعبد الكبير^(٩) والقصور الملكية التي كانت جنائزها المعلقة الشهيرة ترى من بعيد ، والتي سيرد وصفها فيما بعد في قسم يتناول حياة الملك والبلاط ، فقد حان الوقت الآن للعودة الى اسوار مدينة بابل التي يصنفها الاقديمون مع الجنائن المعلقة بانها واحدة من عجائب العالم .

١

(٩) كانت الزقرة او برج المعبد التي تقام على مراحل او طبقات ذات احجام تتناقص باتجاه القمة ، قد جرى على وصفها في الفصل الرابع الذي يخص الحياة الدينية من هذا الكتاب . ولعل افضل ما عرف منها هي زقرة بابل التي وردت في التوراة باسم « برج بابل » .

الاسوار

كانت اسوار بابل التي عززها الملوك المتعاقبون ، وبصفة خاصة نبوخذ نصر ، تؤلف نظاما دفاعيا حيويا لا يسكن التمويض عنه ، وقد اتفق المؤرخون في اعتقادهم بأن سقوط هذه الاسوار عند استيلاء الفرس على المدينة (سنة ٥٣٩ قبل الميلاد) كان مثار دهشة ، وانه كان يعود الى اشتراك « غوبارو » (غوبرياس باليونانية) محافظ بابل في جريمة الاحتلال ، اكثر من العمليات العسكرية(*) .

والواقع انه كان يوجد صف مزدوج من الاسوار ذو مسافة قليلة على حدة ، وان هذه الاسوار قد صممت بحيث اذا ما تم اختراق السور الخارجي منها في اية نقطة ، فإن المهاجمين يجدون انفسهم وقد وقعوا في فخ بين سورين ويتم القضاء عليهم كليا من قبل المدافعين .

وكان كل سور محصن على مسافات منتظمة مزود بابراج تهيء موقعا متقدما يستطيع منه المدافعون ان يردوا اية قوات معادية قد تتقدم الى قاعدة السور في محاولة لتفويضه أو لسلقه بالسلام .

ويؤكد المؤرخون القدامى اهمية عرض هذا السور الذي كان يتسع لمئور عربتين فوقه الى الطريق الذي كان يصعد الى القمة ، والذي يحيط بالمدينة احاطة كاملة ، والذي يمكن على امتداده لعدد كبير من الرجال ان

(*) **غوبارو Gubaru** ورد في الاخبار القديمة ان غوبارو هذا كان على اتصال بالفرس وانه تأمر معهم ضد بابل . واتفق معهم على ان يهاجموا المدينة بعد منتصف ليلة عيد رأس السنة البابلية حيث اباح لافراد حامية بابل ان تفرق الى اذانها في مشارب الخمر تلك الليلة حتى اذا طلع الفجر كان الفرس قد احتلوا الموضع الحصينة في بابل دون علم اهلها .

يندفعوا الى اية نقطة تكون مهددة بالخطر بصفة جدية .

وفيسا وراء السور الخارجي يوجد خندق مملوء بالماء يستمد مياهه من قنوات مختلفة لزيادة صعوبة اقتحامه ، في حين كان الطين الخام الذي تnad به الاسوار يقوى باكسية من الاجر .

وتختلف التقديرات المدونة في تقدير احجام هذه الاسوار غير ان كلا منها يتجاوز الابعاد الحقيقة التي كشفت عنها التنقيبات .

لقد قدر هيرودتس ارتفاع الابراج بمقدار ثلاثةمائة قدم ، وعرضها — بما في ذلك سمك الاسوار — بمائة وخمسين قدما ، لكن التنقيبات قد برهنت على ان عرض الابراج كان حوالي سبعة وسبعين قدما ، وهذا يشير الى ان من الصعب ان يزيد ارتفاعها على اكثر من حوالي تسعين قدما .

وما عدا ذلك فلا يوجد شيء يشبه تماما ، المائة باب التي كانت المدينة تمتلكها .

ويقدر « ستسياس » (*) محيط المدينة بحوالي خمسة وخمسين ميلا ، وهذا غير صحيح بكل وضوح لأن التنقيبات قد برهنت ان هذا الرقم يجب ان يكون في الواقع في حدود عشرة اميال . وهذا بين ضرورة الحذر الشديد في تقبل اية ارقام لا يمكن ان تؤيدها نتائج التنقيبات .

(*) المؤرخ ستسياس ويعرف باسم ستسياس الكنيدي مؤرخ اغريقي عاش في القرن الاول بعد الميلاد وهو احد مؤرخي الاغريق الذين زاروا العراق وكتبوا عن اوضاعه وعلى الاخص مدينة بابل وجنائزها المعلقة . وكان المؤرخان هيرودوتus وديودورس الصقلاني قد سبقاه الى ذلك .

الابواب

على الظاهر الشاذ كثيرا للاسوار يمثل في الابواب التي تؤدي الى دخل المدينة ، والتي شيدت على ذات المبدأ في كل من بلاد اشور وبابل . معا .

لقد كانت ابواب جميع المدن والابنية في القديم تجري تقويتها على الدوام بشكل خاص ، لأنها كانت تمثل النقطة الضعيفة في النظام الدفاعي .

وكان الطريقة التي تقد بها هذا الامر في بلاد الرافدين هي التي وفرت لها صفة هميزة ، والتي تم تصورها بكل وضوح وعلى نطاق واسع في صفات اللبن الذي شيدت به ، والذي كانت فائدته الدفاعية تعتمد على كتلته .

كان كل باب يعزز بقوة من الداخل والخارج مما يجعله واق من الاجر تتخلله احدى الفتحات . خلال ذلك كله يتمدد مرر ينفتح في فرات على السماء . ويمكن السيطرة على هذه الفتحات من قبل رماة السهام الذين يوجدون في اعلى الاسوار ، في حالة اذا ما استطاع المهاجمون — بعد — ينحووا في اقتحام الباب الخارجي — ان يتغللوا عبر س מק الاسوار .

ومثل هذه الطريقة في الدفاع يمكن ان توجد في ابواب المدن والقصور في المغرب في الوقت الحاضر . ولقد اخذ « باب الشمس » في مدينة طليطلة باسبانيا عن ذات الاصل ولو انه كان على نطاق اصغر لاز الحجر كان يستعمل هناك .

وعلى هذا فيما عدا مناطق المعبد والقصر ، فان هذا الاعتبار يعطي لحة عما كانت تشبهه المدينة العراقية الكبيرة فعلا اذا ما تم تمثيلها بمدينة بابل . فلم تكن بابل من اهم المدن في كل اودية دجلة والفرات حسب ، بل ان في مقدورنا ان نقارن ايضا الاوصاف الرفيعة المتألقة التي وردت عنها مع تقاضيا المدينة بالصفة التي كانت عليها حقا .

الريف ، القنوات

ان المسافر الذي يمر عبر ابواب المدينة ويأخذ سبيله نحو الريف ، سيرى ان البيوت قد انشئت وسط الجنائن . ومثل هذا لا يستدعي الدهشة لاؤل وهلة ، لأن مثل هذا كان مطيناً وتم تطبيقه على نطاق واسع في كل احياء الشرق .

غير ان الجنائن تعتمد كلياً على نظام حسن للري يستخدم القنوات بدوره ، وهذا مظهر ضروري لحياة الريف يتطلب وصفاً موجزاً .

لقد كان سكان العراق منذ اقدم العصور التي عرفت يسعون الى حماية انفسهم ضد كوارث فيضانات نهري دجلة والفرات التي كانت تؤثر خطراً واضحاً ، لأنها عندما تتدفق على السهل تصبح احواضاً النهر وشنطة نوعاً ما وتجري في ارض طلقة ومتحولة .

ولقد وصل السير ليونارد وولى^(*) خلال تنقيباته في مدينة اور الى طبقة من خزان للنهر ادى الى تدمير استمرار الحضارة في ذلك الموقع تماماً . وقد توصل « واتلان^(**) » الى ذات الاكتشاف في مدينة « كيش » ولكن على مستوى عمل مغاير .

(*) السير ليونارد وولى Sir Leonard Woolley من اشهر المتنقيبين البريطانيين عن الآثار في العراق . ركز تنقيباته في مدينة اور وهو الذي كشف فيها عن المقبرة الملكية وما كانت تضمه من كنوز واستمرت تنقيباته هناك من ١٩٢٢ الى ١٩٣٤ وضع عدة مؤلفات قيمة عن تنقيباته منها التنقيب عن الماضي ، واور ، وملكة الحثيين .

(**) واتلان شارل CH. Watlin اثاري فرنسي ولد سنة ١٨٧٤ اشرف على ادارة البعثة التي نقبت في كيش في الفترة ١٩٢٦ - ١٩٣٣ . وتوفى سنة ١٩٣٤ .

لقد كان هذا يشير الى فيضانين مختلفين ، وهما طوفانان متكرران من .
هذه الصفة التي ادت الى ظهور قصة طوفان بابل التي استندت قسما تماما
من ملحمة غلامش .

لقد كان العجائب لهذا الخطر يتمثل في حفر نظام من قنوات حسم
البعض منها كيما يجري موازيا لمجاري النهر وليحول دون الفيضان ، في حين
يربط البعض الآخر منها بين القنوات التي كانت قائمة قبلا ، والقنوات
الاخري أيضا ، للوصول الى مناطق لم تكن تروى من قبل . وتكون نتيجة
ذلك ثلاثة اضعاف هي : حصول زيادة كبيرة في عدد من طرق الملاحة ، ونظام
موصلات يربط مختلف المدن ، وزيادة في مساحة الاراضي الزراعية .

كانت القنوات تبني على اساس بسيط جدا . فحينما كانت تشاد
اسوار المدن تكون الحفر التي يتم حفرها اولا ، هي التي توفر المادة الخام
للاجر الذي تشاد به الاسوار . وبنفس الطريقة عندما يراد حفر قناة فان
التراب الذي يتم حفره يلقى به على الجانبين كيما يؤلف بذلك سدودا
تؤمن الحماية من الفيضان في الحالة التي قد يرتفع بها مستوى النهر .

وكان العريان الحقيقي للماء يتم تنظيمه وفق نظام لفتحات تصريف
المياه ، في حين كان توزيع الماء داخل القنوات الصغيرة التي تأخذ الماء من
القنوات الكبيرة وتروي الحدائق ، تتم السيطرة عليه بشكل فعال عن طريق
قنوات التصريف في السدود ، والتي يمكن غلقها أو فتحها بسرعة تماما .

والواقع ان المطر غير موجود بصفة عملية في بلاد الرافين وانه
يستحيل ايجاد زراعة بدون الري ، ولكن اذا ما تربطت الارض بصفة كافية
فان مساحات من الصحراء الحيوية تغطى بالخضار وتصبح خصبة بصفة
مذهلة .

الخصب يعود إلى الري

يمكن استخلاص اصدق انطباع عن مظهر بلاد الرافدين في القديم من مصر وليس من المظهر الحالي للبلاد . ففي مصر كان الخضار على امتداد خفاف النيل يتعاظم تبعاً للري ، وذات الشيء يمكن رؤيته في واحة تدمر منذ حرب سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ .

ففي مجرى التاريخ تقلصت الارض الصالحة للزراعة الى نسبة تكاد لا تذكر ، لكنها ما لبثت ان تضاعفت بسرعة بعد ان تم استخدام ينابيعها بشكل غير اثناء الاتداب الفرنسي .

وكان ما يوصف بالرخاء الاصطناعي يطفى دوما وبصفة طبيعية على تصوير الرحالة في القديم . فالبعض منهم مثل ذلك هيرودوتس كانوا يفضلون في الواقع حسب ما دونه ، ان لا يقتبسوا الاحصاءات التي كانت تعطى لهم . في حين ان البعض الآخر ، وهو اقل تشاءماً ، قد كرر ما ذكر له عن حجم حاسلات الشعير .

وهذا « ستراابو »(*) مثلا يكتب عن متوج يبلغ ثلاثمائة ضعف من الكمية التي يذررت . غير ان المشاهدة الحديثة تشير في الواقع ، الى ان هذا المتوج وان كان اقل مما يستحق النظر ، فإنه مع ذلك يتجاوز بكثير اي شيء عرف في اوربا الفربية .

(*) ستراابو ويسمى ستراابون ايضا مؤرخ وجغرافي يوناني شهير ولد سنة ٦٣ ق.م . وتوفي سنة ٢١ ميلادية درس في اليونان وروما وقام بجولة واسعة في شمالي افريقيا واوربا وآسيا ودون مشاهداته في كتاب يقع في سبعة عشر مجلدا غنية بالمعلومات عن العالم القديم .

فالحالة والعالم الطبيعي « اوليفيه »(*) الذي زار العراق في أوائل القرن التاسع عشر يقدر محصول الشعير بحوالي ثلاثين أو اربعين مرة من الكمية التي تم بذرها .

ومنذ اقدم العصور جداً كان حكام العراق يعتبرون ان من واجبهم ومن باب الرحمة معاً ، ان يحسنوا نظام القنوات ، وفي العصر الذي شخصت فيه بعض السنين بصفة عامة ، بحوادث شهيرة للشهر السابقه . اشتهر عدد من الحكام عند الاشارة الى حفر احدى القنوات التي كان حفرها يعادل في اهميته الاتتصار ، ودمج اقليم ما ، أو تشييد معبد .

اما بالنسبة الى نظام صيانة القنوات فقد كانت الاوامر تصدر من المجالس العدلية الملكية الى محافظي الولايات في الامبراطورية لانجاز هذا العمل .

ففي عهد سلالة بابل الاولى تعكس رسائل حمورابي الى هؤلاء الموظفين المحليين ذات الاهتمام الذي تكرر ظهوره في دعاوى مؤرخة في

(*) الرحالة اوليفيه G. A. Olivier رحالة فرنسي زار العراق في عهد المملوك سليمان باشا الكبير الذي حكم العراق في الفترة ما بين ١٧٧٧ و ١٨٠٢ . وكان اوليفيه قد وصل الى العراق قادماً من ايران . وقد دون مشاهداته في رحلته تلك في مجلدين كبيرين صدراء له في باريس سنة ١٧٩١ .

شهر « سيوان » من السنة الثانية من حكم الملك قمبيز(*) تأمر بارسال عشرة رجال للعمل الاجباري في قناته ، فإذا ما اخفق الموظف المسؤول عن حفر القناة في ذلك ، فإنه سوف يعاقب من قبل (غوبارو) محافظ مدينة بابل ومنطقة عبر الفرات ٠

وعندما تفككت الامبراطورية الاشورية البابلية في عهد الغزو العربي والغزوات التي جاءت من الشرق في العصور الوسطى ، لم يعد السكان الذين تناقص عددهم يبدون اي اهتمام بالقنوات التي ردمت بالتدريج ، ولذلك فلا تشاهد اليوم سوى آثار باهتة منها ترى ظاهرة على وجه الارض ٠ ومع ذلك ففي غضون العشرين سنة الماضية(**) وبفضل الاب « بوادبار »(***) وضع المسح الجوي في متناول وسائل لا تبارى عن اعادة تشكيل مخطط هذه القنوات ٠ ففي ضوء مائل ، يظهر التعرج الطفيف لسطح الارض الذي لا يحس به عند مستوى الارض ، عندما يلاحظ من طائرة تحلق على انخفاض ، في تضريس غير مشكوك فيه قبلا ٠

(*) قمبيز ويسميه الفربتون باسم « كمبوجة » هو ابن كورش الكبير مؤسس الدولة الاخمينية التي استولت على العراق وقد سار قمبيز على نهج والده في الفتوح فاستولى على بلاد مصر وضمها الى مملكته . وبتدبر منه تم اغتيال اخيه بريديا سنة ٥٢١ قبل الميلاد . ويقال ان احد المشعوذين من الفرس قد ادعى بعد زمن بأنه هو بريديا الذي بعث حيا من القبر ، فما ان سمع قمبيز بذلك حتى انتحر وتربع ذلك الداعي مكانه على عرش الامبراطورية الاخمينية مدة من الزمن ٠

(**) يقصد المؤلف بذلك العشرين سنة التي سبقت نشر كتابه هذا باللغة الانكليزية سنة ١٩٥٤ ٠

(***) الاب بوادبار : من الاثاريين الفرنسيين الذين نقبوا عن الآثار في سوريا في الفترة بين الحربين العالميتين ٠

ولكن مع ذلك تبقى مشكلة تشخيص بقایا القنوات التي وصلت
اسماؤها اليـا .

ان هذا يذكرنا بخطأ محير . فاحدى القنوات التي ذكرت في النصوص
المسمارية ، والتي يبدو انها كانت ذات اهمية ملموسة ، لها اسم يقرأ على
شكل « زللات » (Zallzallat) غير ان النصوص لا تورد اية معلومات
لا عن مجريها ، ولا عن نقاط مبتداتها . ولقد بذلت جهود كبيرة لتحديد مجريها
وقد طرحت بعض الفرضيات الاصيلية عنها بل انها ثبتت حتى بعض الغرائط ،
الى ان استطاع في احد الايام شخص يدعى (ئي . دورمي) (*) ، وبعد
اعادة حساب مختلف القيم البديلة الممكنة للعلامات المسмарية ، ان يقرأها
بشكل مصيب باسم « ادغلات » وهو في الواقع اسم نهر دجلة العظيم .
وكانت تلك هي خاتمة القناة « زللات » .

وحتى في القديم كانت تهمل كثيـر من القنوات الصغرى . ومع ان
ماءها الذي يحمل الغربـين بغزارـة من الانهـار الكـبرى مفـيدـ فيـ الغـالـبـ كـوسـيـلـةـ
لـتسـمـيـدـ الـحـقولـ ، فـانـ الغـرينـ ذـاهـهـ كانـ يؤـلـفـ مـسـتوـدـعاـ فيـ اـحـواـضـ النـفـاذـ
وـبـصـفـةـ خـاصـةـ اـكـثـرـ عـنـدـمـاـ كـانـ الـفـتحـاتـ تـسـدـ وـلـاـ يـسـطـعـ المـاءـ انـ يـجـرـىـ
وـيـصـبـ آـسـنـاـ .

وكان القصب الذي يثبت في القنوات بسرعة ، في حاجة لان يقطع
باسـتمـارـ ، وـانـ يـكـرـىـ الطـمـىـ ويـكـومـ عـلـىـ الضـفـافـ . وـلـكـنـ عـلـىـ الرـغـمـ منـ
الـجـهـودـ الـمـضـنـيـةـ كـانـ حـوضـ القـناـةـ يـرـتفـعـ تـدـريـجاـ ، وـانـ الطـىـ الـذـيـ كـانـ

(*) دورمي (أدورد) E. Dhorme عالم فرنسي متخصص
بالاشوريـاتـ ولـدـ فيـ كـانـونـ الثـانـيـ ١٨٨١ـ اـخـتـيرـ عـضـوـاـ فيـ الـمـعـهـدـ الـفـرـنـسـيـ ،
وـاسـتـادـاـ فـخـرياـ فيـ «ـ الـكـولـيـجـ دـيـ فـرـانـسـ »ـ .

يكري ويكون على الضفاف يزيد من ارتفاعها بالتدريج وبذلك تصبح القناة
— ان عاجلاً ام آجلاً — تجري اول الامر فوق مستوى الارض ومن ثم أعلى
من هذا المستوى ، وتنحصر بين سدين ترايين . في هذه النقطة ترسم الحيطه
تحولها الى مجرى جديد يحفر على مقربة من المجرى القديم .

كانت الحقول التي في مستوى احدى الفروع الفرعية للقناة ، تروى
عن طريق ايجاد فتحة مؤقتة في الضفاف القائمة للقنوات التي تتقطعها وتتسدها
ثانية بكميات كبيرة من التراب حين يتم ارواء الجقول خلالها .

ولكن عندما تجري القناة او طأ من مستوى الارض ، لابد وان يرتفع
الماء .

في منطقة حماة بسوريا عندما تزداد سرعة جريان الانهار ، يتم
استخدام « الناعور » (*) الذي يتكون من عجلة ثبت الدلاء حول حافتها .
فعندما يدبر ماء النهر عجلة الناعور تمليء تلك الدلاء بالماء بصفة متغيرة
وتفرغه في الارتفاع المطلوب .

وتشغل هذه الالات ليل نهار ، ويعج الهواء باصوات حركتها الكثيفه .
ومع ذلك فقد كان الشائع كثيراً في العراق هو استخدام الشادوف .
وقد رسم هذا الشادوف على النصب ، وبيدو بأنه قد شخص تشخيصاً حيوياً
بما يمكن ان يشاهد اليوم ليس في ذات المنطقة حسب بل وفي كل انحاء
الشرق .

(*) اختأ المؤلف او مترجم الكتاب عن الفرنسيه في تهجئة « ناعور » العربية
فكثيرها باسم (نوريا Noria) وهو يقصد بها « ناعورة » علي
وجه اصح .

يتألف الشادوف من صاربة متحركة على دعامة . ويربط الجبل الذي يشد به الدلو ، في النهاية الطويلة لهذه الصاربة . يرفع العامل النهاية القصيرة للصاربة التي تشد بثقل مقابل ، ويدللي الدلو في داخل الماء . ومن ثم ينحني على الثقل المقابل . ويرتفع الدلو فيفرغ ماءه في بركة تمد القنوات بماء الذي يجري خلالها ليصل الى الحقول ، وهكذا يستمر تكرار العملية .

هناك تغير طفيف في هذا العمل يتمثل في استخدام احد حيوانات البر كالحمار والثور . فالدلو يغطس في الماء نتيجة ثقله الخاص ، ومن ثم يسحب الحيوان الجبل الذي يمر افقا حول بكرة تشبه بكرة الدولاب ، حيث يفرغ الدلو الماء كالسابق ، وعندما يعود الحيوان الى النقطة التي بدأ منها يسقط الدلو ثانية في الماء الذي يهب الحياة .

الملاحة

يعتبر الانتقال من الطرق المائية الى الملاحة امرا طبيعيا . ذلك ان التغيرات التي حدثت في مجاري نهري دجلة والفرات ، والتغيرات التي كانت سبب تحول القعر المنطلق ، كانت تعيق ملاحة السفن العميقه الغور بالنسبة للقسم الاعظم من اطوال هذين النهرين .

غير ان السفن الموغلة في القدم لم تكن على هذه الشاكلة بصفة عامة . فقد كان معظمها يتالف من زوارق كبيرة تشبه الزوارق الخفيفه التي تستعمل الآن في سوريا لتفريغ السفن الكبرى .

وبالنسبة الى العدد القليل من المراسي الطبيعية ، والنقص التام في عدد الموانئ التي توفر الحماية ، فقد كان من المعടد بالنظر الى السفن ان ترسو فيها اثناء الليل وان تحتمی تحت بعض الكهوف التي تحميها من الاتجاه الذي تهب الرياح منه ، في حين ان الزوارق التي تتحرك صراحة على وجه الماء بفعل ملاحيتها ، كانت تكشف عن مدى احجامها في هذا العصر .

لقد كان هذا النوع من الزوارق هو المطبق استعماله في القتوات والذي كان يجر بالبال ، حيث تصور بعض المنحوتات النائمة ، وعلى الاخص الواح البرونز على ابواب القصر الذي تم اكتشافه في قرية « بلاوات » الحديثة(*) خطأ من رجال على شاطئ النهر وهم يسحبون سفينه موسقة باحمال ثقيلة .

(*) بلاوات اسم قرية تبعد عن خرائب نمرود حوالي 12 كيلومترا تقبت فيها البعثة البريطانية سنة 1956 فعثرت على صفائح من النحاس كانت تزين احد ابواب قصر الملك اشور ناصر بالثاني وهذه الصفائح مزينة بمشاهد وصور منها صورة الملك نفسه .

وبذات الطريقة تشير شريعة حمورابي بصفة خاصة الى المعبر الذي اصبح فيما بعد ، دون شك ، يتحرك مثلاً هو عليه الان ، بامتداد جبل من احد جوانب النهر الى الجانب الآخر منه ٠

وبالتعاقب كان الزورق في الماء الساكن الذي يشبه مياه القنوات ، يسحب بالحبال غالباً ، وتلك طريقة توجد لها رسوم كثيرة ٠ وقد يكون هذا حقاً الاصل الاكدي لكلمة ملاح التي كانت تتألف من علامة للزورق ، وعلامة للرواح والغدو ، لكي تميز العركة المتواصلة من المجداف الى الكوثر وترتدم مرة أخرى الى الرجل الذي يطوي الصارية ٠

واخيراً كانت هذه الزوارق الكبيرة تزود احياناً بالاشارة بصفة منتظمة وكانت تتألف على اكثر احتمال من الحصر مثلاً كان يحدث ذلك في الشرق الاقصى ٠

وفي العصر الذي تتحدث عنه كان موقع السكان يحتله مجداف كبير في الكوثر ، أو أنه ، في الواقع ، قد يستغنى عنه تماماً ٠

وإذا ما حكمنا بالنصوص التي تتناول العمولات التي كانت الزوارق تنقلها ، بدا لنا ان طاقتها كانت صغيرة ٠ وبهذه الوسيلة نعرف من عهد سلالة اور الثالثة زوارق في قنوات كانت تنقل ما يتراوح بين خمسة وخمسين الى مائة وخمسة وخمسين بشلاً من القمح ٠

من بين النصوص الكثيرة التي تتحدث عن موضوع نقل التجارة في المياه ، بعض نصوص يرقى تأريخها الى العصر السومري (وهي اقدم من النصوص التي يشملها هذا الكتاب بصفة ملحوظة) تتناول كيفية صنع القارب ٠

وكانت هذه النصوص تستخدم عبارات واسعة جداً اضيع الكثير من

معانيها غير معروف في الوقت الحاضر . ومع ذلك فان مensus وجودها دليل على مدى الاهمية التي كانت تستوي بها الملاحة خلال الالاف الثالث قبل الميلاد.

ينبغي لنا ان تذكر بان ما نحذفه من امثال العبارات الفنية والتي تصبح مهملاً لهذا السبب ، كانت تعتبر حقاً شواهد على غنى اللغة وعلى مستوى مدينة الامة التي كانت تستخدمها .

فإذا ما قسنا مدينة السومريين بهذا المعيار مثل بقية المعايير الاخرى الكثيرة ، نجدتها قد تطورت تطوراً رفيعاً مدهشاً .

ولما كان بناء القارب من الاعمال الشهيرة ، فان اولئك الذين يحتاجون الى احد القوارب ، غالباً ما كانوا يلجأون الى استئجاره . ففي السنة السابعة عشرة من عهد حكم الملك نبونيدوس مثلاً ، استأجر شخص يدعى « مورانو » قارباً بطاقة قدرها مائة وخمسون « غور »^(١٠) لغرض استعماله من لدن معبد « ايأنا » في الوركاء بمقدار خمسة شوالق ونصف من الفضة لمدة شهر واحد ، من اليوم السادس من (ايلول) [اب - ايلول] الى اليوم السادس من تسري [ايلول - تشرين اول] . ولقد دفعت سلطات المعبد بدل الاستئجار سلفاً ونص عقد الاستئجار على انه اذا ما ثبت بان طاقة القارب اقل مما ذكر ، فان الدفع يتم تعديله وفقاً لذلك .

(١٠) اما ستمائة او ثلاثة بعش طبقاً لقيمة الغور .

القففة الكلك

هناك نوعان من القوارب تختص ببلاد الرافدين بقيت تستعمل حتى
الوقت الحاضر . هذان النوعان هما القفة والكلك .

اما القفة فكانت نوعا من سلة مدوربة تشبه السلة التي يستعملها العمال
لحمل التراب والآجر على رؤوسهم وقد اطلق اسمها على قوارب من هذه
الشكلة . وهي في الواقع سلة من اغصان مدينة وذات قعر منبسط وغير
عميق جدا . وكان القعر يغطى بالجلود ويغلق بنسالة الكتان وقطع من
الصوف ، تضغط جميعها بشدة وتمزج بالطين الرقيق والقار الذي يضمن
عدم تسرب الماء خلاله .

كان القارب يحرك من قبل رجل ورجلين بمجاديف قصيرة وهكذا
يتحرك القارب متوجهها الى امام دون ان يدور حول نفسه .

وحيث كانت هذه القوارب توسيق بحمولات متنوعة لا ترتفع حافة
القارب عن سطح الماء الا بضع بوصات .

ولم يكن ملاحو القفف يتقددون في عبور الانهار سريعة الجريان من
امثال نهر دجلة ، لكن هذه القفف كانت تستعمل بصفة اعتيادية في نقل
السلع صعدا في النهر وانحدارا معه . وتشبه القفف التي رسمت في المنحوتات
الاشورية الثالثة القفف التي تستعمل في الوقت الحاضر بصفة مطلقة .

اما الكلك فانه رمح يصنع اما من اقوى انواع القصب الذي ينمو
بكثافة في الاهوار والتي تبلغ من الطول درجة تخفي الانسان تماما او
— وهذا هو المفضل — من احسن انواع الخشب الذي يستطيع بناء الارمات
الحصول عليه محليا . ويزداد تعوييمه بربط جلد الماعز المنفوخة تحت سطحه ،
والتي تجعله قادراً على حمل وزن كبير . وعندئذ يطوف الرمح الموسق في

النهر باتجاه التيار ويتم تحريكه وتوجيهه بالصاربة معا الى ان يبلع بعض النقاط في جنوب بلاد الرافدين .

وهناك اماكن للتوقف فيها حيث يتم تفريغ الحمولة ، ويفكك الكلك ، ثم تباع اخشابه (وهي اكثرا ندرة في جنوب العراق منها في شماله) ، وتطوى جلود الماعز وتنقل على الحمير ، اما الملاح الذي تحول الى قائد للقافلة فانه يعود الى النقطة التي بدأ منها حيث يبدأ هناك بالعملية كلها مجددا .

ولم يكن كل واحد يملك قاربا ، ولكن كل فرد غالبا ما تحدث له مناسبة عبور شبكة القنوات التي تكون جد عريضة وجد عميقة بشكل ظاهر حين يراد خوضها ، شريطة ان لا يكون القارب ذا حمولة ثقيلة ، كما ان في مقدورهم استعمال « الاطواف » التي تتالف بكل بساطة من كتلة من القصب تشد سوية عنده نهاية كل واحدة منها وتكون منبسطة في الوسط . وهذه الاطواف لا يمكنها ان تعبر بها دون ان تبتلي اقدامك ، لكنها لا تغرق .

واخيرا فان غير الماهرين في السباحة يستطيعون الاعتماد على جلود الماعز ، وهذه تشبه القرب التي يستعملها السقاة ورشاشو الماء في الشرق ، وهي من جلد حيوان يقطع رأسه واطرافه ، وبذلك يحتفظ بشكله الطبيعي . ويتم فتح الجلد كلما وجد ذلك ضروريا ، وبالامساك به أو وضعه تحت الصدر ، يستطيع البابلي ان يعبر دون ان يتعرض لخطر الغرق . وتوجد منحوتة نائمة تصوّر جيش اشوريا يعبر النهر بهذه الطريقة [لوح ٣ ب] .
وستعمل الجلود لاغراض مختلفة يوميا ، من امثال حفظ الزيت او الخمر . وهناك رقيم مؤرخ في السنة الثالثة من حكم الملك نبونيدس ملك بابل يمثل ايصالا باثنى عشر ظرفًا منفوخا .

صيد السمك

كذلك كانت القنوات مفيدة ايضا كمصدر للسمك . وغالبا ما يشار الى صيد السمك على انه احدى الحرف ، ففي مصبات النهر على مقربة من الخليج العربي كان ما يتم صيده من الاسماك يبعث به للبيع في مدن المنطقة ، غير ان المدن التي تقع بعيدا جدا عن هذا كانت تصيد السمك من القنوات والبرك . [بركة اسماك]

ويبين تحت ناتيء اشوري يركرة صغيرة مدورة تسقى بماء احد الجداول وقد اعتنى النحات كثيرا باز يظهر بجلاء مظهر السمك الذي تحتويه تلك البركة ، وكأنه ظاهر على سطح الماء .

وكان صيد الاسماك يتم بصفة عامة بواسطة الخيط ، غير ان هناك انواع مختلفة من الشباك كانت تستخدم ، وكانت هذه تدعم التجارة بشكل حي ، مما مستحدث عنه ثانية عندما نصل الى صانعي السلال .

ان البركة التي صورت على هذه المنحوة الخاصة ، منتظمة الشكل الى درجة انها تبدو في صورة مقلدة خاصة تسقى بفرع جدول من احدى القنوات .

وهناك منحوة اخرى اقدم في تاريخها بحوالى الفي سنة من العصر الاشوري ، مصورة على نصب في المقابر الملكية بمدينة اور ، عرفت باسم « الراية » ذات اشكال صغيرة من اللالئ الكبيرة على ارضية من حجر الازورد . فهذا المشهد يصور موكب من الحمالين ، اما من الذين فرضت عليهم الجزية او من الارقاء ، وهم يحملون غائم النصر الذي يخلده النصب وبين هؤلاء احدهم وهو يحمل سمكة ضخمة .

البساتين

لا توجد بعد وصف القنوات التي يعتمد على مياهها خصب البلاد ،
سوى خطوة قصيرة للوصول الى البساتين والمناطق المزروعة التي تزداد
أهميةها بالنسبة الى بعدها عن المدن ٠

ولكي نحكم بالاستناد الى البساتين القائمة حوالي بعداد وفي واحات
افريقيا الشمالية حيث تكون التربة واحوال المناخ مماثلة لما هو موجود منها
في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحدائق مؤلفة من اراض مستطيلة
في بلاد الرافدين ، لابد وان كانت هذه الحفائق مؤلفة من اراض مستطيلة
التي كانت ذاتها تستظل بعده قليل من اشجار التخييل ٠

ولقد سجل متوج هذه البساتين في نصوص وعلى نصب حيث يتوفى لنا
وصف معاصر لواحد منها دونه كتبة ملك بابل مردوك أبال الدين والذى
اشتهر بصفة عامة باسم ميروداش — بلدان (*) ٠

(*) مردوك أبال الدين : اسم اطلق على عدة ملوك الاول منهم حكم في الفترة
١١٨٧ - ١١٧٥ قبل الميلاد وهو من السلالة الكثيسية والثاني حكم في
الفترة ٧٢٢ - ٧١١ قبل الميلاد وهو من السلالة العاشرة ذكر اسمه
على حجر حدود وعلى سيف محفوظان في المتحف البريطاني وفي متحف
اللوفر .

بستان ميروداش بلدان

يوضح النص ان هذا البستان لم يكن متنزها ملكيا بل نوعا من بستان خضار . ولا يوفر هذا النص معلومات نافعة عن انواع الخضار التي كانت تؤكل في ذلك التاريخ حسب بل انه يلقي الضوء ايضا على طريقة التصنيف النباتي التي كان البابليون يستعملونها .

لقد كانت النباتات تجمع حسب الانواع (والاخرى بما قرره الكاتب من ذات الانواع) ، وكانت تصنف اما بالاشارة الى بعض المميزات العامة المحددة ، او بالاشارة الى استعمالها بكل سهولة . وهكذا كان الثوم والبصل والكراث تؤلف طائفة واحدة ، بينما تؤلف الاعشاب العطرية كالعناسع والريحان طائفة أخرى .

وهناك طائفة ثلاثة تتالف من التوابل من امثال الزعفران والكتزيرة والسداب (وكذلك يحب الرومان هذه التوابل جدا عظيما) والزعتر ، والقصب . وقد ورد ذكر الصنب أيضا ومثل ذلك القرع والبطيخ الذي كان ينمو على اشكال منوعة كثيرة في الشرق .

وهناك الخضروات أيضا من امثال اللوتين والهندباء . كما يوجد عدد مدهش من اعشاب قوية الراحة من امثال الجبة السوداء ونوع من انواع الجزر .

وكانت الخضروات تحتوي على العدس ومن بينها انواع اقل مذاقا من امثال الشوندر واللفت .

وما عدا ذلك كانت قوائم الاشوريين تشتمل على بعض الخضروات التي بقيت من دون تشخيص ، في حين تم تشخيص البعض الآخر منها بطريقة العدس ليس الا .

وتشتمل اشجار الفاكهة على التخيل (وستحدث كثيرا فيما بعد عن تجارة التمور) والرمان الذي لم يكن يحصل منه على الشراب حسب بل كان يشم بدرجة عالية كيما يهدى الى الملوك مثلما تستطيع ان تشاهد ذلك على منحوته نائمة من خربساد تصور كل الاستعدادات المتخذة لاقامة وليمة في القصر .

وهناك اشجار المشمش ايضا ، واسجار الخوخ والكمثرى والاجاص (والاخير منسوب الى بلاد فارس ويسمى في اللغة اللاتينية باسم « التفاح الفارسي ») ، واخيرا اشجار التين . فهناك انواع كثيرة من التين التي تبدأ بالنضوج بصفة متعاقبة ابتداء من شهر حزيران حتى فصل الخريف ، غير ان سكان الشرق يعترفون بان هذه الانواع مغایرة للتين الائيني . فكمل هذه الفواكه تنمو بصفة رئيسية في منطقة اواسط بلاد بابل واسور حيث يكون المناخ ملائما لها .

ويبدو ان هيرودوتس لابد وان جاب بلاد الرافدين في تاريخ ظهرت فيه اشجار التين والكرم والزيتون بصفة عملية لكنها ما تزال غير شائعة ، لانه وان كان قد لاحظ ان هذه الاشجار لم تكن موجودة هناك الا انها كانت مصورة على المنحوتات الاشورية مثال ذلك شجرة التين المرسومة على احدى المنحوتات من خربساد .

وكان الزيت يستخلص من نبات السمسم ذلك لاه في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب كانت قد جرت اقلمة شجرة الزيتون قبل قرون قليلة سابقة . وقد تم تحسين ما كان موجودا منها عن طريق الزراعة المكثفة وقد نجح ذلك بصفة خاصة في بلاد آشور والاقطار المجاورة لها . وهذه الشجرة مصورة في المنحوتات النائمة ، وان الجنود الاشوريين قد قاموا ، وهم في

حلاتهم العسكرية ، باستئصال اشجار الزيتون في احدى النقاط بهدف
اقمار بلاد العدو .

في هذا التاريخ كانت اشجار الكروم قد وصلت الى بلاد اشور حديثاً
فهناك نصوص تشير الى بيع الخمر ، وان اشجار الكرم تشاهد مصورة على
منحوتات في المتحف البريطاني يعود تاريخها الى عهد اشور بانيال . وهي
ملتفة حول جذوع اشجار في حديقة كان الملك يتناول طعامه فيها ، بل حتى
في مشهد صيد حيث تم الاحتفاظ بالحيوانات الوحشية لغرض الصيد .

حوش المزرعة

كانت احواش المزارع تلحق بالحدائق ، وان النصب والنصوص تسجل الحيوانات التي تحتلها من امثال البط والاووز [هنالك رقم يرقى تأريخه الى سلالة اور الثالثة ، اي حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد] ، يشير الى تهيئة الدجاج في مناسبة مولد ابنة الملك]

ولقد صمم العراقيون احجار الوزن في شكل بطة التف رأسها ورقبتها كيما تستقر على ظهرها .

وفي خلال الالف الثاني قبل الميلاد كانت الدجاجة لم تدرج الا في سوريا وحدها ، غير انها غدت مألوفة في بلاد الرافدين في عصور الفرس والاشوريين .

هنالك كتابة لاحد الفراعنة تسجل الاشياء الشمنة ، او الغريبة على الاقل ، التي جيء بها من الحملات العسكرية في سوريا ، تتحدث عن طائر يقع على بيضة كل يوم .

وفي العصر البابلي الحديث وجد الديك بين الحيوانات المصورة على نقوش غائرة ، في حين ان السياسيين ادخلوه في الصور الزخرفية على منسوجاتهم .

وكان الحمام يعشش عادة في ثقوب تفتح مباشرة في جدران البيوت ، وقد عثر على هذا الترتيب في نموذج من الفخار ، محفوظ الان في متحف اللوفر ، يعود الى معبد من قبرص في حين كان معبد الآلهة في « بافوس » (*) يأوي سربا كبيرا من الحمام .

(*) بافوس Paphos مدينة قديمة تقوم على الشاطئ الغربي من جزيرة قبرص اشتهرت بمعبدتها . ويقال ان الذي اسس هذه المدينة هو اغايتوس ملك اركاديما بعد عودته من حرب طروادة .

وكانت الطيور البرية التي يحفظ بها احياناً كطيور اليقنة ، تشمل على ابي قردان والكركي ومالك الحزين (الذي عد سبعة انواع منه) التي تعيش في الاهوار ، وكذلك البجع الذي كان يدرب على صيد الاسماك ، في حين كانت الحقول موطنها لطائر السمان والشحارير والعصافير والقرارات .

وكان طائر السلوى نادراً ولو انه كان شائعاً في سوريا ، غير ان الحجل والدراج كانت تربى في البلاد ، ونستطيع ان نرى الدراج يصطاد بالسمام في منحوته من خرسناد من عهد الملك سرجون الثاني محفوظة الآذ في متحف اللوفر وكانت هذه الصورة هي فاتحة الكتاب) ٠

وعن طريق المفارقة هنالك طيور قنص كثيرة من بينها العقبان والنسور والبوم التي يتطلب حفظها وجود اقفاص كبيرة في حين ينبغي ان تحفظ حاصلات الحقول التي نضجت حبوبها من غارات الغربان والقئران .

الزراعة على نطاق واسع وحاصلات الحبوب

حان الوقت لأن نقيم المقامات الزراعية الكبيرة التي كانت الزراعة فيها تطبق على نطاق واسع . كان قوام المنتوج الذي يعنيه سكان العراق حين يتحدثون عن القمح ، هو الشعير . وكان هذا المنتوج ينمو برياً . وقد سبق لنا أن وصفنا نطاق انتاجه ، وكان في بعض الواقع يوفر حصاداً لمدة مرات خلال سنة واحدة .

ولم يكن الشعير من أشهر المحصولات الطبيعية النافعة حسب وإنما كان أعظمها وفرة أيضاً ، وعند انعدام النقد وكاداة للتبدل كان محصول الشعير يستخدم مقاييساً مقبولاً للقيمة .

وكانت هذه الوظيفة الأساسية للحبوب في القضايا البشرية قد تم الاعتراف بها ثانية في أحدي اللحظات الحرجية في التاريخ الفرنسي . فعندما أعيد تنظيم النقابة في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي ، ثبتت العقوبات التي فرضت على اعضائها في صفة حدود « عشرة الاف غرام من الحنطة » .

ويعتقد معظم الطبيعين ان القمح الشوي المعروف باسم الحنطة المكتسبة كانت اصلية في بلاد الرافدين لكنها لم تكن شائعة أو مهمة كالشعير . وكذلك كان الدخن يؤكل ايضاً .

الجاروف والمعراء

كانت القطع الصغيرة من الأرض تحفر بمحاريف مصنوعة من حجر
صلب حافاتها مثلثة في شكل فج لاس واحد من محاريفه . ولقد تم اكتشاف
مثل هذا النوع من الأدوات في منطقة «قطنة» (*) في سوريا .

اما في الحقول الواسعة فقد كان البابليون يستعملون المحراث الذي
نشاهده مصورة صراحة على النصب القائمة حتى اليوم .

المحراث ذاته والقسم الجبهوي منه اذا ما نظر اليه من جانب واحد ،
يبدو قائم الشكل ، لم يكن يصنع من الحديد وإنما من الخشب الصلب يتم
شحذه او ربما يربط به حجر مشحوذ .

ويحمل المحراث ساقا عمودية تنتهي عند القمة في شكل صندوق ، لابد
ان يكون باذرة بذور ، ولذلك يمكن للبذر ان يهبط داخل الساق الم gioفة
ويسقط في قعر الاخدود الذي يحفره المحراث .

(*) قطنة منطقة زراعية معروفة في سوريا تقع الى الشمال الشرقي من مدينة
حمص وقصبتها هي مدينة قطنة ذاتها . تقب فيها الكونت دي ميل
دي بويسون . حاصرها سبي لوبيوما ملك الحثيين ودمّرها تدميراً كاملاً.

لقد كان دين بلاد الارافدين يمس الحياة في كل نقطة ، وان الرموز التي كانت تحمل اهمية دينية بالنسبة الى البابليين قد اصبحت تفسر الان بانها مجرد صور زخرفية .

وهكذا فان الاشكال التي بين احد الاسود ، او نسرا يحلق بجناحه ، او محارثا ، او شجرة تين ؛ التي امكن تمييزها في بقايا الزخارف الجدارية التي اكتشفت في خرسناد ، كل هذه كانت في الواقع اربعة رموز دينية ؛ او توابع للاللهه .

وغالبا ما يرسم المحراث على احجار الحدود التي تحمل اجراءات هبة ارض ويرقى تاريخها الى العصر الكشي (النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد) .

والحقيقة ان واحدا من هذه الاحجار قد دون عليه اسم الاله الذي يرمز اليه المحراث ، وهو الاله السومري تنغرسو الذي اصبح فيما بعد لها للمعارك لكنه في هذا التاريخ كان ما يزال لها للزراعة .

وعلى ذات الحجر سوية مع بقايا كتابة ، يوجد ما اعتبرته سبلة قمح يحمل اسم الاله « شالا » وهي آلهة سومرية تم تشخيصها مؤخرا بانها الآلهة « بابو » (او بابا) ولذلك اشتهرت باسم « سيدة سبلة القمح » .

دراسة القمح

تبدأ دراسة العاصل بعد الحصاد . وهنالك طريقتان لا مدعى عندهما . فالطريقة المصرية تكون باستعمال المدقّة ، وغالباً ما يرى أوزريس الله الزراعة وهو يحمل مدقّة وكانتها بمثابة بندقية . أما الطريقة الأخرى والتي كانت مستعملة أيضاً في مصر ويبدو أن البابليين كانوا يفضلونها على غيرها ، فهي دوس القمح الذي كان ينشر فوق أرضية الدراسة ومن ثم يداس بعدد من اقدام الثيران أو الحمير التي كانت تتحرّك بشكل دائري إلى أن ينفصل حب القمح عن القشور تماماً .

هناك فرق في هذه الطريقة الأخيرة تشمل على أدوات بسيطة عرفها الإغريق باسم « ماكينة الدرس » والتي يمكن أن ترى في بلاد الشرق الأدنى في الوقت الحاضر .

وهذه الآلة تتألف من لوح سميك من الخشب الصلب ذات سطح محزر تستقر على الأرض ، وتكون نهاية جبهتها مرتفعة قليلاً وقد ادخلت في هذه الحزوز أعداد كبيرة جداً من أسنان حجرية .

وعلى اللوح مقعد للشخص الذي يسوق الحيوانات التي تجر هذه الآلة التي تتدحرج فوق أرضية الدراسة إلى أن ينفصل الحب عن القشور . والمعروف تماماً أن هذه الآلة التي ما تزال تستعمل في منطقة الشرق الأدنى في الوقت الحاضر ، قد استعملت من قبل العراقيين في العصر الآشوري الحديث لأن هناك دلائل تشير إلى استعمالها محلياً في تاريخ موغل في القدم (*) .

(*) هذه الآلة التي يصفها المؤلف هي ذات الآلة المعروفة باسم « جرجر » التي كانت شائعة الاستعمال في العراق بعد الحرب العالمية الأولى وما زالت تستعمل في بعض المناطق الزراعية وعلى الأخص في المناطق الشمالية والشمالية الغربية . وكذلك في مصر وسوريا أيضاً .

من بين المقابر الملكية في اور واحد يدعى فبر الملكة اكتشفت فيه بقايا مركبة تجرها العمر الوحشية . وهذه المركبة تؤلف جزءا من هدايا الدفن التي كانت تشمل الخدم والحيوانات التي يضحي بها احتفالا بمثل هذه المناسبة ، في حين كان قبر الملك يضم دلائل شاسخة له بكل عربة وعجلاتها .

ومع ذلك فان المركبة التي وجدت في قبر الملكة يبدو عليها أنها كانت خالية من العجلات لانه لم يعثر على أثر لها . وعندما اعاد مكتشفها السر ليونارد وولى تشكيل بقاياها بدت وكأنها نوع من زلاقة او كرسى خشبي طوبل فوق زحافات قصار ذات نقطة مرتفعة من امام .

فمثل هذه المركبة غير المألوفة قط والتي يمكن مقارنتها بصفة نسبية بالزلاقات التي وجدت في مقابر المصريين ، انما هي بحد ذاتها ذكرى ماض بعيد عندما كانت العجلة ما تزال غير معروفة .

ومع ذلك فان اعادة تركيبها من لدن السر ليونارد وولى ، وهي نتيجة لا مفر منها نجمت عن الملاحظة الدقيقة للبقايا الموجودة ، تصل الى درجة مقعد مرتفع له زحافات قصيرة . وعلى هذا فانه لا يشبه الزلاقة قطعا . لأن الظاهر الرئيسية فيه هي وجود بذن واطيء معلق وزحافات اكثر ضولا .

فاعادة تركيب هذا الكرسي يبدو في ظاهره مشابها تماما للجرجر الروماني ، وان الشيء الملاحظ هو ان الكثير من الدلائل التي وجدت في القبر تشير الى مواد ذات اهمية سحرية وانها ترتبط بطقوس خصوبة الارض، من امثال الجوادر التي كانت تصنع على شاكلة سنابل القمح ، والرمان والثيران ففي مثل هذا المحيط لن يكون الجرجر ، اذا كان واحدا ، خارج هذا المكان .

بعد ان تتم عملية درس الحصول يتم خزد القمح في اهراء . وبين دليل الانطباعات لاختام اسطوانية قديمة من مدينة سوسة ان المزارعين قد

توصلوا في وقت مبكر جدا الى افضل شكل لاقامة الاهراء ، ونعني به الاهراء الاسطوانية العالية ، وذلك شكل بقى في الواقع من دون ادنى تغير حتى الوقت الحاضر .

وكانت ترى بعض الاهراء وقد نصبت سالالم كيما تعين حملة القمح على التسلق وافراج اكياسهم في القمة ، في حين لا يوجد ادنى شك عن وجود باب صغيرة في السقف تؤدي الى القعر بحيث يمكن اخراج الكميات المطلوبة من القمح بسرعة .

ولابد ان يلاحظ بان هذه الاهراء كانت تستقر على اساس خشبي مشبك ، وذلك للوقاية ، دون ريب ، من رطوبة الارض وكذلك من هجمات القوارض ، كما كان يثبت نوع من الحواجز في اعلى الاهراء .

بيع القمح واعمارته

ادت المتابعة بالقمح الذي كان مع التمور سوية يؤلف المواد الاساسية للتجارة ، الى استعمال عدد من الوثائق بصفة طبيعية مثل الابصالات ، والقروض ، والضرائب المستحقة الدفع بالقمح ، والتبادلات ، وسجلات الانفاق على القمح المعد للاستهلاك من قبل الخدم أو الدواجن الحية . وفيما يلي بعض الأمثلة القليلة على ذلك :

(أ) مكاييل القمح الذي كان يجهز في دفعة واحدة خلال شهر سپوان انى بعد اينانا في الوركاء وفي السنة الثانية والثلاثين من حكم الملك بوخذ نصر .

(ب) معلومات بسيطة عن دين شعير . ولما كانت الكيسة تبلغ ١٣٦ (كورو)^(١) فانه يوجد ضامنان .

(ج) وعد بمقاييسه الشعير مقابل كمية مساوية من التمور في معبد اينانا حيث تحفظ المستندات هناك ثم تعاد عندما تتم الصنفة .

(د) دين بشعير . فاذا لا يمكن تسديده بالحنطة فيجب ان يسدد بالفضة حسب الاسعار البابلية وذلك في السنة العاشرة من حكم الملك دارا . واخيرا هناك تقرير بسجل تسخير بعض العمال الذين ارسلوا الى مدينة بابل لحراسة كمية من الشعير ، وتحذير اليهم بأنهم في حالة تمرد هم سوف يستجوبون من قبل محافظ مدينة بابل .

تقدم النصوص العديدة التي تتناول القروض ، سواء كانت لاغراض الطعام او البدار ، اعظم المساعدات في محاولاتها الرامية الى وضع سجل

(١) حوالي ٥٤٠ او ٢٧٠ بوشل طبقا لقيمة الكورو .

زمني ثابت ، ذلك لأنها كانت على الدوام تتضمن فقرة تنص على أن يسدد المقترض القمح بكمية محددة من التمور في موسم الحصاد .

ولما كان البابليون يستعملون الان التقويم القمري فقد كانت شهورهم تعرض لاغلاط طفيفة وكانت تقع مصادفة في علاقة صحيحة بالنسبة الى الفصول .

ومن ناحية ثانية وكما قيل قبلًا ففي الوقت الذي يمكن فيه احتساب تاريخ الخسوف فلكيا ، أو اختفاء الكواكب السيارة أو طلوعها اهليجيًا ، فإن مثل هذه الظاهرة تحدث بصفة دورية ، وان الخيار يقع بين تاريفين أو ربما ثلاثة تواريخ لا يمتد عندها .

مثال ذلك اننا اذا ما تصورنا بأننا نستعمل تقويمًا قمريًا بشهور أقصر من مدتها الحقيقة ، واننا لا نعرف ايًا من التاريفين القطعيين اللذين نختارهما ، فإذا ما وجدنا بان القمح ينبغي ان يسدد في شهر آب عند الحصاد ، فاننا نستطيع مباشرة ان ننبد التاريف عندما يقع شهر آب في فصل الشتاء وفضل عليه شهر آب عندما يقع في فصله الصحيح . وهذا الحساب الذي يستند الى التواريخ المدونة في الرقم الطينية يساعدنا على اختيار تاريخ واحد من عدد من التواريف البديلة الواضحة بدقة تامة .

الحيوانات الداجنة الحمار

يمكن للمساعدة التي يقدمها الحيوان النافع في العمل ، ان تضاعف من منتوج الانسان . ولذلك فمن المهم ان نعرف ما هي الحيوانات التي كانت متوفرة لدى البابليين لهذا الغرض .

لقد كان الحمار في ذلك الوقت كما هو معروف الآن في كل أنحاء الشرق ، والذي عرف منذ عصور قديمة جدا ، من اكثـر الحـيوـانـاتـ التي تستعمل بصفة عامة في اعمال الجر او النقل . فهو لم يستبدل ابدا بالحصان الذي بقي على الدوام حيوانا نبيلا ، ولم يكن الواحـدـ منهـ يربـىـ مثلـماـ اشتهرـ بهـ الحـصـانـ الحديثـ الذيـ يـجـرـ العـربـاتـ .

وحتى العصر الساساني لم تكن الدواب التي تربى بنجاح لحمل وزن جيد ، قادرة على ان تحمل الفارس بكامل عدته ، بالإضافة الى جلة الحصان الذي تغطى بالواح معدنية . فعند ظهورها لأول مرة في عهد سلاطـةـ بـاـيـلـ الاـولـيـ ، تـجـدـ خـيـوـلاـ كـانـتـ تـجـرـ العـربـاتـ الحرـيةـ . وـلـعـلـ وـاحـدـاـ مـنـ الاسـبـابـ ،ـ الـيـ اـدـتـ الـىـ نـجـاحـ الفـزـوـاتـ الـتـيـ قـامـ بـهاـ الـحـشـيونـ فيـ آـسـياـ الصـغـرـىـ ،ـ وـالـحـورـيـوـنـ فيـ التـقـقـاـسـ ،ـ وـالـكـشـيـوـنـ فيـ جـبـالـ زـاغـرـوـسـ ،ـ هـوـ اـنـهـ جـلـبـواـ خـيـوـلـهـمـ مـعـهـمـ مـنـ اـنـجـادـ مـرـتـقـعـةـ ،ـ وـانـ عـربـاتـهـمـ سـرـيـعـةـ الـحـرـكـةـ الـتـيـ كـانـتـ تمـثـلـ فيـ ذـلـكـ الـوقـتـ سـلـاحـاـ غـيرـ مـعـرـوفـ ،ـ كـانـتـ ذاتـ اـثـرـ فـعـالـ فـيـ الـاسـتـعـمـالـ وـفيـ تـقـويـضـ الـعـدوـ .

واخـيراـ ،ـ وـلـكـنـ خـلـالـ العـصـرـ الاـشـورـيـ (ـ وـطـبـعـاـ كـتـيـةـ لـلـغـزـوـاتـ الـتـيـ كـانـ يـقـومـ بـهـاـ مـمـطـوـخـيـوـنـ الـذـيـنـ اـفـتـحـوـ اـسـياـ الـفـرـيـةـ فـيـ النـصـفـ الثـانـيـ مـنـ الـأـلـفـ الثـانـيـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ)ـ أـصـبـحـ الشـاةـ الـذـيـنـ يـرـكـبـونـ الـحـيـوـلـ عـنـصـراـ مـعـتـرـفـاـ بـهـ فـيـ الـجـيـشـ ،ـ وـقـدـ تـطـورـ هـذـاـ فـيـ الـحـالـ الـىـ الـخـيـالـ الـحـقـيقـيـةـ .

الحمار والحصان الوحشيان

كان الحمار الوحشي خلال الالف الثالث قبل الميلاد يستخدم للاغراض العسكرية التي لا يستطيع الحمار الاهلي ان ينهض بها اطلاقا . وكانت قطعان من هذه الحيوانات ومن انواع عرفت باسم (الاحدري Onager) تجوب مناطق الريف طليةقة .

ولقد كان الملوك الاشوريون يصطادون هذه الحمر ، وتبينها النحوت الناتحة المحفوظة في المتحف البريطاني وهي تولي الادبار هاربة امام زخة من النبال .

ولقد لاحظ المؤرخون الاغريق ، وعلى الاخص « زينفون »(*) في كتابه « مسيرة العشرة الاف » بان هذه الحمر كانت ما تزال ترى في الاريات .

ويكون الحمار الوحشي اعلى من الحمار الاعتيادي بقليل ، وان اذيه اكبر بصفة مميزة من اذني الحصان . اما ذيله ، وهو يشبه ذيل الحمار ، فانه اطول واكثر طراوة في حين يكون ذيل الحصان اقصر لكنه يبدو اطول . بسبب طول شعر الذيل .

(*) زينفون Xenophon مؤرخ واديب وقائد عسكري يوناني اشتهر بمحاجراته التي قاد بها عشرة الاف رجل من المرتزقة من بلاد اليونان وسوريا الى العراق لمساعدة كورش الصغير ملك فارس ضد أخيه اردشير . وعندما تغلب اردشير على أخيه كورش عاد زينفون ومن بقي معه من افراد حملته الى اليونان مارا بشمالي العراق صاعدا مع نهر دجلة . وقد دون مشاهداته في هذه الحملة في كتابه الشهير « الصعود Anabasis ويعرف الكتاب ايضا باسم « تقهقر العشرة الاف جندي » .

والواضح انه عندما تكون الصورة صغيرة بحيث يتم حفرها على ختم اسطواني ، فانه من الصعب جدا تمييز فروق من هذا النوع ، غير ان الذيل المميز في التماثيل الكبيرة يمكن تشخيصه ذريا .

ولقد عثر في المقابر الملكية بمدينة اور والتي كانت تضم كنوزا كثيرة ، على لجام مزین بمثال صغير من الالكتروم يمثل دون تساؤل صورة حمار وحشي ، في حين دلت الفحوص التي اجريت على بقايا الحيوانات التي كانت تسحب زلاقة الملكة او جرجرها ، بانها كانت من الحمر الوحشية دون ادنى ريب .

وعندما اصبحت الخيول شائعة في بلاد الرافدين ، فانها وصلت الى هناك من الشمال ومن الشمال الشرقي وكان السكان يعرفون ذلك جيدا ، لأنهم كانوا - حيث لم ترد اية كلمة سومرية عنها - يصفونها بعبارة يمكن ان تترجم الى « حمار الشمال الشرقي » او « الحمار الجبلي » . وكانت تلك في الواقع هي المنطقة التي استمرت ترد منها وقد اشتهرت بان اصبحت من اجمل الانواع في اسيا الصغرى او اراضي فارس المستوية .

ونستطيع ان نقرأ في تاريخ هيرودوت عن القيمة التي اشتهرت بها الخيول « النيسانية » في ما ذي (*) والتي كانت اضخم من الانواع الاخرى .

ففي العصر الفارسي كان الحصان قد تأقلم تماما ، وكان مربزيان مدينة بابل الذي كان يحكم اغنى منطقة في الامبراطورية يمتلك اصطبل للخيول التي تربى محليا ، والذي كان يضم ، حسبما ذكره هيرودوت ، ثمانمائة جواد وستة عشر ألف فرسا .

(*) نيسانية نسبة الى سهل نيسان الذي تقع فيه مدينة نيسابور الايرانية الشهيرة التي تخرج فيها عدد من كبار علماء المسلمين في الفقه والحديث والادب .

ولقد كان المجنين الذي حفظت مميزاته على النصب العراقيه حيواناً متوسط الحجم رقيق الجسم نحيف الاطراف تتنصب قوادمه الامامية اعلى من اطرافه الخلفية قليلاً وذلك مظهر نجد الفنان قد سجله بكل عناءٍ .

ويحتفظ متحف اللوفر بشكيمه جيدة من البرنز يعتقد بانها من اصل اشوري ، مركبة وذات قطع جانبية منحنية . وهذه الشكيمة ثقيلة وكبيرة لابد وان كانت تتلف فم اي حصان ، وانه يصعب الاعتقاد بانها كانت تستعمل للحيوانات المدجنة بصفة خالصة كالخيول الاشورية .

واذا لم تكن هذه الشكيمه ندرة ، فان من المحتمل ان يقال عنها بانها تعود الى اواخر العهد الساساني عندما كانت الخيول في ذلك الوقت من انواع اكثـر ضخامة . ومن المحتمل ان اقدم حصان تمت اقلتمته في بلاد الرافدين كان لا يختلف الا قليلاً عن النوع الذي وجد في ايران جنوبـيـة غربي عيلام .

وكان هذا النوع الاخير حصاناً صغيراً من السهوب يشبه رأسه رأس جمل وناصيته قصيرة ومستقيمة يعرف باسم « حصان بروزولسكي » .

هناك صورة من صدف لاحـد هذه الخيـول عـثر عـلـيـها فـي مدـيـنة سـوـسـة . ولابد ان كانت هذه الصورة تخص اـحـد الـأـنـوـاع التي اكتـشـفت زـيـنـتها فـيـما عـرـفـ بـقـبـورـ لـورـسـتـانـ فـيـما وـرـاءـ المـنـطـقـةـ التي وـجـدـتـ فـيـهاـ فـيـ بلـادـ فـارـسـ فقدـ كـانـتـ كـثـيرـ مـنـ القـبـورـ تـحـتـويـ عـلـىـ شـكـائـمـ لـخـيـولـ كـانـتـ فـيـهاـ .

وكان هذا يحدث مصادفة بقصد الاحتفـالـ غيرـ انـهاـ كـانـتـ مـعـدةـ لـلاـسـتـعـمالـ بـصـفـةـ عـامـةـ . وكانتـ هـذـهـ الشـكـائـمـ قدـ حـفـرتـ بـدـقـةـ وهـيـ تـتـأـلـفـ مـنـ قـضـيبـ مـسـتـقـيمـ يـرـتـبـطـ بـقـطـعـتـيـنـ جـانـيـتـيـنـ عـرـيـضـتـيـنـ جـداـ ثـبـتـتـ بـسـيـورـ مـنـ الجـلدـ . وـبـمـاـ تـجـبـ مـلـاـخـطـتـهـ اـنـ المسـافـةـ بـيـنـ القـطـعـتـيـنـ جـانـيـتـيـنـ اللـتـيـنـ يـتـحـكـمـ بـهـمـاـ عـرـضـ التـضـيـبـ الـافـقـيـ ، لاـ تـتـلـاءـمـ الاـ مـعـ خـيـولـ صـغـيرـ ذاتـ اـفـواـهـ ضـيـقةـ ،

إي انها حيوانات تختلف تماما عن الحيوانات التي تشير اليها الشكيمة المحفوظة في متحف اللوفر .

وما خلا شمالي العراق لم تكن الخيول تحفظ اطلاقا في اصطبلات خلال الاجواء اللطيفة وانما كانت تركت في باحات واسعة تثبت فيها احجار على ابعد في الارض وتربط بها حلقة يمكن ان تربط الخيول بها .

لقد اكتشفت بقايا اصطبلا ، قيل انه يعود الى الملك سليمان ، في مدينة « مجدو » بفلسطين(*) والتي كانت في العهد الملكي نقطة مرور مكثفة لتجارة الخيول .

تبين شواهد المنحوتات ان الخيول الاشورية في الوقت الذي كانت تمتلك فيه او تسحب احدى العربات الاحتلالية ، فانها كانت تزود بغطية دقة الصنع او تسحب احدى العربات الاحتلالية ، فانها كانت تزود بغطية دقة الصنع مغطاة بالريش والاهداب والاجراس ولسوف نعود الى هذه عندما نصل الى وصف البلاط والجيش الاشوريين .

(*) مجدو : مدينة كنعانية تقع على السفح الشمالي لجبل الكرمل والى السهل المعروف باسم سهل اسدريلون .

الماشية

هناك عدد من اصناف مختلفة من الماشية كانت معروفة في بلاد الرافدين . واول هذه الانواع هو البقر الاصلي (*) . فهذا النوع الذي كان يجري توزيعه على نطاق واسع له قرون كبيرة تنمو بشكل مستقيم من جبهته ثم تتحني الى وراء واحيرا تتحني مرة اخرى وتنتهي برؤوس مدببة موجهة الى امام . وكان هذا من اكثر الانواع شيوعا وهو جد الثور الحديث في بلاد الرافدين .

اما النوع الثاني فهو بقر الحراثة (**) او الجاموس ذو القرون المتعددة الى امام من الجبهة في انحاء كبيرة .

وكانت اسيا الصغرى هي موطن هذا النوع وقد وصل الى بلاد الرافدين في عهد السلالة الاكدية حيث كان يسكن النجاد بصفة رئيسة . وهو شرس بطبيعته وتمكن مشاهدته حتى الآن باعداد كبيرة في احواض نهري دجلة والفرات ومع ذلك فانه اقل اتشارا من البقر الاصلي . وهو يحمي نفسه من الحرارة بان يغطس رأسه في اي ثقب يجد الماء فيه ولا يترك سوى خشمه ظاهرا للتنفس .

وهناك نوع ثالث ، انفرض الآن ، هو الثور الوحشي الهائل الجسم الذي يختلف عن النوع السابق قليلا لكن له مشابهات مع الثور الوحشي الامريكي .

والواقع ان هذا النوع ربما كان قد انقرض حتى في بداية العصر التاريخي لأن ذكراه كانت على الدوام ترتبط بالابطال الاسطوريين وهو يصور الى جانبهم غالبا على النصب التي تسجل اعمالهم .

فالثيران المجنحة الكبيرة ، والجن الحارسة التي كانت تحرس أبواب .

مدينة خرسناد ، كلها كانت تمثل ذكرى الثور الوحشي الذي يمكن تمييزه بالشعر الكثيف الذي يغطي الصدر والرقبة والجوانب ، كما ان القوائم الامامية للثيران التي كانت ممثلة على تيجان الاعمدة خلال العصر الفارسي في مدينة سوسة أو مدينة برسبيوليس ، كانت قد استخلصت من ذات المصدر ٠

ولقد اخذ الثور الوحشي الذي كان من اشرس الحيوانات في بلاد الرافدين ، يختفي لأول مرة في الانحاء الجنوبية ٠ وقد بقيت بعض اصناف منه في الحديق الامبراطورية في روسيا حتى قيام الثورة^(*) وما يزال عدد محدود منها يحتفظ به بكل عنایة في بولندا ٠

وكان اخر نوع منها هو الثور ذو السنام الذي جاء في الاصل من الهند ٠ ومن المحتمل ان هذا النوع لم يعد شائعا الا في العصر الاخير ، لكن هناك بعض النصب التي تبرهن بأنه لم يكن غير معروف ، ولو بصفة خاتمة في تاريخ سابق جدا ٠

(*) لابد وأن المؤلف يشير بذلك الى ثورة اكتوبر الاشتراكية التي قام بها الحزب الشيوعي بزعامة لينين في السابع من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ والتي ادت الى اول تطبيق عملي للنظام الاشتراكي الذي يقضى بنزع الملكية من كل الطبقات وحصرها بالدولة تحت شعار البروليتاريا ٠

الاغنام والماعز وصناعة الالبان

تمت تربية انواع كثيرة من الاغنام والماعز باعداد كبيرة جدا في بلاد ابل ، كما نستطيع ان تبين ذلك من اقدم النصب التذكارية فصاعدا .

وكان احد الانواع لا يرون له ، بينما كانت لنوع اخر اذان طويلة سلقة . وهنالك نوع ثالث له قرنان يبدو عليهما وكأنهما ينموان من نقطة واحدة .

وهذا النوع الثالث الذي نجده على الدوام مصورا على النصب التذكارية القديمة ، قد اقرض في بداية العصر التاريخي .

تقودنا الاشارة الى الابقار والنعام والماعز الى صناعة الحليب . هناك منحوتة من معبد العبيد يرقى تاریخها الى سلالة اور الاولى (النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد) تبين المراحل المتباينة لصناعة الالبان .

فعلى مقربة من مظلة مصنوعة من القصب (انظر ما سبق ذكره عن طريقة البناء) تجري عملية حلب الابقار ، وان الفلاح العراقي ، اي الحليب ، يجلس – كما هو حاصل الان – ليس بجانب البقرة او المعزه بل خلفها .

وحيينما يتم سحب الحليب كله يوضع في جرة كبيرة ضيقة العنق ، ثم يبدأ صاحب البقرة يخذه بحركة منتظمة . وهذه العملية تأخذ مكان عملية خض اللبن . فعندما تجتمع الزبدة يصب اللبن في وعاء آخر بواسطة مصفاة وذلك لغرض الامساك بالزبدة التي تعبأ بقوه في جرة واسعة الفم . وهذه العمليات المختلفة ما تزال تمارس حتى اليوم في هذه البلاد .

توصف كل الشحوم في اللغة الاشورية بالسمنة بكل بساطة . في حينما تكون العبارة غير موصوفة أو مقتنة بعبارة أخرى تعنى التفخيم ، فإنها تعنى الزبدة .

وهناك اشكال أخرى من السمنة ، مثال ذلك السمن الذي يستخرج من نبات السمسم ، توصف بالسمن ضمناً .

وقد صورت بعض عمليات صنع الزبدة التي جئنا على وصفها الآن على شكل مختصر من بعض الاختام الاسطوانية . ويحدث في بعض الاحيان ان نجد صفا من دوائر صغيرة بجانب الراعي وقطيعه ، فهذه الدوائر تمثل اقران الزبدة أو الجبنة في الارض .

وحين تكون القطعان ذات حجم واسع يوم كل حيوان يوم مالكه . فقد كانت القطعان التي تملكتها المعابد ترسم برمز الآله الذي كان يملكتها . وهكذا نجد ان القطعان التي كانت تعود الى الآله مردوكة توسم بعلامة مجرفة ، وتلك التي تعود الى الآلهة عشتار توسم بنجمة . وعند بدء اندلاع الحرب العالمية الاولى كانت كل القطعان التي تعود الى السلطان(*) ما تزال توسم بعلامة هلال .

هناك شيء القليل الذي يمكن ذكره عن الخنزير . فهذا الحيوان لم يكن محظوظاً لاسباب دينية كما حدث ذلك بالنسبة الى الدين الاسلامي ، وانما لانه لم يتم تربيته على نطاق واسع مثلما هو عليه الان في اوروبا الغربية .

(*) يقصد المؤلف بذلك السلطان العثماني وهو السلطان محمد رشاد الملقب محمد خان الخامس الذي تولى الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٨ على اثر الانقلاب الذي قام به جمعية الاتحاد والترقي ، والتي كان للاستعمار ولليهودية العالمية اثر كبير في ايصالها الى الحكم في الامبراطورية التركية .

الجمل

لا يمكن لاي تحر ان يكون تماما دون الاشارة الى الجمل الذي كان معروفا في البلاد منذ اقدم العصور . وقد ادخل الجمل في الاصل الى بلاد الراغدين من الجزيرة العربية ، لكنه لم يكن يستخدم على نطاق واسع حتى الالف الاول قبل الميلاد وعلى الاخص في العصر الذي يتناوله هذا الكتاب .

ومع ان الجمل ما يزال غير معروف بصفة نسبية ، الا ان العراقيين كانوا يستعملون مصطلحاً لوصفه ، مثلما فعلوا ذلك بالنسبة الى الحصان ، اذ كانوا يدعونه باسم « حمار البحر » او « حمار الجنوب » .

ويندر ان اشير اليه في اية نصوص ، ويبدو وكأن الحمار في هذا التاريخ كان ما يزال يعتبر اكثر ملاءمة للنقل بالقوافل الكبيرة .

ولقد استمر ارتباط الجمل بالبدو من العرب حيث تقبل احدى القبائل، عند الضرورة ، بكاملها مع ابلها .

وحينما اراد ملوك اشور اول الامر ، ومن بعدهم ملوك فارس غزو مصر ، تلك العملية التي تتطوي على اجتياز الطريق بين ذلك القطر وفلسطين ، توصلوا الى اتفاق مع العرب الذين تمهدوا بما لديهم من الابل ، اذ يجهزوا الجيش بالمؤن والماء .

ولقد نجم عن الحملات التأدية التي شنها ملوك السلالة السرجونية ، والبابلية الحديثة ، الاستيلاء على اعداد كبيرة من الابل ، والتي هبطت اسعارها ، نتيجة لذلك ، هبوطاً شنيعاً في الاسواق البابلية .

لقد كانت كل هذه الحيوانات الداجنة تراقب من قبل الرعاة الذين تساعدهم كلابهم في ذلك فقد كان هؤلاء يسكنون في حظائر الماشي حيث يجدون المأوى من حر النهار ، بل اكثر من ذلك اهمية ، يجدون الحماية من الوحوش المفترسة التي كانت على الدوام تتسلق الى مهاجمة القطعان .

الرعاة وكلاب الاغنام

غالبا ما يشاهد الرعاة الذين يقودون الحيوانات من قطعانها ويجلسون سوطاً ذا مقبض من الجلد السميك المضفور وهدب طويل ، مصورين على الاختام الاسطوانية . اما كلابهم التي تتميز ببنية قوية ورؤوس كبيرة والغاد ثقيلة والتي تذكرنا بكلاب « بوردو »(*) ، فانها ترى غالباً على الساح فخارية ، غير ان من افضليها نوعية والتي تبين مميزاتها بتفصيل اوضح ، يمكن ان تشاهد في تمثال محفوظ في المتحف البريطاني بين الاستعدادات الجاربة للصيد يرقى تأريخه الى عهد حكم الملك اشور بانيال ، او في تمثال نفرى صغير مؤرخ من عهد حكم الملك سوموايلو من سلالة بابل الاولى محفوظ الان في متحف اللوفر .

ولم يكن الريف مأمونا في الغالب ، فنحن نعرف من ايصال مؤرخ في السنة الرابعة عشرة من حكم الملك نبو نيديس ، ان الرعاة وقطعائهم كانوا يتمتعون بالحراسة فهذه الوثيقة تسجل ان اربعة امنان وثلاثة ارباع المئ من الفضة قد تم ارسالها ليتم دفعها لقاء تجهيزات لاربعين حراساً عينوا لحراسة الرعاة ابتداء من شهر ايلول حتى شهر اذار .

(*) بوردو احدى المقاطعات الشهيرة في فرنسا وتشتهر بانتاج انواع فاخرة من الخمور .

بيوع الدواجن

هناك عدد من النصوص التي تلقي الضوء على كل تفاصيل المعايرة بالدواجن . فنحن نعرف مثلاً الدور الذي كان الأطباء البيطريون يلعبونه وهم الذين وجدوا فعلاً في أوائل عهد الملك حمورابي .

ولم تكن تدفع لهؤلاء البيطريين أجور ثابتة عن مختلف العمليات التي كانوا يجرونها حسب ، بل كان هناك نطاق محدد أيضاً للغرامات التي كانت تفرض عليهم إذا ما جرح الحيوان أو قتل نتيجة اهملالم ، او بكل بساطة اذا لم تتحقق معالجتهم العلاج الفعال .

ولقد كان لحيوانات المبارزة من كلا الجنسين في الطبقة التي تحظى بالجواز ، والسلالات الأصلية ، اسماؤها الفردية الخاصة بها .

فهناك أحد الثيران مثلاً كان يسمى « شرور - أبي » وهذا يعني ان « الآله شرور هو أبي » أو بكل بساطة الوصف القائل « مجد حقل النصب » [انظر الفصل الثالث قسم الاحاجي من هذا الكتاب] .

وكانت الدواجن الصغيرة تصنف أحياناً حسب الوان جلودها . وعلى هذا يتحدث أحد النصوص عن ثمانين عشرة نعجة ، وواحد وعشرين حملأ ، وسبعين فطيمة وغيرها ، ويذكر مجموع ثلاثة وخمسة وعشرين رأس ماشية يضاء ، وعشرة جداء كبار ، وخمس وسبعين معزة ، ومجموع خمسة وثمانين رأس ماشية سوداء ، كل ذلك في السنة السادسة والثلاثين من عهد حكم الملك نوخذن نصر .

ويوجد عدد كبير من الإيسالات بالحيوانات الميتة ولا بد ان تكون هذه الحيوانات غير صالحة للأكل لانه لم يرد سؤال عن تقديمها الى المعبد .

وتشير الاشارة الضمنية في النص التالي عن سبب الموت ، الى ان هذه قد تكون هي القضية ، « فما عدا بقية الدواجن التي سلّمها « ادينا » قتلت نعجة واحدة وذلك في السنة الثانية عشرة من حكم الملك نبوخذ نصر » .

وقد ينتهي هذا القسم بعض الاقتباسات من المقاضاة بشأن الحيوانات الداجنة . فهناك « حكم يخص سرقة نعجة موسومة بنجمة ، من الدواجن التي تعود الى عشتار الوركاء ضمن القطيع العائد الى بستاني الآلهة . لقد سرقت من قبل فلاذ وفلان في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز ، وشهودت في حوزتهما . ويجب ان يعاد هذا الحيوان من قبلهما ولقد امر الصابط الذي يحكم الوركاء ومدير « انانا » وجمعية المواطنين الاحرار في مدينة بابل ، بأنه في نهاية شهر تموز يجب ان يعيد فلاذ وفلان ثلاثة رؤساء من الماشية الصغيرة ما عدا النعجة الموسومة بنجمة والتي شوهدت في حوزتهما ، الى الامامة « بلت » وانهما مسؤولان عن تنفيذ ذلك . في السنة الاولى من حكم الملك قمبيز » .

او للمرة الثانية موضوع مقاضاة « ان النعجة التي ولدت والمعزرة تؤلفان معا رأساً ماشية ، وسما بوسم مجرفة وقلم كتابة (رمز الآلهين مردوك ونبو) تعودان الى قطيع بستاني الآلهة نبو ، قد نقلتا من مسكن فلاذ وقد استدعت المحكمة فلاذ الذي ادعى في اليوم السادس من شهر آب في السنة الرابعة من حكم الملك كورش ، ان الحيوانين قد بيعا لي بمقدار شاقلين وثلاثة ارباع الشاقل من قبل مزارع (الآلهة) نبو » .

وقد استدعت المحكمة مزارع (الآلهة) نبو الذي افاد « اتي بعث

هذين الحيوانين الى فلان مقابل النفحة وان فلان وحده ولا احد سواه قد اشتراهما مني وقد ارسلت التقدود الى قائد^(١٢) في السنة الرابعة من حكم الملك كورش .

(١٢) يشير هذا الى تقسيم اعيتادى للسكان ، ولاغراض الضريبة ، الى طوائف من عشرة او عشرين او مائة وذلك طبقا لوظائفهم او حرفهم .

الحيوانات الوحشية القنصل

تتألف الحيوانات الوحشية التي يجب الوقاية منها ، من الاسود والفهود والذئاب والضباع والثعالب والخنازير البرية وبنات اوى ٠

وكما رأينا قبلان المزارع التي كانت تطبق على نطاق واسع كان لها حراس مسلحون ينهضون بتهيئة الدفاع ضد السراق والحيوانات المتوجهة، وحماية الرعاة ٠ فقد كانت هذه الحيوانات بصفة عامة تهاجم القطعان، والأسراب في البساتين ، او كما تفعل الخنازير البرية ، في الحقول المزروعة ، واذا لم تصب بجراح فانها لا تقوى عادة على الصمود امام الرجال ٠ وهذا يصدق على الاسود وهي من انواع الافريقية ، وقد انقرضت الآن في بلاد الرافدين ٠

ولسوف نعمد في آخر هذا الكتاب الى وصف صيد الاسود في عهد ملوك السلالة السرجونية ٠ فهي تشاهد على بصمات الاختام الاسطوانية وقد تورطت ازاء الصياديون الذين يوجهون اليها زخات من السهام الثقيلة المريضة او يندفعون نحوها وهم يحملون رماح الصيد ٠

وفي الوقت ذاته كانت المحاولات تبدو بصفة عامة للقبض على الحيوانات المتوجهة وهي حية بهدف الاحتفاظ بها اليفة في المنازل وترويض اطفالها ٠ ولا بد ان ذلك كان يتم باستعمال سهام مديبة بشكل غريب كان ما يزال يجري استعمالها في عصر القبور الملكية في اور ، والتي اكتشف فيها عدد من هذه السهام ذات شكل مثلث وقد استبدل اللسان بقاعدية مثلث مقرعة خليلا ٠

فهذا النوع من السهام يمكن ان يصيب الحيوانات الصغيرة بصدمة وبذلك يسهل امساكها ، في حين يتم توهين الحيوانات الكبيرة بما تفقده من الدم بصفة متكررة وبذلك يتم الامساك بها بيسر نسبياً .

وكان المصائد تستعمل ايضاً وهي تتالف من حفر خفية يتم حفرها في الطرق المؤدية الى فتحات تتسلل اليها كل انواع الحيوانات ، لتنفسي ظمأها ، حيث تكون عواقب ذلك مهلكة .

ومع ذلك فان بعض الحيوانات يمكن تدجينها كحيوانات اليفة ، ومن بين ذلك الفزان ، والظباء التي كانت قطعانها الكبيرة تجوب البلاد ، وكذلك النعام الذي كان شائعاً في العهد الاشوري .

من أشهر الموضوعات التقليدية في النحت في العصر الاشوري الحديث ، هو منازلة البطل للحيوانات المت渥حة والذي احتلت النعامة مكانه بكل صراحة .

طرق النقل

ادى بنا وصفنا للحياة في الريف الى تحويل انتباها نحو الملاحمه في القنوات ، كما انه يوجهنا الى موضوع النقل البري ٠

غير انه في الوقت الذي تكون فيه الزيادة في وزن الاتصال التي يجرى نقلها في العالم الحديث ، تعتمد في النقل على زيادة ثابتة في عدد الطرق ، فاننا وجدنا ان مثل هذا الامر كان يصدق تماما على مسلك التجارة في القدم ، حين لم تكن هنالك — عدا بعض الطرق الكثيرة القليلة بين المراكز المهمة والتي لا نعرف اشكالها على وجه الدقة — طرق بالمعنى الحديث وانما مجرد دروب مزقتها وسائل النقل التي اوجدتها واملتها طبيعة الارض بصفة حيوية

في المناطق الصحراوية كانت تتم الاستفادة من التربة الصلدة ، اما في الامكنة الاخرى فكانت الدروب تتلوى بقصد الاستدارة حول العقبات التي تعرضها ولا سيما الاهوار وتقرب من الانهار في منطقة المخاضات ٠

وحين كان السطح الكلي للارض قد تفكك كليا نتيجة الاندثار كان الطريق الجديد يفتح ، ان امكن ، بجانب الطريق القديم ، فان اخفق في ذلك نشأ درب جديد تماما بصفة تدريجية ٠

كانت وسائل النقل في العصر الاشوري بصفة عامة قليلة في عددها وصغيرة جدا فهي تتالف لكل الاغراض والمقاصد من محض عربات صغيرة قابلة لحمل بضعة اكياس ٠

وما خلا العربات العسكرية في الواقع (سيرد وصفها في قسم العربات الملكية في الفصل الثاني من هذا الكتاب) يبدو واضحاً بأنه حتى الوسائل التي كانت تنقل مخازن الجيش لم تكن جوهرية تماماً ، وإن قافلة الامم المتحدة كانت تتتألف في اعظم قسم منها ، من عربات خفيفة صورت على المنحوتات الاشورية .

وكانت تعقب الاسرى عربات صغيرة ذات عجلتين تسحبها الشيران والحمير ، وهي تحمل النساء والاطفال الذين تم اسرهم ، وكذلك القليل من الامم المتحدة .

القوافل

ومع ذلك بقيت القافلة تؤلف الوسائل الأساسية للنقل . فقد كانت الحيوانات تسير على انفراد فوق اراضي وعرة ، وكانت الجميرا هي التي تقود نفسها وقد حملت حصتها من الاثقال .

لقد ادى ادخال الجمل الى بلاد الرافدين ، والذي يستطيع ان يحمل من الاثقال اكثر بكثير مما يحمله الحمار ، الى تأثير عظيم على حركة التجارة التي كانت تنقلها القوافل .

وفي مقدورنا ان تتأكد من مدى ما كان يعنيه هذا الامر في عصر متاخر (القرون الاولى بعد الميلاد) من الرخاء الذي كانت تنعم به مملكة تدمر ، وعن طريق تمحيص ميزان الرسوم الكندرية التي نشرتها المدينة . فهذا الميزان يحدد الضرائب الواجبة الدفع عن السلع التي تنقلها الحمير والجمال بالتابع ، وان الضرائب على السلع التي تنقلها الجمال تبلغ خمسة اضعاف تلك التي تنقلها الحمير .

لقد تعاظم النمو السريع للتجارة في بلاد اشور تعاظما قويا بوجود الابل ، التي لم يكن الوارد منها قبل العهد الاشوري ، يساوي اكثر من من وثلثي المن من الفضة ، والتي غدت شائعة الاستعمال نتيجة الحملات والغارات العسكرية التي كانت تشنها السلالة السرجونية ، الى درجة ان البعير الواحد لم يعد يساوي فعلا سوى نصف شاقل من الفضة .

الحياة اليومية تحية الصباح

اذا ما بحثنا الفروق الاساسية في المزاج بين البابليين والمصريين ، فان من العسير ان تدهشناحقيقة ان من النادر بالنسبة اليها ان نمتلك ايها من الوثائق القليلة النادرة الغنية بالتفاصيل والتي تتبع احياناً بشعور مقبول من المرح ، تستخلص منها معلومات منفصلة عن الاخرين ٠

تحفل قبور المصريين بمناظر الحياة اليومية بالإضافة الى عبارات من تعلقات مرحة ، فهم حتى في الموت ما يزالون يحتفظون باحساسهم بالمرح و بتلذذهم بالحياة ٠

وفي مفارقة ملسوسة نجد ان الاحساس بالحياة العراقية الداخلية عندما يأخذ طريقه في الظهور على احدى النحوات ، فانه لا يكون الا بصفة عرضية بالنسبة الى الموضوع الرئيس الذي يتمثل دوماً في تمجيد الآلهة او احد الملوك ٠ فليس هنالك من اهتمام واضح بعامة ابناء الشعب على غرار ذلك . وان الضوء الضئيل الذي يلقى على بعض مظاهر الحياة العائلية قد وصل اليها مصادفة ٠

وهكذا فاتنا نستطيع من نص طبي عجيب ان نستشف بان العوائل البابلية كانت قبل احداثها الاخرى عندما تلقى تحية الصباح ٠

وكان تأثيرات الشلل بالحسور معروفة جيداً ، حيث كانت الفكرة الطبية تهتم بها اهتماماً جدياً ، و تعالج السكر كما لو كان قضية نسم حقيقية . فالقاعدة تعلن بكل اهمية (اذا ما تناول شخص ما كمية كبيرة من خمر قوية ، واذا ما اضطرب رأسه ، واذا ما نسي كلساته ، واصبح حديثه هذراً ، واذا ما شدت افكاره ، وتزججت عيناه . فان علاج ذلك هو ان تأخذ (تعقب ذلك قائمة تضم احد عشر دواء) وأن تسزجها بالزيت والخمر عند اقتراب

الآلهة «غولا» (*) (في المساء) • أما في الصباح وقبل ان تشرق الشمس ، وقبل ان يقدم اي فرد على تقبيل المريض ، فدعا يتناول الدواء فاhe سوف يشفى) .

الزينة وقص الشعر واللعبة

ان القسم الاكبر من الاهتمام بالزينة (التواليت) سوف يرد عند وصف حسني الحال نسبيا ، فكما ستر فيما بعد كانت للقصور وبيوت الاغنياء حماماتها الخاصة بها ، غير ان عامة الشعب العامل كانت تمارس الاستحمام على ضفاف القنوات او في احواض في باحات المنازل ، ويحدث احيانا ان تتغير هذا الاسلوب باستعمال حمامات بخارية مأخوذة عن الطراز السكريتي (**) ، والذي يتتألف من ماء يتدفق فوق احجار مسخنة تسخينا عاليا في غرفة مغلقة ، واستعمال التدليك والادوات الفخارية التي كانت تحل محل المحکات في العالم القديم •

ومع ذلك فقد كانت كل مستويات المجتمع ، ما عدا اوطاها جدا ، تعتبر ان المظهر الجوهرى لزيتها ، هو ان تمسح البدن والشعر بالزيت ، وهذا يستخدم لغرضين هما تعليم البشرة التي كانت تتشقق وتتصلب بفعل الجو الجاف والعواصف الرملية الظاهرة جدا ، وقتل الديب في الشعر •

فالزيت يختنق الصبيان والطفليات التي كانت شديدة الوطأة في بلاد الرافدين مثلما هي عليه اليوم في الشرق وفي كثير من البلدان الغربية ايضا •

(*) الآلهة كولا Gula هي الـهـة الصـحة لـدى السـومـريـن وـتـصـور دـائـما مع كلـب يـكون هو تـابـعـها أو رـمزـها .

(**) السكريثيون هم الاقوام التي استوطنت اراضي الروسيا الحالية ، وكانت لها صلاتها مع بلاد الرافدين القديمة ، وقد ذكر السكريثيون في المراجع العربية القديمة باسم الاشقدوديين •

ذلك لأن من الملاحظ ، كما تبين المنحوتات ذلك ، أن كل طبقات الشعب كانت تحتفظ باللحى الكثة والشعر الكثيف ٠

لقد كان السومريون حليقى اللحى ظافا . ولكن البابليين كانوا يحتفظون باللحى التي كان البعض منها قصيرا . في حين كانت لحى كبار الموظفين طويلة ومقصوصة بشكل مربع ٠

والواقع ان هذا كان هو الزي الشائع بين الرجال الكاملي النضج ، وذلك في مفارقة ظاهرة للشفاه الرقيقة . والذقون الحليقية لمدد كبير من الرجال ٠

عندما اكتشفت المنحوتات الآشورية سرعان ما لوحظ ان اولئك الرجال حليقى اللحى ، ذوى الوجوه المكتنزة التي تكشف عن ميل طفيف نحو السمنة ، كانوا من الخصايا الذين يشتلون مظهراً مألوفاً في البلاطات الشرقية ٠

ومن ناحية اخرى لاحظ الباحثون ايضا وجود عدد كبير منهم . وانهم كانوا في الغالب يؤمنون وحدات عسكرية كاملة ، واخيراً كان المتطرق عليه بصفة عامة ان الفرق كان مجرد طريقة مؤقتة لتمييز الفلمان ، او الفتىان (الذين يشتهرون بمظهرهم بين الخدم والجنود) عن الرجال الكبار الذين ينبغي ان يتآلف منهم المحاربون في الجيدين ٠

واذا ما تركنا جانبا اعضاء البلاط وكبار الموظفين الذين سينحصر طرائق حياتهم في القسم الثاني من هذا الكتاب فان المنحوتات الثالثة تبين لنا نوع اساليب تصيفيف الشعر التي كانت موجودة في بلاد الرافدين في العهد الآشوري القارسي ٠

ويبدو ان الاسلوب المفضل لدى السكان المحليين ، وان كان على نطاق اصغر واقل دقة ، هو اتباع الزي الذي اقره القصر ، في حين كان

الاسلوب الذي تبناه الاجانب الذين كانت تخص بهم البلاد نتيجة الرق وقوافل النقل ، كان اقل بساطة وتعقيداً .

الصابون

لا يمكن لوصف الزينة البابلية ان يكمل دون الاشارة الى متوج الصابون الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، والذي ادى اختفائؤه الى تنشيط السوق السوداء في فرنسا قبل سنوات قلائل خلت .

لم يكن البابليون يعرفون الصابون النقي رفيع الجودة ، لكنهم كانوا يستعملون اما مزيجاً يصنع محلياً ، او نوعاً كان يباع بصفة عامة ويوضع عن المتوج المحلي .

ففي أوائل عهد سلالة أور الثالثة كانت الرقم الطينية تشير ما بين المخصصات المعينة لبعض الأفراد ، الى زيت نبات شخص بأنه نوع من الحلفاء كان رماده يحتوى على الصودا او البوتاسي وان هذا الرماد ما يزال يستعمل حتى اليوم في اعمال غسل الثياب .

فيمزج هذا الرماد مع الزيت والطين ينتج متوج لا يختلف عن الصابون في اوروبا المحتلة . وكلنا نعلم ان هذا النوع من الصابون كان اقل تنظيفاً من المدلكة .

الحلاق

Gallábu يقودنا حديثنا عن الشعر واللحى الى مهنة الحلاق (غالابو) والذى كان اسمه في اللغة السوميرية يعني « اليد العليا » . فهو لم يكن يؤدي العمل الذى يؤديه الحلاق العصرى حسب ، بل انه كان يقوم ايضاً بحلق الكهنة والاتقيناء معاً بطريقة نصت عليها الطقوس ، وكذلك الارقاء اما لكي

يعتبر حلق قمة الرأس علامة تشخيص اضافية للعلامة الاعتيادية ، او لتهيئة البشرة حين يراد تطبيق الوسم ٠

تعطى اهمية رمزية للشخص الذي تم حلقاته بهذه الصفة ٠ ذلك ان القوانين تبيّنا بانه اذا ما انكر ولد ، او ولد متبني ، ابويه بان قال لهما « لست ابى ، ولست امي ، فانه يحق لهما ان يحلقا رأسه ويبعاه كرقيق ٠

الباس الرجل

عندما تأتي الى الاهتمام بالملابس التي كان الرجال البابليون يلبسوها، يتوفّر لدينا وصف اورده هيرودوتس ليس للبس البلاط ، وانما – وذلك اقرب الى غرضنا الحالي – للملابس التي كان يرتديها رجل الشارع ٠

ومع اذ، الرجال في عصره كانوا اكثراً ميزة من الرجال في الوقت الحاضر . فان هيرودوتس لابد وان كان ، بوجهه نظرة الموضوعية ، يحاول ان يعبر عن نفسه بعبارات صريحة الى سامعيه من الاغريقين . ففي كلماته الخاصة « كان البابليون يرتدون في الدرجة الاولى اردية الكتان التي كانت تهبط الى اقدامهم ، ثم تأتي الاردية الصوفية في الدرجة الثانية ، وفوق ذلك تأتي العباءة » ٠

وكانوا يتعلّون الصنادل ، وهي خاصة ببلاد الرافدين ، والتي كانت تحمل شبيها بالاحذية التي كانت تستعمل في « هوبيوتيا » (١٣) ٠

وكانوا يدعون شعورهم طويلاً ، ويلفون العمائم حول رؤوسهم ، ويتعطرون بالطيب ٠

وكان كل فرد يحمل في يده ختماً وعصا دقة الصنع ، حفرت عليهما بعض الادوات من امثال كبش او نعجة ، او وردة او زنبقة او نسر ، ولا يوجد احد يحمل عصا دون اداتها الخاصة بها ٠

وكانت عادة حمل العصي التي وصفها هيرودوتس قد اكدها شواهد المنحوتات ، غير ان هذه لا تصور سوى الشخصيات المهمة كثيراً ليس الا ، وعلى الاخص الملك ، وان العصا التي تتحدث عنها هنا ليست عصاة للتوكأ عليها بل هي صولجان طويل يعد رمزاً للقوة .

ومع ذلك فان ايام من الرسوم التي نمتلكها لا تبين اي دليل على العمل المتقن .

وليس هنالك من دليل مباشر يبين ما اذا كان الرجال الاحرار الذين لم تكن توجد مناسبة لتصويرهم على المنحوتات ، على حدة من اولئك الذين يؤلفون الحاشية الملكية ، ان هؤلاء الاحرار قد اعتادوا ان يحملوا العصي ، ولكن من المعتقد تماماً انهم كانوا يفعلون ذلك ، لأن مثل هذا الاجراء لم يكن غير معروف في مناطق معينة من العالم السامي ، وفي الجبنة على سبيل المثال .

ان مثل هذا الوصف ينطوي في الدرجة الاولى على حسن الحال من السكان ، والذين قد يلتقي المرء بهم في الشوارع وهم ماضون الى اشغالهم . اما الملابس التي كان الصناع والعمال يرتدونها ، فانها اقل هنداماً ، وهي تتالف من جلباب يصل الى حد الركبة له نصف اردان ويشد بحزام عند الصدر . ومثل هذا الجلباب لم يكن يرتديه الصناع وحدهم حسب وانما الاجانب بصفة عامة .

فالعاملون في مجالات النقل أو البناء غالباً ما يشاهدون في المنحوتات وهم يرتدون مثل هذه الملابس .

ولعل من المصادفات العجيبة ان نجد تماثيلين هائلتين في خرسناد ، يعتقد بانهما يمثلان البطل غلامش ، يرتدى أحدهما مثل هذا الجلباب البسيط ، بينما يرتدى الآخر بالإضافة الى ذلك جلباباً طويلاً نصف مفتوح يصل الى

الارض . ويكون الجلباب الاول الذي تحته ظاهرا .

على ان معظم الملابس المتقنة الصنع تطرز احدى حفافتها بحاشية
مشربة .

وكانت الاخذية تتالف من شباشب منبسطة ذات كعب مطبق يشد على
الكاحل بسير جلدی بين الاصبعين الاول والكبير .

ولسوف تخلى هنا عن وصف المجوهرات التي كانت تلبس الى ان ظلت
على تناول مجتمع القصر .

وكان الاسلوب الاعتيادي لسد الشعر لدى العامة عبارة عن شريط
بسيط يلتف حول العجفة ويقى الشعر مشدودا . او اذ يكون في بعض
الاحيان ربطه معقدة ييدو عليها بانيا تشنل نوعا من مشد مصنوع من قطع
ذات اشكال منفصلة .

وتشير العناية التي اظهر بها النحات هذا المثل مطابقا للرأس . الى انه
لم يكن يحاول ان يرسم عمامه تكون كبيرة بشكل مفارق . ذلك لأن العمامه
كانت في الواقع معروفة في هذا العصر . لكن الشكل الذي كان الصناع
يرتدونه يتالف . ليس من قطعة طويلة من معدن جيد تلف حول الرأس . بل
من شريط فضي وضيق يعقد في قمة الرأس .

الازياء النسوية

كان لباس النساء شديد البساطة . فهو طويل ويخفى الجسم . ولا بد
وان حدثت تطورات في الزي حتى : لكن لم تحدث تغيرات مثيرة بشكل
ملسوس ضيلة عصور طويلة من الزمن ، ولم يكن هناك ما يشبه التبدلات
السريعة التي تعودنا عليها الان .

ففي العصر البابلي المبكر كانت ملابس النساء البابليات ، التي تتالف

من اثواب مشابهة تماما لتلك التي يلبسها الرجال ، قد اشتهرت بانها كانت على الدوام اكثر تطورا ، ولو بشكل طفيف ، من ملابس الرجال ٠

في المرحلة المبكرة كان الرجال في رسوم الاحتفالات الدينية غالبا ما يصورون عراة ، في حين تغطى الاطراف السفل من النساء بقطعة من مادة جمعت في شكل ورقة ٠

اما في المرحلة الثانية فكان الرجال يرتدون قطعة من مادة مختلفة الطول تغطي النصف الاسفل من ابدائهم ، في حين تغطي الكتف اليسرى لدى النساء بطيئة من ملبس ٠ اما في المرحلة النهائية من التطور ، وعندما كان الرجال يرتدون ملبيسا يشبه الكساء الروماني الذي لا يترك سوى الذراع اليمني عارية ، فقد غدت كل النساء معا تغطيان بهنائيات من مادة تتجمع من الامام ٠

الختم

كان الختم من الممتلكات التي لا يمكن الاستغناء عنها اطلاقا ، لانه كان الوسيلة التي يمكن بها تصديق احدى الوثائق التي يتم وضعها ٠

ففقد كان كل بابلي من خارج اوطا الطبقات يمتلك ختمه الخاص به والذي قد يكون واحدا من شكلين مغایرين ولعل اقدم الامثلة المعروفة لهذه الاختام يرقى تاریخها حتى الى عصر قد سبق اختراع الكتابة ، ففي ذلك التاريخ كانت تستخدم كعلامة تشخيص شخصية ، وتستعمل بطرق مختلفة لا تختلف اطلاقا عن الاختام الرسمية في الوقت الحاضر التي تكون فعالتها ادبية اكثرا منها عملية ٠

عندما كان العراقي يغادر منزله كان يربط الباب الى صاريته بحبال يلصق عليه قطعة صغيرة من الطين ثم يختمه ٠ فهذا الختم يبين له عند عودته ما اذا كان احد قد زاره في غيابه ٠

وكانت الاختام تستعمل بذات الطريقة لختم الاووعية وعلى الاخص جرار الطعام . وقد تم اكتشاف عدد كبير من قطع الاختام المحطمـة التي كانت تستعمل لحفظ محتويات الجرار ، اثناء التقييات .

فحين يتم ملء الجرة ، تغطى فتحة العنق بقطعة من الكتان تلف بشدة عدـة مرات حول العنق . ثم يغطى ذلك كله فيما بعد بطـبقة خفـيفة من الطـين يـضع مـالـكـها خـتـمـهـا عـلـيـهاـ فيـ نقاطـ مـخـتلفـةـ .

ان من المهم بصفة خاصة ان نجد بـان هذه الطـرـيقـةـ كانت تستعمل في عـصـرـ مـبـكـرـ جداـ ، ليس لـانـهاـ دـلـيلـ علىـ درـجـةـ مـحـدـودـةـ منـ التـقـدـمـ حـسـبـ . بل اـكـثـرـ منـ هـذـاـ اـنـهـ كـانـ الدـلـيلـ الـذـيـ يـعـرـضـ الحـالـةـ الـفـسـيـلـةـ لـلـإـيمـانـ وـالـذـيـ يـمـكـنـ تـقـيـيـرـهـ بـاـنـ عـقـيـدـةـ مـقـبـولـةـ بـصـفـةـ عـامـةـ لـحـفـظـ الـثـرـوـةـ عـنـ طـرـيقـ القـانـونـ . فـحـينـماـ نـشـرـ بـمـحاـوـلـةـ تـحـديـدـ هـذـاـ القـانـونـ نـجـدـ اـقـسـنـاـ تـجـاهـ مـشـقـةـ .

ان من المستحسن ان نظن بـانـ وـرـاءـ ذـلـكـ يـكـمـنـ مـفـهـومـ . يـمـكـنـ تـقـبـلـ بـيـسـرـ ، للـحـمـاـيـةـ الـأـلـهـيـةـ الـتـيـ كـانـ عـلـىـ الدـوـامـ تـبـرـزـ كـخـطـوةـ اوـلـىـ لـدـىـ السـكـانـ الـبـادـئـيـنـ . فـطـبـقـاـ لـهـذـاـ الـمـبـدـأـ تـكـوـنـ الـمـدـيـنـةـ مـلـكـاـ لـلـأـلـهـ الـذـيـ اـخـتـيرـ حـانـيـاـ لـهـاـ . ذـلـكـ اـنـ حـكـامـ الـمـدـيـنـةـ حـتـىـ وـاـنـ كـانـواـ يـحـمـلـونـ لـقـبـ مـلـكـ ، فـانـهـمـ لـيـسـواـ اـكـثـرـ مـنـ نـوـابـ لـلـأـلـهـ الـذـيـ كـانـ سـلـطـتـهـ الـمـادـيـهـ وـالـادـيـهـ مـعـاـ ، قـلـ رـفـيـعـةـ . فـالـمـعـبدـ هـوـ مـسـكـنـهـ مـثـلـمـاـ يـكـوـنـ الـقـصـرـ مـنـزـلـ الـمـلـكـ تـامـاـ ، وـسـلـطـاتـهـ هـيـ سـلـطـاتـ بـشـرـ . اوـ بـالـاحـرـىـ بـشـرـ سـامـ .

لـقـدـ كـانـ الـعـرـاقـيـ - وـسـوـفـ نـحـصـ مـؤـخـراـ فيـ هـذـاـ الـكـتـابـ هـذـاـ اـنـتـهـيـومـ ذـاـهـ وـتـأـجـهـ - يـتـقـبـلـ تـمـيـشـ عـلـىـ يـنـطـوـيـ عـلـىـ حـقـيـقـةـ تـسـتـمـرـ طـلـاماـ بـقـيـ التـمـيـشـ ذـاـهـ . فـاـذـاـ كـانـ الخـتـمـ فـيـماـ بـعـدـ يـحـمـلـ عـلـامـةـ هـيـ شـعـارـ مـقـبـولـ تـامـاـ كـتـمـيـشـ لـلـأـلـهـ ، وـكـانـ الـبـصـمةـ قـدـ تـغـيـرـتـ ، فـانـ الـضـحـيـةـ الـأـوـلـىـ لـلـأـلـهـ سـيـكـونـ هـوـ الـأـلـهـ الـذـيـ وـضـعـتـ تـلـكـ الـمـادـةـ تـحـتـ حـمـاـيـتـهـ وـيـتـبعـ ذـلـكـ سـخـطـ الـأـلـهـ وـعـقـابـهـ .

ان من المعتقد بما فيه الكفاية ان تكون هذه الفكرة قد لعبت دورها في عملية حنف الملكية عن طريق الختم وحده ، وان كسر ذلك الختم سوف يحرك السلطات المدنية ، دون ريب ، وهي المسؤولة بصفة مباشرة عن حماية السكان .

اما الشكل الثاني الذى كان عليه الختم ، والذى يكون في الواقع اكتر ملاءمة للمواد اللينة التي يبصم الختم عليها ، فهو الختم الاسطوانى الذى يتتألف من اسطوانة صغيرة مصنوعة عادة من العجر او الفخار عليها شعار او مشهد منضم حفر على السطح المنحني . فاذا ما دحرج هذا الختم على طين طازج فان السمار يعاد رسمه بصفة محددة في شكل منحوته بعض النظر عن مساحة السطح الذي يشمله ، وبذلك يضمن الحماية الكاملة والمطلقة التي تكون مصورة بالنسبة للمادة التي تحمل بصمته .

لقد اظهر سكان بلاد الرافدين خلال تأريخها الطويل ، في هذا الاجراء وليس اقل منه في اجراءات اخرى كثيرة ، نظرتهم المحافظة بالنظر الى شكل الختم الذى اختاروه .

في اوائل عصر فجر التأريخ كان اول طراز ظهر الى الوجود هو ختم البصم^(١٤) . ثم اعقب ذلك بصفة مباشرة ، الختم الاسطوانى الذى بقى الطراز الوحيد المستعمل حتى نهاية العصر الآشورى الحديث ، عندما تم استبداله لدى البابليين بالعودة الى ختم البصم . ولقد استعمل الآشوريون والفرس كلا النوعين من هذه الاختمات .

وفي خلال الفين وخمسمائة سنة من تأريخ بلاد الرافدين كانت مواضيع الشعارات على الاختام قد تغيرت لاتها وان كانت مرتبطة بها لكنها لم تعد تتشل روحيتها التي بقيت في اكثيرية الحالات الدينية في الدرجة الاولى .

(١٤) ختم البصم او الطبع يقصد به الختم المنبسط الذي يكون ذا اشكال مربعة او مستطيلة .

دليل اللوح

- ١ ، ٢ - ختم وبصمة داريوس الاول (بالحجم الحقيقي) •
- ٣ - الآلهة عشتار سيدة المعارك تقف على اسد ويدها سهم مع اشجار نخيل ورعو [القرن الثامن الى السابع ق . م] •
- ٤ - ختم موشيش نورتا الملك والغريت مع شجرة مقدسة ، وفي اعلى القرص المجنح (رمز الآلهة آشور سنة ٥٨٠ قبل الميلاد) •
- ٥ - صياد راكب بيدلة عسكرية مع قرص تسمى وكوكبة الثريا •
- ٦ - شكل مجنح وثيران مجنحة (من القرن الثامن حتى القرن السابع قبل الميلاد) •
- ٧ - ضابط يتناولوجبة طعام بسرعة وقد اتصب وامسك بسهم في يده وامامه خادم يذب الذباب • من القرن التاسع الى الثامن قبل الميلاد •
- ٨ - رقمي ييدوكي يبين رسالة وبصمة ختم •

وجبات الطعام ، الغizer

سوف تعطى وجبات الطعام في العراق الحديث فكرة ما عن صمام الفرد العراقي في العصر الآشوري • فلم تكن تفرد هناك غرفة على حدة كفرفة الطعام ، وكانت وجبات الطعام يتم تناولها من صحن يوضع اما على الارض ، او على طاولة واطئة ، مثلما وحيثما يود الجائع ذلك ، وليس في ساعة محددة • وكانت الوجبات ذاتها وفي اعظم جزء منها معتدلة جدا ، كما ان الطبقات الفقيرة لم تكن افضل حالا في هذا الشأن مما هي عليه الان •

كان قوام الطعام هو الغizer ، اذا كانت تلك هي الترجمة الصحيحة لاحدى القوائم التي تخص الطعام • وعلى كل حال كانت المواد الغذائية هي

التي تتحل مكان الخبر ولو اتنا نستطيع ان نحدس ما كانت هذه المواد تشبهه حقا . فكل ما نعرفه هو ان الخبر في بلاد الرافين كان يماع ليس بالارغفة ولا بالوزن ، بل بالحجم ، وذلك سبب يدعو الى الاعتقاد بان الطعام موضوع البحث ربما كان نوعا من مادة دقيق خالية من النشا ، تشبه العكك الايطالي .

ومع ان ذلك قد يصدق على اقدم عصر تأريخي ، فان الخبر في العصر الآشوري كان يخزى بالشكل الذي ما يزال يوجد به في الشرق : ونعني به على شكل فطيرة مطبوخة قليلا ينفصل طرافها بحرارة الموقد .

يوجد عدد من اصناف مختلفة من الخبر في الوقت الحاضر متوفرة في أنحاء متباينة من بلدان الشرق الاوسط . ويصنع أحد هذه الانواع بالصاق قطع منبسطة من العجين على جدران فرن ساخن تقلل معلقة بها الى ان تنضج .

وكانت القبائل البدوية من ناحية اخرى تتناول خبرا يخزى على شكل فطيرة على سطح موقد معدني (*) .

فهذا الموقد يطبق على النار بسطحه المدبب الى اعلى ثم تلقى فوقه طبقة رقيقة جدا من العجين بسرعة .

ومع ذلك فهناك نوع اخر من الخبر يتم تناوله في ايران . ويتالف هذا النوع من شرائح مسطحة يتم صنعها بنشر طبقة من العجين على مفرشة من أحجار ساخنة جدا تصف فوق قطعة صلبة وناعمة من الارض . ذلك ان كتلة العجين التي تسلق قليلا بدلا من ان تنضج ، يجري تحريكها في نقاط تلامس بها الاحجار .

(*) يقصد بذلك الوعاء المعروف عندنا باسم «صاج» ويكون من صحن معدني مدبب الشكل يوضع فوق اثافي على النار ويخزى الخبر عليه .

وعندما كنا نتقب في ايران كنا نجد ان عمالنا غالبا لا يعرفون غير هذين النوعين الاخرين من الخبز القديم بما في الواقع اكثر خشونة من النوع الاول الذي جئنا على وصفه ولو ان الاوربيين يفضلون في الغالب ان يكون الخبز على شكل فطائر . ولغرض تنويع وحدة النسق يتناول العمال كلا النوعين سوية .

لدينا حسابات يرقى تأريخها الى سلالة اور الثالثة ، تتناول كميات من الطعام الذي كان يوزع في يوم واحد من الشهر على عدد مختلف من الذين يحصلون عليه . فقد كان هؤلاء يحصلون عادة على كمية من الخبز لا تزيد على « الفالون » الا قليلا ، بالإضافة الى شيء من البصل الذي كان في ذلك الوقت مثلما هو عليه الان في الشرق ، يعتبر التابل الاعتيادي بالنسبة الى الخبز . وقد كان البصل يباع على شكل شدات مثل الثوم في الوقت الحاضر ، ويتم تناوله فجأة مثل الخيار .

الشراب ، الجعة و خمر شعر النخيل

كان الشراب يتم توزيعه ايضا بمعدل يزيد عن الفالون للفرد الواحد . ولم يكن هذا الشراب ليتألف من نوع من الجعة التي تستخلص من الشعير حسب ، وانما عصير شجرة النخيل الذي يتم الحصول عليه بشق اعلى جذع النخلة وجمع العصير المتساقط منها ، ففي هذه المرحلة يكون العصير غير ضار ، لكنه يخسر فيصبح مسكونا جدا بعد فترة يومين او ثلاثة ايام . ولقد كان البابليون يفرقون بين الشراب المسكر وغير المسكر^(١٥) .

الغمس

ينطوي الجواب على التساؤل عما اذا كان العراقيون والبابليون قد عرفوا الخمرة وشربوها ، على أن الكرم لم يكن قد تأقلم تماما في شمالي بلاد الرافدين حتى الالف الاول قبل الميلاد .

ومع هذا فن ذلك العصر فنا بعد لم توجد اعداد كبيرة من الرقم الطينية نسجل المتأخرة بالخبر حسب ؛ بل وجدت كذلك غلال كروم منتظمة كانت شهرتها تتغير طبقاً لمناطق اصولها تلك التي كانت تoser من دون ان تتفسر ولا سيما الانواع المعتبرة بصفة رفيعة ٠

كانت شجرة الكرم تعتبر اصلاً وكأنها قد نقلت من القطر العجمي في الغرب ؛ وعلى الاخص من لبنان لأن نموها هناك ما يزال يعد من بين اعلى الانواع التي يجري تقسيمها في الشرق ٠

ففي ملحمة غلامش نجد البطل في تجواله حتى الساحل يصل البلد العجيب الذي تسوس فيه الكروم ، حيث يتحدث الشاعر بایجاز عن جمال شجيرة عناقدها اللازوردية تستحق ان ينظر اليها ٠

والواقع ان غلامش كان قد مر بكروم الاعناب السوداء اللون ٠ ومما تجدر الاشارة اليه انه كان يجد سبيلاً . خلال اسفاره ، يقوده الى مكان شبه علوى الى ابواب حاته ينصحه بان يحياً حياة مرحة ٠

ولقد نسبت ذات الحرفه الى امرأة افترض بانها كانت المؤسس لاحدى السلالات الحاكمة القديمة والغنية في مدينة كيش على مقربة من مدينة بابل ٠

(١٥) هناك مدد من عصير الفواكه التي تحتوي على مادة السكر من امثال عصير التبن ، وكذلك العصير الذي يستخلصه أهل المكسيك من نبات الصبر الامريكي ويسمونه باللغة المكسيكية باسم (بلكه) Pulque فعندما يوشك هذا النبات ان يزهر . تبدأ ساق كبرها كبر شجرة صغيرة بالنمو من وسط النبتة والتي اذا ما تركت تصل الى ارتفاع قائم ، تشرع بقذف رشات متدققة من اهل . فاذا ما قطعت هذه الساق عندما تبدأ بالنمو فان العصير الذي كان سينفذ الزهرة ، يبدأ بالتدفق لمدة أيام حيث يتم جمعه في احواض . في هذه المرحلة يكون العصير حلو المذاق ناصع البياض ، لكن ما سرعان ما يسري التخمر اليه فيصبح مادة كحولية جد قوية ٠

ولما كانت شريعة حمورابي تبين ان الحرف الحقيقة لباب الحانة ليست محترمة اطلاقا ، فان هذه الاشارة دليل ثابت وصريح على وجود تجارة واسعة النطاق للخمر وجدت اصلا في الاقطان التي تناхم شرقى البحر الايض المتوسط .

لقد كان المعتمد خلال اقدم العصور في الشرق الادنى ان يربط التقدم الفنى الناجع او الاختراع باسم شخص ما يعتبر هو البدى ، وان كل الاختلالات تبين ان بوابى العهات هؤلاء كانوا يجسدون واحدا من اهم اشكال المتاجرة بين الساحل وداخلية البلاد .

كما ان هذا يقدم مثلا جيدا على غرام العراقيين ، بل الساميين بصفة عامة في الواقع ، بالتوريات .

لقد حفرت على واجهة القيثارة التي اكتشفت في المقابر الملكية في اور ، صور عدد من الحيوانات في مواقف بشرية ، وشاركت في وظائف بشرية . وقد صور الحمار بصفة موسيقار مثلا صور به تماما في تمثال من العصر الرومانسي .

واذا ما عدنا الى المؤخرة نجد غزا صغيرا يمسك بابريق خمر وقدح ، وان اهمية ذلك هي ان الكلمة الاكدية « سبتيو » Sábitu تستخدمن لمعنى هما « الغزال » و « بواب العانة » .

أشجار النخيل

سبق ان رأينا بان الخمر المستحصل من أشجار النخيل كان يعتبر مظهرا مهما من مظاهر الاقتصاد العراقي ، وان علينا ان نتفق القليل من الوقت للاهتمام بشجرة النخيل وزراعتها لانها كانت واحدة من مصادر الثروة الطبيعية .

لقد عرف السكان منذ اقدم العصور كيف يحصلون من التخيل كل ما يمكن الحصول عليه ، وكيف يرعنها .

هناك نص مؤرخ من عهد الملك شوسن (*) من سلالة اور الثالثة ، والذي نشأ دون ريب في مدينة « امّا » المدينة المنافسة لمدينة « لخش » ، يشير الى مزارع اشجار التخيل التي يحسن ارواؤها . فهذه المزارع كانت تقع بين المدينتين وقد قسمت الى ثمانية اقسام تعود الى الآله الحلي الذي كان يمثله ملاحظ لهذا الفرض .

كانت الاشجار في كل قسم تعد بالكبسات ، وكانت كل اشجار الفاكهة والزينة مؤشرة ، في حين ان عدم وجود اية اشارة الى فحول الشجر يشير الى ان اللقاح كان يجلب من مزارع تخيل اخرى .

ويشير النص الى المتوج بالكمية وليس بالوزن وبالاستناد الى عدد الاشجار يبدو ان وزن المتوج كان اكثراً بقليل من نصف ما يمكن توقعه من ذات العدد من الاشجار حسب المعدل في الوقت الحاضر والذي يبلغ حوالي ثمانين « باوتدا » للشجرة الواحدة .

ان هذا يشير الى ان اكثيرية الاشجار في المزرعة اما كانت فتية ، او ان طرق الزراعة قد حققت تقدماً ملمساً منذ ذلك الوقت .

كان كل جزء من شجرة التخيل يخصص لنوع من الاستعمال . فقد كان الخشب يستعمل لانشاء المباني الخفيفة من امثال السقوف التي لم تكن

(*) الملك شوسن ويعرف باسم « غل سن » أيضاً هو الملك الرابع من سلالة اور الثالثة ، دام حكمه تسعة سنوات من ١٩٧٨ الى ١٩٧٠ قبل الميلاد .

تطلب سوى مسافة قليلة ، وكانت الانسجة المضفورة تؤلف جبالا ذات قوة ملحوظة ، في حين كان السعف يستخدم لغطية الاكواخ المصنوعة من جذوع النخيل ، وكذلك عندما يقص ويحزم سوية ، تصنع منه المكابس النافعة للاستعمال جدا بالنسبة الى الفبار الذى يعم الشرق كله .

ولم يكن التمر ذاته مجرد طعام حلو ، كما هو عليه الامر في اوروبا الغربية ، وإنما كان غذاء ، بل في الواقع كان المادة الرئيسة للغذاء في تلك المناطق التي تنمو النخيل فيها بوفرة .

وكانت التمور التي تجفف قبل حفظها ، يتم كبسها في جرار تتفاعل في داخلها وتبدأ بالتخمر ، مما يزيد من قيمتها الغذائية .

وأخيرا يمكن ان تمزج التسور مع الزيت وبذلك يمكن حفظها لمدة اطول في حين تزداد قيمتها الغذائية بصفة اكبر .

هناك انواع كثيرة متباينة من اشجار النخيل التي تقدم اسواق الشرق منها خيارا واسعا للتمور .

اما النوى فانه يستعمل ، حين يجفف ، وقودا ، ولا سيما بالنسبة الى الصهر المعادن ، او كغذاء للأبل عندهما يتم طحنه ، وتلك حقيقة لا يدهش احد منها عندما يرى الحيوانات وهي تأكل اوراق شجرة التين الغربية ، والاشواك وغيرها .

واخيرا فان فرع النخلة الذي ينمو في قمة الشجرة ، اذا ما قطع واكل وهو ما يزال صغيرا ، يؤلف خضارا شهيرا .

والحقيقة انه لم يكن من المدهش ان نجد آداب العالم القديم مليء بالاشارات والتعليقات الى اشجار النخيل . فال المؤرخ « سترابو » يشير الى اغنية فارسية تتحدث عن استعمال النخيل لثلاثمائة وستين غرضا .

وقد اقتبس « القزويني »(*) من الحديث النبوى(**) « كرموا النخلة لأنها عمتكم وقد اعطيت اسم شجرة مباركة لأنها خلقت من بقايا الطين الذى خلق آدم منه » .

وقد ادت حقيقة تكوين النخلة من جنس واحد الى تحسين طرق الاخشاب ، حيث يقدم اهل البلاد على جمع الطلع من الازهار الذكور مخروطية الشكل ويشدوه في مكان يعين في ازهار الإناث وهذا يؤدى الى زيادة المحاصيل التي قد تترك ، بدون ذلك ، الى محض الصدفة . تكون اوجه الجذوع خشنة . والطريقة الاعتيادية لسلقها الى القمة ، والتي تشاهد غالبا على المحوتات العراقية ، هي ان يربط المسلط حبل حول جذع النخلة وحول بدنه معا ، ومن ثم ينحرن الى الوراء ويببدأ بالصعود بخفة الى القمة ، حيث يبدأ الجبل بالارتفاع في كل خطوة وذلك يتحرك ذاته الى اهداف اعلى من تلك مباشرة .

ويمكن مشاهدة هذه العملية على لوح من الجص من قصر « ماري » يعود تاريخه الى بداية الالف الثاني قبل الميلاد ، والذي توجد عليه ، عدا الرسم الطبيعي لاشجار النخيل ، نقوش اغصان طويلة تتدلى منها عنقوق الازهار من على ارتفاع ما فوق الارض . فهذه الاغصان تشبه تماما اغصان شجرة عود النبد . (اظظر ما سبق ذكره عن نبات الصبر او الندى في الهاشم) .

(*) القزويني صاحب عجائب المخلوقات : جمال الدين ابو يحيى زكرياء ١٢٠٨-١٢٨٣ م يتصل نسبة بالامام السابق انس بن مالك . ولد في قزوين ورحل الى دمشق فتى ، ثم انتقل الى بغداد وتولى القضايقى مدينة واسط والحلة ثم عاد الى بغداد فبقى فيها حتى سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو ، وتوفي في بغداد ، وكان من اعلام العرب في الجغرافيا ، وهو أول من كتب في الجغرافية الطبيعية .

(**) اخطأ المؤلف اذ ذكر ان القزويني قد اقتبس من القرآن والسواب انه اقتبس أحد الاحاديث النبوية التي أوردها المؤلف مقلوطة ايضا . فالحاديث النبوى يقول (اكرموا نخلة فإنها خلقت من فضلة ملينة ابيكم آدم) . وليس من الشجاع ، شجاعة أكرم على الله من شجاعة ولدت تحتها مريم ابنة عمران . فاطسماوا نساءكم الولد الطلب . فان لم يكن (طلب فتمر) . من كتاب « كشف الغمام » للمجلوني الجزء الاول من ١٧٢-١٧٢ .

عملية اخصاب النخيل المرسومة على المنحوتات

تصور بعض المنحوتات الآشورية بساتين النخيل في عملية تدمير يقوم بها الجنود (وذلك اول مثال على سياسة حرق الحرش او تسفيح الارض) .

وهناك منحوتات اخرى تبين مشهدآ لا يمكن ان تدرك اهيتها الحقيقة لاول مرة . فهذا المشهد يصور بعض الجن وهم يحملون وعاءاً ذا مقبض صيف على شاكلة جردن ، وقد امسكوا بالايدي اليمنى اداة مخروطية وهم يشيرون الى شبكة خطوط منطقة باشجار النخيل . ان هذا المشهد تصوير اسلوبي وملائم بصفة خاصة للشجرة المقدسة ، والتي هي نوع من النخيل .

ان سبب هذا المشهد سيتم بحثه في الفصل الذي يتناول الديانة ، وان كل ما يحتاج الى قوله الآذ هو ان شجرة النخل التي صورت هنا كانت تظلل كل مميزاتها الاعتيادية . فوريدات النخل لها مظهرها العام في صفة مروحة من ريش او مرجان ، ولقد غدا الغصن فصا منبسطا محاطا بنوع من عريشة تثبت الوريدات الى جسم الشجرة وتربطها بتتابع منتظم .

ان حقيقة كون هذه الشجرة ، وان كانت منسقة الا انها شجرة نخل دون شك . وان المادة التي كان الجن يحملونها تشبه في شكلها العنصر الذي يحمل طلع شجرة نخل ذكر ، قد ادت بعض الباحثين الى ان يروا بان هذه المنحوتات كانت تشير الى عملية التلقيح التي كانت ثروة البلاد بالطعام تستمد منها .

ومع ذلك توجد اسباب تبرر عدم قبول مثل هذا الرأي . وهكذا نجد ان الجن كانوا يشيرون الى المواد المخروطية التي كانوا يحملونها حسب ، في الاتجاه العام للشجرة ، في حين ان التلقيح يعتمد على ازهار النخيل الذكور التي تم ربطها على النخلة الاخرى وليس على تماس واحد خفيف ، ففي كل

مكان تبين المنحوتات جنبا يقف خلف الملك الآشوري ويشير نحوه بالسادة
البي يحملها^(*) .

ومن ناحية ثانية ينبغي لنا ان تذكر ان القس في بعض الكنائس في
منطقة ماردين شمالي بلاد آشور ، يستعمل رشاشة ماء مقدس على شكل
مخروط من شجر الارز عندما يروح يرش ماء البهيج ، الامر الذي تستخرج
منه الى ان العمليتين لهما ذات الاهمية ، وان المنحوتات انما تمثل رشاشات
احتفالية (كانت احد مظاهر الدين الآشوري) من ماء يمنع الحياة تم سحبه
من مصبات نهرى دجلة والفرات ، في حين ان الوعاء ذي المقابض الذى كان
الجني يحصله لم يكن سلة بل جردا معدنيا يحوى ماء التطهير .

الخضروات والاسماك واللحم

هناك وجبة طعام افضل من تلك التي تتألف من البصل وحده ، هي
التي قد تحتوي على الخضروات من امثال العدس ، الذي ينمو مثل
الفاصوليا في المنطقة دوما ، والدخن المسلوق ، والشعير الذي كان يعد مثلا
نعد نحن الرز ، وربما الذرة ايضا ، هذا في الوقت الذي اعرب فيه بعض
علماء النبات عن آرائهم في ان الذرة الصينية يمكن تشخيصها بين اكواام
النباتات المترعة من عائلة القمح المصورة على بعض المنحوتات الآشورية
ان دراسة مفصلة لافضل التفاصيل السالمية تبين بان الصحفون التي يتجمع
الناس حولها لتناول الطعام كانت تتوج بما يبدو بانها اهرام من القمح ومن
هذه الانواع على وجه الدقة .

وهناك خضروات شائعة اخرى تحتوي على اليقطين وال الخيار والبطيخ
الذى كان عدده ونوعه يدهش المسافر الذى يزور الشرق لأول مرة

^(*) ان هذه الصورة تمثل استخلاص الماده ، التي تذاب في الماء المقدس ،
من التخييل .

كان السمك الذي يؤكل طرياً وجفناً ، عنصراً مهماً في الطعام الاستوري ، وهناك سلسلة واسعة من انواع صالحة للأكل يمكن العثور عليها في حدود سنة الفين قبل الميلاد في مدينة لارسا ، وهي قد تتشمل على قلة من اسماك البحر التي كانت تحفظ في الملح لنقلها ، كما ان البعض منها كان يصطاد في الاهوار التي لم تكن تؤلف سوى مشاكل نقل اقل ومع ذلك فان معظم السمك كان يصطاد محلياً في القنوات .

كانت الاسماك الكبيرة تجفف بطريقة تبينها احدى المنحوتات المصرية ، اي انها كانت تفرغ من مصارينها ثم تشد من الرأس وتعلق على خيط بنفس الطريقة المعهول بها حتى الان في بلاد الترويج .

اما الاسماك الصغيرة فكانت تترك تحت الشمس ومن ثم تضغط في كتلة حلبية يمكن اقتطاع الكمية المطلوبة منها [هناك صورة اسرى يتداولون وجة طعام وصورة رجال يحملون الخضراوات لاحدى الولائم] من بين الاكتشافات الاخري . التي عثر عليها في تللو بعض قطع من هذه الاسماك المحفوظة التي ما زال يمكن تمييزها بيسر .

وبحسبما نعرفه لم يكن اللحم يؤلف مادة مهمة في الطعام وان النصوص التي تسجل الرسوم الواجبة الدفع عن احدى الشياط او حتى احد الثيران ، تشير الى ان الحيوان موضوع البحث لم يكن يتم ذبحه في الغالب وانما كان يقتل مصادفة مثلاً . وفضلاً عن ذلك لا نجد في اكبر النصوص اشارات عن جثة تم تسليمها الى القصاب لفرض البيع .

وكانت الطيور من الناحية الاخرى تؤكل ، وانما خلال عصر ساللة اور الثالثة ، نعرف بأن الاوز والبط كان يجري تجهيز القصر بها .

الجراد

كان الجراد يعتبر ، مثلما هو عليه الان ، من المواد صالحة للأكل في المناطق التي تقع في طريق غزواته ، وان منحوته من خربشات تبين خدمها يقدمون الجراد في سفائد مثلما تقدم الضفادع الان في فرنسا تماماً .

الجبنه والحلويات والفاكهه

قد يكون هذا هو الموضع الذي تنبغي الاشارة فيه الى انواع عديدة مختلفة من الجبنه واللبن الرائب . فقد كانت تقدم في القصر باشكال متنوعة كثيرا . وقد اكتشف الكثير من القوالب التي كانت تصنع فيها ، في معمل الابان بقصر ماري *

وكانت الحلويات سواء ما كان يحلى منها بالعسل ، او بالسكر المستخلص من اشجار التحيل والذي كان العراقيون يعتبرونه نوعا من العسل (*) ، موضوع صناعة مزدهرة تشتمل على اللذائذ من امثال السمسم الذي يقلى بالزيت . كذلك كان صانعو الحلويات يستعملون بنور السمسم ايضا .

وما خلا التمور فان كل انواع الفاكهة كانت تؤكل بصفة عامة ، ومن بينها الرمان ، وثمر المشملة ، والتفاح ، والاجاص والمشمش والكمثرى والقصتنى ، وبعبارة موجزة ، ذات الانواع التي تنمو في اوربا الغربية (والتي جاء البعض منها ، من امثال الخوخ والتوت ، من الشرق) ، والتي ازدهرت في شمالي بلاد الرافدين .

لسنا نعرف ما اذا كان الاشوريون قد عرفوا الموز الذي ينمو على نطاق واسع في سوريا ، غير ان هذا كان محتملا على اقل تقدير ، ذلك لأن هناك بعض المنحوتات النائمة تبين ان من بين الطعام الذي كان يقدم على الموائد ، مادة ييدو عليها اتها مؤلفة من عدد من الاقسام التي تشبه الاصابع مرتبطة بقاعاتها ، وذلك ما يشبه عడق موز (هناك صورة وليمة الاشراف في الفصل القادم قسم المسرات والولائم) . فلذا ما صح ذلك فان هذا الموز كان مستوردا على أكثر احتمال .

(*) يقصد بذلك « الدبس » الذي يصنع من التمور حيث يتم غلي التمور في وعاء كبير على النار ، ومن ثم عصره وتصفيته ووضعه في الشمس مدة محددة كيما يبروق ويختزن .

الفخاريات

تشتت الفخاريات المعدة للاستعمال اليومي ، والتي كانت تصنع من الطين . على انسكال كانت موجودة في كل عصر من امثال الصخون والاطاق العميقة والضحلة ؛ والحلل والاباريق .

وكان الزجاج معروفا في العصر الآشوري لكنه ظل نادرا ولم يكن يستعمل لصنع القناني أو اقداح الشراب .

وكانت الكؤوس الفخارية تستعمل بدلا من الاقداح الزجاجية في حين استعملت بدلا من القناني ، انواع من اباريق واكواب وزهريات ذات مقابض وجرار ضيقة الاعناق يمكن ان تختم بقطعة من قماش الكتان وبسادة من الطين اذا كانت محتوياتها تتطلب الحفظ .

وقد اكتشفت اثناء التنقيبات مصافي خمر من هذا العصر اقل من اقدم الصور التاريخية عندما كان الشراب المخمر الذي يحتوي على رواسب كثيفة ؛ شائع الاستعمال . فقد كانت هذه الرواسب تحرك بالمصافي والاقماع وهي من ادق الامثلة التي عثر عليها في القبور الملكية في مدينة اور ، في حين ان تناول الشراب بوساطة الانابيب غالبا ما يشاهد على النصب التي وجدت في بلاد الرافدين .

هناك نوع غير اعتيادي من مصفاة خمر شخصت بين انواع عشر عليها في تبه سيالك قرب مدينة كاشان ، وفي تبه جيان قرب نهاوند(*) تتألف من نوع صنبور ثم تشكيله في صفة جزء من دائرة مقسم الى قسمين ب حاجز

مخرم . وكانت هذه المصفاة تمسك من مقبض عمودي وعاء ان الحد المطلوب .

وكان الخمر يصب منها في احدى النهايات ثم يمزج ويروق في نهاية اخرى في حين يسهل تجويف الوعاء حسب زاوية الميلان ، ان ينظم ما يتدفق منه .

وما تزال الفخاريات التي اكتشفت خلال التنقيبات من ذلك العصر تشتمل على عدد كبير من الزهريات بعضها ذات قبور مدبية . ولابد ان تكون هذه الزهريات قد صنعت لكي تقف متتصبة في ارض غير مستوية ، او أنها كانت توضع فوق حامل خشبي^(١) او دائرة من قش مضنور . غير ان وجود عدد كبير من زهريات ذات قبور منبسطة يجعل من العسير ان نرى لماذا ان مثل هذا الشكل النافع كثيراً لم يتم اختياره بصفة شاملة .

اما بالنسبة الى ما اذا كان العراقيون يجلسون على المفارش او يضطجعون عليها ، فاننا نعرف ان الرومان الذين كانوا يقدسون التكا ، يزعمون بأن هذه العادة قد نقلت عن الشرق .

وتدلل الوثائق الباقية عن هذا الموضوع ان افراد الطبقات العليا من العراقيين كانوا يجلسون على مقاعد ، اما الطبقات الدنيا فكانوا اما يجلسون القرصاء او يجلسون وسيقاتهم متقطعة .

(*) كاشان من المدن الحديثة في ايران تشتهر بصناعة السجاد الفاخر ، تقع بالقرب منها خرائب سبالك التي نقبر فيها الاثاري الالماني كرشمان في الفترة ١٩٣٢-١٩٣٣ فعثر فيها على مستوطنات ومقابر قديمة .

اما نهاوند فانها من المدن الشهيرة في ايران تخرج فيها عدد كبير من علماء المسلمين والعرب . تقع بالقرب منها خرائب (تبه جيان) التي نقبر فيها في الفترة ١٩٣٢-١٩٣١ . او من الفخار .

الشراب القسوى

كان الأدمى على تناول التراب . كما سبق أن رأينا ذلك . يؤدي في بعض الأحيان إلى السكر ، وإن هناك اوصافا . بنيت بكل وضوح على اسس الملاحظات الدقيقة ، لكل مرحلة من مراحل الاعراض او العلامات المحددة على أقل تقدير .

فهي فصيدة الخلق نجد الآلهة اثناء وليسه وتحت تأثير انسكريات . غدت ثرثارة ومحتاجة . وفي ملحمة البطل غلغامش نجد ان الرجل المتتوحش انكيدو الذى شاء ان يصبح رفيقا لغلغامش . يتم تقديميه الى الحضارة من لدن عاهرة معبد . وإن احدى الافتكار التي تعلمها هي تناول الشراب المخمر .

«لقد تناول الجمعة ، وقد تناولها سبع مرات وقد تحررت روحه وراح يهتف بصوت عال وقد امتلا جسمه بحسن التكوين واشرق وجهه » .

وبالنظر إلى الواقع فإن ما كان العراقيون يمتلكونه من مشروباتهم المصنوعة من الشعير والخمر المستخلص من اشجار التليل وكذلك الخمر الحقيقى . يؤلف سلسلة من الشراب يصعب ان تكون في مفعولها اقل تأثيرا من الاشربة الموجودة في الوقت الحاضر وإن لم تكن مساوية لها في الكمية .

العمل والتجارة

العلاقات بين المشتري والبائع

لقد شاهدنا الحياة اليومية للعراقي الذي يسكن في البيت مع عائلته .
اما الان فينبغي لنا ان نراقبه في عالم اوسع هو عالم التجارة . ولهذا السبب
فاننا سنتصوره وهو يأخذ سبيله عبر المدينة بحثا عن التجار او اصحاب
الحرف .

ان وجهة نظر البابلي في العلاقة بين المشتري والبائع مطبقة بكل وضوح
في عبارات وصف بها كل شيء . فالبائع هو الشخص الذي يعطي وهو الذي
يسلم ، في حين ان المشتري هو الشخص الذي يثبت السعر .

فشل هذا الوصف للدور الذي يؤديه المشتري يبدو ، ولا سيما
بالنسبة لتفكير الاوربي ، تناقضا صريحا لفكرة التعامل التجاري الحديث
برمتها . ومع ذلك فانها في الواقع صحيحة جدا بالنسبة الى قانون العرض
والطلب الذي ينظم المعاملات في المجتمعات الحرة ، وان المشتري في الواقع
هو الذي يحدد السعر في اخر الامر سواء كان يرضخ للاحاح البائع (وفي
هذه الحالة يكون قبولة بالسعر قبولا بقيمة المادة التي اشتريت او الخدمة
التي قدمت) او ما اذا كان يساوم في سبيله ثم يحصل عليه اخيرا بالسعر الذي
يعرضه هو .

مبدأ المسؤولية

كان من المظاهر المهمة جدا ، هو مفهوم المسؤولية في المادة المبيعة .
فالبائع يحاول على وجه التحديد ، ان يحرر نفسه من مثل هذه المسؤولية ،
وان الشيء الملاحظ بصفة عامة هو الميل في الوقت الحاضر بالنظر الى شركات
النقل البحري او سكك الحديد ، سواء كانت مملوكة بصفة عامة او فردية ،

هو ان تتصل وفقا لاقومتها من المسؤولية بالنسبة لركابها ، في حين يندر ان تحدد الدولة ، ولو نسبيا ، مثل هذا التتصل .

ومن ناحية اخرى ففي بلاد الرافدين كانت حماية القانون تمتد في كل العصور الى مشتري المادة او المنتفع من الخدمة . فالنسبة الى المعمار وصانع السفن والجراج وبائع احد الارقاء ، حددت المسؤولية التي تقع على هؤلاء جسيعا في شريعة حمورابي ، وهناك امثلة في العصور البابلية الحديثة والفارسية ، على عقود كانت على الاقل تمثل تفكيرا قانونيا معاصرنا ان لم تكن تمتل القانون الحقيقي ذاته .

فمنذ عهد حمورابي وما بعده كان المعمار الذي عهد اليه ببناء دار انهارت نتيجة خطأ في البناء وادت الى قتل مالكها ، نفسه عرضة لأن يشنق ، في حين اذا ما قتل طفل رب البيت في ذلك الحادث يقتل طفل المعمار .

ومما يقابل ذلك تماما هو ان على صانع الزورق الذي تظهر فيه الخروق ان يصلحه على حسابه الخاص وان يدفع تعويضا عن الضرر الذي يصيب الحسولة نتيجة ذلك .

تنظيم العمل في بلاد الاناضول

كان بعض الافراد ينهمكون من وقت لآخر في احد الاعمال النجارية حيث ينبعح المواطنون الاحرار ، والعبيد المعتقدون وحتى الارقاء الحقيقيون الذين يعينون من قبل اسيادهم لاداء عمل محدد ، ينبعح هؤلاء في بز كل منافسيهم . فهم يفتحون فرعا او دوائر ثانوية ، وبعبارة موجزة شركات مسيطر عليها بالمعنى التام لهذه الكلمة ذات صالح كانت تتشعب في انهاء البلاد بل وتمتد الى ما وراء البحار .

ونستطيع ان نشير هنا الى ثلاثة امثلة على الاقل من ثلاث مناطق مختلفة ،

من هذه الشركات التي كانت تهتم في اصناف واسعة من المعاملات وتمارس
اعمال الصيرفة في ذات الوقت .

ففي «قول نبه» في الاناضول وعلى مقربة من مدينة «قيصرية»^(١٧) تم
اكتشاف سجلات جملة من التجار المهمين ، حفظت في غرف باحدى الابنية
الضخمة تقع خارج المدن الحقيقية قليلاً ، ويعود تاريخها الى بداية الالف
الثاني قبل الميلاد .

وبمساعدة من هذه الرقم التي وصفت عامة بانها كيدوكية او آشورية
استطعنا ان نعيد ترتيب معاملات شخص يدعى «بوشوكلين» يبدو عليه
بأنه كان يزاول كل انواع الاعمال التجارية .

فلو سألنا عن السبب الذي حدا به هو وزملاؤه في دوائر مجاورة
وكلهم يحملون اسماء سامية ، الى السكن في منطقة قيصرية بين سكان لم
يكونوا في ذلك التاريخ من فرع سامي ، فمن المحتمل ان يكون الجواب هو
ان التفوذ الآشوري قد امتد في ذلك العصر حتى بلاد الاناضول وان التجار
الساميين تحت حماية ذلك التفوذ كان في مقدورهم ان يزاولوا الاعمال
التجارية في منطقة غنية لم تكن التجارة منتقطة فيها ، والتي كانت توفر لهم
مطمئناً في الحصول على ارباح عالية .

أهداف التجارة

وفضلاً عن ذلك فلم يكن هذا هو اول تغلغل عراقي في بلاد الاناضول ،
وان علينا ان تذكر عدا مدونات الفتوح والحملات التي في ايدينا ، بان هناك
شيئاً ما أكثر من نزوات الحكام المتعلمين الى توسيع ممالكهم واسباب
طموحهم . فقد كانت البواعث التجارية الثابتة تشير الى حملاتهم العسكرية .

Caesarea

(١٧) هي مدينة في ساريا القديمة

هناك دليل نصف اسطوري ونصف ديني يبين فتوحات الملك سرجون الاول(*) بقيت من العصر الاكدي الذي يسبق تاريخ الرقم الكبودية بعدها قرون ، توضح حدوث احدى الحملات العسكرية التي كانت اهدافها تجارية بشكل صريح . فطبقاً لهذا البرهان كان البعض من التجار العراقيين يعودون الى وطنهم فيما يطلبوا الى سرجون ان يأتي ويحميهم في بلاد الاناضول النائية التي استوطنوا فيها .

وليس من شك في ان جرالات الملك الذين اتحتهم المعارك كانوا يلحوذون عليه بان لا يستجيب لمثل هذه المطالب ويحاججونه بان المسافات شاسعة جداً وان الطرق غير معروفة . وقد عرض التجار بان يقودوا هذه الحملات باقليمهم . وقد ثبت نجاح هذه الخطة فاصبحت بلاد الاناضول في مشاركة منتظمة وبذلك اضافت بلاد الرافدين منطقة اخرى الى نطاق نفوذهما .

وكان السبب الذي يدفع بالاشوريين الى السيطرة على بلاد الاناضول يبرز بكل وضوح في اتساع الاعمال التجارية التي كان السادة «بوشوكون» وشركاؤه يمارسونها خلال بضعة قرون متاخرة . وانتا سنكون مخطئين اذا ما افترضنا بان اندفاعات الذهب الى كاليفورنيا ، او كلونديك ، او التراحم على المعادن الثمينة في وقتنا الحاضر ، كانت ظاهرة عصرية .

فكل عصر له مقاطعاته المماثلة لولاية (الدورادو)(**) التي تفيض ، او يعتقد بانها تفيض ، بالثروة التي تفتقر اليها جاراتها .

(*) هو سرجون الاكدي مؤسس السلالة السرجونية الحاكمة في الفترة ٢٤١٢-٢٤٧ قبل الميلاد ، عشر في نينوى على رأس تمثال له . ويعرف سرجون باسم شروكون ، وقد حكم ٥٦ سنة في الفترة ٢٣٣٤-٢٢٧٩ قبل الميلاد .

(**) ولاية الدورادو Eldorado احدى الولايات الامريكية التي اكتشف الذهب فيها لأول مرة ولذلك اندفع اليها كل المغامرين والملائسين بما يبحث عن الذهب في أراضيها .

لقد كانت مصر تلك الذهب لكنها لم تكن تملك الخشب . فمنذ عهد المملكة القديمة كان المصريون يسيرون الحملات ، التي كانت في ذات الوقت تجارية وعسكرية معا ، الى الساحل السوري للحصول على اخشاب الارز من لبنان مقابل العطور والبخور وسلع الزينة . وهذا الحادث قد كرس في اسطورة ايزيس التي كانت تبحث عن بدن زوجها او زيريس والذي يتحدث كيف انها علمت نسوة البلاد على استعمال الزيوت المطرة وعن قص الشعر ، وكانت تتلقى مقابل ذلك شجرة كبيرة ضمت جسم او زيريس عندما نمت .

وكانت بلاد الرافدين يعوزها الخشب ايضا ولذلك كانت تحصل على ما تريده منه من ذات المصدر . وتلك هي اهمية القصة التي وردت في ملحمة غلغامش عن الحملة التي قام بها غلغامش الى بلاد الارز (وهي امانوس دون شك (**)) التي كان يحرسها الجبار « همبابا » (***) .

وكانت بلاد الرافدين تفتقر الى المعادن ايضا ولذلك نجد ان تجارها يسافرون الى ما وراء جبال طوروس في بحثهم عن النحاس ، والرصاص وال الحديد والفضة والذهب الذي لا يتوفّر في تربتها .

وما لبث مفهوم الاقطار التي تحولت بالتدريج الىعزلة ومن دون اتصال بالعالم الخارجي ، وهو المفهوم الذي كان يمثل الى درجة ما الرأي الذي كان يتمسك به اوابل المؤرخين من العالم القديم ، ما لبث هذا المفهوم ان ادى الى ادراك اكثرا صدقية مواصلات تلك الاقطار . ذلك ان

(*) امانوس Amanus يقصد بها جبال لبنان .

(**) همبابا او خبابا Humbaba هو الالم الذي كان يحرس غابة اشجار الارز في جبال لبنان ، وقد استطاع كلما يشن ان يقتله ويحصل بذلك على اخشاب الارز التي كان العراق يستوردها من هناك منذ القدم ، وذكر خبابا باسم خواوا ايضا ، وقد صورت صورته على كثير من الاوواح الصغرى .

القوافل التي كانت تتالف اول الامر من الحمير واخيرا من الابل كانت تتحرك بسرعة قبل ثلاثة آلاف سنة مثلا هي عليه في الوقت الحاضر ، وتمضي في سيرها ومن دون امان نادرا ٠

والزوارق الشراعية الكبيرة الخفيفة التي ما تزال تجري بين الموانئ التجارية في سوريا ، ولو انها اصبحت مختلفة بكل بساطة عن البوادر التي تستطيع ان تبحر البحر من بيروت الى الاسكندرية في ليلة واحدة ، من النادر ان تختلف عن المراكب التي وادى كانت اقل سرعة الا انها ليست اقل اعتمادا عليها ، والتي كانت في القديم تبحر ذات الطريق ، فتحتضن الشاطيء وترسو في كل ليلة عند رأس جبل يحب الريح ٠

لقد كانت الانحاء المختلفة من الشرق القديم في تماس احدهما مع الآخر تماما مثلا هي عليه اليوم ، واذا ما كانت الرحلة اقل سرعة كانت المخاطر اكبر قليلا ٠

لقد كان طريق الحرير الذي تعقبه ماركوبولو (*) يزود قبل صناعاته الشنية الى فارس الساسانية وبيزنطية ٠ ولم يمض سوى قرن واحد منذ ان اخذت البوادر تقرب ارجاء البحار ، واخذت السلطات البحرية تمنحها الامان ، ومنذ حوالي ثلاثة سنين ليس الا شرعت السيارات تجوب لأول مرة طرق الشرق ٠اما قبل ذلك فقد كانت التجارة تسير مثلا كانت عليه قبل اربعة آلاف سنة خلت ٠

(*) ماركوبولو رحالة بندني شهير ، رحل الى الصين وجاب انحاءها وأمضى فيها سنوات عديدة ثم عاد الى وطنه واصبح قائد سفينة خاصة باهله . وقد اسره أهالي جنوا ، فمكث في السجن عندهم عدة اعوام ، قص على أحد رفقاء السجناء مشاهداته في الصين فكتبه ذلك السجين ونسبت الى ماركوبولو ، واصبحت تؤلف رحلته الشهيرة ، وكانت ولادة مارك في البندقية سنة ١٢٥٥ ٠ أما رفيقه في السجن الذي دون رحلته فيدعى « رستي تشيللو » ٠

وأخيراً كان يوجد وراء كل مظاهر من مظاهر التوسيع التجاري بأعْتَدْ قوي بشدة؛ نستطيع أن تتجاوز أهميته يسره . لقد كان هذا الباعث يمتل الحاجة إلى التوابل التي ما تزال تتواصل في الواقع ، وفي سبيل البخورات التي كانت تستهلك بمعدل هائل في كل طقس ديني ؛ ولذلك كانت من المنتوجات ذات الأهمية القصوى .

لقد كان المصريون هم الذين سافروا إلى بلاد (بنط) (ربما يقصد بها بلاد حضرموت وحمير في جنوب غربي الجزيرة العربية) (*) وعادوا معهم باشجار البخور المصورة في معابده «دير البحري» (**).

وتجاوياً مع هذه الحاجة توطنت الشعوب البدوية فيما تحمي وتنظم القوافل التي كانت تتعرض للاغارة عليها مؤخراً . وكان هذا هو سر العظمة التي تمنع بها الانباط وتدمير ، والثروة التي اشتهرت بها حضرموت وحمير ، والتي بقيت لوحدها تمتلك الذهب في حين فقدت جاراتها في الجزيرة العربية.

يبدو لأول وهلة أن البواعث التاريخية ربما يظن بأنها قد تغيرت تغيراً أساسياً منذ القدم . لكنها بقيت أساساً على حالتها ذاتها كما كانت هكذا دوماً، كما نرى ذلك بكل يسر ، حين تكشف الصدقة عن الاسباب التي ادت إلى قيام الحملات العسكرية العظمى في الماضي .

واذن ماذا كان نطاق العمليات التي كان يمارسها ؟ لقد كان يتعامل بالمقاطعات الزراعية ، وكان يقدم النقود كفروض ، وكان يتعامل في الرصاص والقضة والملابس و «الحمير السود» مما كان نوعها . وربما كانت هذه الحمير أقوى تربة ، أو لأن الحمير في بلاد الرافدين كانت يضاء

(*) بنط Punt والذي اعتقده ان المقصود بهذه الكلمة هو بلاد النبط وهي أقرب إلى مصر وأسهل وصولاً إليها من بلاد حضرموت التي تقع على البحر العربي .

(**) دير البحري يقع في منطقة «الاقصر» التي يقسم فيها « وادي الملوك » في مصر

اللون بصفة عامة ، وان مجرد اللون يعطي دلالة على اصولها . او ربما كانت هذه الكلمة محض ترجمة سامية للاسم الاسيوى الذى كان يطلق على الحصان الذى ما يزال ، رغم عملية التأقلم ، غير معروف في اودية نهرى دجلة والفرات .

تنظيم القافلة

تلقي الرقم الكبديوكية قدرًا كبيرا من الاضواء على تنظيم القوافل. وطرق تمويلها . فقد كان رجل التجارة يضع شروطه مع احد اصحاب القوافل. المنتظمة ، او ربما مع تاجر موقت حيث يقوم هذا الاخير بجمع الحيوانات، وتنظيم امر طعامها ، وحزم السلع التي يراد نقلها . ثم يحدد يوم لحركة القافلة ، واذا تأخر التاجر عن اليوم المحدد فان مرتبه يتوقف من ذلك اليوم موضوع البحث .

وفي بعض الاحيان ينص العقد على ان مالك القافلة ينبغي له ان ينقل البضاعة الى وجهتها النهاية ، ولكن الترتيب الجاري في الغالب ، هو ان. يسافر صاحب القافلة معها الى نقطة محددة من المسافة ومن ثم يسلم قافتله الى صاحب قافلة اخرى ، يمضي بها الى مسافة اخرى .

وقد يتلقى المالك الاول حمولة جديدة في مقابل ذلك ويعود ادراجها الى النقطة التي بدأ منها . ويحدث في بعض الاحيان ان يحول صاحب القافلة نفسه الى باعث متوجول يستری السلع من الاقطار التي يمر بها ويجري فيها بيعها ، كما يبيعها ثانية في بلد آخر ومن ثم يكرر هذه العملية في طريق عودته .

وقد تتخذ الاجراءات المالية اشكالا متباعدة . فاما ان يدفع المساعد كل الفقات ويأخذ كل الارباح ، ثم يدفع الى صاحب القافلة مرتبًا محدودا ، او ان يحصل الاخير على نسبة من الارباح . وتطلب بعض الفساتن غالبا من صاحب القافلة الذي تكمن مصلحته في نجاح المغامرة .

وغالباً ما يجد سيد القافلة نفسه يحمل بعض المعادن من أمثال الرصاص او الفضة ، التي كانت في ذلك العصر تمثل مجرد سلعة وليس نقداً . غير ان العلاقات بين مختلف فروع احدى الشركات تكون وثيقة مثل ذلك ان رسالة من احد رجال الاعمال في الاناضول قد يطلب فيها من مراسلته في مكان بعيد ان يسلم كمية من القمح او المعادن الى حامل تلك الرسالة .

ان هذا يمثل في الطبع بكل بساطة نظام الصكوك او رسائل الائتمان . الواقع ان هناك احتمالاً كبيراً في ان يكون « الفرسان تمبلاز » (*) الذين عهد اليهم بصفة عامة باختراع الصيرفة كانوا يتسلمون ويطبقون بكل بساطة على الفروع المتعددة لطائفتهم ، الطرق التي نسيت في اوروبا لكنها ظلت سارية المفعول في الشرق منذ عهود قديمة .

الاعمال التجارية في نوزا(**)

والفترة الثانية التي نستطيع ان نحصل فيها على صورة جلية عن فعاليات احدى شركات الاعمال ، تقع اثناء سيادة شعوب اسيوية عرفت باسم الحورين - الميسانيين (***) في نوزا على مقرية من كركوك في بلاد آشور .

(*) تمبلاز Knights Templars هم طائفة من الرسل الذين كانوا يتولون نقل الحالات او الصكوك النقدية من مكان الى اخر في اوروبا .
(**) نوزا وتلفظ نوزي ونزو ونزو ايضاً وتعرف خرائطها باسم يورغسان تبه ، وهي مدينة قديمة على بعد ثمانية أميال جنوبى هربى كركوك ، نقبت فيها المدرسة الامريكية في بغداد وبعثة جامعة هارفارد فثبتت على حضارة مزدهرة وكثير من الرقم العلمية التي تبين تصرفات أهالى هذه المملكة (انظر كتابنا : العراق القديم طبعة ١٩٧٦ ، ففيه فصل مهم عن نوزا) .

(**+) الحوريون والميسانيون : الحوريون استوطنوا اعلى بلاد الارافدين غير ان أهميته السياسية والحضارية ليست مؤكدة . أما الميسانيون فأنهم شعب استوطن المنطقة المقصورة بين نهري دجلة والخابور ، وقد اشتهر بالقوة وبصفة خاصة من الالف الثاني حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

فتحن في هذه القضية أيضاً مدينون بمعلوماتنا إلى سجلات أحدى الأسر من أنس أصحاب أعمال امتدت حوالي أربعة أو خمسة أجيال . وقد تعاظمت قيمة هذه السجلات في نظرنا لكونها ترقى إلى عصر مختلف ومحيط مغاير عن الرقم الكبديوكية ، فهي تكشف عن بعض التوارق في التطبيق التجاري .

ذلك أن التاجر الكبير « تخيب - تلا » كان يتعاطى كل شيء لكنه كان مع ذلك يدير جانباً منفصلاً من التجارة خاصاً به .

ففي العصر الذي تتحدث عنه كان نظام الأقطاع الذي يمقضاه تمنح الأرض من لدن الملك ، ما يزال سارياً المفعول في بلاد آشور . وقد حصل هذا النظام معه الالتزام ببعض اشكال من الخدمة ، من أهمها العمل الاجباري والخدمة العسكرية ، غير أن هذا بقي معمولاً به بصفة مطلقة ولا يمكن تغيير المالك إلا بالوراثة .

وطبقاً لذلك أقدم تخيب تلا على تطبيق عملية تبني الآخرين بالجملة وعلى نطاق واسع . فقد كان أولاده الذين تبنواهم يجلبون له الأرض وهو يتفضل عليهم مقابل ذلك بهدية لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى قيمة الأرض في السوق السوداء .

موراشو النفسي

اما العصر الثالث الذي تستطيع ان نراقب فيه اعمال بيت كبير للاعمال التجارية ، فيقع في بداية الفترة الفارسية (النصف الثاني من الالف الخامس قبل الميلاد) ، او في نهاية العصر الذي يشمله هذا الكتاب .

لقد كان هذا البيت التجاري ملكاً لشخص يدعى موراشو وأولاده ، والذي كان يضم مئات البيانات . كانت عائلة موراشو يهودية ، وعندما استولى نبوخذنصر على بيت المقدس سنة ٥٨٧ قبل الميلاد ، واسر اهم السكان (من بينهم النبي ارميا) كانت اسرة موراشو بين اولئك الاسرى .

لقد اعدت هذه الاسرة العدة للشراء في منفاتها هذا ولذلك امضت ازهى ايامها في مدينة نفر في عهد الملكين « خشيارشا الاول » (٤٦٤ - ٢٤٠ قبل الميلاد) ودارا الثاني (٤٣٣ - ٤٠٥ قبل الميلاد) (*) .

كتبت الرقم التي تخص هذه الشركة التجارية بالحروف المسماوية غير ان عددا من الوتاقي يحصل . على وجه واحد ، خلاصة محتويات مؤلفة من كلمات ارامية قليلة كتبت بالعبر . ففي هذا التاريخ وحده لم يكن سوى الافراد المثقفين ثقافة عالية يستطيعون الكتابة بالسمارية والاكدية . وكانت عامة الشعب يتكلمون الارامية واذا استطاعوا ان يكتبوا اطلاقا فانهم يكتبون بالaramie أيضا .

ومن المحتمل ان تكون الرقم موضوعة البحث تمثل اضابير الشركة ، وان خلاصة المحتويات المدونة بالaramie قد تعين الكتبة على وجود الوثيقة التي يريدونها وتقديسها الى احد اعضاء الشركة من يستطيعون قراءة الكتابة المسماوية .

هناك عدة نقاط ترتبط بطرق تنظيم العمل . ذلك ان ارباب العمل الكثيري العدد من امثال البيوتات الملكية او المعبد ، كانوا يمتلكون الارقاء الذين كانت توزع واجباتهم فيما بينهم .

وقد يحدث في مثل هذه الحالات ان لا تكون هنالك وثيقة تسجل

(*) اخشويرش الاول او اردشير ، ويعرف لدى اليونان والرومان باسم ارتكسيركيس Artaxerxes هو ابن دارا الاول الكبير ، تولى العرش بعد وفاة ابيه ، وخاض عدة معارك مع اليونانيين لكن الفشل كان مصيره .
اما دارا الثاني ، ويعرف باسم داريوس وداريوش فهو ابن اردشير الذي تولى الحكم بعد اردشير الاول ، وقد واصل خطوة العرب ضد اليونان ، وبعث بابنه كورش على رأس جيش كبير الى بلاد اليونان حيث استطاع ان يتعالج مع الاسبارطيين وان يلحق ، نتيجة لذلك ، هزيمة شديدة باليونانيين .

العمل الذي كان يتم انجازه فعلا ، ولكن اذا كان العمل ممثلا في اجر نوعي يستحقه المالك او العبد ، فقد يقدم بذلك طلب شكلی ، وبذلك نستطيع الاطلاع عليه من الرقم الطينية .

لم تبق اية اشارة للاعمال اليومية ، ولكن هنالك عقد ، ووعد ببيع ، ووعد بدفع مبلغ في تاريخ محدد ، وتأجير منزل او بستان ، واستقطاع دين كله ، او جزء منه . وتسليم بضاعة الى طرف ثالث عينه المشتري . فكل هذه القضايا قد ترسم لنا صورة وثيقة شكلية تساعدها على زيادة معلوماتنا .

وعلى الرغم من وضع العمال المتسنم بالخنوع فان من يستخدمونهم لم يكونوا في الواقع يمتلكون حقوقا غير محددة عليهم . فقد سبق لنا في فقرات سابقة ان رأينا اخطاراً موجها الى متهم يسترعى الانتباه الى تنتائج الاموال . ففي هذا العصر كانت القوانين في حاجة الى ان تضمن بان العمل كان يتم انجازه على وجه صحيح .

معدلات الاجور

لا توجد معدلات محددة للاجر ، وان من السير ان نقرر قيمته بدقة وذلك لأن كل المدفوعات ، يسبب عدم توفر النقود ، كانت تتم بكميات من الشعير . وكان يقصد بهذا الحفاظ على العامل ، وان اي فائض من الشعير لا يأكله كان يتم استبداله بضروريات اخرى .

وفي عهود السلالة السرجونية الاولى ، والبابلية الحديثة والفارسية ، كانت العقود توثق بالفضة التي وان لم تكن لتضريب في صفة تقدود بالمعنى الحديث لذلك ، الا انها كانت دون ريب وعلى اقل تقدير على شكل الواح صغيرة او سبائك مختومة بشعار يضمن وزنها .
ومع ذلك فهذا الدليل يكفي لاكثر من مجرد التقدير الفج للقيم النسبية للسلع وللخدمات .

حساب الغسائر والارباح

هالك طراز واحد من الاجور لكنه كان اقل شيئا ، اخذ يميل الى الاختفاء عند نهاية العصر الذي تحدث عنه .

هذا الطراز ، كما كان يطبق مثلا بالنسبة الى العامل ، ينطوى على اعطائه المواد الخام التي يحتاج اليها في العمل الذي يمارسه ، والسامح له بان يحصل بمثابة اجر ، على أي فائض يتبقى من تلك المواد بعد انجاز عمله .

وهكذا نجد خلال الحكم الاكدي الملكي ان صانع الدروع كان يتسلم مقدارا معينا من معدن ليصنع منها الخوذ ، سوية مع جلد البقر للتغليف ، والصوف للبطانة الداخلية . ففي ذلك التاريخ كانت الخوذ تطبق على الرأس تماما ، وتهذى من يرتديها الا اذا تم تطبيقها .

فعندهما كان الصانع يكمل الكمية المقررة من الخوذ ، يحتفظ ، كاجر خاص له ، بالفائض من المعدن والجلد ، والصوف .

ان النص الذي يسجل مثل هذه المعاملة يجعل في الامكان احتساب وزن الخوذة الواحدة في هذا التاريخ ، والحكم بأنه كان نفس وزن الخوذة التي يقي الفرسان يرتدونها حتى عهد متأخر .

واخيرا لما كان كبار اصحاب الاراضي من امثال القصر او المعابد يملكون معظم احياء القطر ، فقد كان المالك يعتمد في الغالب الى تنويع الحوافيت التي يشتري منها اتباعه ما يطلبوه من حاجيات .

وكان في اغلب الاحيان يدفع الى عماله بصفة غير مباشرة توزيعات مختلفة من الاقوات وتلك طريقة كانت شائعة خلال حكم سلالة اور الثالثة . ولقد سبق لنا ان اشرنا الى رقم طينية تسجل الحصة التي يتسلمه كل متسلم مما نسميه بالخبز ، والشراب المخمر ، وفي بعض الاحيان كمية من التمور

ومقدار محمد من الزيت ، ورماد الصودا وذلك بدلاً من الصابون دون ريب
[انظر ॥ سبق ذكره عن الصابون والخمر]

المراقبون

كما في العسل . بعض النظر عن الفرق التي ينضم بها . يتطلب وجود عدد كبير من المراقبين . ففي عصر اوروكاجينا الذي كان من امتصاص الشهرين لم يعد هناك . يأمر خاص منه ، مراقبون للسفن او لقطعان الماشية في كل المنطقة التي كانت تخضع لسلطة مدينة لكش .

ان لدينا فكرة طريفة عن اولئك المراقبين الذي وجدوا في عهد سلالة اور الثالثة والذين كان الواحد منهم يسمى « الرجل ذو العصا » وهو عنوان يعطي صورة مشرقة .

وفضلاً عن ذلك كان ملوك العهد الآشوري يعتنون بعناية جيدة بان يدعوا سجلاً تصويرياً لنقل ثيران مجنة هائلة تحرس ابواب القصور ، من بين المهام الجسيمة الأخرى التي كانوا يطلبون تنفيذها .

ففي المتحف البريطاني منحونة تبين الموظف الذي عهد اليه بالعمل المنصب على نقل هائل ربطت به صفوف ضويلة من الرجال ، ويحمل هذا الموظف بوقه . مثل مراقب العمل العصري تماماً الذي يحمل صفارته أثناء مد قضبان سكة الحديد أو الأسلاك الكهربائية .

ففي نهاية العصر الذي تناوله الان ، كانت فرق العمال تحت اشراف مراقبين تعكس القابهم عدد الرجال الذين كانوا يعملون طبقاً لا وامرهم ، والذين يتألفون من عشرة رجال او مائة .

نفقات المعيشة

لا يسكن لا يبحث في هذا الموضوع ان يوفر بالطبع اكثر من مجرد

جملة من الارقام . فهو لا يمكن ان يقدم قاعدة مقيدة للمقارنة مع الاحوال الحديثة .

وينبغي لنا أن نبدأ بتوضيح نظام الاوزان والمقاييس الذي كان مطبقاً بصفة عامة في بلاد بابل وآشور . فمثل هذا الوصف ضروري لانه ربما لا يوجد نظام شامل من هذا النوع في تاريخ كانت فيه مدن بلاد الرافدين تستمتع بدرجة من الاستقلال اوسع مما كانت تستمتع بها المدن الاوربية في العصور الوسطى .

ففي القرون الوسطى على سبيل المثال كان « غرام » (Tournaï) (*) وغرام باريس ساري المفعول ، وكانت اقطبة القياسات القديمة والجديدة موجودة جنبا الى جنب . وحتى في الوقت الحاضر مايزال البشل (**) والستير (١٨) والبرتش والكوادورون ، مستعملة في فنسا (***) الى جانب وحدات النظام المترى .

اما في بلاد الرافدين القديمة فالواقع انه وجدت ، الى جانب الوحدات المستعملة محليا ، سلسلة من الاوزان تدعى اوزان الملك » التي ربما كان البيت المالك يستعملها او لا يستعملها طبقاً لما اذا كانت للدفع او الاستلام . وفي العهد الفارسي كان للصیرفي الكبير موراشو ، الذي التقينا به قبلًا ، نظام خاص به للاوزان والقياسات . فاذا ما اضفنا علامة للعصر وللبلاد فاتنا نجد ان الوحدات التالية للقياسات مجسدة في عقود تجارية [المعادات الانكليزية كلها تخمينية] .

(*) تورنای Tournais هي مدينة تورين الإيطالية على أكثر احتمال .

(**) البشل مكيال انكليزي للعبوبي يبلغ ٣٦٣٥ لترًا .

(١٧) الستير مكيال للسوائل وللقمح يبلغ حوالي غالونين او اثنى عشر Perch بشلا ، وهناك مرافق مماثلة بالنسبة للقاريء الانكليزي . البرتش

مترياس امفال انكليزي يعادل الياردة .

(***) الكوادورون Quadroon مكيال رباعي .

جدول الاوزان

١			
١ شي (قمح)	$\frac{1}{4}$ الحبة	— اونس)	—
٦٠٠			
٣			
١ شقلو (شاقل) ١٨٠	شي	— اونس	—
١٠			
١ مانو (مينا) ٦٠	شقلو	١٨ اونس ^(*)	—
٦٧	مانو	٦٧ لبرة	٦٧ لبرة (طلالت)
اما في العصر البابلي الحديث فان الحبة (شي) لم تعد تستعمل كوحدة اساسية ، وان الكميات الصغرى كان يعبر عنها كاجزاء من الشاقل واصغر جزء هو واحد من اربعة وعشرين من الشاقل او (ابول OboI) واحد .			

(*) هو « المن » الكيل المعروف عندنا .

جدول المساحات

- ١ - سيلا
سلا أو « كا » $\frac{1}{6}$ بنت
- ١ - مسكتو Massikto او (بي Pi) = $\frac{1}{60}$ كا ١١ غالون او $\frac{1}{6}$ بتشل
(وقد خفض المskتو في العصر البابلي الحديث الى $\frac{36}{36}$ كا)
- ١ اميرو Imeru (حل حار) = $\frac{1}{100}$ كا $\frac{1}{6}$ ١٨ غالون او $\frac{1}{6}$ بتشل
- وكان يستعمل في بلاد بابل مقياس يدعى « كورو Kurru » او « غور Gur » الذي يساوى ١٨٠ سيلا (= ٣٣ غالون او — ٤ بتشل) غير
ان ال (سيلا) غالبا ما كان يقدر بسقديار ثلاثة اربعين البنت والذي يجعل
الغور حوالي ستة عشر غالونا او بتشلين (*) .

(*) ال بنت مكيال يعادل ٥٦٨ و من اللتر

مقاييس الاطوال

أبانو (اصبع)	$\frac{3}{2}$ بوصة
- امّاتو (ذراع) =	$\frac{1}{2} 24$ أبانو = $\frac{1}{2}$ بوصة
- كانو (قصبة) =	$\frac{1}{6}$ اماتو = $\frac{7}{6}$ اقدام و $\frac{1}{6}$ بوصة
- غار =	$\frac{1}{15}$ اماتو = $\frac{9}{10}$ بوصات

اما في بلاد بابل فقد كانت المقاييس التالية مستعملة ايضاً .

اشلو =	$\frac{1}{10}$ غار	قدم $\frac{1}{157}$
	($\frac{1}{52}$ يارد)
	$\frac{1}{5}$ ميل	غار = 1800

مقاييس المساحات

مسارو =	اغار مربع	$\frac{1}{4}$ يارد مربع
	ايكو	$\frac{1}{27}$ يارد مربع
— من الفدان		$\frac{1}{6}$
	بورو	$\frac{1}{15}$ فدان

وكان يعبر عن مساحات الارضي ايضاً بمقادير كمية القبح المطلوبة لزراعتها ، اي بواسطة « بي Pi » و « اميرو Iméru » . ويتبين من هذه الفروق التي لم نلاحظ سوى الاساسية منها في هذه الجداول ، ان المقارنات لا يمكن ان تتم بمقادير واسعة جداً .

مقاييس وحدة التبادل أو التحويل

كان الشعر ، كما أوضحتنا ذلك قبلا ، يمثل الأداة الرئيسية للتبادل ، وكان يعبر عن هذا في عصر متقدم مثلاً يعبر عن سعر شراء الفضة أو الرصاص ، غير أن الفضة ما لبست أنأخذت تحتل بالتدرج مكانة الشعر ، ولم تكن تقدر بالعملة لأن هذه لم تكن قد اخترعت بعد ، وإنما تقدر بالوزن بصفة خاصة .

ويعزى اختراع النقود إلى بلاد « ليديا » بصفة عامة^(*) غير أن اللحظة الحاسمة كانت أول مصادفة تم فيها التعامل في التجارة بمقادير سبائك الفضة الصغيرة المختومة بعض الشعارات من أمثل رأس عشتار أو رأس شمش .

وكان سنجاريب (٦٠٧ - ٦٨١ قبل الميلاد) يقوم بضرب النقود فعلاً ومن قطع صغيره عندما سجل في مدوناته التاريخية قائلاً « لقد أمرت بصنع قالب من الطين ، وان يصب البرنز فيه لصنع قطع من فئة نصف شاقل »

١

• (اونس) — —

٧

وكانت أولى النقود الواسعة الاستعمال في غرب آسيا هي (الذاركات)^(**) الفارسية (نسبة إلى الملك دارا) ، غير أن هذه العملات كانت ، منذ اللحظة الأولى التي اخترعت فيها ، تؤدي ذات الوظيفة التي كانت السبيكة المعدنية

(*) ليديا Lydia مملكة في آسيا الصغرى ، عاصمتها مدینة سرديس اشتهر ملوكها قارون الذي ذكر في القرآن الكريم ، وأسمه لدى الأوربيين كرويسوس في عهد الأخمينيين ، وقد من قارون أيام كورش ملك الأخمينيين ، وسقطت عاصمتها بيد يهودي الفرس سنة ٥٤٦ قبل الميلاد .

(**) جمع دارك .

ـ تؤديها في اقتصاديات اوربا الغربية خلال الثلاثين سنة الماضية ، ولم تتخلى عنها خزينة الدولة الا عندما كانت تستعمل للتسويات بين بلدين ، أو لدفع اجور المرتزقة .

وكان كل المعاملات الاخرى تم بمقادير الفضة ، اما بالوزن او بالعملة المضروبة ابتداء من تاريخ الملوك السلوقيين وما بعده . وكانت الفضة ايضا مقاس وحدة القيمة ، فاذا ما سدد دين ما بالذهب جزئيا وبالفضة جزئيا فان نسبة مجموع ما دفع بالذهب يعبر عنها بمقادير الفضة .

يكشف تمحيص القود في عهد الامبراطورية البابلية الحديثة عن المعدلات التالية للقيمة بين الفضة والذهب وبين الفضة والمعادن الاخرى .

الفضة	الذهب	التاريخ
١٥	١	السنة الرابعة من حكم الملك نبوخذنصر
١٢	١	السنة السابعة من حكم الملك نبويندوس
٨	١	السنة السابعة من حكم الملك نبويندوس
١٠	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبويندوس
٨ و $\frac{1}{3}$	١	السنة الثامنة من حكم الملك نبويندوس
١٢	١	السنة الحادية عشرة من حكم الملك نيويندوس
(ملاحظة : وقعت المعاملتان في ذات اليوم)		

ان التوضيح الوحيد الممكن لهذه الفروق هو انها تعكس تقدير النسب التخمينية وتمثل نقاط الذهب والفضة بالتعاقب .

كانت القيمة المقارنة لوحدة من الفضة ، بالنسبة الى مقادير المعادن

الآخرى كما يلى : النحاس ١٨٥ ، الرصاص ٤٠ ، الحديد الإيجيني (من قبرص) ٣٦١ ، الحديد (من لبنان) ١٤٠

ان هذا يشير الى ان الرصاص كان يأتي في الدرجة الثانية من القيمة بالنسبة الى الفضة . ويعكس فرق السعر بين الحديد الإيجيني او القبرصي او اللبناني ، الفرق في النوعية ، وان ذات السبب يمكن وراء فروق من خمسة اضعاف في قيمة الرصاص .

ان هذه النقاط تحتاج الى تأييد ثابت . ولذلك ينبغي لنا ان تذكر باذ مجرد قراءة احد العقود لا يمكن ان تعطينا معلومات دقيقة عن النسب ودرجات النقاء لمختلف المعادن المختصة في حين اتنا لا نعرف في الغالب حتى الميزان الذي كان يستعمل لهذا الغرض .

ان واحدا من الامور القليلة التي نستطيع ان نقولها بشيء من التأكيد هو ان وزن الشاقل يعادل بصفة تقديرية وزن الربع الامريكي (٢٥ سنت) او اقل من « البني الواحد = ثلث اونس » بقليل .

قيمة السلع

نحن نعرف اسعار بعض السلع المحددة . ففي العصر البابلي الحديث كان « الغور » الواحد^(١٩) من التمور يساوي شاقلا واحدا ، غير انه في العهد الفارسي اصبح يساوي شاقلين . وكان سعر الشعير في الاصل نفس سعر التمور . ولقد أصبح فيما بعد غاليا كثيرا . لكن السعر كان يخضع

(١٩) في هذا القسم عد الغور معدلا لاربعة بثلات . ولكن على القاريء ان يتذكر (ما ورد قبله في جدول الاوزان) بان قيمته في بعض المعاملات كانت تساوي بثلين ليس الا .

لتقلبات كبيرة خلال السنة ، ويهبط بمقدار كبير في موسم الحصاد .

وكان الثوم يباع بالشدادات ويشير عقد مؤرخ من عهد الملك كورش الى ارسالية واحدة من الثوم تبلغ تسعة وثلاثين الف وخمسماة شدة .

ولقد بقي السمسم غالى الثمن ، اذ كان يكلف ما بين ثمانية واثنتي عشر شاقلا للغور الواحد او حوالى ثلاثة اضعاف الشعير ، في حين كان زيت السمسم يكلف اكثر من شاقل واحد لكمية تختلف من ستة وثلاثين (سلا) (٥٤ بنت او $\frac{3}{4}$ غالون) الى (٤٥ سلا ٢٦ بنت او ٢٧ غالون) ، لكنه كان بصفة عامة اقرب الى الرقم الواطئ .

وكان الكرم ينمو في شمالي بلاد بابل في ذلك التاريخ ، وكان الخمر المستخلص منه ينافس الخمور التي كانت تستورد من منطقة « طور عابدين » (اسالو القديمة) (*) ومن سوريا . وكانت الخمرة الجيدة المصنوعة من العنب (كرانو Kuráno) تساوى اكثر من ثمانية شواقل للجرة الواحدة ، في حين كان افخر انواع الخمور المستخرجة من التمور (شكرو Shikaro) تباع بما لا يقل عن الشاقل الواحد .

وكان الصوف الصقيل (شباتو Shipatu) يساع بمعنيدل ٢ مينا ($\frac{1}{2}$ لبرة) بشاقل واحد خلال العهد الفارسي في حين كان الصوف الارجوانى المصبوغ لا يكلف اكثر من خمسة عشر شاقلا .

ولا يوجد دليل في العقود الموجودة الان عن سعر القتب والكتان

(*) طور عابدين هي منطقة العباب التي تعرف الان باسم جبال طوروس وتمتد من شمال سوريا الى داخل بلاد تركيا .

(*) هي نفس كلمة « سكر » العربية او شكر بالعانية العراقية .

ولو ان المؤرخ سترايبو (الكتاب السادس عشر ١ ، ٧) قد اشار مؤخرا الى صنعهما في بورسيبا (*) على مقربة من مدينة بابل .

وكان ثمن ثور واحد يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين شاقلا ، وثمن كبش او معزة حوالى شاقلين . وكان الحمار غالى الثمن اذ ان معدل سعره يصل الى حوالى ثلاثين شاقلا .

وكان سعر ما يتراوح بين خمسين الى مائة اجرة ييلع شاقلا واحدا ، وكذلك سعر ستمائة مينا من الاسفلت (٦ هند رويت) (***) .

وكان الخشب مرتفع السعر كما هو متوقع . ففي عهد حكم نبوخذنصر كان ثمن اربع وعشرين قطعة من الخشب القبرصي يكلف سبعة وعشرين شاقلا ، وخمسة طالنات (٤ هندرويت) من خشب الارز ، نصف مينا .

وهناك مقدار جيد من الادلة عن سعر المعادن ، وان احدى المعاملات تشمل الكميات التالية :

١٠ طالنات (٦ هندرويت) من النحاس المجلوب من قبرص بسعر ٣ مينا و $\frac{1}{4}$ شاقل من الفضة .

٣٧ مينا (٤٠ ليرة) من الرصاص بسعر $\frac{1}{4}$ شاقل .

١٦ ميناوه و ١٥ شاقل ($\frac{1}{4}$ ليرة) من الصوف المصبوغ بسعر ٢ مينا و $\frac{1}{4}$ شاقل .

(**) بورسيبا مدينة أثرية تقع جنوبي بابل وتبعد عن مدينة الحلة بحوالى عشرة أميال تعرف خلائها باسم « برس نمرود » ورد ذكرها في شريعة حمورابي وفي كتب الفتح الاسلامي حيث وقعت عندها احدى المعارك مع الفرسن ، وظلت القرية قائمة ، وقد اشتهرت في مصر الباسى بانتاج انواع فاخرة من الثياب عرفت بالبرسية ، نقبت فيها بنتة المائة سنة ١٩٠٢ .

(***) الهندرويت CWT قنطار انجليزي يعادل ١١٢ رطل .

٥٥ مينا (٦٠ ليرة) من حجر اللازورد بسعر $\frac{1}{7}$ مينا و $\frac{2}{3}$ شاقل .
 ١٣٠ مينا (١ هندرويت ، ٣٠ ليرة) من الحديد القبرصي بسعر نصف
 مينا واثنين ونصف شاقل .

٢٥٧ مينا ($\frac{2}{7}$ هندرويت) من الحديد اللبناني بسعر ثلثي مينا
 وشاقلين وثلثي الشاقل .

ويبين الجدول التالي التغيرات في اسعار الارقاء ولو انت لا تستطيع
 هنا ان تؤكّد هذا بمقادير النقود العصرية .

معدل السعر في حكم الملك

نبوخذنصر	٤٠ شاقلا
نبونيدوس	٥٠ شاقلا
كوروش	٦٠ شاقلا
قبيز	١ $\frac{1}{7}$ مينا
دارا	١ $\frac{2}{3}$ مينا
اخشويرش (اردشير)	٢ مينا

ولقد ارتفعت قيمة المزارع والعقارات بشكل ثابت فيبينما كانت المائة
 غور (أكثر من نصف قдан بقليل) في اوائل العصر تساوي شاقلا واحدا ،
 لم يعد يشتري في عهد نبونيدوس بذلك المبلغ أكثر من عشرة الى عشرين
 غور (٢٦٠ او ٥٢٠ يارد مربع) .

وفي عهد كوروش كان البستان الذي تبلغ مساحته مائتين وخمسين ياردا
 مربعا ، يكلف أكثر من شاقلين واقل من ثلاثة في عهد دارا .

ويعد دار مع ارض صغيرة بخمسة عشر شاقلا للوحدة التي عرفت باسم «قصبة»^(*) قبل العهد الفارسي . اما في عهد الملوك الفرس فقد ارتفع السعر الى اكثر من اربعين شاقلا .

واخيرا ندرج هنا اسعارا متنوعة للملابس وللادوات المنزلية .. فلباس النوم باثنين مينا ، وسعر خمسين اداة صغيرة شاقلان ، واحدى عشرة كاسا نحاسية بشاقل واحد ، وكومتان منفصلتان مؤلفتان بالتتابع من مجرفة حديدية وفأس واداتين غير محددين ، واربعة كراسى وثلاثة اسرة ، يبعد كل كومة منها بشاقلين في عهد حكم كل من نيونيدوس وكورش .

وكان معدلات الاجور تختلف اختلافا واسعا . فقد كان حارسا معبدا يتسلمان اربعة وثلاثين شاقلا عن مدة اثني عشر يوما .

وفي عهد الحكم الفارسي كان يدفع الى العبد ثلاثة شوائل في السنة ، وهو ذات المبلغ الذي كان يدفع الى اربعة عمال لم يوصفو باهتمام من الارقاء .

ولما كان عدد الناس الذين يملكون رأس المال ليشتروا به ، قليلا فقد كان الاستئجار شائعا . ففي الامكان تأجير زورق يصلح نصف شاقل في اليوم ، وقد اصبح هذا الاجر شاقلا واحدا في عهد دارا .

وهذا السعر كان يوفر علاوة ، ذلك لأن الزورق سوف يستعمل باستمرار في الواقع ، فاذا ما تم بيعه يبقى مهما لفترات محدودة ولن يساوى حينذاك اكثر من مينا واحد او اثنين .

^(*) القصبة مقياس طولي لتحديد مساحة الاراضي ولا يعلم مقداره .
وكان الشائع ولا يزال حتى اليوم ان تقاس مساحة الشواطئ التي تزرع صيفا بطول خشبة المسحاة ، وهذا الطول عرضة للتلاعب من قبل الملتزمين عادة .

وكان احد الثيران يؤجر بمقدار عشرة غور من الشعير سنواً او
حوالى عشرة الى عشرين شاقلاً ، ويؤجر الكوخ او العانوت بمقدار غور
من الشعير في السنة .

واخيراً كان يدفع عن ارواء بساتين النخيل ربع حاصل التمور ، على
اساس ان مقدار الحاصل يكون متناسباً مع الارواء .

ان الانطباع العام الذي يمكن استخلاصه من آلاف العقود التي
بقت سالمة من العصر البابلي الحديث ، هو انه منذ ذلك العهد حتى المهد
الفارسي ، حدث ارتفاع واضح في اسعار السلع والاراضي والبيوت .

وهكذا لم تكن بلاد الرافدين ، مثل عالم اليوم ، غريبة بالنسبة الى
ارتفاعات السعر ، واتنا ننسع ذات الشكاوى عن الاسعار العالية في حين
ان اصغر محاولة لمحاربة التضخم كانت تقاوم بشدة ، لأن معدلات
الاجور لم تكن تتمتع بذات حرية الحركة التي تتمتع بها في الوقت الحاضر .
ـ المقصود بذلك زمن صدور هذا الكتاب بالانكليزية عام ١٩٥٤ .

لقد قام المنشرون العراقيون بجملة محاولات لتشييد الاسعار ، غير
ان التحقيق الواضح ان اي نجاح اصابوه في ذلك كان عرضياً ، وانهم
لم يكونوا يصلون اكثر من ان يسجلوا برضاهم الاسعار الواطئة لبعض
السلع ، في حين لم تكن حساباتهم بالنظر الى بقية السلع اكثر من اهتمامات
طبلية مغایرة للواقع . ولابد للمرء ان يتذكر حلم هنري الرابع ملك فرنسا
من ان على كل فرنسي ان يكون قادراً على ان يتناول فراخه في عشاء يوم
الاحد !

لسنا بحاجة الى اكثر من ان تتذكر المصلح اورو كاجينا (النصف الاول
من الالف الثالث قبل الميلاد) الذي حقق انخفاضاً ملحوظاً في الاجور التي
كان الكهنة يتلقونها عن الجنائز ، والتي كانت تتالف من ثلاثة كيلات من
الشراب ، وثمانين رغيفاً من الغبز ، وجدي واحد ، وسرير واحد ، بدلاً

ما كانوا يتقاسمونه قبله وهو سبع كيلات تتألف من ثلاثة كيلات من الشراب ، واربعمائة وعشرون رغيفا من الخبز ، ومائة وعشرون كيلة من القمح : وجباب واحد ، وجدي واحد ، وسرير واحد .

وإذا ما حصرنا اثنتنا بعصر متاخر فانتا نجد (سن غاشد)^(*) ملك الوركاء (الذي حكم في القسم الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) كان يتطلع الى وضع سعر مقداره شاقل واحد لكل ثلاثة اغوار من القمح ، او اثنى عشر مينا من الصوف ، او عشرة مينا من النحاس ، او ثلاثين سلا من الزيت .

ويسجل شمس ادد الاول^(**) الذي حكم خلال عصر حمورابي (بداية القرن العادي عشر قبل الميلاد) ان في عهده كان السعر الاعتيادي في مدينة آشور ، شاقلا واحدا من القضة لكل عورفين من القمح ، او اثنى عشر مينا من الصوف او عشرين سلا من الزيت .

فإذا ما ترجمنا هذه الأوزان المتعاقبة في عهد الحكام بعبارات عصرية واضفنا إليها العلاوات ، فانتا نجد بهذه الارقام تعادل ما يلي :

عهد سن غاشد : ٢١ بيشل من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف او ١١ لبرة من النحاس ، او خمسة غالونات ونصف من الزيت تعادل التين من سبعة من الأونس .

(*) الملك سن - غاشد أول ملك من بليوب سلالة الوركاء اليساوية ، حكم في الفترة ما بين ١٨٦٥ و ١٨٣٤ قبل الميلاد .

(**) شمس ادد الاول (شمس اد وآشور) من أباطئ ملوك بلاد الرافدين حكم في الفترة ١٧٩١-١٨٢٣ قبل الميلاد ، وكان معاصرًا وخصيًّا لعمورابي ملك بابل . وردت بمعلومات كثيرة عنه في السجلات الملكية التي تمثل عليها في مدينة ماري .

عهد شمس ادد الاول : ١٤ بshell من القمح ، او ١٣ لبرة من الصوف ، او ثلاثة غالونات وثلاثة اربعاء الغالون من الزيت تعادل اثنين من سبعة من الاواني من الفضة ٠

ان هذا يشير الى وجود ارتفاع ملحوظ ، في عهد حكم شمس ادد الاول ، في اسعار الجبوب والزيت ، في حين بقيت اسعار الصوف والفضة ثابتة ٠

وكانت اسعار المعادن طيلة قرون عديدة عرضة للتغير دوماً و الواقع حتى في الوقت الحاضر عندما يكون سعر الذهب ثابتًا بصفة نسبية في بعض الاحيان على الاقل ، فان هذا الاستقرار يعود الى اتفاق دولي ٠ وعلى النقيض من ذلك فان اسعار المعادن من امثال النحاس الذي يتعرض لتأثيرات قانون العرض والطلب ، ويكون ذا حساسية بالنسبة الى العوامل التي يتضمنها الاتاج فان هذه الاسعار تكون عرضة لتقلبات صريحة وعنيفة ٠

النحاس والبرنز

من المهم ان تذكر بصفة واضحة التواریخ التي ادخلت فيها مختلف المعادن لأول مرة ٠ ففي بداية العصر التأريخي كان النحاس معروفاً في بلاد الرافدين ، وكان مصدره ارمينيا والاراضي او كيادوكيا ٠ ولكن لم يعرف البرنز الذي يتتألف من سبيكة من القصدير والنحاس بصفة رئيسية ٠

ومع ان التحليل قد اظهر آثاراً دقيقة من القصدير في بعض امثلة المعادن التي يعود تاريخها الى هذا العصر ، فان بحثاً آخر يكشف عن آثار معدن اخرى ايضاً ٠ وكل هذه المعادن لم تكن نقية ٠

وحين ظهر البرنز لأول مرة في عصر الملك غوديا^(*) وعهد سلالة اور

(*) غوديا من اشهر حكام مدينة وملكة لکش ، عاش في المهد السومري الحديث (القرن العادي والعشرين قبل الميلاد) صورة في حوالسي ثلاثين تمثلاً محفوظة في متحف اللوفر ٠

الثالثة^(٢٠) كان يصنع على شكل سبيكة مع حجر الكلع ، ومع القصدير احياناً
وادي اكتشافه الى منح بلاد الرافدين معدناً ذا قيمة واسعة جداً ، وذلك
لصلاينه . ولإمكانية اختياره لسلسلة واسعة من الاغراض ، وفي ذات الوقت
الذى اصبح فيه الحديد مأولاً في التجارة . وذلك في حدود القرن الحادى
عشر قبل انبلاط . كان يستعمل مجسوعة من الاغراض اضيق من تلك التي
يستعمل البرنز فيها .

العديد والذهب والفضة

اول نوع من الحديد تم استعماله هو حديد النيازك الذي يتميز باحتواه
على النيكل . ومع ذلك فقد استبدل بحديد المناجم .

وكانت مصادر الذهب والفضة مثل بقية المعادن الاخرى ، تقع في الشلال ،
وقد بقيت مثلاً عليه الامر في اوربا الحديثة ، معادن نادرة وترفية طيلة التاريخ
البابلسي .

ولقد بذلت جهود متواصلة لتنمية الفضة وزيادة مقاومتها للتغيرات التي
كانت تحدث باستقرار . وكان سكان بلاد الرافدين بصفة عامة وكما تبين
الاساء التي اطلقوها على معادفهم يباؤن الذهب مكانة فاخرة لانه قوي وشرق
وصحاده . وفي الدرجة الثالثة تأتي الفضة المعدن الايض الوضاء .

وكانت الفضة اصلاً ، وكما رأينا ذلك قبلاً ، مجرد سلعة يعبر عن قيمتها
بسقدير من الشعير . غير ان هذا المفهوم ما لبث ان قضى عليه بالتدريج مفهوم
معادلة وزن محدد من الفضة بقيمة السلع التي يتم بيعها . واخيراً كان يعبر

(٢٠) عرف البرنز في زمن الملائكة في اوراي في سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد
رنو ان التحليل قد بين بان الادوات والاسلحة التي صنعت فيما بعد كانت تحتوى
على كميات تليلة جداً من القصدير .

عن القيم غالباً في امبراطورية بابل الحديثة وامبراطورية فارس ، بمقادير من
شواقل الفضة .

ولقد سبق ان عرفا الصعوبة الموروثة في ان يتم في كل معاملة منفصلة
وزن السلعة في كفة ميزان وزن الفضة التي تمثل القيمة العادلة في كفة
اخري ، وكيف ان ضرورة التأكد من تقافة المعدن قد ادت بصفة حتمية الى
استعمال الشواقل التي كانت تختم بعلامة تضمن جودتها . ففي اليوم الاول
الذى تم فيه عمل ذلك ، ثم اكتشاف مبدأ التقويد .

وتتجة للتقنيات التي اجريت توفرت لدينا معلومات واسعة عن محتويات
مشاغل عمال المعدن ، وصانعي الدروع وسباكى البرنز وصانعي الزهريات
وصاغة الذهب وعن تفاصيل صناعتها . وكان قسم كبير من فعاليات هذه المشاغل
يختص بصنع الاسلحة ، واننا سنبين هذه الامور بصفة اوثق عندما
نبحث موضوع الجيش .

صب التماثيل وطلاؤها

ما تزال التماثيل وسطوح الا لوح البرونزية التي صنعوا سباكوا البرونز .
موجودة ، وقد تطلب صناعها حل مشاكل تقنية مختلفة اصبحت الان
لا يُؤبه بها .

ان قطعة ضيقه النطاق لا تشير الى اية صعوبات خاصة ، غير ان الامر
يختلف تماماً بالنسبة مثلاً الى تمثال « نير - اشو » ملكة عيلام ، المحفوظ
الآن في متحف اللوفر ، والذي ما يزال حتى في وضعه المشوه الحالي ، يزن
حوالي طنين .

ان حجم الانابيق والافران المستعملة في السباكة العصرية يجعل من
اليسير صنع تمثال اكبر وزناً من هذا التمثال في درجة ثابتة من الحرارة حين

يصب المعدن المذاب . ولكن في ذلك العصر الذي صنع فيه التمثال . وهو النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، لابد وان كانت بطارية الانابيق تتطلب ان تحمي بصفة مستمرة وان تبلغ ذات درجة الحرارة وان تنتظم بحيث يتم افراغها بالتعاقب في الغالب دون فقدان الحرارة اثناء العملية .

ولابد ان يكون النجاح حصيلة بدايات خائبة واحفاظات متعددة .
والواقع العملي ان تمثال نبي - اشو كان على اكثرا احتمال اول عملية
صب في قسمين يؤلفان الوجه والقفا بالتتابع ، ومن ثم جرى لحمهما معا
وقد تم ببرد آثار العملية . وعلى الرغم من سmekه فلم يكن يظن بأنه صلب
بشكل واف ، وقد عولج هذا الامر بصب المزيد من المعدن في داخل التمثال ،
الذي قلب عليه سافله لهذا الغرض .

وكانت الخطوة الاولى لذلك هي صب معدن ذاتي في الجزء الاعلى من
التمثال ومن ثم القاء وزن ثقيل فوقه ، قصد به تقوية المعدن . الذائب لكن
ينشر ذاته يسر . ومن ثم يصب المزيد من المعدن الذائب فوق الكتلة كيما
يتم ملء الجزء الاسفل من التمثال .

ويم ذلك فلم تكن المحاولة ناجحة كلية ، ومع ان قدرًا كافيا من
المعدن المذاب قد صب فيه الا انه لم يملأ بشكل واضح الا قسما جزئيا من
السطح الداخلي للتمثال .

وفي اثناء غارة على سوسيه اقتلع الرأس والكتف والذراع اليسير من
التمثال بضررها هراوة ، وتلك هي اجزاء التمثال التي لم يصل المعدن
المصوب اليها تماما .

تشير درجة المهارة التقنية الظاهرة في هذا التمثال ، وفي المنحوتات
الثالثة ، الى ان علم التعدين قد بلغ مرحلة مشابهة لما بقي عليه بصفة عامة
حتى نهاية القرن التاسع عشر في اوربا الغربية .

ولكن قبل ان يبلغ هذه المرحلة التي بلغها ، كانت هناك مرحلة اسبق استخدمت فيها المهارة اليدوية الواضحة للتغلب على المصاعب واحفاء الفنون الصناعية المتوفرة لدينا . وليست هنالك من حاجة لأن نصف بالتفصيل الطريقة البدائية في نحت تمثال من خشب او في صنع حجر من القار يمكن صنعه بيسر ومن ثم تقطيعه بالواح رقيقة من معدن قابل للطرف حصيل ، لكي تصبح ملائمة تماما للتمثال وتثبت في مكانها بسامير صغيرة .

الزهريات والمجوهرات

كانت الزهريات المعدنية الناثنة تصنع بطرق السطوح التي يراد ابرازها بشكل فاتي . فإذا ما احتاج الامر الى حنفيات فان هذه اما ان تلجم الى الابدان ، او ان تثبت بخلاف ذلك في الموقع المطلوب بسامير ذات رؤوس كبيرة . وتوافر الرؤوس قسما عنصرا في الرخفة .

واعتمادا على سكها كانت المنحوتات الناثنة او الواح السطح اما بشكل فاتي او بحفر المعدن المسبوك بالازمبل . وفي العصر الذي يتحدث هذا الكتاب عنه كانت المواد التي يبيعها الجوهريون تشتمل على الحلقات والاقراط والاساور ودباییس الشعر . كذلك كانوا يبيعون ايضا القليل من المشابك ، غير ان طبيعة اللباس الآشوري في تلك الايام الذى كان يبيل الى ان يكون طويلا ومستقيما ، تجعل هذه المشابك من سلع الترف .

كانت الاقراط تصنع على شكل حلقات من عناقيد الاعناب ، ومن مخاريط مفطاة جزئيا يرسم محب ذي جناء متغير ، او من رؤوس حيوانية او بشرية .

وكانت هذه تصنع بصفة عامة من ورقة معدن جد رقيقة في أحد الاشكال مع احجار ملوثة وضاء ، وبأنواع مختلفة بصفة خاصة من العقيق التي عثر عليها في سلسلة من الظلال الجذابة ٠

وكانت الحلقات اما منبسطة او محفورة وهي ترصف غالبا مع احد الاحجار ٠

هناك عقد غير اعتيادي بقى سالما من التلف مؤرخ بالسنة الخامسة والثلاثين من حكم الملك احسويرش ، يجسّد مبدأ المسؤولية التي اشرنا اليها قبلًا ٠

لقد امرت شركة موراشو بصنع حلقة مرصعة بحجر ثمين (ربما كان من الزمرد لان اسمه لا يختلف عن الكلمة العبرية التي تطلق على ذلك الحجر ، والتي عرفنا منها ترجمتها الاغريقية) ، وقد اعطي الجوهرى ضماناً بأن الحجر اذا ما تحرك من موقعه طيلة خمس وعشرين سنة ، فإنه سيدفع غرامة مقدارها عشرة مينا من الفضة (حوالي احد عشر باونا) ٠

وكانت الاساور تصنع من كل نوع من الاشكال ، اما في شكل حلزوني مفتوح ، او دائرة بسيطة ذات نهايات مفتوحة او مغلقة ٠ فاذا كانت النهايات مفتوحة فانها تحفر في صفة رسم يشبه رأس حيوان ، اما اذا كانت مغلقة فانها تزين على الدوام برسم زخرفي آشورى مفضل يتمثل غالبا في شكل ميل ، هو الوريدة المفردة أو المزدوجة ٠

وكانت لهذا العمل اهمية رمزية ترتبط بالشمس دون شك ، كما كانت شائعة جدا في المشدات المعدنية التي تشد عبر الجبهة لامساك السرع في موضعه ٠

الفخاريات

كانت السوق مشهد الكثير من الصناعات الأخرى عدا التي أشير إليها قبلًا في هذا الكشف ، واحدى هذه الصناعات الشائعة جدا هي صناعة الفخار . لقد استعمل سكان بلاد الرافدين الطين ليس كمادة خام في بناء منازلهم ، والمستندات المكتوبة حسب ، وإنما في صنع فخارياتهم أيضًا . ويمكن العثور على مشابهات بين الصناعة العراقية لكل شكل تقريباً ما تزال مستعملة بصفة عامة ، ذلك لأنه ما ان ثبت احدى الأدوات ذات مرة فائدتها فلا يمكن التخلص منها قط ، وإن الاشكال الرئيسة لاوية الشراب والصحون والاقداح باقية ما بقي الجنس البشري .

ومع ذلك فلم يكن هذا مقدار النشاطات التي يمارسها صانع الفخار . فهو يصنع الجرار الكبيرة أيضًا مثل تلك التي كانت تستعمل للخزن في البلدان التي تنتجه الزيت ، والتي كانت تخدم أغراضًا متعددة من أمثال خزن الطعام والماء . كذلك كان يصنع حتى بعض التجهيزات المنزلية أيضًا من أمثل الأفران .

وكان ينافس التجار كذلك وصنائع السلال في صنع التواييت التي كانت أحجامها ودقتها تقدم على الدوام ذليلاً على المهارة العظمى التي يتمتع بها صانعها .

وكانت هذه التواييت تصنع في بعض الأحيان في شكل خوازي مرتبعة ذات أغطية ، وفي شكل صناديق أحياناً أخرى مغلقة كلياً ما عدا فتحة في الجزء الأعلى من العطاء مفتوحة ببطء مزدوج زينت مختلف الواحات بشكال مختلفة ولا سيما الآلة .

ولقد أصبح أول تابوت من هذا النوع ظهر في العصر البابلي الحديث ،

اكثر شيوعا في عهد الفرس ، ثم بلغ ذروة انتشاره في عهد الملوك الفرثين
الارشاق (*).

صانع السلال

اوردنا عدة اشارات عن صنع السلال . وكانت هذه الحرفة مرتبطة
ارتباطا وثيقا بحرفة النسيج لأن عددا من المنتجات قد يصنع بهذه الحرفة .

فقد كانت اشرعة الزوارق مثلا تصنع اما من قماش سميك كما يتوقع
المرء ذلك او من نسيج نباتي محاك مثلا ما تزال عليه حتى الان في
بلدان الشرق الاقصى . ويصدق ذات الشيء على صناعة الحصر التي كانت
تستعمل، فيما تعلق لفرض زخرفة الاقسام الواطئة من جدران المنازل
وحياتها باستعمال سمامير فخارية طويلة ذات رؤوس متعددة .

وهناك أدوات اخرى كان يصنعها صانع السلال من ضمنها الأسباب
المدورة الشائعة في الشرق (والتي اعطت اسمها الى الزوارق المدورة ، القحف
التي تحدثنا عنها فيما سبق) ، وكذلك الصناديق ، وحتى المقاعد . ذلك
لان المادة الخام التي كان صانع السلال يستخدمها تتدرج من الانتجة التي
تشبه الجبال الى اطول نوع من القصب ، ولذلك كانت هذه الاخيرة صلبة
بشكل مفرط و تستعمل اما في حالتها الطبيعية او تقطع الى الواح .

وكانت ارخص التواليت تصنع من الاغصان المضفورة ، وعلى هذه
الشكلة كانت تصنع القوارب الفجة او الاطواف بعبارة ادق ، والتي كانت

(*) الفرثيون الارشاق (البرثيون) شعب قديم مطرد من سكنيها اي ببلاد
روسيا الحالية فانحدر الى الجنوب واستوطن حورانيا (بلاد العوريين) جنوبي
شرقى قزوين . وفي سنة ٢٥٠ قبل الميلاد انسن الفرثيون الارشاق سلالة حاكمة
استمرت حتى سنة ٤٤٦ ميلادية حين اخلت السبيل امام السلالة الساسانية ، ويعرف
الفرثيون باسم « الاشكانيين » نسبة الى مؤسس السلالة « الشك » .

تتألف من مجرد حزم من القصب تشد سوية بالرأس من نهاية كل واحدة منها وتعاشق وسط الاطواف باعتمدة متقاطعة (اظر ما سبق في قسم وسائل النقل النهري) وبذلك توفر للراكب فيها بعض البل لكتها لن تدعه يسقط في الماء تماماً .

ويبدو ان سعر الحصر في عهد حكم سلاطنة اور الثالثة قد تم تحديده بالاشارة الى عدد الانسجة التباينة في مساحة معينة .

تجهيز الملابس

كانت توفر سلسلة واسعة من المواد في قسم الالبسة من السوق . وحتى الى سنة الف قبل الميلاد كان اللبس المراقي يتالف من ثوب داخلي يشبه الفانيلة المصرية والتي كانت تدعى « ثوب العشمة » والتي ترتدي فوقها قطع من مادة مستقطبة فصلت حسب الحجم المطلوب ، ويمكن تزيينها بطرق مختلفة ، ثم يتم ربط الملبس كله بدبوس كبير .

اما في العصر الآشوري فقد كان الجلباب ، او على وجه الدقة عدة جلابيب قصيرة الاردان ، ترتدي احدها فوق الاخر .

ويبدو كما لو ان زي ارتداء الالبسة المخاطة والذى كان من الامور المعتادة في الاقطان التي تناхم بلاد الرافدين ، لا بد وان جيء بها من الخارج خلال الالف الثاني قبل الميلاد وقد اعقبتها التراويف في تاريخ متأخر .

كانت الملابس تزين بالتطريز . وكانت تلك خاصية محلية ، وقد عرفت في العالم القديم بصفة عامة باتما « صنع بابلي » .

وكانت انواع الملوك واعضاء البلاط مطرزة بشكل مفرط . وكان احدث شكل لالبسة هو الذي يترك مجال لا صغيرا لزينة متولدة من زي اكبر قدما . غير ان ذكراه ترتدي الى الوشاح الذي كان يرتدي محسولا عبر الصدر وفوق الكتف وقد ثبنت الخناجر في طياته .

صانع العلويات

كان وجود صانع العلويات في اسواق العالم القديم لا يقبل عن وجوده في اسواق العالم الحديث . صحيح ان المستندات التجارية اليابانية يصعب ان تشير اليه ، الا انا نستطيع ان ندلل على وجوده بشكل تام من المعلومات التي توفرت لدينا عن صانعي الحلويات التابعين للمعابد ، والذين كانوا يصنعون الكمل المقدس الذي كان يتم تناوله باعداد كبيرة في اوقات المهرجانات ، وكذلك الكمل الذي كان المصلون للآلهة عشتار يجمعونه ويتركونه لطير الحمام المخصص لها .

ولقد سبق لنا ان جتنا على وصف نموذج صغير لمعبد فخاري من قبرص ، كانت جسمته بشكلها الاعتيادي ذي التجاويف الصغيرة تشبه برج حمام حقيقي ، في حين تبين عمارات تقديرية من مدينة باقوس تحمل زينة المعبد ، طيورا سبق ان اشار اليها الكتاب الاقدمون ايضا .

كانت المواد الرئيسة التي يستخدمها صانع العلويات ذات انسواع متباعدة من الدقيق المصنوع من الشعير ، والحنطة او السذرة ، والسكر المستخلص من التمور ، والمسل والزبدة المصنوعة من لبن النعام او الماعز (ويندر صنعوا من لبن الابقار) وبذور السمسم وزيت السمسم وماء الورده

بانشع الاسفاني

يصعب تعداد قائمة الصنائع ، غير ان هناك صناعة واحدة بين الصناعات الدقيقة يبدو عليها بأنها كانت شهيرة والتي يوفر احد النصوص اساسا لها وتنهى بها حرفة صانع الاغاني سواء كانت مقدسة ام اعتيادية .

فهناك نص وان كان اقدم من العصر الذي تحدث عنه ، يتألف من مجموعة من عناوين اغاني او الایات الاولى منها على الاقل ونورد هنا قلة من هذه

« لقد يرز الله النار ، سيد المعارك ٠ اواه يا سيدى ٠٠

« ان حبك اشبه بشذا عود الارز ٠٠٠٠ »

« تعال الى جنينة الملك فهى ملأى باشجار الارز ٠٠٠٠ »

« اواه يا بستانى حديقة الامانى ٠٠٠٠ »

« آه ما اوفر ثمارها وكم هي مشعة زاهية ٠٠٠٠ »

« لقد شهدت في الشوارع عاهرتين ٠٠٠٠ »

لقد آن لنا الان ان نأتي على وصف المهن الذهنية التي كانت مسكن مدينة بابل يمارسونها ٠ فقد كانت خدماتهم مطلوبة كل يوم لكنهم كانوا يعكفون بشكل عميق على العلم والدين ٠ وعلى هذا فلسوف نحص اولاً المبادئ الكبرى التي تبين المعتقدات التي كانت تحكم بفعالياتهم ، ومن ثم نأتي على وصف عوائدهم ٠

الفصل الثاني الملك والدولة القصر الملكي

قبل ان تتناول وصف حياة احد ملوك بلاد بابل او آشور ، يتبعني
لنا ان نحاول - حسبما تسمح به معلوماتنا عن القصور الملكية - اعادة
تشكيل النمط المادي الذي كان الملك يعيش فيه .

لقد عرفنا المقاطع الرئيسية لهذه القصور قبلاً ، وقد كشفت التنقيبات
عن قسم منها غالباً قائماً وبشكل سالم تسبياً في الغاب .

كانت هذه القصور تبني من اللبن مثل بقية البيوت الاعتيادية ، وقد
اودى الزمن ما . وكانت الاجزاء العليا اول ما انهار منها في شكل خراب
داخل الاسوار وخارجها الى ان تهدمت قشرة الاجزاء السفلية تماماً .

وكانت النتيجة المباشرة لذلك هي ان الانقاض المتداخنة كانت تؤلف
طبقة واقية تغطي بقايا التصر ، ومع اتنا لا نعرف شكل الغرف العليا الا اتنا
نستطيع على الاقل ان نعرف المخطط الارضي ، ويتوفر لدينا الجزء الواطئ
من الجدران .

لدينا امثلة عديدة على هذه القصور في نمرود (مدينة كالخ القديمة)
وفي نينوى وفي مدينة بابل ، لكن الكثير منها قد تم التخطي عنها بعد ان
دمرت تماماً شديداً في حرب ، او نهبت ، او حتى دمرتها النيران تماماً .
وقد حدث ان قصر خرساني الذي كان اول قصر يتم اكتشافه ، كان
واحداً من افضل القصور التي تم الحفاظ عليها ، ونظراً لأن التنقيب فيه
كان أكثر تنسيقاً من البقية فاتنا قد نعتبره نموذجاً لاغراض الوصف الذي
تبغيه .

قصر خرسنbad

كان الملك سرجون الثاني الذي يظن فيه خطأً بأنه كان منتخبًا للعرش في حين أنه ينتهي في الواقع إلى الأسرة الملكية ، يعتزم منذ زمن طويل أن يشيد قرراً خارج نينوى تقع خرائطه الآن قبلة مدينة الموصل الحديثة، التي تشتت الحرارة فيها أيام الصيف .

كان الموقع الذي اختاره هو قرية خرباد الحديثة . وقد دعاه دور شرّوكين ، أو « حصن سرجون » . ولما كان الجو هنا أكثر برودة وأقل مضايقه مما عليه في نينوى ، فقد أصدر أوامره بأن يتم بناء قصره والمدينة باتفاق الآراء .

ولقد كمل العمل ضمن بضع سنوات غير أن سرجون الذي كان حكمه قد اوشك على الاتهاء غالباً ، نادراً ما كان يسكن هناك . ويمكن التدليل على المصير المحتمل الذي أصاب القصر باثار التيران التي كانت ظاهرة في كل مكان منه . وليس من شك في أن قصوراً أخرى عانت ذات المصير ، وأنه لم يستحصل منه في الواقع أية أشياء يمكن نقلها بيسر والتي نقلت نتيجة أعمال النهب .

التنقيبات

من الجدير أن تذكر القصة عن الكيفية التي بدأت بها التنقيبات ، وتم إنجازها . كان وكيل الفنصل الفرنسي في الموصل هو المسيو « بوتا » الذي ولد في مدينة « ميلان » خلال العهد الذي اتحدث فيه هذه المدينة مع فرنسا تحت حكم الإمبراطورية .

لقد اعتاد « بوتا » في مشياهاته اليومية أن يعبر النهر ، ويصل إلى الروابي التي تتأثر على امتداد ضفة النهر الطويلة ، والتي كشفت فيه الريح وحوافر الخيل في الغالب ، عن قطع من الآثار القديمة .

لقد كانت هذه الآثار مهمة جداً لأن تجذب المزيد من الاهتمام . غير أن « بوتا » الذي كان رجلاً مثقفاً ، كان يمشي المناقشات ، ومن ثم انتقل

إلى موقع نينوى حيث شجعه المسيو (موهل Mohl) سكرتير الجمعية الفرنسية الآسيوية على القيام بتحريات أخرى.

قرر بوتا أن يقوم باسبار تجربة في الموقع، وبدأ العمل فيه على حسابه الخاص، لكن ما عثر عليه، لأسباب سوف تظهر مؤخراً، لم يكن مهماً. وأذ أصابته الخيبة واوشكت موارده على النفاد، قرر التخلص من العمل نهائياً، عندما أكد له بعض سكان قرية خرسناد التي تبعد حوالي عشرة أو أحد عشر ميلاً عن نينوى، بأنهم عثروا على تماثيل كبيرة اثناء خيالهم باعمال البناء.

أخذ بوتا سبيله نحو الموقع وبدأ بالتنقيب هناك في آذار ١٨٤٢ ولقد كان محظوظاً جداً في اختياره نقطة بدايته، لأنه في اليوم الأول من أعمال الحفر وصل إلى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الآشوريات.

في ضوء هذه النتائج أخذت التنقيبات تحظى بالاهتمام الرسيي وتم تمويلها من قبل الحكومة الفرنسية. ولم تكن المبالغ التي خصصت لهذا الفرض كبيرة جداً، غير أن قيمة الفرنك في تلك الأيام لم تكن قد خضعت لانخفاقات المعيشة في الشرق كانت زهيدة جداً.

منح السلطان فرمانا يؤكّد السماح بإجراء التنقيبات غير أن هذه التنقيبات كانت تجاهه بشدد الاوساط الحكومية وغيابها في الموصل. فعلى بعض الاحيان كانت خنادق التنقيبات تعتبر حصنونا عسكرياً. وفي بعض الحالات كان البيت البسيط جداً الذي تقيم بهمة التنقيب فيه، يعتبر قلعة خطيرة، وكان ذلك يتطلب في الغالب تدخلات دبلوماسية.

كان موقع خرسناد في الواقع قد تم تنظيفه جزئياً، وتم الكشف عن المخطط الأرضي لكن هذا المخطط، طبقاً للفكرة المقبولة آنذاك، قد تم رسمه في صفة مخطط غير متناسب لأن فكرة التصرير غير المتناسب بالنسبة إلى العقل الأوروبي لم تكن مقبولة (وذلك خطأ تماماً).

محمد الـ فرنسي يدعى (فلاندان Flandin) بهمة دسم كل شيء يكتشف في الأرض ، وقد تجـعـ عن ذلك اتـاج مجموعـة فـاخـرـة من الرسـوم تـدـعـ « نـصـبـ نـيـنـوـيـ » تقـليـداً لمـجـمـوعـةـ اـسـبـقـ خـصـصـتـ لـحـلـلـةـ نـابـولـيونـ عـلـىـ مـصـرـ .

وفي الوقت الذي كان فيه بوتا يعتقد بأنه قد عثر على موقع مدينة نينوى التاريخية فإنه في الواقع كان يتعجل كثيراً في التخلـي عنها .

في هذه المرحلة أعدت السلطات البريطانية التي كانت تتطلع للدخول هذا الميدان ، العدة لتسـلمـ موقعـ نـيـنـوـيـ الذيـ تـخـلـيـ عـنـهـ .ـ الفـرنـسيـونـ ،ـ حـيـثـ تمـ التـوـصـلـ إـلـىـ اـنـتـاقـ تـحـفـظـ فـيـ فـرـنـسـ ،ـ رـغـمـ ذـلـكـ ،ـ بـحـزـءـ مـنـ الـنـطـقـةـ .

وـحـالـاـ شـرـعـ الـبـرـطـانـيـونـ بـالـتـقـيـبـ حـتـىـ كـشـفـواـ عـنـ قـصـرـ نـيـنـوـيـ الـذـيـ كـانـ يـقـعـ عـلـىـ عـقـبـ بـوـصـاتـ قـلـيـلةـ تـحـتـ الـمـسـتـوـيـ الـذـيـ تـوـقـفـ بـوـتاـ عـنـهـ وـقـدـ حـدـثـ ذـلـكـ عـنـدـمـاـ بـدـأـتـ الـصـاعـبـ .ـ لـاـنـهـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ كـانـ فـيـ بـوـتاـ وـرـوـلـنـصـونـ (*)ـ مدـيرـ التـقـيـبـاتـ الـأـنـكـلـيـزـيـةـ خـارـجـ الـنـطـقـةـ ،ـ جـابـ

(*) هنري رولنсон Henry Rawlinson ١٨٩٥-١٨١٠ في تشالونـتونـ فيـ ١١ـ نـيسـانـ ١٨٢٧ـ وفيـ ١٨٤٠ـ ذـهـبـ إـلـىـ الـهـنـدـ كـتـلـيمـ عـسـكـرـيـ للـسـلـمـ فـيـ شـرـكـةـ الـهـنـدـ الشـرـقـيـةـ ،ـ ثـمـ اـرـسـلـ بـعـدـ سـنـواتـ إـلـىـ اـيـرانـ ،ـ وـهـنـاكـ اـهـتـمـ بـالـعـرـوـفـ الـمـسـارـيـةـ وـنـقـلـ كـثـيرـاـ مـنـ كـتـابـاتـ حـجـرـيـسـتوـنـ .ـ عـيـنـ فـيـ ١٨٤٠ـ وـكـيلـاـ سـيـاسـيـاـ فـيـ قـنـدـهـارـ ثـمـ نـقـلـ إـلـىـ بـغـدادـ فـاـكـمـلـ نـسـخـ كـتـابـاتـ يـسـتوـنـ وـاعـدـ عـنـهـ تـذـكـرـةـ خـاصـةـ .ـ مـعـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـثارـ الـبـابـلـيـةـ وـالـأـشـورـيـةـ وـالـسـاسـاتـيـةـ وـالـسـبـيـشـيـةـ إـلـىـ الـتـحـفـ الـبـرـطـانـيـ .ـ شـارـكـ فـيـ التـقـيـبـ فـيـ الـعـرـاقـ وـنـشـرـ أـرـبـعـةـ مـجـلـدـاتـ فـيـ الـفـقـرـةـ مـاـ بـيـنـ ١٨٨٤-١٨٧٠ـ عـنـ كـتـابـاتـ حـجـرـيـسـتوـنـ .ـ تـوـقـيـ فـيـ لـنـدـنـ ١٩ـ ذـارـ ١٨٩٥ـ .ـ

هرمز رسا(**)، الذي كان يقوم باعمال الحفر الحقيقية، في احدىاليالي ، الجزء الذي خصص من المنطقة لفرنسا ، ووصل مباشرة الى اغنية من الخرائب وتفقد به قصر آشور بانيبال ومكتبه التي يعتبرها المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسيّة .

بذل رولنصولن ، وهو رجل شريف تأثر كثيراً بما حصل ، افضل جهوده لتهيئة سخط الفرنسيين ، بان قدم الى فرنسا جملة من نساجين جميلة لقطع تم اكتشافها في التحقيقات البريطانية .

وفي الوقت ذاته اكمل بوتا تحقيقاته الخاصة وبعد مصاعب مستعصية تم نقل الآثار التي اختارتها البعثة في كل ذلك وزورق الى الخليج العربي ومن هناك جرى شحنها بالباخر الى فرنسا . وما ان وصلت حتى تم عرضها في متحف اللوفر في طاقم من الغرف مشغولة الان (سفينة من اماوس (***) ، ومن ثم في طاقم زينه كل من برسييه وفوتينن(***) يواجه كنيسة «سان جرمان لكسروا » حيث ما تزال فيه حتى الان . وكان الملك لويس فليب الذي نحن مدینین له باقامة اول متحف آشوري في اوروبا ، قد افتتح هذه المجموعة في شهر ايار سنة ١٨٤٧ (****) .

(**) هرمز رسام من عائلة رسام المسيحي المعروفة في الموصى كان دا ملة مع القتصدية الانكليزية في الموصى . وعندما دخل الانكليز ميدان التحقيقات في خرابات نينوى شارك هرمز رسام مشاركة واسعة معهم وادى لهم خدمات كبيرة في هذا الشأن وعلى الاخص مع المقرب مني لارياد . كما قام هرمز نفسه بعدة تحقيقات اخرى في تل أبو حبة والدرين ومام ايبراهيم وغيرها .

(*) اماوس Amathus مدينة تقع على الساحل الجنوبي من جزيرة قبرص

(**) برسييه Percier وفوتينن Fontaine ، رسامان فرنسيان عهد الالبيما اعادة رسم المنحوتات الاشورية التي عشر عليها الفرنسيون في نينوى . وخرسانياد .

(***) الملك لويس فليب : تولى الحكم في فرنسا سنة ١٨٣٠ بعد ان طرد شارل العاشر ولويس هذا هو ابن فليب دوق اورليان الذي اعدم في عهد الارهاب . وقد ساندت بريطانيا عرشه على أساس أن فرنسا عادت الى الحكم الملكي . ودام حكم لويس فليب ثانية عشر سنة وسقط ثورة ١٨٤٨ م في باريس .

اللت جمهورية سنة ١٨٤٨ منصب القنصل في الموصل وبذلك توقفت التقييمات ، واستفاذت من هذا التوقف فائدة تامة جملة من البعثات الأجنبية التي توافدت على بلاد آشور ٠

وما ان اعيد النظام في فرنسا على يد الامير الرئيس حتى بدأ التفكير ثانية بشكل جدي في استئناف التقييمات التي راح عالم الاكاديميات يتطلع الى الافادة من الارض المفقودة ، يطالب باستئنافها باصرار ٠

تلسم فكتور بلاس العمل في الموقع الذي تركه بوتا وقد عثر على نصب جديدة تطلب نقلها الى متحف اللوفر ٠ غير ان الحظ كان معاكسا له في هذه المصادفة ٠ ذلك لأن الاكلال والزوارق المحملة بالآثار كانت مهددة من قبل السلاطين المحليين الذين كانوا يتبعونها على ضفاف النهر ٠ ولفرض الوقاية من هجمات هؤلاء السلاطين كانت الاكلال والزوارق تقف في وسط النهر وهي تحت رحمة التيارات العجارة من مياه الفيضان المتلعة ولقد غرفت هذه الآثار دون استثناء وبذلك ضاعت الى الابد كل ثمار هذه السلسلة من التقييمات في اعماق اطيان نهر دجلة(*) ٠

عندما بدأت التقييمات لأول مرة ، كان التل الذي يضم الخراب تقوم عليه احدى القرى ٠ وقد نقلت هذه القرية الى السهل عندما كانت التقييمات ماضية ثم اعيدت الى موضعها الاصلى بعد اتمام التقييمات ٠

(*) تذكر الاخبار ان هذه الآثار قد غرفت على مقربة من مدينة القرنة نقطة التقاء دجلة بالفرات ٠ وقد قامت احدى الشركات اليابانية سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ بمحاولة لتحديد الموقع الذي غرفت فيه تلك الآثار والعمل على انتشالها غير ان البعثة رغم مابذلته من جهود وما انفقته من اموال لم توفق الى ذلك لأن مجرى النهر الحالى في هذه المنطقة قد تغير كثيرا عن مجرى في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، وقد عادت البعثة الى اليابان لتعيين دسم خرائط جديدة لمجرى نهر دجلة ولتزايد البحث عن هذه الآثار المفقودة مرة اخرى ٠

كان اختيار بوتا لعدد كبير من المنحوتات التي كشفت البعثة عنها محدوداً بسبب مصاعب النقل . ولذلك اضطر إلى أن يخلف وراءه تلك المنحوتات التي دمرتها النيران في حين اختار أشهر تلك المنحوتات التي بقيت سالمة من العطب من أمثل النيران المجنحة والتماثيل التذكارية . وبعد أن تم إكمال الرسوم الضرورية ملأ الحفريات بالانقاض ودفن بصفة عملية أكثر النصب التي كشفت عنها .

ليس هناك أدنى شك في أن مغامرة هنري رسام ، ولا زرنيد أن تستعمل كلمة أقوى من هذه ، قد سلبت فرنسا كنزاً لا يقدر بثمن ، ذلك لأنه يوجد كل السبب في الاعتقاد بأن الفرنسيين - بعد أن عرفوا النتائج التي حصل عليها الانكليز من الأذن الذي أعطي لهم - لابد وأن يستأنفوا التحقيق في الموقع الذي خصص لهم .

غير أن فرنسا جاءت متأخرة مرة أخرى في خرباد ، عندما ظهر الأميركيون بين الحسينين على أذن بالتحقيق في موقع موجه من حكومة العراق .

عادت البعثة الأمريكية فتح الأماكن التي نقب فيها بوتا قبلًا . وباستعمالها مخططاته أصبحت قادرة على تجنب البدايات العقيمة ، غير أن ضرراً جدياً أصاب المنحوتات التي أصابتها النيران ، وذلك نتيجة تعرضها الموجز للهواء سنة ١٨٤٢ ، وبذلك عثر على عدد منها غالباً تالفاً . ومن ناحية أخرى أظهر التحقيق في المناطق التي لم يتم الحفر فيها قبلًا ، أن الموقع لم يكن يضم قصراً ملكياً في قلعة سرجوند حسب بل قصر كبير الوزراء وبيوت كبار الموظفين أيضاً .

كذلك استطاعت البعثة أن تؤكد الحقيقة التي كان يشك فيها قبلًا نتيجة التحقيقات الأولية التي قام بها كل من بوتابلاس ، بسان المدينة لم

تكن كلها مأهولة تماماً لأن القصر لم يدم طويلاً حتى أصبح يمثل مركزاً عدداً كبيراً من السكان .

مخطط القصر

كانت الرحلة الأولى في بناء القصر هي اتخاذ كل الاحتياطات التي تطبقها العقيدة الدينية ، والتي سنعود إليها فيما بعد . ومن ثم أقيمت دكة لمؤلف نوعاً من منصة صممت لفرض رفع هيكل البناء فوق مجاري الماء الذي ربما يقوض الجدران عندما يفيض النهر وروافده بعد أن تذوب الثلوج .

ويقع نصف القصر الذي يشمل المدخل ، داخل أسوار تحيط المدينة ، في حين أن البقية التي تم تحصينها قد أقيمت وراء هذه الأسوار وبذلك أصبحت مؤلف حصننا يمتد داخل السهل .

بنيت الدكة من اللبن ولفرض استقرارها تم بناؤها بجوانب منحدرة . وهي تحتوى على نظام جد متقدم للمجاري الداخلية التي كانت تضمن انصباب كل المياه القدرة في مجاري . وقد تم الكشف عن هذا البناء الذي شيد كله من الآجر . وسقطت المجاري باقباء مستدقة الرؤوس قليلاً ، وهي تتتألف من مجموعة من المراتب التي تستقر كل واحدة منها على المرتبة التي تحتها لغرض تجنب الحاجة إلى نصب سقالة لأن الخشب ما زال نادراً في هذا الجزء من بلاد الرافدين في حين كانت المجاري ذاتها تصنع من أنابيب فخارية متصلة .

لقد تم الحفاظ على هذا المظهر الخاص من العمارة الآشورية وتم تصميمه بشكل فاخر وإن أكثرية هذا النظام في الواقع يمكن استعماله في الوقت الحاضر مع اصلاح بسيط أو بدونه .

كانت الباحات تبطئ بالآجر النمسط وبطبيعة من القبار أو التراب

المدكوكه . وكانت الباحات تنحدر بشكل طفيف الى امام نحو الوسط كيما يمكن تسرب الماء بيسرا .

وكانت تفتح انحاءات في جوانب الدكة كيما تهيء مدخلا لحيوانات الجر وللعربات ، في حين يصعد المسافرون على الاقدام والوافدون من المدينة سل ساسعا ومزخرفا بالنصب . ويؤدي السير حول الدكة بعجان القصر الى الاسواق النحيطة بالمدينة .

وكانت الابراج تقام على ابعد في هذه الاسوار وتتدلى كلها حول القمة في طريق واسع يسيطر على الافق ويتسع بما فيه الكفاية كيما يسمح للقوات ان تهب على عجل للدفاع .

وكانت واجهة القصر تمثل مظهر كتلة صلبة خالية من التواجد مزينة ببساطيل خشبة صست لاضفاء تأثير نافع ووقائي على البناء كله ، وتألف من ازواج من الثيران المجنحة ، والجن الطيبين الذين يحرسون الابواب ، والذين كانت نظراتهم بعد ذاتها نضمن اخافة كل فاعلي الشر وطردهم .

تبزر البوابة في المقدمة من بين بقية البناء . وهي تفتح على ممر في الجدار (انظر وصف ابواب المدينة في الفصل الاول) تم تشخيصه بصفة خاصة في هذه النقطة ، وهذا في الواقع يهيء مدخلا الى الباحة الداخلية . وكانت هذه الباحة عبارة عن مربع مكشوف له غرف عديدة تفتح عليه ويستعملها اي من المراسلين او اصحاب السمع او العبيد الذين يتطلبهم القصر .

وهناك ممر ضيق آخر ينفتح خارج الباحة ويؤدي الى باحة اخرى . وهذه الباحة . بعكس الساحة الخارجية ، ليست مربعة بل مستطيلة لها ثلاثة مداخل منفصلة مقسمة بعمودين ضخمين في الجهة الداخلية الطويلة . وتوئدى هذه المداخل الى غرفة مستطيلة اصغر من الباحة وهي تحتوى على المنصة او الجزء المترفع من الارض الذي يقوم عرش الملك عليه . وهناك

انذار صحي للتأثير في الامراء الاجانب الذين يسمح لهم بالمشور بين يدي الملك ، عند قاعدة العرش التي زرت بمختلف الرسوم التي تثل حروب الملك واتصاراته ، من امثال هرم من رؤوس اعدائه المغلوبين ثم تكديسها عاليا امامه .

وهناك باحة ثلاثة ايضا ذات مداخل منسقة لابد وان كانت تستعمل لاغراض رسمية .

علينا ان تذكر ان البناء برمه كما ظهر في مخطط بوتا و كانه في استقامه تامة ، انما كان في الواقع منحرفا قليلا في شكله و مائلة الى جهة واحدة .

وينبغي ان لا يثير هذا الامر دهشتانا لاننا نعرف الان ان نتائجنا الحديثة من التناقض والموازنة (ولو ان هذا لم يعد صحيحا تماما لان المصرين في بحثهم عن كل جديد لم يعودوا يتربدون في العودة الى الماضي) لم تكن تعنى شيئا بالنسبة الى الماضي الصحيح .

وكانت غرف الغرز تفتح على الباحة . وفي هذه الغرف عشر المنقوذن على مخزن كبير من جرار الزيت والطعام التي ما تزال محفوظة فيه . وكذلك احتياطي الدهان المطلوب لصيانة القصر وال الحديد الذى كان على شكل قضبان صغيرة . وكانت هذه القضبان في حالة جيدة تماما عندما تم اكتشافها الى درجة ان بوتا استخدمها لصناعة الادوات التي احتاج اليها اثناء التقييات ، من امثال المعاول والمجارف واطارات عجلات العربات التي كانت تقل فيها الموجودات التي يعثر عليها الى النهر .

ومع ذلك يوجد ممر آخر يؤدى الى مجموعة من المباني تلتف سلسلة من باحات مجاورة لثلاثة مبان محددة المعالم لكل واحد منها مدنه وغرفة مفردة وفي اقصى النهاية خلوة ذات دكة من الآجر .

وقد تم تشخيص هذه العظوة على وجه الدقة بانها تمثل الحرم الذي

كان يضم شقق ثلاثة ملكات بارزات ، في حين افترض بأن دكة الأجر لا يد
بأن كانت مقطة بافرشة فاعمة ، وكانت تستخدم بمثابة سرير للنوم ..

ويبدو أن هذا التشخيص كان أكثر صوابا لأن شرعة الاسلام تنص
على أن الرجل حين يتزوج أكثر من زوجة واحدة فلا بد من أن يعاملن بعذالة
تمامة جدا ، وان المباني الثلاثة المشخصة تتطابق كلية مع هذا المبدأ (*) .

وفضلا عن ذلك كانت هذه الباحة مزينة تزيينا وفيها بالاجر الزجاج
بالألوان الزرقاء والخضراء والصفراء وبصور نسر واحد وشجرة تين
ومحراث .. وكان المدخل مزينا بأعمدة من اخشاب مقوسه خطيط بطبقة من
البرونز الذي كسي بيورده باوراق من الذهب كيما تمثل جذع شجرة التخل ..
وقد اوضحت المباني التي تم اكتشافها بأن هذا المدخل كان يؤدي الى معابد
احد القصور الخاصة وان الدكاك المرتفعة لم تكن اسرة وانما كانت هيكل ..
وكان وجود احدى الزكورات الى جوار هذه المجموعة من المباني امرا طبيعيا
 تماما في هذا المضمار ..

القصور الثانوية

على مقرية من نهاية القصر ويعينا عن المدينة عشر التقىون على نوع من
منصة مستطيلة يمكن الوصول اليها بدرجات قليلة ..

(*) لا تعرف ما اذا ثبت حتى الان ان ملوك العراق في المهد السوثرية
والبابلية والاشورية وغيرها كانوا يتزوجون أكثر من امرأة أم لا .. ولكن الشيء
الثابت ان اياحة الدين الاسلامي للرجل بأن تكون له في آن واحد اربع زوجات
بشرط المساواة التامة بينهن ، كان يقصد به منع التسرى في الدرجة الاولى ، ورفع
 منزلة المرأة ومضاعفة الدور الذي تقوم به في خدمة المجتمع حين تصبح اما لاطفال
تنهض بتربيتهم بالإضافة الى تهوضها بامور البيت وبمشاركةيتها الواسعة في مختلف
مصادن العمل بما في ذلك مرافقة الجيوش السارية لنشر الاسلام في الاقطار التي
لم يدخلها بعد ..

ان هذه المنصة لم يتم تحديد صفتها بشكل قطعي لكنني اجتهدت ان ارجى فيها بقايا بناء مقبس من خارج البلاد حيث كان الملوك يتباهمون غالبا بهذه العبارات « لقد امرت ان يشاد [بت بلاني] (*) وفقا للطرق الحديثة » ٠

ولقد قيل ان بت بلاني هذه كانت مباني ذات شبائك وجدت في سوريا في الوقت الذي كانت ما تزال فيه غير معروفة في بلاد آشور ٠

ولكن من البرهان الذي توفره بقايا هذه المباني في شمالي سوريا كان الا (بلاني) يحتوي دوما على غرف مستطيلة ذات درجات ترتفع الى احد الجوانب الطويلة . وخلف قبة الدرجات يوجد عمودان يدعسان سقفا منسوبا وبذلك يؤلفان حجرة لها جانب واحد مفتوح بينما تكون الحجرة الثانية التي تفتح خلف الاولى معدة للاغراض المعيشية على اكثر احتمال . وعلى هذا قد تكون الدكة او المنصة المستطيلة في خرباد تمثل بقايا مبنى من هذا النوع (٢١) ٠

وتجاور القصر على الجانب الذي يواجه المدينة مساكن اخرى واسعة وفخمة . من اهمها المسكن الذي كان يشغل شقيق الملك سرجون الذي كان يتخذ وزيرا اعظم له . وقد شيد هذا المسكن حسب المقطع العام الذي يتالف من عدة باحات احيط البعض منها بعرف للخزن ، والبعض الآخر بمخابئ ، كما احيطت غيرها ايضا بشقق للاستقبال ٠

وتقابل هذه المسكن مباني اخرى لم يعرف الغرض الحقيقي من وجودها

(*) بت - بلاني Bilani سراز من البناء اشتهر في بلا: الاناضول او في شمالي سوريا استعمله الملوك الآشوريون في قصورهم تقليدا للاپانيا التي شاهدوها اثناء حملاتهم العسكرية خارج حدود بلاد آشور ٠

(٢١) انظر مقالة هنري فرنكفورت - اصل البت .. بلاني .. في مجلة (المراق العenne ١٤ الجزء الثاني ١٩٥٢) ٠

ولو أنها كانت ذات صفة رسمية دون شك ، وكذلك المعبد المكرس للاله « نبو » الذى يدون مصائر البشر وهو الله الكتابة . فهذا المعبد باحراه الخارجية والداخلية يسكن الوصول اليه عبر باحة كبيرة اقيمت فوق مستوى راية اصطناعية مع دكة قصر الملك . وتنصب البناياتان معا جنبا الى جنب ويجاورها جسر حجري صغير ذي قنطرة غوطية الشكل .

الجنان والجنائن المعلقة

كانت مجموعة المباني المشتملة على قصر الملك والمساكن الملكية المجاورة منه محاطة من جانب المدينة بسور متاخم فيه بوابات من طراز انتيادي وبذلك كانت منطقة القصر منزلة فعلا من كل جانب .

في مدينة برسبيوليس التي كانت عاصمة السلالة الاخينية الحاكمة ، تم فتح فتحات منظورة على ابعاد في صخرة رحبة القصر . وهذه الفتحات لأيد وان كانت مليء بالتراب ، وزرعت فيها الاشجار كيما تؤلف جنية . ويمكن مشاهدة ذات الترتيب في مدينة آشور ببلاد آشور ، حيث امر سنجاريب بإنشاء حديقة واسعة جدا .

لقد سبق ان وصفنا (في الفصل الاول) حديقة الملك « مروداك بلدان » عندما تحدثنا عن الخضراءات في بلاد الرافدين .

وليس هناك ادنى سبب للشك في ان مثوا مماثلة تمت تهيئتها في خربساد ، غير ان تربة المدينة كانت خفيفة ليس فيها طبقة صخرية عميقة ولذلك لم يمدد في الامكان بقاء اي اثر للحضار القديم .

عد القدامي دون ادنى تردد جنائز بابل المعلقة من بين العجائب السبع في العالم ، ولو ان التنقيبات التي كشفت عنها لا تعطى سوى اسس ضئيلة لمثل هذه المبالغة . فلربما كانت هذه الجنائز المدرجة قد اقيمت فوق تل

بجانب القصر تقع على شارع الموكب قريبا من بوابة عشتار (*) .

على هذا التل الصغير تم اكتشاف اثار آبار تشير الى ان سلسلة لا نهاية لها من الدلاء كانت تستعمل لرفع الماء الى اعلى نقطة من الدكاك .

فيما البناء المدرج الذي ارتفع ذاته بموقع الجنائن على قمة التل الصغير، جعل قسم الاشجار تبدو ظاهرة فوق الاسوار من مسافات بعيدة ، وان هذا قد ساعد دون ريب على ادامة اسلوب الجنائن المعلقة .

ومع ذلك لا نستطيع ان ترك موضوع الجنائن دون ان تتحقق من ان ملوك آشور ، كانوا يستمتعون - ما عدا الحدائق المزروعة لنافع خالصة - بجذائين نباتية مبدعة تضم مجاميع من انواع غير اصلية ولا سيما النباتات والاشجار التي تنمو في جبال لبنان .

وبذات الطريقة تماما اشد ملوك مصر حملاتهم لجمع وجلب الانواع النادرة من النباتات .

هناك كدورو (٢٢) من مدينة سوسة محفوظ الان في متحف اللوفر وقد

(*) أورد عدد من المؤرخين القديمي منهم سترايبر ، وديودورس الصقلبي ، وكرينتوس كرتيسوس واريان ويوسفس ، اوصافا مختلفة للجنائن الملكية في بابل . ويفهم من هذه الاوصاف ان هذه الجنائن لم تكن بالشكل الذي ذكره مؤلف هذا الكتاب هنا وانما على التقىض من ذلك كانت هذه الجنائن مقامة فوق اروقة مجوفة . ولذلك سميت بالملعقة . وجاء في احد كراسيس مديرية الآثار العامة في العراق (١٩٥٨) انه وجدت في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر الجنوبي في بابل بقايا بناء يتألف من اربع عشرة حجرة متشابهة في شكلها وحجمها ، كل سبع حجرات منها تقع على رواق واحد ويحيط بها جدار قوي سميك ، وعشر المنقوصون في احدى هذه العجرات على بئر لها ثلاثة حفريات واحدة بعيب الآخر . وقد اعتبر المنقوصون هذه العجرات بأنها هي مقر الجنائن الملكية التي عدت من عجائب الدنيا السبع في التاريخ القديم .

(22) كدورو Kudurru بحير العدد .

عرف باسم الكدور و غير الكامل لانه مزين لكنه غير مكتوب ، يصور موكيما من الاجانب يحفون بمنتجات من اوطانهم ، من اشهرها صندوق يضم شجيرة مغطاة بالازهار . كذلك كان الاشخاص ايضا يقودون حيوانات لان ملوك آشور كانوا جد مغرمين بحداائق الحيوانات التي كانوا يحفظون فيها انواعا نادرة تم جلب توابعها وكانت موضوع بحث نشط .

هناك منحوته مؤرخة من عهد آشور بانيال (القرن التاسع قبل الميلاد) تصور بعض الملزمين بدفع العجزة وهم يجلبون القردة ، في حين ان الهدايا التي كان السكان الخاضعون للبلاد آشور يشاهدون وهم يجلبواها الى شلمناسر ، على مسلة سوداء ، كانت تشتمل على نوع من حيوانات ذات قرون ربما كان القليل من ابرزها . فعندما كان ملك آشور يتوجه بحملاته العسكرية غربا ، ويتخذ طريقة بعيدا حتى شاطئ البحر الابيض المتوسط ، لم يكن يتوانى عن القيام برحلة بحرية قصيرة لفرض اذ يرمي الى سيطرته على المحيط ، وان احد المتحدثين يضيف الى هذا ان الملك اصطاد حيوانا بريا يدعى « الدلفين » (*) .

(*) الدلفين Dolphin نوع من السمك البحري يعرف في مصر باسم « ابي سلام » .

الزخرفة والمنحوتات الناتئة

كان القصر الملكي في جوهره أكثر بقليل من كومة هائلة من الطين ، وهي المادة الخام التي لاتطاوع التفصيل الفني ، لكنها كانت مع ذلك مستودع الكنوز الملكية في بلاد آشور .

لقد بحثنا في فصل سابق من هذا الكتاب عما انبأتنا به المنحوتات الناتئة عن عظمة الآثار ، في حين كانت اراضيات الغرف مفروشة بالسجاد الذي نستطيع ان تكون فكرة عنه من العتبات المحنية .

وكانت جدران الغرف التي نقل اهميتها مزخرفة بقواعد واشرطة من الاواني متباعدة ولوالب ، ونقوش من الرخام بصفة عرضية . غير ان فخامتها الرئيسية تمثل في وفرة المنحوتات الناتئة التي صورت في القاعات المددة للاحتفال والتي تؤلف العمود الفقري للمجموعات الآشورية المحفوظة في كل من لندن وبرلين وباريس . فهي تتالف من صفائح من المرمر والجنس هشة جدا لانها عندما تم اقتلاعها كان الحجر ما يزال يحتفظ ببروطته الطبيعية ويأخذ في التصلب كلما جف .

ولسوء الحظ كان يمدد الى تكوين الجص بعملية التكلس وبقى ابناء البلاد عبر التاريخ يستعملونه لهذا الغرض في ابنيتهم الخاصة .

بنيت الواح كبيرة من هذا الحجر في الاجزاء السفلية من جدران الغرف . ولم تكن تستعمل لصنعن الافاريز التي كان الاغريقيون مغزمين بها . وفي المجال العملي فأن مثل هذه القطع الثقيلة لايمكن ان تثبت بشكل مضبوط في طين الجدران غير المفخور ، وانما كانت عرضة للسقوط واسقاط وجه الجدار مما .

كانت الاواح توضع دوما بصفة صفائح عند مستوى الارض وغالبا

ما كانت تفطس قليلا في الأرض تحت ضغط ثقلها وهناك مظاهر مختلفة من امثال الربطات تشير الى انها قد نحتت بعد ان تم تثبيتها في الموضع .

ولابد ان يكون مجموع مساحة هذه المنحوتات كبيرة جدا (لقد تم احتسابها في خرسان وحدها ظهر انها تفطى ما يقرب من فدان وثلاثة ارباع الفدان) الى درجة يبدو فيها لاول وهلة بان التصور يقف حائرا امام قوة احدى الامبراطوريات التي استطاعت ان تنجز مثل هذا الشيء الكبير في فترة قصيرة من الزمن ، ذلك لأن بناء خرسان لم يستغرق سوى خمس سنوات ليس الا .

غير انه ينبغي لنا ان تتحقق بان العمل قد تم تنظيمه بصفة خاصة تحت اشراف اعظم اقتصاد ممكن في الجهد . فقد صممت المشروعات الزخرفية لكل غرفة ، وكذلك الموضوعات العامة من قبل فنيين مبدعين . وبعد مرحلة التخطيط ، احيل العمل الى صناع من حذقوا صقل الحجر الخشن ، واعتمد كل واحد منهم على اختصاصه الشخصي . وهكذا نجد ان احد هؤلاء الصناع لا يعمل شيئا سوى التطريز ، في حين يقصر صانع آخر عمله على نحت تفاصيل الاشرطة او الاقدام .

والحقيقة ان المنحوتة برمتها كانت تحت بصور خيالية بالنسبة لوجوداتنا ، كما يقع ذلك بالنظر الى الزهريات الاغريقية ، وان أيدي وأرجل بعض الشخصوص كانت مقلوبة .

ولم تكن المنحوتات مصبوغة بالدهان كلها ، بل زوقة بلمسات عرضية من الالوان وعلى الاخص في بعض حل الالبسة ، في حين كسي الجدار الذي فوقها اما بالكلس او تم تزيئه في الغالب جدا باشكال هندسية مصبوغة من معينات ومثلثات وافقاريز متتابعة من الوريدات وبازهار اللوتون او البراعم ، او اخيرا بقرصن او مستطيل مقرن الجانب تقوم على جوانبه الجن او الثيران .

وكانت الموضوعات الأساسية للنحوت الناثة محدودة جداً . فقد كان أحدها يمثل ممارسة الملك للصيد وهي الرياضة التي كانت تشغّل على وجه التأكيد جزءاً كبيراً من وقت الملك .

فهي خلاصة لرحلات الصيد التي كان يقوم بها يعدد آشور بانيال عدداً من الحيوانات التي قتلها والتي تتألف من ثلاثين فيلاً ومائتين وسبعين وخمسين حيواناً قُتلت بالعربة ، وتلثمانة وسبعين اسدًا قُتلت برماح الصيد .

اما الموضوعات الأخرى فكانت تمثل الولائم ، واستقبال المتسابقين الى اداء الجزية ، واخيراً الحرب والتي يمكن ان توصف بأنها قوام الصناعة الآشورية . وعندما نصل الى هذا الموضوع لتقدير اهميته سنجد باتساع اعتدنا اعتماداً كبيراً في ذلك على وفرة الادلة الوثائقية التي وفرتها لنا النحوتات الناثة ، ومن ناحية أخرى اختفت الرخفة في بلاد بابل ليس صفة النحوتات الناثة بل صفات الاجر المزجج . فقد تم العثور على كسر في غرفة اجتماع واسعة في قصر نبوخذنصر على شكل اشرطة عمودية ذات الوان سوداء وزرقاء فوق خلفية خفيفة . تنتهي في شكل رأس له لوبان ملتئف من لون اصفر .

ويسجل المؤرخون القدامى ان الجدران كانت مزينة بمشاهد الصيد . وان لم يعش على بقايا منها ، فاذ مثل هذا الامر محتمل بصفة قاطعة تماماً .

القصور الاقليمية

لقد حصرنا بحثنا كثيراً في نطاق الموقع الذي كان ملك بلاط آشور يقيم فيه عندما يكون موجوداً في عاصمة مملكته ، لكنه كان يمتلك ايضاً قصوراً يستطيع ان يسكن فيها عندما يزور الإقاليم .

ولعل واحداً من افضل هذه القصور الواقعة هو تل الحير مدينة تل

بارسيب الآشورية القديمة^(*) في الشمال الغربي من الامبراطورية الآشورية والتي تقع في المكان الذي ينحني فيه نهر الفرات بشكل احاد على مقربة من قرقميش^(**) .

وهذا القصر غير شهير من الناحية المعمارية لانه يحتوي على الاعيادى من الباحات ذات الغرف او الشقق التي تفتح عليها ، ولكن ليس له مخطط ارضي متجانس بشكل واضح ، في حين تبدو المرات وكافها قد صمدت لتعقيد حركة المواصلات بدلا من تميدها .

غير ان المظهر غير المعتمد فيه يتمثل في عدم وجود التحوت الثالثة كلية في القسم الرئيس منه وان الزينة تتالف على افراد من رسوم اعادت الهار كل موضوعات التحوت الثالثة .

هناك شك ضئيل في ان كلفة بناء القصور ورخافتها من امثال قصرين خرساندي في نينوى ، كانت جوهرية جدا على الرغم من استخدام ابرى الحرب ، الذين لا يتكلفون شيئا سوى الاحتفاظ بهم ، لنقل مواد البناء ولتشغيل اعداد كبيرة من الصناع الذين كانوا ينقلون قسرا من بلادهم الخاصة بهم ، اكثر من عدد الفنانين المبدعين .

كانت التقدود المتوفرة يحتفظ بها لبناء القصور في العاصمة وهذا يعني

(*) تل بارسيب : اسمها المعلق تل الحمر ، مدينة قديمة تقع في الاراضي السورية على الضفة اليسرى من نهر الفرات وكانت عاصمة مملكة «بيت ادبي» الارامية . فراما شلمناشر الثالث ملك اشور في القرن التاسع قبل الميلاد وسمانا «كار شلمناشر» اي مدينة شلمناشر . نقاب فيها الالاتاري «الفرنسي الشهير تورو دانجان سنة ١٩٣٦ وما يبعدها مع جملة من الالاترين . وعثروا على آثار قديمة فيها .

(**) قرقميش : هي عاصمة مملكة العشرين التي ظهرت في بلاد الاتاشور في الالف الاول قبل الميلاد . واظلالها الان تدعى «بوغاز كوكى » . نقاب فيها السرا ليونارد . وولى في اواخر سني العشرينات واوائل الثلاثينات وعشرون فيها على اثنين قيمة وضع كتابا خاصا عنها .

ان القصور الاقلية يجب ان تبني بزخارف ابسط واقل جهدا ، وافها لاشتغل على المناكل التي يتيرها نقل الحجر الى مسافات طويلة .
لقد تلفت رسوم قصر تل احر لسوء الحظ ، وان النساج التي وصلت منها الى المتأحف كانت قليلة وعلى شكل كسر .

ومع ذلك ففي اثناء التقييب استطاع « كافرو » المهندس المعماري لبعثة تورو - دانجان (*) التي عثرت على الرسوم ، ان يستنسخها ويعيدها بمعناية كبيرة وبهذه الصورة استطعنا ان نستلخ صورة صحيحة طبق الاصل لزخارف القصر . وحين وصلت هذه الرسوم الى باريس تم عرضها او لا مدة قصيرة في متحف « الاورانجيري » ومن ثم نقلت الى « المتحف الاستعماري » . وبذلك اعطت برهاناً اوسع على ان متحف اللوفر لم يكن يتسع لاحتواه وعرض كل مجموعاته . وليس هناك ادنى ريب في ان المشروع القصير الاجل الذي اعد لاقامة متحف شرقي والذي كان يتطلع اليه في الامال المعقودة على الهدنة ، لابد وان يعاد بعثة مرة اخرى .

جعلت السطوح الداخلية للجدران ناعمة بقدر ما يسمح به مزيجها المؤلف من الطين المفخور والقش المثروم ، ومن ثم كسيت بطبقة من الجبس ، في حين تم صبغ الصورة بایجاز ومن ثم قويت باللون ، ولو انها لم تصبغ كليّة .

وكان من سوء الطالع كثيراً ان تشقت طبقة الجبس وتلفت بسرور الزمن ، وكانت نتيجة ذلك ان الصورة لم تعد تظهر ازاء خلفيتها ، في حين كانت القطع التي اكتشفت عديمة الجدوى باستثناء الدليل المعماري .

(*) تورور دانجان Thureau-Dangin من العلماء الفرنسيين الكبار الذين تخصصوا بدراسة المساريات . عكف على دراسة الكتابات المسارية التي اكتشفت في تللو درفع عنها مؤلفاً قياماً يدعى كتابات سومر واكذ صدر سنة ١٩٠٥ مـ لهذا الرجل فضلته الواسع في اكتشاف قواعد اللغة السومرية .

لابد لنا ان تذكر هذه الحقيقة عندما نأخذها بنظر الاعتبار ويزيد من التفصيل . فهنا ، كما هو الامر في اي مكان آخر ، كان الفنانون يسلون بالآم معروفة كيما يتذعوا الموضوعات الزخرفية للقصور الملكية ، وهكذا نرى الملك جالسا على عرشه وهو يرتدي كامل حلقه يستقبل السفراء وداعفي الجزية . فاحد المشاهد بين اسدا مدهنا يقعع عند قاعدة العرش . فهذه الحيوانات كان يحتفظ بها اليفة في القديم .

هناك نص عن موقعة «قادش»^(*) الحاسنة في سوريا ، والتي جوبه فيها رعيس الثاني ملك مصر بالثعین ، يصف شجاعة الفرعون الذي كان يقاتل بيد واحدة فعلا مجموعة من أعدائه لكنه تلقى العوز بهجمة من أسماء الاليف .

وهناك مناظر اخرى تصور رحلات القنص الملكية باشكالها الاعتيادية من الدراما ووثبات الاسود . ففي هذا العصر لم تكن مشاهد الحرب قبل تحولت بعد الى موضوع للزخرفة ، لكن في اثناء الاستعادة اللاحقة لـ تسل يارسب في عهد آشوربانيبال ، عندما اصبحت حروب الملوك موضوعا شائعا ، بدأت محاولة لتصوير هجمة اقتصاص قام بها حملة الرماح الاشوريون بهذه الطريقة .

ولكن ما لا شك فيه ان هذا لم يكن مقبولا وانه قد صور بموضوع اكثر انسجاما مع الزخرفة القائمة للقصر .

ولقد اكتشف الامريكيون بقايا مهمة من رسوم في قصر الوزير الاعظم في خرباد (سبق ان ذكرنا بان هذا الوزير كان اخ الملك) ، واحد هذه الرسوم يمثل الملك متتصبا فوق قطرة على شكل مسلة ، وهو مشهد غالبا ما تم ابرازه في نحوت القصور الملكية .

(*) قادش : من اهم المدن القينيقية على شاطئ البحر الابيض المتوسط وهي تقع على نهر العاصي .

ويمكن تلخيص الموضوع بالقول ان النحت كان مقتضرا بدرجة حيوية على اكبر القصور ذات الاهمية العظمى .

مفهوم الملكية

كان عامة الناس الذين راقبنا اعمالهم اليومية في كفة اجتماعية واحدة في حين كان في الكفة الاخرى ، الملك وبلاطه والطبقات الحاكمة وكانت الثغرة فيما بينهم جد واسعة بحيث لا تعرف بایة مقارنة . ومن الواضح ان يوما ما في حياة الملك لا يمكن ان يحصل ادنى مشابهة ل يوم من حياة رجل اعتيادي .

ولسوء الحظ يعززنا السند الذي نود كثيرا ان نمتلكه ونعني به اليوميات التي كان يحتفظ بها افراد البلاط من امثال يوميات « فتني برني » (*) . ولكن وان كانت كل براهيننا غير مباشرة بالضرورة فاتنا نعرف كيف ان كل ساعة في الغالب من ايام معينة كان الملك يتلقاها واتما بالنسبة لبقية الايام نعرف وظائفه الرئيسية .

في المسر الذي تحدث عنه كانت اللملكة الاشورية والبابلية تستمد قوتها من تقليد صين بشكل ثابت ، فاولا وفي الفالب كانت الملكية لا تمثل سوى الشكل المستطاع للحكومة ، ومع ذلك فقد كان الملك كثيرا ما يخضع لنوع من قوة اعلى ، وبذلك قد يصبح غاب الحاكم امرا لا يمكن تصوره .

وقد اتفق هذا الامر بعض الملاحظات القصيرة التي اوردتها احد الكتبة عن بعض اعداء الامبراطورية باول تلك الزواة الذين كانوا يتوصون في

(*) فتني برني Fanny Burney شخص فرنسي عثر على لوحة من الفخار يمثل الامة عارية مجنحة يحيط بها اسود يوم وقد نسب هذا اللوح اليه فاصبح يعرف لدى الاثاريين باسم « لوحة برني » .

الجبار ان الشمال والشرق . او يجوبون السهوب التي تناхض حوض بلاد الرافدين .

يقول الكاتب بصفة قاطعة ان هؤلاء « لا مساكن لهم (بمعنى انهم يعيشون في الخام) ولا ملك لهم » . ففي هذا التاريخ كانت مقاهم الملكية - منها كانت الصنفان الشخصية للسلوك ومقاهيم الدولة - غير منفصلة .

القواعد التي تحكم باعتلاء العرش

تنطبق معلوماتنا عن هذا الموضوع على وجود دولة ودياته متطورتين تصوراً رفيعاً . ومع ذلك نستطيع أن نستنتج وجود فترة معينة في القدم يفضل قصيدة جد قديمة تصف الموارد المستقة من عصر اسبق .

تحدث هذه القصيدة عن البطل غلاماش الملك الاسطوري للوركاء والذي كان نوعاً من هرقلة البابلية والذي سجلت مغامراته ليشكل عاطفياً في قصيدة ملحمية .

ان غلاماش شبهه هذا الذي تتجزء من اتحاد انسان وآلة - ولهذا توجد اشارات الى تقييد اكبر قدماً - قد صور في صفة رجل ذي قوة خارقة تكمل ما تتضوی عليه شرارة الوحش .

فهو يصطدم رعایاه ولكنه في ذات الوقت هو حاميهم المولود الذي ينصر عن ذراعيه ضد اي تهدید بالاذى موجه الى شعبه .

وهو يشن حملة ضد حارس غابة الارز اي في لبنان او امانوس وتلك اشارات بالعمارات الاسطورية الى الجملات التي كان يقصد بها افتتاح طريق التجارة امام السلع من امثال الاختناب التي لم تكون مخطية في بلاد الرافدين .
وهو يحرس قطعاً من رعایاه من الجحروات المتوجهة . وهو الصيام الذي

لإيهاب . وهو يجسد صفات الرئيس البدائي كالحارس فقط المتحمس
لمصالحة مجتمعه .

ان ذكرى هذا العصر البعيد يمكن التحسن بها من حقيقة ان حق الصيد
لم يكن يتمتع به سوى النبلاء وحدهم . فعندما يقتضي ملك آشور اسودا
بالقوس والنشاب فإنه يمارس في هذه الرياضة امرا كان من واجباته فبلا
كملك .

الترشيح السماوي

كان اعتلاء العرش خلال اواسط الالف الاول قبل الميلاد لا يعتمد
على اللياقة الملكية حسب وإنما على ترشيح من الآلهة أيضا .

وليس من شك في ان هذه العقيدة تعود اصلا الى ضغوط وضوابط
صريرة ومتاجنة ولا سيما في الشرق لأن مبدأ الوراثة هو المسوون به لكن
جذوره تعود الى الماضي السحيق جدا .

وكان المعروف بصفة شاملة ان السلطة الملكية مودعة في ايدي الآلهة،
وان هذه كان يرمز اليها بلباس الرأس والسلاح التي كانت تطرح - كشعارات
السلطة - امام عرش «النور» في السماء .

وقد وضحت هذه النقطة في قصيدة اخرى (سيد ذكرها) في قسم
الشعر الغنائي في الفصل الثالث من هذا الكتاب والتي يعد فيها « ايتانا » (*)
المعدة للقيام برحلة الى السموات كي يسرق هذه الشعارات بالقوة .

(*) الاله انو والاله ايتانا . انو هو رب ثيفي مجمع الآلهة ليسكن بلاد الراقددين
القديمة وكان مقره في معبد عرف باسمه في مدينة الورقام . أما الاله « ايتانا »
 فهو الاله الرامي في الاوساط الدينية السومرية وله معلم في السماء .

فهو يبدأ الرحلة بمعونة نسر اقتنه من عدوه الثعبان ، لكنه مثل ايكاروس آخر (*) قدر له ان لا يبلغ السماء ويطلب عليه دوار الرأس فيسقط محطما على الارض .

و عندما لا يستطيع اشغال العرش ، اما لأن السلالة الحاكمة تكون قد بلغت نهايتها او بسبب غزو بربيري ، فان الملكية تعتبر آنذاك وكأنها قد صعدت الى السماء .

عند هذه النقطة كان ينبغي للاله ان تشير الى رجل حسب اختيارها . ولذلك كان الملوك من اقدم المتصور يعتمدون باقابهم على الذين تم اختيارهم بهذه الطريقة . وقد يعرض مختلف الآلهة في مختلف الاوساط السياسية ولكن المفهوم بصفة عامة هو ان «أليل» حاكم الارض هو الذي يقسم الاستئناف النهائي اليه .

وفي عصر متأخر اخذت هذه السلطة تنتقل بصفة طبيعية الى الاله الذي كان يحكم المدينة ، وقد ادى هذا الى ان تقدم الاستئنافات الى عدد كبير من الآلهة عن طريق الملوك المطالبين بان يكونوا موضوع هذا الاختيار السماوي

ولكن بحلول منتصف الالف الاول قبل الميلاد عندما تم اتساع المدن الفردية من قبل دولتين عظيمتين هما آشور وبابل اصبحت آلهتها المحترمة من امثال آشور ومردوك تعتبر وكأنها كانت تتطلع بعطاف الى الملك الطفل حين مولده ، ولهذا يذكر حمورابي ان « شمس » آله العدل كان يتطلع اليه فيما بعد عطفا بعينيه البراقتين ! .

وبواسطع هذه الفكرة اصبح في مقدور الملك ان يتم اختياره في لحظة

(*) ايكاروس : بطل اسطورة يونانية وهو ايكاروس بن ديد الوس ، هرب من الشين فلقي في السماء حتى اضطجع على مقربيه من الشمس واذ ذاك قاتل ثواب جناحاه المصوّعان من الشمع فسقط في البحر .

الاستقبال . فهذه كلمات ستحارب تقول « ان الاله قد اختارتني عندما كنت
ما ازال في رحم امي التي ولدتني ! »

ويمكن اختيار الملك حتى بفترة طويلة قبل مولده فعندما استولى
البياليمون في الالف الثاني قبل الميلاد على العراق وقتلوا منهم تشاوش
الاله عشتار في حملة عسكرية ناجحة ، اختارت الاله ان تعاد الى الاله إنشاء
وكان هذا الاله هو الذى اختار - بعد الف وخمسين سنة مؤخرا -
آشور بانيبال ملك بلاد آشور . وكان يصح اختيار اسم ملأتم للملكية.
اسم حسن .

ولقد سبق لاناثم (*) الذي عاش في الصد الاول من الالف الثالث
قبل الميلاد والذى نحن نحن مدینون له بسلسلة العقاب ان فاخر يمثل هذه التسمية .

يظهر من هذا ان التسمية وان كان من المهم ان تنسى الى خط ملكي
وان كان بسبب الشريعة التي تيسر السبيل امام وراثة العرش ، الا ان هذا
بعد ذاته لم يكن كافيا ، لأن الاهمية العليا في هذا الامر تتعلق باختيار
الاله .

ولقد وضع المقصوبون للعرش من أمثال « نرغلصر » البابلي (**) او
« لوغال زغبي » (***) الذي أنهى سلالة الاكادية الحاكمة ، مثل
هذا الادباء على اساس الاعتبار التفضيل للاله وعلي اسم مناسب له .

(*) اناثم ، ملك لكتش خلف اكورغال في الحكم سنة ٢٧٠٠ قبل الميلاد .

(**) نرغلصر Neriglissar ويعرف باسم نرغال شر او نرغال صور
هو الملك الرابع من ملوك المهد البابلي الاخير حكم مندة اربع سنوات في الفترة
٥٦٥-٥٦٠ قبل الميلاد .

(***) لوغال زغبي قضى على اورو تاجينا ملك لكتش وضم لكتش الى مملكته
الوركاء وذلك في حدود سنة ٢٣٢٥ قبل الميلاد .

وكانت التسمية الالهية تعنى بالضرورة ان الفرد المختار كملك كان المثل الشخصي للإله الذي يحكم المدينة ، وهو عبارة عن تائب حاكم عينه لكي يحكم بمكان الآلهة ونيابة عنه وهكذا كان الملك يحتفظ على الدوام بمسؤولية مزدوجة تخص عبادة الآلهة وتصريف فاتح الشعورون وإن هذه المسؤولية الاخيرة هي في الواقع ظهر واحد حسب المسئولية الاولى .

ولهذا السبب كان حكام المدن في مصر القديم يحتفظون بلقب تائب (في السورة «باتسي» وهو يقرأ الان بثانية انتى) وافق لم يحصلوا الا بالتدرج على لقب ملك (لو غال الذي يعني الرجل الكبير) ، في حين ان ادعائهم باللقب اضافية من امثال ملك «المناطق الأربع» [النقط الاربع للملك] او «ملك العالم» التي كان يرمي اليها بالمناطق التي تقع الى الشمال من بلاد الرافدين والتي تسكنها قبائل لم يتم التغلب عليها ، فمثل هذه اللقب كانت مجرد اللقب تابعة للصفة الاساسية للشخص الذي اختاره الآلهة وجده مثلا له على الارض .

ملك اشود لم يكن الها

لم يعرض ملوك آشور مثل هذه الادعاءات بالالوهية الشخصية مثلا كان فعل ذلك فراعنة مصر او حتى الملك الحبي الذي امر نفسه باذ بلقب «صاحب الجلة الشمس» شمسى » .

وليس من شك في ان جسماء الملك المتذليلن لا بد وان كانوا يبنرون الملك بأنه هو شمسهم ، واتنا نجد امرأة تدعى حمورابي شمسى او «حمورابي هو شمسى» . لكن ينبغي لنا ان تتحقق بأنه في الوقت الذى قد يكون فيه الملك هو النور الذي يحركه فاته لم يكن هو الاه النبي كأن مصدر ذلك النور ، وان من النادر جدا ان نجد مثلاً ملك يدعى الالوهية مع الالوه شمس .

ففي عصور محدودة من تاريخ العراق من امثال عصر سلالة اور الثالثة ، ومن ثم أضاف بعض الملوك ربما تحت التأثير المصري ، الى أسماائهم علامة تدل على الالوهية ، في حين اصبح مثل هذا الاجراء في نهاية العصر الاشوري واوائل العصر البابلي العاذيث مهملا تماما ولم تبق منه سوى صفة ادعاء وقتى غريب باذ يكون الملك ابن هذا الآله او تلك الآلهة ، وهو ادعاء يصعب الاعتراف به لان ام الملك كانت تشاهد في البلاد .

لم يتعدد فراعنة مصر عن الادعاء باحتدارهم من الآلهة على الرغم من حقيقة ان كل فرد كان يعرف اسلامهم على العرش .

ولقد سبق لبعض ملوك بلاد الرافدين من امثال «اغوم - كاك ريمي»^(*) و « ادين - داغان »^(**) ان ادعوا بأنهم من « عرق الآله » شقموته^(***) او « ابن الآله داغان »^(****) . غير ان هذا لا بد وان يكون لقبا شكليا خالصا لان غوديا ملك لكتش يصف نفسه على التعاقب بأنه ابن « غتمدوغ »^(****) (نينا) ون سن ، و « بابا » .

هذا في حين اتنا نجد في العصر الاشوري الاخير ان آشوريانبيال يزعم في مناسبات مختلفة ان امه هي اقيل ، و « بلت نينوى » و « عشتار ارييل » .

(*) اغوم كاك ريمي Agum-Kak-Rime وهو اغوم الثاني ، تاسع ملوك الكشيين استولى على بابل في سنة 1595 ق.م. دام حكمه 18 سنة من 1602-1585 ق.م .

(**) ادين داغان Idin Dagan هو اثسي داغان الاول من ملوك المهد القديم في آشور حكم مدة اربعين سنة في الفترة 1720-1681 ق.م .

(***) الآله شقموته : الله الكشيين وهو الذي يشرف على اخصاب قطعان الماشية .

(****) الآله داغان : الله سومري عبد في مدينتي ماري وطرقة في سورديا.

ينبني لنا ان لا نرى في هذا سوى ذكرى بعيدة لاصل الملكية المساوية والاختيار المساوى ، والتاكيد بأن السلطة المساوية قد اودعت الى ملك بكل كماله قبل مولده .

هناك صفتان اكثراً شبيعاً بين كل الصفات التي يفترض ان يحوزها الملك ، ونعني بها القوة والفهم ، و هذه الصفة الاخيرة مهمة بصورة خاصة . ذلك لأن مالك الحكم والمعرفة يكون قد تلقى موهبة الاذان العظيم ، فقد كان من الطبيعي تماماً للملك ان يوهم مثل هذه الصفات كأنه لم يكن مجرد سليل مساوي بل ان الاله قد ارضعه .

ولقد امتلك آشور بانيبال هذه الصفة التي وهبها له الآله « نبو » الذي ظهر له في النام عندما كان قلقاً بشأن حصيلة احدى العمليات العسكرية . فقد راح الاله يذكر الملك بأنه ، اي نبو ، قد عهد الى الملك وهو طفل يان ترجمه الآلهة عشتار ، و انه اضاف الى ذلك قوله « من الحيوانات الاربعة ازاء فيه اثنان قد رضعا واثنان اخنيا وجميماً » .

لقد اضافت هذه الحادثة اهمية لتبيان ان فكرة الالهات المتعددات الحيوانات كان منتشرة قبل امداد الرافدين ، كما انتشرت مؤخراً في آسيا الصغرى وفي روما ، دون الحاجة الى التطلع الى تأثير مصرى خاص ، ففي القطر الاخير كانت « حاطور » ، آلة الخصب ، ممثلة ايضاً في صورة بقرة .

وكان وريث العرش الذي يفترض فيه بأنه قد ولد من آلة ورضع من ثديها يتم تهيئته كامير ملائيم وينمو تحت أظوار معلميه ، والذي اعتقده ان التهذيب الصحيح لطفل ذي مولد نبيل ، قد تم تلخيصه على منحوته ثانية حية جديدة محفوظة في متحف اللوفر . وتبين هذه التحفة صبياً صغيراً حسن الملبس يقف على ركبتي امرأة جالسة عليها عباءة طرحة تغطي قفا رأسها وتصل الى قدميها . وهذه العباءة تبرهن على انها من طبقة رفيعة لانه لم يكن يسمح للخدم بارتداء

عباءة من هذا النوع . وعند حافة القسم الاعلى من المنحوتة وبجانب صورة الامير الصغير ، نحت الفنان صقرا له جبل مربوط حول قدمه ، والى جانبه كتاب مطلق لابد وان كان يمثل رقما طينية ذات وجوه داخلية من الشمع . كانت تستعمل لكتابة العروض الاوامية *

فهذا الرمزان ، الصيد والتعليم ، التهذيب الجسمى والعقلى معاً ، يدوان في نظري بأنهما الخلاصة الكاملة لعملية التربية المثالى للامير .

تسمية احد الاخسلاف

في الوقت المناسب يستدعي الملك الحاكم البارزين من المواطنين وحتى بعض العوام من ابناء الشعب ثم يعلن بصفة شكلية بان الامير هو وريثه . ويقسم الجميع بانهم سيقبلون به ، ووسط مشاهد الحماسة يدخل الوريث المرتب عندئذ الى الـ (بت - رديتو) او البيت الذى خصص لاستعمال مطلق يمارسه الوارث الشرعي للعرش .

ولقد عين كل من اسرحدون وآشوريانيسال وريثين مرتبين بهذه الطريقة وأشار كلامها بصفة خاصة الى الحشود التي حضرت الاحتلال التي ابتلتها الوفود القادمة من كل ارجاء الامبراطورية .

ولقد رسم مشهد مماثل على منحوتة حية حديثة اخرى عثر عليها في قرقيش على نهر الفرات شمال شرقى مدينة حلب . وبين هذا المشهد الملك وهو يمسك ابنه من يده ويقدمه الى الجيش . ويقف اخوه الامير الصغار خلفه ويحاول اصغرهم ان يمشي في حين تحمل احدى المرضات اصغر طفل مولود جلب معه حيوانه الالف ايضا .

ولم يكن الاحتلال الشكلي من هذم النوعية يترك الى خيار مطلق من جانب الملك وانما يمكن ان يمارس بعد خيارات مطلق من جانب الملك وانما

يمكن ان يمارس بعد ان تم استشارة الآلهة فعلا من قبل الكهنة وتنج مواقفها وما ان يحدث ذلك حتى يبدأ وريث العرش يتوب عن والدم في بعض الوظائف وان يقود حملة عسكرية .

وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه نبوخذنصر ما يزال وريثاً مرتقباً ليس مالا ، نراه يقود مفرزة من الجنود لمرافق الماذين الذين كان ابوه يأصل بهم ساعدتهم أن يجعل من نفسه سيداً للبلاد آشور . وتوجد في متحف اللوفر رسالة مشوهة يبدو فيها بأنه يستدعي اتباعه .

من الطبيعي تماماً في الحالة التي يقوم فيها أحد المقصوبين ، ليس ولداً لرجل ، بالاستيلاء على العرش ، أن يجبر رفقاء على أن يصدقوا إية إشارة إلى قضية الشرعية ، وأن يحصروا أنفسهم بدعوات من الآلهة إلى العرش وبالتالي الذي ينظرون به .

ان مثلاً سابقاً من هذا النوع يمثله سرجون العظيم ملك أكد الذي جاء به أحد البستانيين ، وتلكحقيقة يشير الملك إليها ، ويضيف عليها بأنه في الوقت الذي كان يعمل فيه بستانياً ، كان محبوباً من قبل عشتار ، ويختم اشارته بقوله «لقد بقيت انتفع بالسلطة الملكية لكذا عدد من السنين» .

التسويج

بعد وفاة أحد الملوك يقام حفل من نوعين مدني وعسكري بالإضافة إلى حفل آخر ذي صفة دينية ، وذلك لتسويج ورثة المعين حقاً لهذا الغرض . ويحدث الاحتلال الأخير في معبد الآله آشور في مدينة آشور ذاتها . ويأخذ الملك الجديد مقعده على عرشه وفي الوقت الذي يتقدم فيه الخدم وهو يحملون العرش على أكتافهم ، ينقر كاهن آشور على دف ويهتف غالباً «آشور ملك » وكذلك للتقرير أن يشخص دون شكل شخصية الملك الجديد باعلان من الآلهة .

واذ يدخل الملك المعبود يهبط من على عرشه ويتمدد بكامل طوله على الارض ثم يقدم الولاء للاله ويلقى عند قاعدة تمثاله بلباس وذهب وفضة تكون كلها ملكاً للكاهن ، وبعد ذلك تبدأ النذور .

اتنا لن نفط النظر عن الدور الرئيس الذي يلعبه الملك في الاحتفال ، والذي يمارس فيه وظيفة احد الكهنة ، ولا سيما في تنظيم المائدة للنذور التي تكرس لاستعمال الآله آشور . ومع ذلك فعین يكمل الملك هذا الدور بيد الكهنة بفضل التسويع الحقيقى الذى يؤكّد فيه الملك ، بطريق المفارقة ، صفتة كمثل ارضي للاله . وخلال هذا الاحتفال يتسلّم الملك التاج وشعارات الملوكية التي تكون حتى تلك اللحظة قد تم ترتيبها امام هيكل الاله تقليداً للسمات التي ترمز الى السلطة والتي يعتقد بان تطرح على مائدة امام عرش « انو » في السماء .

عندئذ يعود الملك الذي دنهن الاله الآن بالمرور ، الى قصره وسط تهليل شامل يؤكّد له بتوزيع المدابيا . حتى اذا ما جلس على عرشه راح يتسلّم تبرّكات كل النبلاء في حين يلقى كل واحد من أفراد الطبقة العليا باوسته امامه من امثال شعار السلطة ، والكيس او القيثار لأن الموسيقار الرئيس السلطة ، والكيس او القيثار لأن الموسيقار الرئيس كان بعد دوماً شخصاً عظيم الاهمية في البلاطات الشرقية .. ويسجد هؤلاء امام الملك الذي يأمرهم بان يراقبوا واجبات دوائرهم .

في خلال بضع عشرات من السنين وصل اليانا بشكل غريب هذا الاحتفال بالإجراءات التي كانت تقام لتتويج سلطان تركيا ، والذي يقدم خلاله الرئيس الاعلى للدواوين الراقصين الى السلطان الجديد سيف عثمان كرمز سلطنته . هناك فقرات موجزة تشير بقوّة الى وجود مشابهات مقاربة اثناء الاحتفال بالتسوييع في مدينة بابل . فمن المحتمل ان يكون نوعاً السمات الملكية ، وهما

لباس الرأس والصلجان او السلاح اللذان يميزان في النصوص ، قد قصد بهما التذكير بالظهرين المزدوجين للملك كحاكم في أوقات السلم وكقائد في الحرب ، وان هذه السمة المزدوجة قد ترمز الى مملكتي سومر وآكاد اللتين اتحدتا في ظل حكم واحد في عصر سابق جداً .

وما ان يتم تقبل الملك بمثابة نائب عن الآلهة فان الاسلحة التي قدمت اليه بصفة شكلية ترمز الى التزامه بالدفاع عن الآلهة ، وتلك مهمة من اليسير ممارستها ما دامت الاسلحة الاليمية تمنحه الحصانة .

هناك كسرة من مسلة محفوظة في المتحف البريطاني يعود تاريخها الى عهد الملك « تغلات - بلسر » (*) تصور يدين خارجتين من قرص شمسني يمثل الآلهة ، تنسك احداهما بسمهم ، وتؤمي الاخرى الى الملك .

فال فكرة الضمنية التي تشير الى ان الآله يدعوا الملك كي يتسلم سلاحه كانت شائعة منذ زمن طويل في الشرق ، ففي مصر مثلاً كان الفنانون في عصر متقدم مثل عهد حكم « توت عنخ امون » (**) يرسمون أشعة الشمس في صفة اذرع تحتضن الملك .

سوف نجد عندما نأتي الى بحث الديانة الاشورية بالتفصيل ، ان المؤمنين الصادقين كانوا على الدوام منبهين بال الحاجة الى الظفر برضاء الآله الذي يعتبرونه الصفة التي يعتمد عليها في الوقاية .

(*) تغلات بلسر : اسم ثلاثة من الملوك الاشوريين أولهم تغلات بلد الاول حكم ٣٩ سنة في الفترة ١٠٧٤-١١١٢ ق.م . وتغلات بلسر الثاني حكم ٢٢ سنة في الفترة ٩٣٣-٩٦٤ ق.م . والآخر تغلات بلسر الثالث حكم ١٩ سنة في الفترة الواقعة بين ٧٢٧-٧٤٥ ق.م . والمقصود هنا هو تغلات بلسر الثالث .

(**) توت عنخ امون : من مشاهير فراعنة مصر . استطاع المنقب الانكليزي « كارتر » ان يكتشف في سنة ١٩٢٣ مقبرته الشهيرة في تل الحجارة بوادي اسوان وان يعيش فيها على نفائس الاثار الفرعونية .

لقد كان مثل هذا الاعتقاد يصدق على الملك تماماً عندما يذكر في كتاباته
بان الالهة تنظر اليه بعين العطف ، او حتى عندما يتباهر
بحب الالهات ، او حين يعمد في الغاب الى اعلان نفسه بأنه الزوج
المحبيب لاداهن ، فان مثل هذا التأكيد اكثر من مجرد التدليل على رفته
ذلك لأن كلمات احد سكان العراق كانت تخلق الحقائق وان الحقائق
تصيب الواقع بفضل الكلام . وما خلا ذلك كان الدور الذي يلعبه الملك في
بعض الاحتفالات يمنجه ، دون شك ، اساساً طيبة لمثل هذا الادعاء .

الواجبات الدينية في يوم ملكي . ملبس الملك

يرجح المشهد على الوجه التالي : كيف يمضي مثل هذا الشخص الذي
نصفه دينوي وبالاخرى اكثر من نصف ديني يومه ؟
في بلاد الشرق حتى الغنى يستيقظ من نومه مبكراً اكثراً مما هو معتاد
في اوروبا الغربية وذلك لفرض اظهار عدم الاكتئاث النسبي . وما ان
يستيقظ الملك حتى يمضى الى المرافق الصحية في حمامات كان كل قصر في
القدم يمتلكها كعادة جارية .

وقد يحيط الملك بطائفة من الخدم ومصنفي الشعر والحلقين ، كما قد
تقدّم ملابسه اليه . وكان ملبيه يخضع في الاصل الى موافقة دقيقة لافن
الطالع ، او علم الايام الملائمة وغير الملائمة ، ينص على انه ينبغي للملك
في بعض الايام المحددة ان لا يغير ملابسه ، وبالنظر الى البسة اخرى محددة
مصنوعة من مادة او لون خاص .

والشيء المعتاد هو ان يرتدي الملك جلباباً طويلاً مطرزاً قصير الاردان
مصنوعاً من الصوف او القطن بل وحتى من الكتان او الحرير .
وقد يصبح الصوف بصفة متساوية او يكون نصف ملون . اما القطن
الذى كان الآشوريون يدعونه باسم « صوف الشجر » فكان مصدر الموارد

رفيعة القيمة تتقبل الصبغ بشكل جيد وعلى الاخص اللون الارجوانى الذى كان الفينيقيون يتاجرون به على نطاق واسع . وكان لدى الفينيقيين ستر مشاشة الظل الحقيقى المطلوب حين يجف فى الشمس وذلك ابتداء من اللون الليليaci إلى اللون الوردى الفاتح غالبا فاللون الارجوانى العيق .

ويعتقد بعض الباحثين بأن الكتان كان مستعملا . غير انه وان كانت المستندات التجارية الباقيه تشير بشكل ثابت الى الصوف فاننا لم نصادف الكتان وهذا يشير الى انه كان يستورد وانه لم يكن شائع الاستعمال تماماه وكان الحرير ينبع في الصين في ذلك التاريخ . وكان معروفا بقدرته حتى في العصر البابلي الحديث ، وكان يتم نقله مرحلة فمرحلة عبر الطريق الذي عرف مؤخرا باسم « طريق الحرير » .

ينبغي لنا ان تذكر ان العالم القديم على الرغم من نقص الاذوات العصرية والكافشات الكيماوية لديه ، فإنه كان قادرا تماما على تمييز المواد الخام النادرة بصفة طبيعية ، ولو أنها لم تكن جذابة بصفة ظاهرية .

لقد عثر على كميات قليلة من الحديد في الاهرامات . ومع ان الحديد لم يكن شائعا الاستعمال في منطقة حوض البحر الایض المتوسط وفي بلاد الرافدين قبل الالف الاول قبل الميلاد ، الا انه كان يصدر قبل من قبل الحسين خلال النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد .

ولقد صنع أحد رقم الاسس في قصر سرجون بمدينة خرسناد من مادة كاربونات المغنيسيوم . وهناك مزهريه نذرية من المقابر الملكية في اور ، والتي كان يظن بأنها تستحق ان توضع بجانب الذهب والفضة ، كانت مصنوعة من مادة الكلس . فهذا الحجر ان كانوا نادرين في بلاد الرافدين ، كان الملك يرتدي فوق ملابسه الداخلية جلبابا مفتوحا غنيا بالتطريز والاهداب ، وحزاما يكون اما عريضا او منبسطا عليه تحيط بحملة الكتف

الجلدية التي تحمل سيفا قصيرا ، او على شكل وشاح مضغور يضرس
خنجر فيه .

ويجب ان يكون التطريز الذي يصنع من خيوط معدنية وصوفية متباينة
الالوان ، ذا منظر عجيب ذلك لأن بلاد الراقدین كانت - كما سبق ان
قلنا - مشهورة بهذه الصناعة .

لقد انقرضت صناعة التطريز البابلية تماما ما عدا قطعة منه اكتشفت
يوما ما في بعض القبور القائمة في الجو الواقي في مصر . ومع ذلك نستطيع
ان نحصل على فكرة دقيقة عنه من الآثار الآشورية التي نستطيع ان تقبلها
كـرهان يعتمد عليه .

لقد كان الفنانون يستخدمون الصبر والعنابة القائمة في اعادة تصوير
ما كانوا يشاهدوه ، وكان تصورهم يخضع لرقابة شديدة .

وهناك دليل غير مباشر للبرهنة على هذه الحقيقة يتمثل في التماثيل
الساسانية التي نحتت في معارة (طاق وبستان) الكبيرة على مقربة من مدينة
كرمنشاه المصرية .

ويعتقد بعض الباحثين ان الملك الذي كان مسؤولا عن انتاج هذا
العمل الفني هو كسرى الثاني (**)(*) (٦٢٨-٥٩٠ م) بينما يعتقد اخرون
انه هو بيزروز (٤٨٤-٤٥٧) وهذه التماثيل ترى وهي ترتدي جلايير
مقطأة بالملترزات وان المظهر البارز في الصورة هو الطاووس التنين ، وهو
علاق خرافي له قوائم امامية لحيوان وحشى واطراف خلفية تتسمى بلمة من
ريش منسق على شكل ذيل طاووس . وكان هذا يحدث بصفة حريجة بسبابه

(**) الذي اشتهر باسم ابيرويز .

(*) خسرو او كسرى الثاني اب رویز الملك الثامن والمعترون من السلالة
الساسانية حكم في الفترة ٥٧٩-٥٩٠ ميلادية .

صورة زخرفية في الفن الساساني وقد يفترض فيه تماماً بأن الفنان قد حوله
الى نحت ثاتي، يظن انه في حاجة الى الزخرفة .

وقد حدث ان غدت المتاحف والمجموعات الاوربية مليئة بنماذج من المواد
الساسانية . فقد كان الجميع يتطلعون اليها بشوق اكثراً لأنها كانت مصنوعة
من الحرير الذي لم يكن يصنع آنذاك في اوروبا ، وانها قد وصلت الى هناك
اثناء العصور الوسطى باعداد كبيرة وبجملة من الوسائل ، بعضها عن طريق
التجارة والبعض الآخر بصفة هدايا ملكية ، والبعض منها بمثابة ارديمة غالبة
الثمن لخلفات القديسين الارثية .

هناك نوعان موجودان الان في متحف الفن الزخرفي بباريس يحملان
زخرفة مميزة مماثلة للزخرفة المقوشة على جلباب الملك في طاق وبستان ،
نسج أحدهما في لونين أخضرین ، بينما نسج النوع الآخر من ألوان
زرقاء قاتمة ، وخضراء وبنفسجية وحلبية .

وعلى هذا نستطيع ان نعتمد على دقة الفنانين عندما يرسمون ملوك بلاد
آشور وهو يرتدى البسة مطرزة تطريزاً متقدماً . ذلك لأن منحوته واحدة
من كثير منها قد يستعمل بمثابة مثال لذلك .

فعلى هذه المنحوة نشاهد - كعناصر في الشكل - جنباً مجناحاً في
وضع حركة سريعة وهو يمسك بأحدى يديه كأساً وفي اليد
الاخرى ضفيرة مؤلفة من حلبة مضمورة حلزونية نستطيع ان نفترض ،
بالاعتماد على منحوتات أخرى ، بأنها تمثل مياه فجوة تحت الأرض .

تقوم في اسفل هذه شجرة مقدسة ذات اغصان افقية يقف على جانبيها
جيان مجحنان يرشانها بماء مطهر .

وقد احيطت هذه الصور بمشاهد اخرى مصورة وبالاضافة الى
الشجرة المقدسة والجبن والثور المجنح هناك مجموعة تحتوي على جني
مجحن رأسه وصدره الى امام وهو يركع بكل وضوح لكنه في الواقع العملي
يروى موقف جريان عرضي ، وهو يمسك في كل من يديه بمخطب اسد امسك
بشور وراح ينهش صدره . والرسم يرمته منسق وقد حلقي بخاشية من براعم
زهر للوتس والشجيرات المزخرفة باشجار التخيل والتي تنهض منها الزهور .

كان شعر الملك يقص على هيئة طريوش تمتد فوقه قطعة معدنية ذات
نهايات معقدة تتسلل الى الوراء . وكان ينتعل في قدميه صنادل مفتوحة تدع
واحمة القدم عارية مع انشطة للاصبع الكبير تشد الى الكاحل بسديد من
الجلد يمر بين الاصابع .

كانت لحية الملك ، وجزء منها كاذب ، متوجة ، وقد رتبت في شكل
صفوف افقية من عكتات . ولقد تفرق شعره على قمة رأسه وتسلل بنزاره
والتواء على كتفيه .

ومع ان لدينا وثائق قليلة نستطيع منها ان تتعقب التطورات الدقيقة
لهذا الزي في عهد السلالة الاشورية الاخيرة ، فان المقاطع الواسعة واضحة
 تماما .

لقد كان الشعر يقص بصنفه اقصر في كل عهد من عهود الحكم ، في
حين كان لباس رأس الملك في عهد آشوريان وبالا اكبر بقليل من الطريوش
البسيط الذي كان في عهد اخر الملوك لآشوريين المتأخرین يشبه غالبا لباس
الرأس الذي يرتديه الدراویش . فقد كانت قصته على الدوام مديبة .

المجوهرات والأسلحة

تكشف صياغة المجوهرات عن احالة قتيله . ذلك لأن العقيق ، والبسم ، والجزع المعتادة ، كانت هي الاحجار الشائعة الاستعمال غالباً . وكانت الاساور مفتوحة النهايات او الملقأة تلبيس في النراخ وفي الرسن ، بالإضافة ان طبقات كثيرة يلبسها الرجال ويتم تشكيلها بصفة علاقات وصلبان او عناقيد من العتب مجوفة ومصنوعة بدقة .

وكانت الاساور الملقأة واشرطة الرأس التي يمكن لبسها مع النراخ او بدؤنه ، تزين بصفة منوعة ، بصورة زر اقحوانة مفردة او مزدوجة ، في حين كانت نهايات الاساور المفتوحة تصنع بشكل جميل على هيئة رؤوس عجول او وعول او اسود . وكانت ذات الصور تستعمل بصفة عامة لتقابض المدعى التي كانت تلقي في الحزام . وكانت للقلائد رؤوس ذهبية قد تكون مدورة او في شكل ساعة وملية ذات سطح اما صقيل او مخطط ويتم ربطها باحجار العقيق او احجار اخرى مختلفة او حتى بحبات من الزجاج .

فيسئل هذه السلسلة المحددة من المواد ، تعتمد اية مزنة تتلکها مثل هذه الحلي ؛ على تركيبها ، وهي تستند في تأثيرها الى البحث المتواصل عن كل ما هو جديد .

كان الدرع الاحتقاني للملك ، اذا ما ميز عن درعه القتالي ، فهما بصفة استثنائية . كان السيف عريضاً وقصيرًا ومطينا في غمد منزد ، بصورة اسددين رابضين احدهما قبلة الآخر .

وكانت هذه الصورة تستعمل منذ العصر المبكر ، وهي تؤلف قبضة الخبر الحاسي الذي عثر عليه في تلو وغدا الان مفقودا . فلقد كان هذا واحدا من اقدم الامثلة على المقابض التي كانت تصنع على شكل اسود تبرز موسى من افواها .

وكانت مقابض المدي التي تحمل في الاحزمة منحوته نحتا جييلا جدا ، وي يكن اتعرف على اثنتين منها مزينة بالوريدات والضمائر والشجيرات المزهرة على ذات النحت الثانيه مثل المطرز الذي تم وصفه في قسم سابق .

وكانت الملابس والاسلحة معا تزين بدقة وبذات النحوين الثالثة : ولذلك يعجب المرء ويسأله ما اذا كانت المطرزات تتالف في الواقع من ذهب منسوج او خيوط من الفضة ، ولكن الشيء المحتمل انها تتالف من صفائح رقيقة من المعدن حفرت وصنعت في شكل منحوته مثل ورقة الذهب التي وجدت في (مسينا) لكنها أكثر منها دقة .

ولابد ان كان السهم يصنع من خشب نادر وكانت كل نهاية منه تختلف بالماجر الذي كان ينحت ، بصفة عامة ، في شكل رأس بطة ، وتلك صورة وجدت ايضا على اعلى الكراسي التي تشبه احيانا كراسى المخيم . وكانت هذه شائعة تماما في مصر . وفي عيلام مثلما هي عليه في وادي الرافدين ، كانت احجار الوزن تصنع على شكل بطات تستدير رؤوسها الملتوية لتسقى على ظهر الطائر .

العربات الملكية

نعرف ثلاثة أصناف من العربات الملكية ، فال الاولى هي عربة الحرب ، ذات هيكل ثقيل وواسع ، وعجلات مدعمة بصفة خاصة [هناك لوح يصور اشور بانيال في عربته وهو يتلقى استسلام مدينة بابل] .

ففي متحف اللوفر منحوتة يرقى تأريخها إلى عهد حكم سرجون تبين
أن محور العربة الذي صمم لجسوعة من أربعة خيول ، له عمود دعم خاص
بسبب الارتفاع الذي قد يتعرض له .

يتوفّر لدينا بصفة ثانية المزيد من رسوم عربات الاحتفال ولعل واحدة
من أفضل الأمثلة المعروفة هي عربة اشوريان وبال التي توجد نسخ منها في
عدة متاحف من ضمنها متحف اللوفر .

لقد حسنت هذه العربة على ذات الأساس العامة للعربة الحربية ، غير أن
عجلاتها التي غلفت بالحديد تحول دون اندثارها المحتم ، قد وضعت وبعد
الخلف تحت الهيكل في سبيل التقليل من الاهتزاز .

ومع ذلك فإن الفرق الرئيس هو أن الهيكل وعمود الاستاد المنحني
قليلاً ، قد تم تزيينهما بشكل مفرط .

وكان الخيول حتى في الحالة التي تربط فيها بالعربات الحربية ،
تسرج بعدة مزينة عادة بالشراب والاجراس والقلوس وكانت هذه الخيول
تزرّكش بصفة أتم ، عندما تسحب عربات الاحتفال .

ولعل اعظم مظهر مثير للعربة الملكية هي المظلة التي تظللها . فلم
تكن هذه الزينة عديمة المعنى . وانما كانت رمزاً للصنف الفاخر كثيراً ،
وكانت تجلب بالمنظرات حتماً .

هناك زيان كانا يستعملان في البلاط الآشوري ما يزال مستعملان
حتى اليوم . اولهما المظلة التي ما تزال تستعمل لتظلل سلطان مراکش ،
وقد وهبت إلى بعض الكنائس بمثابة علامة شرف . والآخر هي المروحة
الستقية التي شاهدنا في البلاط البابوي في شكل مروحة ، وتستعمل مروحة
من رئيس النعام ذات قبة طويلة في الموكب البابوي اثناء الاحتفالات
الكبري .

وهناك طراز ثالث من العربات الملكية مصورة على منحوتة ناتئة من قصر سرجون في خرسناد ومحفوظة الان في متحف اللوفر ، يمكن وصفها بكرسي يقوم على عجلات فهي في شكلها تشير الى مسند مدعم عال ، ومشابهة لعرش يكون فيه المقد مدعا بصف واحد او أكثر من صور بشرية صغيرة في موقف العديد من الاطالسة التي تشد مختلف دافعي الضريبة من شعوب الامبراطورية الذين يساندون الملك ٠

ففي عصر متاخر طور الملوك الاخمينيون الفكرة التي اخذوها بعد مرحلة مثل اية فكرة اخرى ، من الاشوريين ، فاصبح دافع الضريبة لا يسندون العرش الحقيقي بل القاعدة التي يقوم عليها ٠

هناك نقطة اخرى جديرة باللاحظة بالنسبة الى منحوتة عربة آشوريان وبالا ، وتلك النقطة هي وجود مرافق الملك الذي يقف بقربها ويده على احدى عتلات العجلات ، ويدفعها كدلالة على الاحترام والطاعة ٠

وحتى في وقت متاخر مثل عهد عبدالحميد آخر سلطان عظيم اتركيا(*) عندما كان يخرج من المسجد يوم الجمعة للسلام على العامة ، ويقصد المرتفع الذي يؤدي الى القصر ، يمسك المرافقون احدهم بالآخر على حدة ، رغبة منهم في دفع عجلة العربة ولو ان مساعدتهم تلك ليست ضرورية ٠

وما عدا اسلحته التي يدعها غالبا الى مرفقيه لحملها ، كان الملك يحمل ايضا نوعا من قبضيب في شكل صولجان احتفالي كرمز للسلطة ٠ ويتألف هذا

(*) السلطان عبدالحميد الثاني ، هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان ولد سنة ١٨٢٩م وتولى الملك بعد أخيه مراد سنة ١٨٦٥م ، وقد خلع بعد الانقلاب الذي قام به رجال حزب الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨م . وكان لليهود والاتكليل اثرهم البارز في ذلك الانقلاب لأن السلطان عبدالحميد ابي بكل المغريبات والضغوط ، ان يسمح بعبادة اليهود الى فلسطين او ان يمكّنهم من شراء الاراضي فيها . وقد نفي عبدالحميد الى سلانيك وسجن في قصر الالاتيني حتى اعيد عنده حرب البلقان الى الاستانة وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة وبسبعين شهر و ١٣ يوما ٠

القضيب من كرة من الحجر والمعدن مثبتة في قبضة طويلة وتنهي بسir قصير للحمل او شرشبة شريط .

والشعار الثاني للملوكية يتصل في قضيب ينتهي بهلال معدني ذي حافة خارجية مستنته . لقد كان القضيب نسخة محورة بشكل خالص من «الخطاف» وهو الاسم الذي اطلقه الاغريقيون عليه عندما واجهوه لأول مرة . ولقد كان هذا مستعملا على نطاق واسع من لدن السومريين ، ونحن نعرف كل مراحل تطوره . فقد بدأ اشبه بمنجل مفلطح وكان يتتألف من قطعة من الخشب تثبت فيها قطع حادة من الصوان بالقارب . وانيرا وبعد اكتشاف المعدن اصبحت الموسى تصنع من البرنز . وفي النهاية اصبح السلاح يصنع كله من المعدن على شكل حسام شرقي يدعى « يطقان » (*) . وكما هو الامر في اليقطان كانت الحافة القاطعة للخطاف هي الجانب الخارجي للموسى . وكان السيف والخطاف في بعض المناسبات يستبدلان بعضهما طويلا وكانت هي الاخرى شعارا للسلطة الملكية .

الاثاث الملكي

تحمل النحوت الناتئة شواهد على غنى الاثاث الملكي الذي كان نادرا . مثلما هو عليه الحال الان في الشرق ، والذى يحضر فعلا في سير ومائدة مقاعد ، وادوات للاستعمال اليومي التي يجب ان تحفظ في صناديق او في صوان الجدران ، ثم تقدم الى الملك عندما تتم الحاجة اليها .

هناك منحوتة في المتحف البريطاني لوليمة اقيمت في حدائق نينوى بعد هزيمة « تيومان » ملك عيلام « اللوح ١١ » .

فالمملك آشور بانيبال شبه متكم على مقعد ، وعند قدمه جلست الملكة

(*) اليقطان *Yataghan* ، *Yatagan* يقصد به السيف المعدن ذو العدين

على عرش اشبه بكرسي ذي مساند . ويمسك الملك والملكة معاً بكؤوس وقد اتشيا باصوات الموسيقى ، في الوقت الذي كان فيه الخدم يهملون للملك والملكة ، او يقدمون لهاما الحلوي .

يتتصب المقعد عالياً جداً عن الأرض وله رأس مثبت اشبه بالرؤوس التي غدت مألفة في عهد الامبراطورية الفرنسية [هناك صورة تمثل «وليمة آشور بانيبال وملكته في الحدائق الملكية . لاحظ رأس تيسومان مدلى الى أسفل على شجرة»] .

فالملك الذي غطى اطرافه السفلي بسجادة ، والذي استند على المقعد ، قد خلع تاجه الثقيل ، ولم يضع على رأسه سوى شريط مزين . وعلى التقىض من ذلك كانت الملكة تلبس تاجاً واطئاً ذا فتحات وقد سحب بيته على رأسها اشبه بالعصابة . وقد تدلل شعرها ، مثل شعر الملك ، في خصلات فوق كتفيها ، وضارعت ملابسها ما عدا بالنسبة الى العباءة التي تدللت على ظهرها والتي يمكن سحبها فوق بدنها . ولم تكن تلبس نعالاً بل شبشبأً ، وقد جست على عرش حقيقي له منصة عالية امامها .

اما المائدة القريبة من المقعد والتي تحمل الحلوي ، فقد كانت مرتقطة وصلبة لها قدم حفرت عليها مخالب اسد ، في حين ان الفنان – بالنظر الى الدقة الرائدة – قد صورها وكأنها تستقر على قاعدة منبسطة ، وتدعيمها مخاريط من شجر الصنوبر متوجهة الى أسفل .

والمنقى عليه بصفة عامة ان مخاريط شجر الصنوبر (او بالاحرى مخاريط شجر الارز التي كانت غالباً ما تستعمل في الاحتفالات الدينية) ، والتي كانت تستخدم عادة بصفة دعائم للاثاث ، كانت تؤلف مظهراً لقوة سحرية ارتبطت بهذه النقطة . ففي مثل هذه الحالة كان يقصد بها ان تحمي الملك من هجمات جن الأرض ، وتبعده عن آثار الشرور .

وتحمل محفات الكراسبي العالية افارييز مزينة بشكل متواه من خطين

منحنين يشبه الهلال استد ظهره لظهر ، ومرتبطين من الوسط بخط . فكل نصف من الشكل يمثل لوالب تاج عمود قبرصي يزين دعامة برونزية (للعرش والمائدة) عشر عليها في منطقة « وان »^(٢٣) ومحفوظة الآن في المتحف البريطاني . وهذا مثال آخر على دقة المنحوتات .

ويرى سهم الملك وكتاته ملقين على منضدة اوطا بجانب رأس المقد ، وقد زينت قمتها في كل زاوية بنقوش بارزة حضرت على شكل رؤوس عجول ، وتلك صورة طالما وجدت على اذرع الكراسي .

يقودنا اثاث الملك الى ان نأخذ بنظر الاعتبار ترتيبات مأكله . فما خلا الطراز الغربي الذي تفوق على الازياز المحلية لا توجد في الشرق غرف طعام منفصلة ، وان الطعام يتم حمله في صحنون الى اي مكان يحدث ان يكون الشخص الذي يتناول الطعام جالسا فيه ، وهذا ما شاهده في منحوتات خربساد ، وهناك موكب من الخدم يحملون المائدة والكرسي (كانت العادة الاشورية ان تأكل وانت جالس ، اما المقد الذي سبق وصفه فهو المكان الذي يستريح فيه الملك) ، ويؤتي بأواني الماء للغسل قبل تناول الوجبة ، وبعض هذه الاواني من كؤوس على شكل رؤوس اسود .

وهناك موكب آخر من الخدم يحملون الرمان والتين والاعناب ، في حين يوجد آخرون غيرهم يحملون الجراد على سفود من الخشب ، مما كان الملك والفالاح يتناولانه سوية [اظر ما سبق ذكره عن الجراد في الفصل الأول من هذا الكتاب] .

يبقى بعد هذا ان نشير الى عتيات الابواب الحجرية التي كانت تحيط تقليدا للسجاد . فالنموذج الموجود منها في متحف اللوفر مزين بدوارس متشابكة ، في حين ان العاشرية التي تحمل الصورة التقليدية لزهرة اللوتين ،

(٢٣) في شرقى تركيا . وتعتبر هذه المئاد قد جاءت من نموذج .

يبدو عليها بأنها قد احيطت بشراشب من النسيج أشبه بما هو موجود منها في السجاد العصري .

المساج

لا نعرف سوى شيء القليل عن بعض أنواع المصوغات الآشورية التي لم تكن تصنع على نطاق واسع . ولكن عندما أصبح كل شيء يقصد به استعماله من قبل الملك شخصيا ، مزينا بشكل متقن ، فقد اعتدنا تماما على الصنائع العاجية التي كانت تستعمل لترميم الصوافين والآثار الملكية .

لقد كتب الكثير عن عاج الشرق الادنى والذي كان يرد في الواقع من مصادر متنوعة تتوزع واسعا ، سواء كان مستوردا بصفة جاهزة ، او كان يتم نقشه من قبل حرفين اجانب بعد استيراده .

فأنواع العاج هذه تعرض سلسلة واسعة من الآثار ، لكنها تعد على اية حاله من الطرف المنمنمة .

فنحن نستطيع ان نقرأ في التوراة ان حزئيل Hazael ملك دمشق اثناء كفاحه ضد بلاد آشور في النصف الثاني من القرن التاسع قبل الميلاد ، قد اضطر الى ان يتخل عن محفظة رسمية مزينة بالعاج ، وان هناك سببا يدعو الى الاعتقاد بأن تلك المحفظة هي البقايا الحقيقية التي عثر عليها في احد القصور الآشورية في ارسلان طاش ، مدينة « حداتو » القديمة في القسم الاعلى من سوريا(*) .

(*) حداتو مدينة قديمة تقع على بعد اربعين كيلومترا من الضفة الشرقية لنهر الفرات ، والى الشمال الشرقي من مدينة حلب بحوالى مائة وخمسين كيلومترا تثبت فيها بعثات مختلفة فضلها على منحوتات حثية ومنحوتات اشورية . من عهد تغلات بيلسر الاشوري ويعرف موقعها الان باسم « ارسلان طاش » .

لقد انجز بعض النقوش بشكل ناقص على ارضية صلبة وهو يشير الى تأثير مصري واضح ، في حين كان البعض منه عملاً مكتشوفاً يلمح الى تأثير ايجي ، بينما تشير الاجزاء الاخرى الى تأثيرات محلية .

و حين تأخذ بنظر الاعتبار ايضاً ، ما تم العثور عليه في « مجدو » و « الضفة الغربية » في فلسطين ، وفي نمودج مدينة كلخ القديمة في بلاد آشور (***) و حتى في معبد « ارتميس » في افسوس (****) ، يتضح لنا ان صناعة العاج كانت منتشرة انتشاراً واسعاً ، و انها كانت مطبقة بصفة عامة في مناطق مت坦يرة بشكل واسع من غرب آسيا .

ولقد اكتشف « دي مكينم » (*****) كمية كبيرة من كسر من العاج في التتنيبات التي اجريت في سوسة نقشت عليها اشكال دوائر حلوانية بكل بساطة . فهذه كانت تزيين في وقت ما ، قضيب عربة دون ريب .

اما بالنسبة لمصادر العاج ، فان لدينا من ناحية سجلات مهمة للملوك المصريين مؤرخة من الالف الثاني قبل الميلاد ، عن اصطيادهم القليل في شمال سوريا ، في حين ان اولئك الصيادين الاقوياء آخر ملوك الامبراطورية

(**) كالعج او نمودج ثانية الموارض الاشورية عرفت باسم كالعج وكلعوا في التوراة جعلها اشورنا صربال الثاني عامصبة له . تقع على الجانب الشرقي من دجلة كشفت التنقيبات فيها عن اثار عظيمة لقصور و معابد وغيرها .

(***) معبد ارتميس في افسوس : افسوس من مدن ليديا القديمة اي اسيا الصغرى وقد عرفت باسم سلجوقة وكانت من الثنور المهمة . وفيها اقيم معبد شهير للالهة ارتميس .

(****) دي مكينم (رولان) Demecqunem (١٨٧٧ - ١٩٥٨) مهندس فرنسي اشتراك فيبعثة الاثرية التي نقبت في سوسة بایران حيث خلف دي مورغان هناك في سنة ١٩١٢ وظل يواصل اعمال التنقيب في ذات الموقع حتى سنة ١٩٥٤ .

الاشورية ، لم يشروا - من الناحية الأخرى - إلى الحيوان اطلاقاً (*) .

ولكن حتى وإن كانت الفيلة قد انقرضت في نهاية العصر الذي تتحدث عنه ، فإن التجارة مع الشرق الأقصى كانت ثابتة ، واتنا دون شك يجب أن تتجه إلى الشرق للبحث عن مصادر الماج ، وما خلا ذلك ، فإنه كان يرد من أعلى بلاد مصر بكل بساطة .

المنع ، والولائم والموسيقى والرقص

سبق لمنحوته آشور بانيبال في حدائقه ان اعطيتنا فكرة عن التسليات . فالمُنْظَر يُؤْلِف حديقة في قصر نينوى عامرة باشجار التخييل والسرور والكرور التي ترتفع عالياً فوق السلم الملكي .

ليس لدينا اي شئ في ان الملك والملكة كان يحتفلان بهزيمة تيومان

ملك عيلام على ايدي القوات الاشورية ، وإن منحوته المركبة المحفوظة الان في المتحف البريطاني ، تبين في الواقع رسولا يغادر إلى نينوى بمتنه السرعة وهو يحمل رأس الملك المدحور ، في حين علق الرأس في منحوته الاحتفالات على شجرة تقابل مباشرة آشور بانيبال الذي تعاظم سروره بهذا الحفل الرفيع بشكل واضح .

وغالباً ما يصور الملك في الفن العراقي وهو يمسك بقدح ولكن هذا لا يمثل عيادة على الدوام ، وإنما هو على الأكثر يصب السائل المقدس عرفاناً بالشكر للآلهة بمناسبة الصيد والانتصار في الحرب . وأكثر من هذا فإن

(*) اختأ مؤلف الكتاب كثيراً في اعطاء هذا الرأي ، فالذى ثبت من المدونات الاشورية ان بعضـا من ملوك اشور وعلى الاخص اشور بانيبال واسور ناصر بالـ ، كانوا يصطادون الفيلة في الاجزاء الشمالية من سوريا . وقد تأكـد هذا في الفصل الثاني من كتاب العراق القديم ، الذي وضعه طائفـة من علمـاء الآثار السوفـيت ، وقام سليم هلـ التـكـريـتي بـتـرـجـمـتـه وـاصـدارـه ضـمـنـ منـشـورـات وزـارـة الاعـلامـ في اوائل سـنة ١٩٧٦ .

المحتوى الآتاري في هذه الحالة الخاصة لا يحتمل اي شك .

كانت الموسيقى التي اغرم بها سكان الشرق على الدوام وما يزالون غراما شديدا ، مظهرا اساسيا للمنتخ على غرار تلك التي جرت في حديقة نينوى ، وان المنحوتات تبين الالات الموسيقية التي كانت مستعملة في بلاد الراوفدين . خلال العصر الذي تتحدث عنه .

لقد كانت الاوتار والتطبيل والتنفخ معروفة جيدا ، وان الاول منها يحتوي قيثارة رباعية . وكان يتم العزف بهذه الآلة اثناء المشي ، كما كانت توجد قيثارة قابلة للحمل ذات سماعة مقطعة بالجلد . وقد عرفت الالات مماثلة في مصر حيث كانت اوراق البردى تستعمل احيانا بدلا من الجلد كذلك وجد نوع من الرباب الصغير له سماعة صغيرة جدا ، واوتار مربوطة في نهاية مقبض طويل جدا ، وهناك آلات اخرى مماثلة ما تزال تستعمل في العراق وفي ايران .

كان التطبيل يتم بالضرب على انواع مختلفة من الطبول تتدرج من النقارات القابلة للحمل الى طبول اخر ذات ابعاد واسعة .

لدينا الواح فخارية تصور بعض الموسيقيين وهم ينقرؤن النقارات باليديهم ، في حين يحمل الاخرون طبلات اصفر بشكل واضح من الطبول الحديثة ، والتي ينقرؤنها باليديهم وبعض هذه الالات مصنوعة كلها من المعدن من امثال الصنج ، والصلصلة التي كانت مألوفة كثيرا في العراق ، وشائعة ايضا في مصر .

لقد تحت جوقة موسيقى حيوانية على واجهة قيثارة عشر عليها في القبور الملكية بمدينة اور ، وكان العازف على الصلصلة يعتقد فيه بأنه يربو على صغيره وكانت آلات النيقن تؤلف انواع من نيات مفردة او متزوجة ، وكذلك من مزامير دون ريب .

ويظهر الموسيقيون الذين يعزفون على آلاتهم ، في عدد من النصب من أمثل المنحوتة المحفوظة في متحف اللوفر والتي يعزف فيها اربعة موسيقيين في الوقت الذي توقف فيه الجيش للراحة . وكان الطبالون والعازفون على المعزف والقيثارات والضاربون على الصنوج يقابل احدهم الآخر في صفة مزدوجة وهم يتقدمون ويتراجعون بالتناوب .

ونرى على لوح يصور الاستيلاء على « مدكتو » في عيلام(*) سكان المدينة وهم يسيرون في موكب امام الفاتحين ، الموسيقيون في المقدمة والسكان صغراً وكباراً من ورائهم وراحوا يصفقون في ذات الوقت مع اصوات الموسيقى . [يوجد لوح في موسيقيون يصحبون الجيش في مسيرة]

وكان الرقص يصاحب الغناء والموسيقى غالباً ، ويكون عادة في شكل ما يزال يشاهد حتى الان في الشرق ولا سيما في سوريا ، حيث يواجه صفار من الراقصين احدهما الآخر ، ويتقدمان ويتراجعان بالتناوب في حين يصاحب المشاهدون الموسيقى بصيحاتهم وتصفيقهم .

وهناك رقصات تقلد اعمال العرب مثلاً ، حيث يتوفّر لدينا لوح فخاري يبيّن رجلين يحمل كل واحد منهما عصا تذكرنا نوعاً ما بمسطورة مطوية تفتح على زاوية منفرجة .

ولم اقبل الرأي القائل بان هذه كانت اسلحة خشبية لانه وان كانت هذه الآلة تعزى في الغالب الى العراقيين ، الا انه لا يوجد برهان على انهم كانوا يمتلكونها .

والذى اعتقده ان هذه الادوات هي في الاحرى ما يعرف بعصي الرقص ، والتي عثر على عدد كبير منها اثناء التنقيب في مصر . وقد ازدهرت هذه

(*) مدكتو Madaktu قيل عنها انها كانت بالقرب من سوسة

الادوات في مجاميع من حركات معقدة يمارسها الراقصون الذين يصادموها
سوية للتدليل على الایقاع ٠

واخيراً يبين لوح فخاري يرقى تاریخه الى عهد سلالة بابل الاولى ،
مشهداً عجيناً تمسلك فيه امرأة عارية بنوع من فنثارة وتنتصب فوق كرسٍ
عالٍ ، في الوقت الذي يوجد فيه عند قدميها شخص ذكر يرتدي ثوباً قصيراً
ويمارس ما قد يوصف بأنه رقص روسي في الوقت الذي يقابل فيه نفسه مع
صوت الطنبور ٠

ليست لدينا اية نواة لمعنى هذا المشهد الذي قد يمثل اما رقصة
شعائرية ، او كاهنة تقوم بدور شريك راقص واتنا نستطيع ان نستخلص من
هذا ان بعض رقصات من هذه النوعية لابد وان كانت موجودة حقاً ٠

يشير وجود الواح ظهر الشخص في موقف ملاكمين الى ان الملائكة
كانت مثلما هي عليه الان - من المناظر الشائعة ٠ ومع ذلك فلا بد وان كان
هناك صراع مخجل يتكرر بحدن ، لأن احد الاواني يبين رجليين يضرجان
طبلة كبيرة بجانب الملاكمين في توقيت مع حركاتهم [ملاكمون وضاربو
الطبول والصنوج] ٠

واخيراً كان الاشوريون ، مثل المصريين والايギون مغزفين جداً بالألعاب
التي تشبه الالعاب العصرية التي قد يمارسها لاعب واحد او أكثر ٠

هناك طاقم جميل في متحف اللوفر وعدد من طوافيم اخرى ، اكثر سبقاً
في تاريχها ، عشر عليها في القبور الملكية في اور ٠ كانت محتويات احد القبور
تتألف مما كان صاحب القبر يستعمله باستمرار على الارض ، في سبيل ان
يوفر له راحاته المطلوبة في العالم الآخر ، وان التكرار الذي وجدت به
هذه اللعبة في اور ، دليل جلي على سعة انتشارها في بلاد الرافدين ٠

وقد تلخص اوقات فراغ احد ملوك آشور في الوقت الذي يصفى
الى الموسيقى والرقص وألعاب الجلوس واقامة الولائم لنبلاة .

لدينا صورة عن واحدة من امثال هذه الولائم على منحوته من خرباده .
فالنبلاء الذين اعدت لهم وجة الطعام على موائد صغيرة تتسع الواحدة منها
لاربعة اشخاص ، كانوا يلبسون الملابس الملائمة لطبقتهم ، ونعني بذلك ثوبا
ذا وشاح طويل مهدب يلتف حول ابدائهم ، وهو يجلسون على كراسى امام
مائدة وضع عليها صحن غريب يشبه حزمة من عرانيص الذرة ، وهو يذكرنا
بشكل طفيف بعذق من الموز لم يرسم جيدا .

لقد استقرت ايديهم اليسرى على ركبهم ، في حين رفعوا في وقت واحد
بايديهم اليمنى كتوؤسا على شكل رأس اسد وانهم يشربون ، على وجه الدقة ،
نخب واي نعمتهم ، الملك .

والشيء الغريب في هذا المنظر ان كل الضيوف يجلسون على كراسى
عالية ، واقدامهم على الارض اشبه بالناس في المشارب العصرية [ينبغي مقارنته
هذا المشهد بالتطبيق الذي مر وصفه في الفصل الاول من هذا الكتاب] .

الصيد

كان كل ملك غيرا على الصيد ، وان ما كان في وقت من الاوقات واجبه
كحام للقيقة ، قد غدا لهوا غير مجرد من الخطر على الرغم من الاحتياطات
التي كان يحاط بها والتي تكررت الى حد ملل على منحوتات عدد كبير من
القصور .

ولم يجد الملك يصطاد الطيور وتلك رياضة لا تحتاج الى شيء ما سوى
الدهاء ، ولذلك فان هذه جد تافهة بحيث تستحق الاهتمام . غير ان اهالي
آشور كانوا يحبونها ، فترىهم في بعض الاحيان يصورون نحو الاهداف ، وفي

احيان اخرى يسددون سهامهم وقسمهم نحو الدرج .

ومع ذلك فهناك مشهد محير على منحوته محفوظة في متحف اللوفر تبين اثنين من الصيادين يمارسان فنهمَا في احدى الفسادات . ويقف أحدهما وهو حليق بشكل نظيف في مقدمة الصورة ، بينما يبدو على الثاني ، وهو ملتح ، بأنه على بعدهما ، لانه اضغر من الشخص الذي يقف في المقدمة ، والذى لا يسكن مع ذلك ان يكون هو الملك على الرغم من القياس الذى نحت به ، اذ ليست له لحية ولأن ملبيه لا يدل على الكبراء . والتفسير المحتمل للفرق في خجم الشخصين هو ان هذا الشخص لا بد ان يكون احد الامراء ، وان لم يكن الاشوريون في هذه المنحوتة قد نجحوا في تحقيق التهوم العصري [المأمول] اظظر ما يريد في نهاية الفصل الثالث من هذا الكتاب] .

في الفترة بين عهد آشورناصربال وعهد آشوربانيبال اي من القرن التاسع الى القرن السابع قبل الميلاد ، لم يغير النحت الاشوري الا ظادراته التمثيل المعتمد لصيد الحيوانات الوحشية ، وراح يتبع النهج الثابت بالقيادة . ومع ان الملوك الآشوريين المتأخرین لم يمارسوا صيد الحيوانات الوحشية ، والذى اصبح فيما بعد الزيادة المفضلة لدى الناساقين ، فقد بقيت السهول موطن الثيران الوحشية من الانواع الاصلية التي تعم الجداداً لقطعان الثيران المحلية وكذلك ثيران المصارعة الاسبانية (ثيران الغانديرياس Ganderias) وكذلك القطعان الهائلة من الحمر الوحشية التي كانت تزود بلاد الرافدين بحيوانات العز ، قبل ان يتم تدجين الخيل . كان الملك يطارد الحمر الوحشية على ظهر جواده ، وبعد ان يطعنها بسهامه يقتلها بقوسه او رمح الصيد الذي يحمله او يرغم أحد الصغار منها احياناً على الجري بجانب اعزبه ثم يمسك به بحياة واحدة .

وكانت الماعز الوحشية ايضا تصاد وتتسك . فنحن نرى منظر السيد امامنا . فالمطاردون يطلقون كلابهم الوحشية الضخمة ، الشرسة مثل طريدها ، وقد حملوا عصيهم واوتدتهم على اكتافهم ، تعقبهم بغال تحمل مئنة اخرى وذلك لامال الحلقة التي لن تستطيع الحيوانات ان تففر منها .
لقد صور هذا النوع من الصيد على اختام اسطوانة من سوسة مؤرخة من حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد .

غير ان الصيد بالمعنى الحقيقي للكلمة هو صيد الاسود . فكما سبق لنا ان ذكرنا في الصفحات الاولى من بداية كتابنا هذا ، كانت الاسود من نوع اصغر من تلك الموجودة في شمال افريقيا لكنها خطرة مع ذلك ، ما تزال موجودة باعداد كبيرة في بلاد الرافدين في عهد الملوك الآشوريين المتأخرین ، وكانت توفر للملوك رياضتهم المحببة .

وفضلا عن ذلك كان ملك آثيور يستورد اسودا غربية حقا ، ذكورا واناثا من افريقيا ، ويضعها في ساحات اللعب حيث تظل تعيش فيها بسلام الى اليوم الذي تموت فيه ، بين غابة ذات اشجار متوعة وكروم رخيصة .
والآن علينا ان نتصور يوم الصيد .

فالمطاردون الذين لم تتغير مهمتهم طيلة قرون ، يسوقون الطرائد نحو الصيادين ، في حين يمسك خدم آخرون بالاسود في ساحات اللعب ويضعونها في اقاصيص وراء اعمدة خشبية سميكه ، ينتصب فوقها على ارتفاع مأمون ، خادم في قبه صغيرة مهمته رفع الباب واطلاق الطريدة فالاسود التي جننتها هجمات كلاب الصيد وضربات الضاربين تغدو متشوقة للقتال . ويتعقبها الملك في عربته وقد جلس سائقه الى جنبه ووقف حارس قريبا منه ، وقد نشبت فيما سهامه : على ان المحوتوة لم تبين بالتفصيل مدى مقتلها .

وكافت الاسود كثيرة الى درجة ان الارض سرعان ما تنطفى باجسامها .

والكثير منها ميت حقا ، لكن لدينا بعض النحوتات المحفوظة الان في المتحف البريطاني ، نصور الحيوانات في حشرجة الموت ، فتحن نرى أبدا ذا لبنة طويلة وقد تقد السهم عبر رئتيه فاقعى وتذلل رأسه وهو ينفتح الدم . وهنالك محوتوة اوسع شهرة تبين لبوة جريحة شل طرافها الطفيفان بضربة سهم في الخاصرة . واذ راحت تتحرك دون جدوى فقد كورت نفسها على مقدميها في آخر محاولة لكي تسحب نفسها ولتنقض من الصياد وتهدهد حتى في لحظة مماتها .

غير ان الاسد في بعض الاحيان لا يصاب بجرح ميت ولذلك يهاجم مطارده هائجا . واذ ذاك تطلق الخيول بالعربات ويتلقى الملك ، ورممه في يده . هجمة الحيوان ، فينفذ رمحه فيه .

وفي بعض الاحيان يهرع زميله لمساعدته في الاجاز نهايآ على الحيوان حيث تتطلب الحاجة حقا جهود رجلين لمقاومة مثل هذا العدو الهائل .

ومع ذلك ففي مناسبات اخرى يقاتل الملك راجلا ، وان الصور التي نحتفظ بها عن هذه العملية قد تجعلنا نشك في صحتها . فيما ان يثبت الاسد ليوجه ضربته الى رأس الصياد ، يمسك الملك بلبيته ثم يغرس سيفه في بدنها لقد وجد هذا الموضوع ملائما بشكل واضح ، وقد استعمل في عهد آشوريان وبالذات ، وكان ملك فارس في قصور الاخميين مثلا هكذا في الغالب في مثل هذا الموقف .

وهكذا نجد ان الحيوان في مشهد صراع مع جبار خرافي يمزز الى الصراع بين الخير والشر ، يثبت امام الملك ، في حين يمسك الاخير . على الرغم من المخالب التي تمزق لعنه ، بالماهجم عن قرنه ويعالجه بضربه من سيفه وهكذا يستمر الصيد الى نهايته ويستطيع الملك ان يحصل على حصيلة اليوم

يشكّل مرض ، بينما تقوم فرق الخدم برفع وجمع الاسود الميتة من الارض التي طرحت عليها .

يصور المشهد كله مزيجاً من الصدق والكذب في فن بلاد الرافدين . وهكذا وان كان الملك في مثل هذا التاريخ لم يصور على نطاق اكبر من رعایا ، الا ان قوته الفائقة واهميته ظاهرة في كل مكان . فهو يقاتل الاسد في قتال متعادل ولا يجد مشقة في ذبحه ، في حين يستحيل الاسد نفسه الى مجرد حيوان للعب يستطيع الملك ان يمسك به ، ويرفعه من لبنته لكي يتلقى الضربة القاتلة .

اتنا لنذكر كيف ان غلغامش ، ابن الآلهة ، قد امسك بشور وحشى من ساقه الخلفية ، ورفعه في الهواء ودق عنقه بضربة من كعبه .

ولكن ما ان اتى الصراع حتى عدنا الى العالم الحقيقي مرة اخرى واحتاجنا الى جملة من الرجال لحمل كل واحدة من ضحايا رياضة ذلك اليوم .

على ان هذا ليس هو نهاية الصيد . فالنسبة الى التفكير الاشوري من الممكن ان يكون الاسد اكثر خطاً وهو ميت منه حيا ، لأن روحه الحنقة قد تتبع الصياد وتنتقم لميّة الضحية .

وعلى هذا فان العمل النهائي الذي ينبغي للملك ان يقوم به وهو محاط بحاشيته ، ان يقترب من الحيوانات الميتة ويصب عليها الماء المقدس تكفيرا واستغفارا عن الاذى الذي سببه لها .

ولقد دوّن الكاتب وكأنه يصدر عن فم الملك النص الكامل للشعائر الدينية ، بشكل معتمى به كيما يصف الحصيلة الظافرة للصيد ، للآلهة القيمة على الملك .

حاشية الملك

كان افراد البلاط . وفيهم كثيرون من يتقلدون مناصب كبيرة او صغيرة لخدمة الملك مباشرة او لخدمة عائلته ، هم ذوي الامتيازات الذين كانوا يحضرون معه مختلف هذه المناسبات .

وقد يستل هؤلاء على حكام المحافظات وكبار الضباط في مثل هذه المناسبات عندما لا يكونون في محافظتهم ، وكذلك الموظفون المسؤولون عن ادارة المزارع الملكية ، والمحاسبون ، ورؤساء سقة المدام ، ورؤساء الحرس ، ورئيس الاصطبلات ، ورئيس المطبخ ، ورئيس الخيل . ورئيس الموسيقى ، وغيرهم من الضباط والكهنة ذوى الرتب العالية .

وكان اهم طبقات الموظفين رفعه هو الوزير الاكبر ، الذي يكون في الغالب اقرب قريب للملك ، والذي يمده ويسكته من مراقبة اعماله بيسر اكبر . حتى لو انه كان يدير ولاية شاسعة .

فهو سيد الخزينة . والمسؤول سوية عن تلبية حاجيات البلاط والقطر ، وكذلك المسؤول عن جمع الضرائب التي كانت تفرض من قبل جامعي الضريبة ونأخذ صفة مدفوعات عينية كالشعر والصوف والخشب والخيول والدواجن ، ولو ان هذه الضرائب كان ينبغي دفعها بالفضة في بعض الاحيان .

وعلى هذا الاساس نجد مدننا مثل « ارباد » و « كوي » « ومجدو » (*) تفرض عليها ضريبة بمقدار ثلاثة وخمسة عشر طالين من الفضة بالتعاقب ، في حين تقدر الضريبة المفروضة على قرقيسين بمائة طالين من الذهب . ولو اتنا لا نعرف مدى الوقت الذي تجري فيه هذه المدفوعات .

(*) مدينة Arpad عاصمة الاقليم القديم « بت اغوسى » الذي يقع جنوبي غربي مملكة الحثيين . اما كوي فهو اقليم صغير كان يقع على خليج الاسكندرونة ، والى الشمال الغربي من اقليم بت اغوسى .

وبالاضافة الى الضريبة المباشرة ، واهمال اولئك الذين كانوا يتلقون
وفقا لنظام الالتزام (الذي كان موجودا في اوائل الالف الثاني قبل الميلاد ،
ويزمن حرب قبل ان يظهر النظام الاقطاعي) والذي يوفر اعفاءات معينة ، فان
نظام العمل الاجباري لخدمة الملك كان مطبقا .

كانت امكانية شراء الاعفاء من هذه الضريبة تختلف نسبيا بالنظر الى
نجاح الحملات العسكرية ووفرة او ندرة العمال الاجانب .

ولكن حين توسيع مناهج البناء الملكية ، ازداد الطلبات على العمل ،
وكان ت نتيجة ذلك ان بوخذنسر الذي وضع خططا للبناء مثل فتوحاته التي
كان يتصورها على نطاق واسع ، وجد نفسه مضطرا الى ان يصدر خدمات
رعاية الخاصين به لتنفيذ خططاته .

كان على كل افراد البلاط ان يدفعواضرائب . وكان الدفع يأخذ عادة
صفة ضمام ولو ان الملابس والفضة كانت تدفع في بعض الاحيان ايضا .
تتوفر لدينا القائمة التالية عن المرتبات التي كان يتلقاها بعض الموظفين
اثناء حكم سلالة سرجون والتي تلقي ضوءا كافيا على الوضاع التسلية
لدوائرهم .

النصب	مثبا من الفضة	ملابس من نوع فاخر	ملابس من نوع عادي	٥	٥	١٠
رئيس اركان الجيش				٥	٣	٦
الوزير الاول				٢	٣	٣
رئيس القضاة				٠	٣	٣
وزير اصغر				٠	٣	٣
رئيس السفارة				٣	٣	٤
رئيس حباب القصر				٢	٣	٥
مفتش القصر				٠	١	١

نستطيع ان نرى من هذه القائمة ان رئيس اركان الجيش الذي يسمى « تورتان » يتمتع بمنصب فريد في اهميته ، وذلك هو الشيء الوحيدة المتوقع في دولة تتطلع الى العرب باعتبارها المصدر الرئيس للإيرادات ، في حين نجد من الناحية الاخرى ان رئيس القضاة كان يتناول مرتبًا اقل من مرتب رئيس سقاة المدام ، ورئيس حجاب القصر .

وعلى الرغم من حقيقة ان الملك كان يتحبس الخوف يان امثال تلك التسائم الخاصة التي اعدت لكي تضمن الاستقبال الملائم عندما يكرم حاملها باستقباله من لدن الحضور ولو انه كان مثلا دينوريا للاله ، فأنتا سترى بأنه كان يبعد عن ممارسة السلطة المطلقة في كل الاحوال ، وان افراد حاشيته لن يتزدروا في اخباره بالحقيقة (انظر ما سيرد عن العلوم في الفصل الثالث من هذا الكتاب)

ادارة الدولة ، الدبلوماسية

كان الملك من الوجهة النظرية على الأقل . هو الذي ، يشرع القوانين ، اويثبت التقويم ، والضرائب ، ويتخذ القرارات بشأن الحرب والسلم ، وان العمل الاولى يتم من الوجهة التطبيقية من قبل موظفي البلاط بمساعدة جيش من الكتبة .

وكان في تصريفه الشؤون من يوم الى يوم ، يتلقى نصح اقربائه حين يتم عقد اجتماع عال ، ومن بعض افراد البلاط الذين كانوا يؤلفون معا نوعا من مجلس ، وذلك نظام تطور في البلاط الحيث تطورا ارفع بكثير من البلاط الآشوري .

ومن المحتمل ان يعزى اقتباس الآشوريين لهذا العرف الى تأثير الاتصالات الطويلة بين بلاد آشور والشعوب الآسيوية والاوربية الهندية . واظهر ان مثل العرف لم يظهر بدرجة معادلة من الاممية في بلاد بابل .

ومع ذلك فما عدا مظاهر حياة الملك التي فحصناها القيت على عاتقه تبعات اخرى ذات اهمية حيوية للامبراطورية ، وتعني بها الدبلوماسية وال الحرب .

لقد كان الملك يستقبل السفراء ، ودافيء الضرائب الذين تأتي اعداد كبيرة منهم من كل اتجاه الامبراطورية الآشورية الحديثة . فالمملك يجلس على عرشه المرتفع في غرفة استقبال كبيرة في القصر وقد اقى اسده المدجن عند قدميه واحاطته بوزراؤه وافراد البلاط والحرس ، وهو يرتدي كامل ارديته الرسمية ، وهو يستقبل بكل مهابة سفراء الدول العظمى التي يستطيع مع حكامها ، الملوك العظام ان يعاملهم بحدث دبلوماسي بمثابة الاخوة . وفي ذات الوقت عندما يقدم السفراء اوراق اعتمادهم ، فانهم يطرحون

عند اقدام الملك الهدايا الثمينة التي جلبوها له من الذهب والفضة والمعدات الثمينة ، او الاحجار الكريمة ، او يستعرضون امامه الخيول المختارة من بلدانهم وعلى الاخص العبيد المختارين او الحيوانات النادرة ، او النباتات . وقد ينحوون كثيرا امام الملك لكنهم لا يرکون ولا ينكسون على وجوههم ، كما كان متوقعا القيام بذلك في البلاط المصري .

ولقد كان رسول البلدان الصغيرة حسب ، او العديد من دافعي الجزية الذين لا يعاملون مع بلاد آشور على قدم المساواة ، هم الذين يخطوون من شأنهم . فلقد دونت في سجلات الواقع الملكية حرّكات هذه السفارات بطريقة اسيء استعمالها بصفة متعتمدة ، في حين كانت الحوافر الحقيقة ، كالتحالفات التجارية ، او نقل القوات بحثا عن التوازن في القوى ، تمر من دون اشارة ، او تتذكر في صفة ولاء .

هناك مثلا ملك ناء ، هو ملك ليديا راوده حلم ، في عهد حكم شوريانيل ، بان يعرف عظمة الملك الآشوري ، وان يرسل اليه سفاراة ، في حين كان الواقع البسيط يتطلب ايجاد جهة مشتركة على عجل ضد «السميريين» (*) الذين كانوا يعيشون فسادا في شمالي بلاد آشور وفي جنوبي آسيا الصغرى .

ويحدث في احيان اخرى ، ايضا ، ان يطلب احد السفراء - بمحض عن السلام - او يعرض بذاته ملكية الزواج .

ان معلوماتنا عن التقليد الذي استعملها الحشيشون تضيئ لنا الطريق عن الصيغ التي كانت تحكم الاتصالات بين ملوكين . فقد يكون كلا

(*) **السميريون Cimmerian** شعب قديم موطنها جزيرة القرم في البعـ الاسود عبر جبال القوقاز في القرن الثامن قبل الميلاد . وقـا القسم الشمالي من بلاد آشور والاجزاء الشمالية الغربية من بلاد ايران .

الملكين راغبين تماماً في الزينة لكن أيهما لم يظهر ادنى دلالة على ثقافته
صبره . ولذلك يبدأ الصهر المتضرر بالرفض . ويتجدد الطلب بعد فترة
 المناسبة وتناسب رفضه عديدة مع رفعة الغرض من التقارب وأهميته .
 واخيراً تصل المفاوضات إلى نهاية ، وتغادر العروس إلى بلد زوجها تصحبها
 حاشية مختمة وتحمل معها الهدايا الثمينة .

تحتوي مجاميع النقد في كل أنحاء أوروبا على عدد من الأوصمة التي
 ضربت لتمجيد الزيجات الملكية وتخليلها ، حيث كان هذا الإجراء لا يختلف
 إلا قليلاً عن البلات المصري .

منذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده ، وعندما كان فراعنة
 الأسرة الثامنة عشرة الحاكمة قد تزوجوا باميرات ميتينيات في سبيل ضمان
 الحصول على حلفاء لهم في سوريا العليا ، صنعوا لهم جعلان منحوته لتخليل
 هذا الحادث .

استقبال دافعيضرائب

الموضوع الثاني الذي حرته المنحوتات الناتحة هو استقبال دافعي
 الضرائب والذي قصد به أخافة الرؤساء الذين يكونون في حضرة الملك

فالملك وهو يرتدي كامل ثيابه الرئيسية يشاهد واقعاً أو جالساً ويمسك
 بعصا طويلة هي شعار رتبته . ومن خلقه يتجمع حملة سيفه واسلحته
 ومرأوجه ، وأمامه كفلاً للسفراء أو دافع الضرائب الذين يحملون الهدايا
 أو الجزية من أمثال الأواني المصنوعة من المعادن الثمينة والمزينة بالنقشون
 الفاخرة ، والمقصورات ، وقضبان من الابنوس أو المجوهرات ، أو في بعض
 الأحيان صناديق مجوهرات مصنوعة على شكل غبات صغيرة وبذلك
 يرمزنون إلى هدية مدینتهم إلى ملك آشور . ويحدث في بعض الأحيان أن

يجعل الرسل معهم ، عربات وخيوالا . وتناثر هنا وهناك سطور موجزة
لنفس وصفي .

جزية من ارز لبسان

تسجل منحوتات خرسناد احدى العملات المتوسطة في صفتها بين
الهبات التي يجلبها دافعوا الجزية ، والعمليات العسكرية الكبرى التي سنأتي
على وصفها فيما بعد .

وكانت هذه تمثل نقل حمولة من الخشب بطريق الماء ، ومع انتها
لا نعرف اهميتها على وجه الدقة ، فاتنا لسنا في شئ من اهميتها ما دامت
كل دقائق الزينة في خرسناد ، قد صممت للتأكد على عظمة الملك ، فاتنا
نستطيع ان نستخلص بصدق ان وصول هذه الحمولة لابد وان كانت حدثا
مهما عادة . ولابد لنا ان تذكر ان بناء القصر كان بعد ذاته حدثا ذا اهمية
كبيرة .

من بين المواد المطلوبة كان الطين يتم توفيره في موقع البناء ، في حين
كان الحجر ، الذي لم يستعمله المعماريون الا بصفة محددة ، بالقياس الى
الوضع في الجنوب ، متوفرا تماما .

اما الخشب فقد كان نادرا ومع ان انواع من الخشب التي تنمو في
الشمال يمكن جلبها مثل الحجر الى موقع البناء ، الا انها لا توفر السقفي
الكافية لتفطية الغرف المصممة .

فقد كانت اشجار الصنوبر او بصفة خاصة اشجار الارز التي
كانت تؤلف الثروة الطبيعية لبيوريا ، تؤلف المصدر الوحيدة للاغمدة من
الخجون المطلوبة ، ولذلك كانت مطالب الاقديرين الشهادة في الواقع ، تتضمن
بتجريد لبنان وجبل لبنان من احتياطيهما من الاخشاب ، بحيث أصبحت

أشجار الارز في هذه الايام يمكن تعدادها باحد وازواج ، في حين ان النافق منها مدین ب Regents الى انتقاله الى بعض البقع النادرة .

لقد كان المصريون يرسلون الحملات باستمرار الى سوريا للحصول على اشجار الارز ، التي كانوا يستعملونها معاً في صنع الاشرعة لسفنهم ، وصنع صناديق الموتى ، في حين كان العصير الذي يطلق عليه اسم « دم الارز » ذا شهرة عالية .

لقد كان امراً طبيعياً بالنسبة الى سرجون ان يتوجه الى سوريا للحصول على الخشب الذي كان يحتاج اليه ، وسواء كان اراده كجزية ، او بسبب مشاكل النقل الجسيمة ، فان الشيء الواقع هو ان الحملة كانت تعتبر ذات أهمية كافية تستحق التدوين بشكل ثابت .

تبين المنحوتة الاولى فرق العمال المسخرين الذين يرتدون جلايب قصيرة ويحملون حزماً طويلاً تتدلى على جبال من فوق اكتافهم ، وهم يهبطون من جبل تشاهد منحدراته ظاهرة بصفة مباشرة الى جانبهم . فهذا النظر يمثل نقل اخشاب الارز من الجبال الى الساحل .

اما المنحوتة الثانية فتبين اخشاباً محملة على زوارق ذات مقادم وكواكب قوية ورسوم رؤوس حيوانية .

والمنحوتة الثالثة في المجموعة اعظمها اهمية [اللوح ١٥] . وهي تبين عمارة بحرية في مسيرتها . فالزوارق التي جهزت بمجاذيف طويلة تمخر في خط الى امام ، وقد صورت حمولة الخشب بشكل ملائم وكأنها تستقر على المقادم والكواكب في الوقت الذي تم فيه ربط المزيد من الخشب بالجبال . وفي وسط الامواج التي مثلت بشكل مكثف من خطوط متوجة، نستطيع ان نرى تشكيله من اسماك وجمبري واصداف ، سوية مع آلته البحر الذي له بدنه شيخ البحر، وجني صالح يصعب الحملة في صفة ثور مجنح .

وافي حوالى النصف من المنحوتة توجد جزيرة منبسطة جدا عليها حصن ،
واعلى منها قليلا حيث تتوقع ان نجد الساحل ، ينتصب حصن ثان على
ارتفاع ملموس .

اتي اقر ان هذه المنحوتة قد قصد بها ان تكون لمسة لون محلی ،
وانها تمثل منظرا حقيقيا ، واذا ما كنت مصريا في هذا ، فان علينا ان تتطلع
الى بعض الواقع في فنيقية التي توجد فيها جزيرة بمستوى الماء على مسافة من
الساحل ، ويقوم فيها حصن فوق تل عند حافة الماء .

هناك موقع واحد ، وواحد حسب يفي بهذه الشروط وعني به مدينة
صيدا والتي كان بناء الاكرنوبولس فيها يقوم في الموقع الذي تقوم فيه
قلعة سان لويس المخربة ، في حين كانت الجزيرة الصخرية والمستوية والمنبسطة
في ذات الوقت تؤلف موقع الحصن .

لقد كانت هذه الجزيرة هي التي كان ملك صيدا يلتتجئ اليها في جهوده
للخلاص من ملك آشور ، مثل سكة في وسط البحر .

اما الصدفة التي رسمتها المنحوتة في وسط الامواج فان لها اهمية خاصة ،
لان فنيقية كانت موطن الصبغ الارجوانی الشهير ، وكانت صيدا احدي المدن
المتخصصة كليه بهذه الصناعة . وكان الساحل على كل جانب المدينه يرتفع
في شكل كهوف ظاهرة مؤلفة من الاصداف التي كانت ترمي بعد استعمالها .

اما المجموعة الرابعة فانها مناقضة لل الاول وهي تبين اخشابا غير مخلطة
ثم نقلها في طريق جبلي .

ويمكن تلخيص معنى المجموعة كلها بالقول ان الارز كان يقطع فوق
الجبيل وينقل في ارسالية عبر الطريق الساحلي لفينيقية كلها حيث يتم تفريغه
في الشمال ثم ينقل باقصر طريق ممكنا ليصل الى الالغام وبذلك يتم نقله
الى نينوى [هناك صورة تمثل نقل حمولة من الاخشاب من لبنان بارسالية
من صيدا] .

العرب

وآخر مهام الملك ، وليس اقلها ، هي الحملات العسكرية . وقد صورت مظاهرها الرئيسة على منحوتات ناتئة ، في حين صورت المظاهر التي هي أكثر تفصيلا على نطاق أصغر ، مثل ذلك الصفائح البرنزية التي تشبه تلك التي يرقى تاريχها إلى عهد الملك شلما نصر الثالث ، والتي عثر عليها في قرية بلاوات الصغيرة العديمة الأهمية ، والتي جلبت إليها لسبب غير واضح ، لانه لا يمكن ان يوجد اي قصر هناك^(٢٤) .

ولقد ثبتت الصفائح بمسامير لها رؤوس وريادات على الواح خشبية بباب كبيرة مزدوجة . ومعظم هذه الصفائح محفوظة في المتحف البريطاني ، في حين قسمت بقيتها بين متحف اللوفر ، ومجموعة دي كلرك ومتحف اسطنبول .

تحت امرة الالله

نستطيع أن نعيد تشكيل الحروب التي خاضها الملوك الآشوريون بدقة تامة وذلك بمساعدة هذه السلسلة المتغيرة من الوثائق وتسجيلات المعارك .

ولابد لنا ان ندهش من حقيقة ان الباعث الواقعي لاثارة الحرب غير مقبول به صراحة . وعلى هذا فلا يوجد هناك ادنى شك ، مثلاً هو الامر في الوقت الحاضر ، بأن هذه البواعث كانت اقتصادية في الدرجة الاولى ، وأن ما جرّض عليها اما الحاجة الى التوسيع ، او بسبب المدخل التي يجدون عليها يانها قد اغلقت فيما اعتبر بأنه اتجاه حيوي .

(٢٤) غير ان البروتوسسور ملواں الذي زار المنطقة مؤخرا (دبيع ١٩٥٢) قد لاحظ بيوة كبيرة هناك ، ربما تخفى تحتها احد القصور . اما محل الذي نقلت منه ابواب البرنزية فما يزال غير محدد .

غير ان مثل هذا لم يتم توضيجه صراحة . وعندما كان الملك يطعن
العرب على بلد مجاور فانه انما يفعل ذلك اطاعة لا وامر الآله آشور ، اما لان
الآله يأمره بذلك ، او لان المعاهدات المودعة تحت حماية الآله لم تعد محترمة
حقا .

ويمثل الملك في الحملات العسكرية دور نائب للآله . فهو قائده وبطله
المختار .

وكما نعلم ذلك جيدا كانت الاسباب ، من الانارة وخرق المعاهدات
والتهديد بالتطويق ، لاعلان الحرب هي نفس ما عليه اليوم حيث حلت
العوامل الفكرية محل ارادة الآله آشور .

وغالبا ما تحتوي ديباجة سجل احدى المعارك على بيان بان هذه الحرب
قد شنت بأمر من الآله . ولكن كان يحتاج الى المزيد من ذلك لاذن اليوم
يجب ان يكون ملائما لشن الحرب ، وفي هذه المناسبة ينبغي لنا ان نلاحظ
ياءهتم ، ولو بدهشة ، ان الوقت الملائم يتراوحب بشكل ملحوظ مع ما يعتبره
رجال التفتة ، الفصل الملائم بصفة اكتر ، اي الملائمة مع معظم الاحوال
الارضية الصالحة وافضل التطلعات الى الاحتفاظ بجيش مجز عبیر خطوط
مواصلاته .

الجيش

كان الجيش الاشوري الملكي يعتمد على التجنيد الذي لم يكن يفرض
على كل اصحاب التزام الاراضي حسب واما كل الملائين من رجال القتال
الذين كانت تجبر القرى على تهيئتهم في صفة غريبة .
كذلك كان الجيش يضم القوات المتطوعة التي تتصف بالتشوق الى
الاعمال النهب ، والاستعداد للهجوم بنفس الاستعداد للنهب تماما .
لقد كانت هذه القوات تسلح تسلحا خفيفا اذا ما قورفت مع القوات

الضاربة ، وكانت مهمتها الخاصة ، ان تتغلغل عبر صفوف العدو لتحول التردد الى هزيمة ، ومن ثم تنقض على معسكر العدو لنبهه .

وتتألف القوات الضاربة من وحدات مختلفة الاشكال فهناك اولا « الكردو Qurrudu » او الوحدات القوية التي يمكن ان توصف بانها الحرس الخاص المؤلف من محاربين وقتلين مسؤولين عن سلامه الملك الشخصية ، ويعدون من الناس الذين يعتمد عليهم تماما .

اما قوة الجيش المقاتلة ، ما عدا الاسلحة التي تحملها القوى المتطوعة المزودة باسلحة خفيفة ، والتي لا تتوفر فيها الدروع الدفاعية ، والتي تتكون اسلحتها الهجومية من مجرد الهراءات والمقاليع ، ان هذه القوة تعتمد على رماة النبال والرمادين الراكيين ، والمهندسين والمدفعية .

وكان المشاة الراكيون يستخدمون من كانوا ييلعون مناصبهم المعينة وكذلك حملة الرماح المزودين برماح طولية خفيفة ، وفؤوسا كبيرة للقيام بعمليات التقويض او لمجابهة اضراهم من قوات العدو ، وكذلك رجال المدفعية الذين يقومون بتشغيل الآلات المصممة لاحداث ثغرات في الاسوار المقابلة (هناك صورة تسئل كل هذه الاصناف) .

. ونرى على المنحوتات التي تصور المعارك ، الجنود الملتحين وحليقي الوجوه الذين ينهضون بهمam مميزة بصفة حيوية . وهذا دليل آخر على خطأ الرأي القديم القائل بان الاشخاص حليقي اللحى اثنا كانوا يمثلون الخصايا ، والواقع انهم كانوا يمثلون مجرد الشبان من الرجال (فتيان الاغريق) ، على خلاف المحاربين الملتحين وكان التمييز قائما بين القوات الاعتيادية والاحتياطية.

وفي العصر الآشوري الحديث بلفت الملابس التي كان الجنود يرتدونها على نقطة من التأثير ، وقد استبدلت الملابس الطويلة المفلقة التي عرفت في عصر آشور بانيبال بشوب قصير يصل الى ما تحت الفخذ ، والذي يدع

الذراعين نصف عاريتين .

ولم يعد الجنود حفاة ، وإنما كانوا يلبسون أحذية عالية في حين كانوا يلبسون الخوذ في رؤوسهم والتي ما يزال شكلها حيا إلى اليوم في المزروع الهندية المحلية والتي ثبتت تماما حول الرأس وترفع في صفة مخروط إلى نقطة حادة .

وكانت الأحذية المزروعة تقي أقدام الجنود من الأرض الوعرة ، فتمتنع الكبدomas ، في حين صمم شكل الخوذة بحيث تحرف النبال عنها دون أن تحدث ضررا جديا . وفي بعض الأحيان تستبدل الخوذة بقبعة ملائمة لجمجمة الرأس تبرز منها قطع للوجبات ، أو بالآخر الخوذة التي يلبسها الطيارون .

وتتألف حماية الجسم الرئيسية من ترس طويل غير متزن الصنع بقدر حجم الإنسان له مؤخرة منحنية كيما تؤلف نوعا من وفاء . وال واضح أن هذا الترس كان يصنع من حزم مضفرة ومبطنة من صفصاف الشلال المشدودة شدا وثيقا ، وأن الفرض من هذا البقاء هو حماية رامي السهام من النبال المطلقة التي قد تسقط بقصبة عمودية غالبا .
ومما تجدر الاشارة اليه هو أن هذا البقاء قد تقلص نتيجة عدم امكانية سحبه ، لانه كان يحتاج إلى من يحمله .

كان سلاح المجموع المقاد هو السهم . وكان لهذا منحنينا ومن حجم متوسط . وغالبا ما تشير التمثيليات الوثيقة للمنحوتات الثالثة إلى أن يد رامي السهام قد امتدت إلى ما وراء رأسه حين يسحب قوسه ، لأن وتر القوس المتور يمكن أن يشاهد بخلاف أمام رأس رامي السهم ، لكنه يختفي في النقطة التي ينبغي أن يكون ظاهرا بها أمام وجهه .
إن هذا من شأنه أن يمثل الحركة بدائية مستخلصة بقرينة ، وأن التفسير

ال حقيقي لذلك هو ملاءمة فنية بسيطة لأن الوتر لا يمكن اظهاره لانه يبدو مصرياً في المكان الذي ينبغي ان يكون فيه حقاً ، واذا ما نظر الى يدي رامي السهم فاننا نرى انها تماماً في الموضع الذي تتوقع ان تجدوها فيه .

كان رماة السهام يركبون الخيول احياناً ، وفي مثل هذه الاحوال كانوا يطلقون سهامهم عندما تكون خيولهم ما تزال واقفة ، او حين يتربّلُون منها

وكان الخيالة من الناحية الاخرى يسلحون برماح من اطوال معتدلة ، ويقاتلون وهم على ظهور الخيل فعلاً وكان حملة السهام والرماح مما يزودون بخنجر قصير مسطح الحد ، يفرسونه في احزمتهم في حين تكون ترسهم محدبة باستمرار بحيث تتطلق النبال بعيداً عنهم دون أن يصابوا بضرر .

ويتدرّع الخيالة ورماة السهام في بعض الاحيان فوق الاجزاء العليا من ابدائهم ، بذروع من الكتان او الجلد مخاطة بصفائح معدنية تسمح في بعض الاحيان بحرية الحركة وتوفّر الوقاية . وهذا النوع من الدروع كان مستعملاً بصفة عامة في اوربا في اواخر المصور الوسطى عندما كانت تسمى بالذروع المزرودة . اما الخيالة فانهم ، وان لم تكون لديهم ركائب للسروج ، الا انهم لا يركبون الخيل عارية ، وانما كانوا يستطونها فوق سروج مجدهلة لينة .

وفي منتصف الطريق فعلاً بين الخيالة ورماة السهام ، تأتي العربات التي يسحب الواحدة منها حصانان او بالاحرى اكثر من ذلك ، اذا كان المسافرون ذوي اهمية كافية .

ومع ذلك فان قيمة العربة من وجة النظر العسكرية تبدو محدودة ، لانها تتطلب - ما عدا الرجل الذي يطلق السهام منها - ساعتين ، وشخصين آخرين يحملان ترسوساً مدوراً لحماية الشخصين القمالين . ولما كانت مقدمة العربة ذات هيكل صلب فانها لا تستطيع ان تغير الاتجاه بشكل حاد حمين

تقترب من احدى العقبات ، وان المداورة المعاكسة الصحيحة هي مداورة المصارع عندما يواجهه ثور ، اي ان يخطو جانباً ويذفعه يمضي من دون اذنه .
وغالباً ما يتم تصوير العسكريين الخبراء بالالقام ، والذين كانوا
يلعبون دوراً مهماً جداً في حروب الحصار ، وهم يلبسون خوذة من ذات
الشكل الذي كان المحاربون الاغريق يلبسونها ، والتي تشبه تماماً الخوذ
التي يلبسها رجال الاطفاء الفرنسيون في الوقت الحاضر بل حتى الفرسان
الفرنسيون المدرعون في الايام الاخيرة نسبياً ، والتي لها علاقتها بالماضي
السيء بحداً .

لقد كانت مهمة هؤلاء اللقمان تقويض الحصون وفتح فجوات فيها
للهجوم . وتألف طريقة من فتح حفر كبيرة بشكل واق بفعل الاختناق
تحت سور او برج ومن ثم تفليق العضو باختبار خفيف لكيلا يتلاعث السور
في تلك الحفرة . وفي الوقت ذاته يبذل ساكنو المدينة المعاصرة ، جهوداً متساوية
لأنهم الالقان المقابلة وذلك بحفر فجوة تحت فجوة خصمهم لكي يحولوا
دون اي تقدم اخر في الالقان .

في مدينة دора يوروبيوس على نهر الفرات ، والتي كانت تخضع في
عصر ما لتدمر ، واحتلها الرومان مؤخراً ، كشفت التنقيبات عن آثار حفبة
لصراع كبير بين الرومان والقرس باسلحة المدافعين والهاجمين التي تحظى
بتوجة انياب الاسوار .

وكانت المدفعية المعاصرة تتألف من اسلحة الحصار التي لم تتغير صيغتها
تقريباً حتى اختراع الاسلحة النارية . فكانت احدى الالات تتألف من منصة
على جبلات تجعل المهاجمين في مستوى السور ومجاهدته بذات الاساليب
الاختنافية للحركة العادمة فوق الارض .

ومثال آخر : كانت تقطن بالجلد وترثى بالللام باشتمالها من

الاستعمال بفعل جبل متقد ومشاعل كانت تلقى عليها من قبل المدافعين ، وتحمى القوات التي كانت تحرك كبشا لهدم الاسوار يتالف من عمود طويل وثقيل يغوص تحت البناء العالى ويتقدم الى الخلف والى الامام ٠

لقد كانت القوة الضاربة تستطيع ان تحدث دمارا حقيقيا شديدا جدا في اسوار الحصون التي وجدت في ذلك العصر ٠ وكان المدافعون يردون على هذه المجمات بالطريقة التقليدية ، اي أن يحاولوا الاستيلاء على الكشن الخشبي بالحبال والسلال وبنذلك يبطلون عمله ٠

لاتتحرك الجيش الى القتال الا في الاشهر التي يقول قراء الطالع واصحاب الفأل بأنها ملائمة للحملات العسكرية ٠ لقد كان الملك هو رئيس اركان الجيش في واقع الامر ٠ لكنه اذا اختار ان لا يمارس القيادة ، يتولاها في مكانه القائد العام او « التورتون » ٠ وعندما يتحرك الجيش يسير الاقوية من الرجال « كردو » الى جانب الملك ٠

وتشير شواهد المنحوتات الناتئة الى ان قوات الحرس كانت هي القوات الوحيدة المدربة تدريبا صحيحا ، والتي تسير بخطى متينة وتحافظ على النظام الصالح لل拉斯ناف ٠

ففي مؤخرة ارطال العربات تأتي آلات الحصار الا اذا كانت قد رسمت في الواقع في مشهد حقيقي لعمليات حسبما تتطلب ذلك الاحوال الخاصة ٠ فحين الوصول الى احد الانهار تعبر العربات وشاحنات الاممدة اما على جسر من الزوارق او على طوف خفيف ، بينما نسبع الخيول والرجال سوية ، ويستعمل الرجال جلود اغنام منفوخة يضعونها بين سيقانهم ويجدفون باذرعهم ٠

المعسكر

تستريح القوات خلال فترة توقف قصيرة ، اما اذا ما اضطررت الى اطالة

الاستراحة لسبب ما ، فعندها لابد من بناء معسكر محصن ويكون هذا المعسكر عادة دائرياً معززاً بالابراج . وتبني الخيام في الوسط . وكانت الخيمة الملكية اكثراها انتقاماً ، وهي تطفى - مثل عربية الاطفال الحديثة - بسرادق متندل مواجه تجاه الريح او الشمس .

وكانت الخيام التي يستعملها بقية افراد الجيش او الضباط على الاقل، مشابهة كثيراً للخيام المستعملة في الوقت الحاضر ، فهي على شكل مدور . ولها ركيزة وسطية لوضع العمود فيها .

وكانت المطابخ تزود دوماً ، وتبيّن بعض المنحوتات جنوداً من همكين في اداء انواع من المهام ، فالاحدهم يسلخ شاة والآخر يوقد النار ويزروح لها بنا يشبه راية صغيرة ، وثالث يراقب طاوة واسعة .

وهناك جنود اخرون قد ينشغلون بحس الخيول التي كانت تترك في العراء اثناء الليل عادة ، وعلى الاقل عندما يكون الجو حاراً . وقد كشفت التقنيات عن حلقات لربط الخيول مثبتة في جدران ابنية خارجية في باحات قصر كبير ، او مثبتة في الارض احياناً .

لسان بحاجة الى الافاضة في تفاصيل احدى عمليات الحصار . وذلك ان فعاليات اللقamin وآكباش هدم الاسوار ، كان يتبعها ضرب حصار مطلق حسب الامكان ، وذلك بهدف تجويح الحامية المدافعة اما الجوايس او اي شخص قد يحاول ان يتخد طريقه عبر الحصار ، فكانت تقطع اعناقهم ، ويستعرضون فوق الاسوار ، ولاثارة الخوف في شوس المدافعين .

اعمال التهـب

كان الاستيلاء على قلعة معادية ، او دخول الملك الآشوري غير فتحة في الاسوار ، انذاراً بنهب المدينة . فالشرفات التي يطلق منها الزيت المطلي ، والنفط المتهب ، وصواريخ الاحجار ، سرعان ما يتم تقويقها ، وتفرد غرف

القصر وبيوته من محتوياتها وتشعل فيها النيران دون مقاومة ٠

وحين يرى السكان ان المقاومة توشك ان تنتهي غالباً ما يخبطون ممتلكاتهم الثمينة ، ولو ان الكثير منهم موقفون باقهم لن يستعيدوها ابداً ٠

وبمرور الزمن ظهر بعض هذه الكنوز للنور ، وما يزال هذا شأنها حتى اليوم ، حين تجد الاشياء سبليها الى المتاحف ٠ اما الكنوز الاخري فانها تتفسد الى الابد ٠ ولا يدخل الجشع الآشوري لا ذهباً ولا فضة ٠

وينصب عرش الملك امام ابواب المدينة ، ويتم استعراض الاسرى امامه يقودهم ملك المدينة المستسلمة الذي يتحمل اعظم تعذيب مبرح ، كأنه تطلع عيناه ، او ان يحصر في قفص ، الى ان يأمر ملك آشور بوضع نهاية لآلامه الطويلة ٠ [هناك صورة تمثل ستحارب على عرشه امام أبواب مدينة لاكتش] ٠

لقد امر سرجون بحرق ملك دمشق المنتحر حيا امامه ٠ اما زوجات الملك الملعوب وبنته ف تكون مصيرهن الى بيت الحرير الآشوري ، ومن لم يكن منها من اصل نبيل يحول الى رقيق ٠

وفي الوقت ذاته يبدأ الجندي بذبح السكان ، والaitian برؤوس الضحايا في حضرة الملك ، حيث يتم احصاؤها من قبل الكتبة ٠

ولم يكن كل الاسرى من الرجال ليقتلون ، ذلك لأن الصبيان والصناع يقادون الى الاسر ، حيث يهدى اليهم باشق الاعمال في مشاريع البناء الملكية، حيث تسبب المستعممات التي تقطن مساحات شاسعة من ارض بلاد الرافدين، نسبة عالية جداً من الوفيات ٠ اما بقية السكان فكانوا يستأصلون ، ويبعث بهم الى أقصى الامبراطورية ، وهو عمل تم التخلی عنه بتقدم المدينة لكنه انتعش بشرف في القرن العشرين الميلادي ٠ ولقد كان هدفه الظاهر هو تأهيل المناطق الخالية في البلاد لكن قصد به في ذات الوقت ان يؤكّد بان القادة

الجدد هم غرباء لا اصل لهم بين الشعوب التي تحيط بهم وافهم اذا ما تمردوا
فلن ينالوا اية مساعدة .

لقد كان الامر الشائع تماما بالنسبة الى صغار اعضاء الاسرة المالكة ان
يتم تقطفهم الى بلاط الفاتح ، ويتربون هناك على العنف على أقل شئ ، ان لم
يكن الحب بلاد آشور . فمن اوضاعهم الاصلية كرهائن في البلاط يمكن
لهم ان يتقدموا الى نقطة اخيرة يدعون فيها الى التصرف باملاكم الموروثة
لهم كجزء من سيدتهم شريطة ان يبرهنو باشتهم ، ولو بصفة ظاهرية على
الاقل ، بافهم قد « نأثروا » (*) الى درجة تكفى للظفر بشقة الفاتح .

كانت تعقب الظفر في العرب احتفالات يشارك فيها الجيش والشعب
سوية ، فتقدم فيها التبركات والندور الى الآلهة ، في الوقت الذي يحتفل
فيه باحتياطي من اعشار المنتجات الطبيعية والمواد الثمينة ومن الاسرى ايضا
لاستعماله من قبل العباد .

وكانت عملية ذبح الاسرى ، وهي لم تكون عملية اتقان بقدر ما تكون
عملية نذور للآلهة ، مطبقة في الديانات الاصلية .

لقد كانت الشخصية الآشورية ذكية جدا وتدرك كيف تخلي عن احتكار كل
ذى قيمة ، لكنها كانت تتقبل الالتزام بصفة مطلقة ، بان تقدم على الاف جزء
من رأس المال المدينة به الى الآلهة التي منحت النصر .

لدينا معلومات مفصلة تفصيلا واسعا عن العملات العسكرية الناجحة
غير ان الافراد الذين اعدوا هذه الواقف التاريخية لم يذكروا كلمة واحدة
عن العزائم او التكسارات ، في حين ينبغي لنا ان تتناول على الدوام تقديرهم
للاتصالات باحتياط ملموس .

فليدينا على سبيل المثال ، ثلاثة مصادر رسمية مفصلة عن واحد من
الاتصالات شلمناشر الثالث ، وعن عدد من الامور يختلف مائة في المائة .

(*) هذه الكلمة ترجمة حرافية لـ الكلمة الانكليزية Assyrianized
التي تعني انه اصبح آشوريانا ، مثلما يقول « تميفن » اي أصبح فنفيانا ، وتعني
او اصبح عراقيا .

حملة سرجون الثامنة

لأجل دراسة حملة عسكرية نموذجية يمكننا ان نختار الحملة الثامنة من عهد حكم الملك - سرجون - والتي قادها الى الشرق والى الشمال الشرقي من املاكه ؛ ونظهر الدراسة الطوبوغرافية للحملة ان - اشور - كانت تعتبر الاقطار الواقعة على حدودها كمستودعات عديدة ، ولذلك اقحمتها متذرعة ب مختلف الاعداد ، لكي تجهز الامبراطورية بما كانت تحتاج اليه فكان المسرح الرئيسي لهذه الحملة الخاصة والتي وقعت عام ٧٤٠ ق.م هو منطقة - أراراتو - المنية والتي تمثلها اليوم (ارمينيا المعاصرة) . وفي عام ٧٢٤ ق.م اعتلى الملك العرش وهذا ما يظهر ان الحملات كادت ان تكون وقائمة حولية .

علينا الا نخطيءظن فنقول ان العاهل الاشوري اتخذ قرار المباشرة بالحملة معتمدًا على الطوالع وعلى اختيار الفصل المناسب والتاريخ الخاصة بالغامرات العسكرية حسب . لقد كان تحت تصرفه جهاز استخبارات كما انه اعد للحملة الارمنية اعداداً مفصلاً تفصيلاً شديداً ، وكرس لها كل اهتمامه . ولدينا عدد من الرسائل المرسلة من قبل موظف كبير في الجبهة ، والتي هي في الحقيقة تقارير عن توايا ونشاط الخصم . وتضم هذه التقارير كل المعلومات المفيدة ، وهكذا وجواباً على استفسار العاهل الاشوري عما كان يفعله الملك الارمني ، قالت احدى الرسائل « ان وصوله (اي الملك الارمني) قد أعلن أثناء احتفال ديني » ولا كان سرجون قد أصدر أوامره القاضية بوجوب عدم اشتراك اي من انصاره في تلك الاحتفالات فان كاتب الرسالة يطمئن الملك قائلًا بأنه سيرضى في تأدية واجبه كما فعل في الماضي .

لقد حدثت سلسلة من الغارات على الحدود وكان نصيبها من النجاح والفشل متباوتاً . ولكن الشغل الشاغل للملك كان دائمًا ان يتعرف على ما

حدث لأشخاص معينين كانوا يعتبرون من العناصر الخطرة والذين لم تعرفه
اماكن وجودهم .

كانت المعلومات تجمع بطريقة بسيطة ، هي طريقة ارسال الجواسيس.
الذين يقومون بارسال التقارير التي كانت تذكر ان القوات الارمنية تمر
متجمعة على وجه الدقة في اماكن مقابلة لاماكن تمركز القوات الاشورية .
ويضيف هؤلاء قائلين ان الجيوش الاشورية متذمرة ، وان البلاد ورة ولا
يمكن عبورها الا بواسطة الاطواف والاراماث . والحقيقة ، وكما سنرى.
من الوصف الرسمى للحملة ، فان من المحتمل ان تكون هذه الصعوبات
ظاهرة اكثرا منها حقيقة ، وان من الجائز وجود مبالغة متعمدة في الوصف
لفرض التقليل من مسؤولية مقدمي المعلومات في حالة فشل الحملة . وقد
امكن التغلب علينا على كل هذه المشاكل دون صعوبة ، كما ان تذمر
الجيوش تحول الى حماسة خالصة .

يضم متحف اللوفر في باريس وصف العملة الذي عثر عليه في مدينة اشور وقد ترجم ودرس دراسة نقدية من قبل (تورو داجان) . وخلافاً
لغيره من السجلات الملكية ، لم يكن ذلك الوصف وصفاً تاريخياً ، بل كان ،
ويصفه غير اعتيادية جداً ، يمثل رسالة ارسلها الملك من مقره في كالخ ، الى
الإله - اشور - في مدينه - اشور - وقد تضمنت تلك الرسالة
وصفاً للشخص النص غير المألوف جداً سوقه تشير الى التقاط المصمة فيه .
يُستعمل الملك صيحة المتكلم المفرد ، وهو عبارة رسالته مباشرةً وبكل
وقار ، الى الله اشور ، أبي الله - رب العبار الذي يسكن في المبد
المعروف باسم - جبل البلدان العظيم - وهو بعده كل ذلك لا يرسل تحياته
الى الله اشور . وجده حسب بل الى الآلهة الأخرى التي تخصن بالنصر .

والي الآلهات اللواتي لهن هياكل في المعبد ، ويطلب الملك بأن تبلغ تحياته إلى المدينة ؛ واهلها والى بلاده ، ويتنمى السلام التام لنفسه ، وهو الملك سرجون خادم الآلهة العظماء ، كما يتمنى السلام لجيشه . لقد تم تنفيذ العملية ، لكنه يربط ذلك بالحماية الآلهية التي مكنته من تحقيق هذا الامر في شهر - دوزو - وهو الشهر المكرس لـ - نينورتا - الابن الجبار الاكبر لـ - اليليل - انه الشهر الذي جعله الله الحكمة - كما يضيف سرجون ذلك قائلاً ، « موعداً اجمع فيه جيشي واغنه للقتال ، ولقد انطلقت من كالخ - مدینتي الملكية » .

ثم يمضي في وصف الصعاب التي واجهها اضمان عبور الانهار التي كانت في حالة فيضان شديد ، وكيف ان جيوشه عبرت تلك الانهار كما عبرت الزابين الكبير والصغير (الاعلى والاسفل) دون ان يعتري الجنود اي خوف ، بل ان تلك الانهار بدت لهم وكأنها اقية ضيقة . ثم دخل منطقة الجبال وكانت شعارات الآلهة تحمل امامه ؛ ويمضي فيقول : « بالرغم من ان تلك الجبال كانت عالية ومنقطة بنوع كثيف من الاشجار ، وبالرغم من وجود الوديان المرعبة بظلامها الذي يشبه ظلام غابة الأرض حيث لم ير اي ضوء هناك ، فقد تقدمت » .

استدعي جنود الهندسة لتشييد الطريق وبسبب من وجود الملك على رأسهم ، انطلق الفرسان والمشاة وكذلك العربات الحربية فوق الجبال كالنسور ، وجاء بعدهم بناء المعسكر ، وجنود الاعشاءات ، وفي الاخير جاءت الجمال والبغال حاملة الامتعة والتي كانت تقطع السفوح كالماعز المولودة على الجبال ، وبعد عملية الصعود هذه استمتع الجيش براحة استحقها وعسكر على قمة الجبل .

بعد العبور الناجح للعديد من المياه القائمة الجارفة والواسعة ، وكثير

من المرات الجليلة العالية ، وصلت الحملة ارض العدو ، أدرك ملك (المنثين) (*) الخطر ، فوقف امام سرجون متضرعاً ومعه النبلاء وكبار قومه ومستشاريه وعائلته وعرض تقديم جزية من الماشية وخسول العربات مع سائقيها ؛ وفي وصف اشوري ينمى يستمر الكلام ليذكر ان هذا الملك قبل اقدام الفاتح . وأصاب نفس الذعر احد صغار الامراء المحليين ، فراح يتصرف وكأنه حاكم لمدينة آشورية ، فمضى يمد الجيش بالخمر والطحين ، ثم شرع يتلمس من سرجون ان يعيد الحدود السابقة بلاده والتي كادت ان تسقط باليدي جاره القوي .

اعلن سرجون ، بفضل القوة السامية التي منحه ايها كل من آشور ومردوخ ، قبوله لهذا الطلب ، واثبترك الآشوريون والمنثيون في وليمة اقيمت لهذا الغرض ، في حين ارسل مختلف الامراء الجزية الى سرجون ، الذي نصب عليهم حاكماً آشوريا .

ورأى احد امراء (المنثين) المنشقين تقدم الاشوريين من المجال المجاورة ، فلاذ بالفرار مع اصحابه ، ولم يظهر بعد ذلك . ومن الواضح انه اثر ان ينجو بجلده ، على العيش في بلاده ، والتمنع بثرواته فترك جيشه يذبح عن بكرة ايه .

وتعذر الوثيقة ، وبلا استنكار ، سجاييا سرجون لتمرر الطلبات التي يقدمها الى الاله ولكي تذكره بأنه جدير بالحماية . فهي تقول بأنه حريص على اطاعة قوانين (شمس) ، وانه يصغي باجلال الى كلمات الالهة الكبار ، ولا يتتجاوز وصايتها ، وانه مستقيم ورؤوف ويتکره الباطل ولا ينطق بسوء او بكلمة جازحة ؟ ثم تختتم العبارة بما يلي :

«ولما لم اكن لاقيت روساس - الأرماني في معركة متوافرة لحدث

(*) أي ملك بت منثى أو مناي وهي منطقة تقع الى الغرب والجنوب من بعيرة اورميا .

الآن ، فقد رفعت يدي الى السماء ضارعا اليها اذ تمكنتني من الحاق الهزيمة
بـه لكي اجعله يتحمل تنتائج كلماته الممينة ولكي اسحقه تحت وطأة
آثامه » .

وحدثت المعجزة اذ سمع الآله اشور « هذا الدعاء فتجددت رجولـة
الجيـوش الآشـورية التي أنهـكتـها العمـليـات والـيـأس النـاتـج من عدم الثـقة
يـخطـوطـ التـموـين . هـكـذا كـانـتـ ثـقـة سـرـجـونـ بـنـفـسـه . فهو قـلـماـ كانـ يـنـظـر
إـلـى صـفـوفـ الـعـدـوـ المـتـراـصـةـ اـمـاـهـ . وـلـقـدـ رـمـىـ بـنـفـسـهـ عـلـيـهاـ كـالـسـهـمـ المـارـقـ
مـنـ القـوسـ مـلـحـقاـ بـهـ هـزـيـمةـ شـنـاعـاءـ ، وـحـصـلـ عـلـىـ الـكـثـيرـ مـنـ الغـائـمـ ،
بـوـأـسـرـ — مـاـئـتـيـنـ وـسـتـيـنـ — مـنـ اـقـارـبـ — روـسـاسـ — مـلـكـ — أـورـارـتوـ —
الـذـيـ قـفـزـ فـوـقـ فـرـسـ قـرـيبـ مـنـهـ وـانـفـلـقـ هـارـبـاـ بـجـيـشـهـ ، وـقـدـ فعلـ ذـلـكـ بـعـدـ
أـنـ فـقـدـ خـيـلـهـ وـتـخـلـيـ عنـ عـرـبـتـهـ الـحـرـيـةـ طـالـبـاـ السـلـامـةـ .

وـسـقطـتـ الـمـعـاـقـلـ وـاحـداـ اـثـرـ وـاحـدـ ، وـلـفـ الـلـهـيـبـ الـمـدـنـ بـعـدـ أـنـ اـحرـقـ
الـاـشـوريـونـ الـمـحـاصـيلـ ، وـنـهـبـواـ مـخـازـنـ الـفـلـلـ وـكـانـهـ جـرـادـ مـنـتـشـرـ . ثـمـ
يـمـضـيـ سـرـجـونـ لـيـقـولـ : « لـقـدـ قـدـتـ حـيـوانـاتـ مـعـسـكـريـ نـحـنـوـ اـنـرـيفـ
الـقـرـيبـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ فـدـرـتـ هـذـهـ حـيـوانـاتـ الـمـحـاصـيلـ الـتـيـ كـانـ هـنـاكـ كـمـاـ
دـمـرـتـ السـهـولـ » . وـبـعـدـ اـنـ اـكـسـحـتـ الـاـرـضـ اـكـتسـاحـاـ مـنـاسـبـاـ شـرـعـ
سـرـجـونـ فـيـ مـسـيـرـ الـمـوـدـةـ إـلـىـ آـشـورـ دـوـنـ اـنـ يـجـدـ حـاجـةـ إـلـىـ مـحـارـبـةـ اـحـدـ
يـلـ وـدـوـنـ اـنـ يـجـدـ أـيـةـ مـقاـوـمـةـ .

ثارـ الـمـلـكـ — أـورـازـاـ — مـلـكـ مـصـاصـيرـ(*) ، عـلـىـ سـرـجـونـ . وـقـدـ وـصـفتـ
حـيـاةـ هـذـهـ الـمـلـكـ بـكـوـنـهـ حـافـلـةـ بـالـاـثـمـ وـالـظـلـمـ وـقـدـ تـقـضـيـ هـذـهـ الـمـلـكـ الـيـمـينـ
الـذـيـ اـدـاهـ بـحـضـورـ الـاـلـهـ اـشـورـ وـشـمـسـ وـنـبـوـ وـمـرـدـوـخـ . كـمـاـ اـنـهـ لـمـ يـرـسلـ

(*) مـصـاصـيرـ : Musasir كانت مـحـصـورـةـ بـيـنـ غـربـيـ بـعـرـقـ وـشـرـقـ

(قـرـوـينـ) وـجـنـوـبـيـ يـحـيـةـ (وـانـ) .

اية هدايا ولم يأت ليقبل اقدام سرجون ، بل انه لم يرسل تحياته مع اي رسول . وهكذا فان مثل هذا التصرف قد استحق العقاب السريع الملائم .
كان الطريق الشرقي الذي سلكه سرجون في بداية الحملة ، يدور حول بحيرتي — أورميا و — وان — وقد تضاعف طول طريق العودة بسبب تعقب سرجون في مسيرته نهر دجلة . هنا اتخذ سرجون ما كان ييدو قرارا مفاجئا ، أو أنه عانى الكثير لاختيائه . فلقد ارسل العزء الاكبر من جيشه الى ارض الوطن ، ولم يبق معه الا المشاة ، والفا من الفرسان ، وراح يضرب شرقا وكأنه يريد الساحل الغربي من بحيرة أورميا . وكانت الخدعة موفقة تماما ، اذ لم يجد سكان — مقاصير — متسعـا من الوقت لاخفاء كنوزهم في مكان آمن .

نهب مصاصير

وجب عبور العجائب ، مرة ثانية ، خلال طريق غير قابل بطبيعته لأن تجتازه العربات الحربية . ولهذا أصبح من الضروريربط عربة الملك بعجال ، في حين اضطر الفرسان إلى أن يشقوا طريقهم خلال الخواتق بشكل صلب متفرد . سقطت مدينة مصاصير - مصاصير - فأمّر سرجون بترحيل السكان كما أمر بأن يضم إلى الفناء تمثال الآله - هالديا - وهو الآله الاسمي للمدينة . وبعد هروب الملك وقعت زوجته واطفاله وبقية العائلة في الأسر بالإضافة إلى (٦١٠) فردا من السكان . وغنم سرجون ، زيادة على ذلك ، إثنا عشر بغلة ، و (٣٨٠) حمارا ورأسا غير مصنف من الماشية ، وحل سرجون نفسه في القصر الملكي حيث فتح أبواب الخزينة واستولى على ما فيها من ذهب وفضة وبرونز ورصاص وعقيق ولازورد وعاج وخشاب نادرة ، وأوسمة ملكية وأسلحة خاصة بالاحتفالات . ولم ينج معبد - هالديا - من النهب هو الآخر ، ذلك لأن - سرجون - نهب كل كنوزه وكان من بينها ستة دروع ذهبية كانت معلقة حول الباب ، وكانت اواسط تلك الدروع منقوشة بأشكال دائريّة كبيرة بهيّة رؤوس كلاب ، ثم تمثال كبير لبقرة ترتكب عجلة ، بالإضافة إلى بعض الأواني المعدنية التي كانت موضوعة في المدخل المؤدي إلى الأبواب . غير ذلك من المواد الثمينة التي يصعب تعدادها بسبب قيام الع gioش هي الأخرى باعمال النهب .

يبدو هذا الفصل الخاص بوصف الحملة الثامنة أكثر امتاعا من المعتاد لأن النصب التي كشف عنها في خرباد قد أتت على ذكر هذه الحوادث الحقيقة وتظهر تلك النصب المعبد بسقفه المنحدر ، وهذا يذكرنا بإن الشهد حدث في العجائب ، كما تظهر الجنود وهم منهمكون في نقل الدروع ، في حين تقف الصخون الكبيرة والبقرة عند الباب . وفي جهة

أخرى يظهر الجنود وهم يحطمون تمثلاً بالمؤوس وينصرف الآخرون إلى
وزن الشظايا بميزان كبير ذي كفتين وقضيب . وعندما سمع الملك الهاوب
ـ روساس ـ بالنكبة حزن أشد الحزن ذلك لأن سرجون انزل بالمنطقة
الشقاء المهن .

يختتم سرجون رسالته إلى الآلهـ آشورـ بذكر عدد من الاشتباكاتـ
الصغيرة التي يوصـ فـ هـاـ الـ مـلـكـ وـهـ يـهـاـجـمـ الـ اـعـدـاءـ ،ـ وـكـاـنـهـ كـلـ غـضـوبـ.
ـ كـمـ تـأـتـيـ الرـسـالـةـ عـلـىـ ذـكـرـ قـائـمـةـ باـسـمـاءـ الـمـحـارـبـينـ الـذـيـنـ سـقـطـواـ فـيـ الـمـعرـكـةـ.
ـ وـالـذـيـنـ مـنـ اـجـلـهـ اـصـدـرـ اوـامـرـهـ إـلـىـ كـبـيرـ ضـبـاطـ القـصـرـ بـتـحـلـيـدـ ذـكـراـهـ فـيـ.
ـ حـضـرـةـ الـآـلـهـ .

ـ لـقـدـ كـتـبـ اللـوـحـ مـنـ قـبـلـ كـبـيرـ كـتـبـةـ الـمـلـكـ وـالـذـيـ كـانـ كـاتـبـاـ مـاهـراـ وـوزـيرـاـ
ـ مـنـ وزـراءـ سـرـجـونـ ،ـ بـالـاضـافـةـ إـلـىـ كـوـنـهـ اـبـنـاـ لـاحـدـ كـتـابـ الـمـلـكـ السـابـقـينـ .ـ
ـ وـعـنـ قـرـاءـةـ الـوـصـفـ باـكـمـلـهـ يـحـصـلـ الـقـارـئـ عـلـىـ اـنـطـبـاعـ يـتـمـثـلـ الـأـوـلـ.
ـ فـيـ الـأـسـهـابـ الـذـيـ يـسـتـعـملـهـ سـرـجـونـ فـيـ وـصـفـ اـنجـازـهـ ،ـ وـالـذـيـ لـاـ يـدـائـهـ
ـ إـلـاـ كـلـمـاتـ الـخـضـبـوـعـ الشـدـيدـ الـذـيـ يـيـدـيهـ عـنـ تـقـديـمـهـ الشـكـرـ إـلـىـ الـآـلـهـ.
ـ آـشـورـ .ـ وـيـدـعـيـ سـرـجـونـ إـنـ بـتـفـيـذـهـ الـمـهـامـ لـمـ يـكـنـ إـلـاـ مـعـيـنـاـ مـنـ قـبـلـ الـآـلـهـ.
ـ وـيـهـمـهـ إـنـ يـنـذـ إـلـيـهـ وـيـعـزـوـ كـلـ شـيـءـ .ـ اـمـاـ الـانـطـبـاعـ الثـانـيـ فـيـتـمـثـلـ فـيـ
ـ الطـرـيقـةـ الـواـضـحةـ جـداـ الـتـيـ تـنـجـحـهاـ قـوـائـمـ تـعـدـادـ الـفـنـائـمـ لـكـيـ ظـهـرـ مـدـىـ
ـ نـظـرـ الـأـشـورـيـنـ إـلـىـ الـحـربـ باـعـتـبارـهـاـتـ مـسـأـلـةـ اـعـمـالـ تـجـارـيـةـ .ـ لـقـدـ كـانـ
ـ النـهـبـ عـنـهـمـ اـحـدـ مـصـادـرـ الدـخـلـ الـمـنـظـورـةـ .ـ وـعـنـدـمـاـ تـكـوـنـ الـحـربـ مـصـدرـاـ
ـ لـلـلـاـيـرـادـاتـ فـاـنـهـاـ تـعـتـبـرـ مـنـ الـفـرـصـ النـادـرـةـ جـداـ .ـ

العرب ضد عيلام ونهب سوسة

هناك مثال آخر من نمط ثان عن الحملات التي تختلف عن الحملة السابقة الموجهة ضد - مصاصير - والتي كانت حملة تأديبية بصفة اساسية هي حملة - آشور بانيبال - عام ٦٤٠ ق.م على عيلام^(*) فكتها هو مؤلف فان احد عناصرها كانت الرغبة في الكسب على الرغم من كونه عنصرا قليلا في الانتقام . لقد جمع الملك المعلومات قبل نزوله الى الميدان ، وعندما اختتست الحملة اخذ يتلقى التقارير عن عمليات قادته المساعدين والذين كانوا يهاجمون الاطراف في الوقت الذي كان هو نفسه يتقدم نحو المدينة العاصمة . وقد حملت تلك التقارير انباء الاتصالات والغائم وفك اسر الاشوريين الذين كانوا اسري عند العيلاميين

لدينا رسالة عن احد اتباع اشور بانيبال والذي يدعى بأنه كتبها من بلاد البحر - المتاخمة لعيلام . وتضم هذه الرسالة معلومات عن وجود نبو - بعل - شوماني^(**) - عدو الاشوريين . وها نحن نقبس بعض القرارات منها :-

« لقد اعادني الملك ، سيدتي ، الى الحياة بواسطة العديد من آيات حسن النية التي كشفها لي وهل انا الا ذلك الكلب العقير ولست ابدا لأحد . ماذا يمكنني ان افعل للملك غير ان اتفزع لآلهة السماء والارض الظماء كل يوم لتحفظ حياته . لقد رفع الملك ، سيدتي ، من قدرني الى السماء » .

(*) هناك لوحة يصور نهب مدينة مصاصير من قبل سرجون الثاني سنة ٧١٤ ق.م .

(**) نبو - بعل - شوماني : ملك البحر ويقصد بها المنطقة الواقعة على الخليج العربي .

ويستمر الكاتب في حديثه ذاكرا للملك بأنه جعل - شعب بلاد البحر - يؤدي يمين الولاء للملك . ويختتم رسالته باعلام الملك بوجود التمردات داخل بلاد عيلام مما سهل الطريق امام تقدم الجيش الاشوري وبالطبع فان الفضل في تحضيرات الحملة البالغة السرية ، يعود الى الذهب الاشوري والى التمردات العديدة والخيانات الكثيرة التي سببت الانقسامات داخل البلد والتي اتت بها الفاتحون .

وعندما احتلت العاصمة اتخذ اشور بانيال من القصر الملكي مكانا لاقامته ، حيث اقام الاحتفالات بالنصر ، واستولى على كنوز ملوك عيلام الموروثة ، كما احتجز الاثاث الى حد سرقة النوم ، وافرغ الاصطبل مما فيه من خيل وبغال .

ولست بحاجة الى الاطالة في السرد الذي يقودنا الى ان تتذكر ما فعله سرجون بمصادر ولكن يجدر بنا ان ننظر فيما حل من خراب . تقول رسالة :-

« لقد دمرت زقورات معبد سوسة الذي كان مبنيا بالطابوق الترجمج ، كما احرقت قباه المستطيلة التي كانت من اليزونز اللماع . وثبتت الى بلاد اشور - شوشيناك - آله الكهنة في عيلام والذي كان يقسم وحبشه في مکان منزل ، ولا يستطيع احد من البشر ان يرى اعماله ؛ هذا بالإضافة الى الآلهة والالهات الصغار والثروات . لقد نقلت أثنتين وثلاثين تمثلا للملوك من ذهب وفضة وبرونز ورخام مع التماثيل الكبيرة التي كانت تحرس المعبد ، وكذلك الثيران التي كانت عند الباب . وقد دمرت معابد عيلام -

تميرا تاما ، وشرت آلهتها مع الرياح العابه من الجهات الأربع ؟ ودخل جنودي بساتينها المقدسة والتي لم يسمح لأحد بالمرور فيها ، كما لم يسبق أن دخلها غريب ، وهتك الجنود ستار تلك البساتين وأحرقوها ، أما آثار فقد نبشت قبور ملوكهم الغابرين واللاحقين لأنهم لم يحترموا آشور وعشتر ، تميرا وجعلتها خاوية خالية مفتوحة للشمس ، أما عظامهم فقد حملتها إلى بلاد آشور بعد أن تركت أشباحها دون راحة إلى الأبد ، وبذلك حرمتها مما يقدم لها من ماء وطعام » .

وخلال تدمير علام هذا أقيمت العائلة المالكة أسيرة مع عوائل البلاء وامر - آشور بانيال - بنشر الملح ، وزرع الأعشاب الضارة فوق آلهتي ، كما أنهم سخروا من أجدادي الملوك ، ولأجل ذلك دمرت تلك القبور خرائب المدينة . وسكتت إلى الأبد أصوات الشعب السعيد ، وصيحات الفرح ، ووقع حوافر الحيوانات التي كانت تنقل إليها الناس . وصار موقع المدينة موطنًا للحمر الوحشية والفزلان ووحوش الفلاة . وفي غضون ذلك استعاد آشور بانيال تمثال الآلهة - نانا - والذي كانت علام تحفظ به منذ (١٦٣٥) سنة وعلام ، في ظهر آشور بانيان مكان غير مناسب لهذه الآلهة التي كانت تتطلع إلى مجيء الملك الآشوري الذي اعلنت عنده قائلة بأنه هو الذي سيخرجها من - علام - اليائبة ليأخذها إلى معبد - إيه - نانا .

وعانى كبير آلهة - سوسة - الأمر بدوره ، وعلى الرغم من الاحترام الشديد الذي اظهره له الملك إلا أنه اذله حين أخذه بيده داعيا إياه إلى الرحيل ثم اودعه في مدينة الوركاء .

اعطي المكان الافضل للالهة المختلفة . اما الجنود فقد امتصهم الجيش
الاشوري ، ووزع بقية الاسرى كما توزع الاغنام على المعابد والموظفين
والنبلاء .

الي هنا يجوز لنا ان ترك الحديث عن الحملة على عيلام التي تعرضت
الي عنت لم يشهد التاريخ شيئا له الا في القليل النادر . لقد كان من المؤلف
ان يدنس المتصرفون معابد العدو ، ولكن ليس مألوفا ان يقوم هذا المتصرف
بنبش ونهب المقابر الملكية . ولقد ارتاح آشور بانيايال حين اعتقد بأنه قد
ازال عدوه الكريه من الوجود تماما .

السفن العربية

يتوفر لدينا العديد من صور السفن الحربية . وكانت المجاذيف تستعمل في تحريك القسم الأكبر من الزوارق بالرغم من امكانية استعمال الاشرعة . والشكل الغالب لهذه الزوارق هو الزورق مستدق الرأس ذو القاعدة قوية البناء . وكان من الممكن رؤيتها متعددة الى امام مع مستوى الماء تقريراً ليسهل استعمالها في مهاجمة سفن العدو اما العداؤون فانهم يظلون بعيدين عن الانفاس ومحصنين . وزيادة على ذلك وتحسباً لاستعمالات المستقبل ، كانت السفينة تزداد تحصيناً . بالذروع الدائمة التي يلبسها الجنود الذين تحملهم السفينة .

يتوفّر لدينا وصف جميل لحملة بحرية سَيَّرها - سخاريب - لضرب سكان الشواطئ من اهل عيلام ، الذين كانوا يظنون بأنهم في منأى من الهجوم . وبناءً على ذلك ولتوفير الوقت فإنه أمر رعایاه الفنیین بناء اسطول له على نهری دجلة والفرات في وقت واحد . وتجمعت الزوارق في النهرين وما كان هذان النهاران غير صالحین لللاحة نوع معین من الزوارق فقد سُحبَت الى البر ، ونقلت فوق العريبات المدولبة . ومن الواضح ان الزوارق كانت صغيرة الحجم على الرغم من الاعداد البشرية التي استخدمت في هذه العملية . وعلى ما يظهر فإن الحملة لاقت نجاحاً محدوداً على الرغم من اللغة الرنانة التي استخدمت في وصفها .

الفصل الثالث

الفكر في بلاد ما بين النهرين

مفاهيم عامة

يمكن اعتبار هذا الفصل بأنه صلب الكتاب . لقد تفحصنا حتى الان تصرفات وعادات سكان بلاد ما بين النهرين ، ولاحظنا اين تشابهت واين اختلفت ، عن تصرفات وعادات الشعوب الاخرى . وعليينا الان ان نحاول قراءة افكارهم وان نفهم وندرك ظررهم الى الكون ، والى مكانتهم فيه ، وذلك لكي نفهم ليس موقفهم من القوى التي اعتقادوا بانها تحكم فيهم حسب ، بل ولنفهم ايضا بعد نظرتهم الى انفسهم على اساس اعتمادهم على تلك القوى ؟ ثم نفهم ماذا كانوا يتوقعون منها .

ولقد كانت هذه بالتأكيد هي النقطة الرئيسية في بحثنا هنا جمیعه . ان الجواب على تساؤلنا هذا سيؤلف ، بالطبع ، قناعتنا عن طبيعة الاشوريين في ظل سلالة سرجون وعن البابليين من زمن نبوخذ نصر . فنحن لا نستطيع ان نقرأ الجواب في وثيقة منفردة ، ولكن الكتابات الكثيرة سوف توضح كثيرا جدا ، الجانب التفكري للانسان البابلي . وسنحاول اولا ان نرسم الخطوط العريضة للصورة ثم نكمل التفصيلات في بقية الفصل .

علينا اولا ان نتعرف على الفرق العميق بين اساليب الفكر البابلي والغربي . يتركز الفكر الغربي على اسس استقرائية واستنتاجية . ويلعب التعليل القياسي دورا ثانويا في هذا الفكر . ومن جهة أخرى فان التعليل البابلي يستند الى القياس وهذا ما يفسر لنا السبب الرئيسي للمارسة الواسعة النطاق للكهانة والسحر اللذين كانوا يعتبران فرعين من العلم ، كما

فسر لنا المظير الكهنوتي للطب الذي كان ، والى حد كبير ، تعبيرا آخر عن نفس الفكرة .

ويقد ما نظم كانت طريقتهم في التصنيف العلمي ، سواءً في ميدان علم النبات أو الكتابة المسماوية ، مشتقة من الاسلوب القياسي . وهذا يعني في الحقيقة وجود خطر اخذ القصور دون الباب .

يمكن هذا القول في جذور الایمان البابلي الاساسي بالتماثل في تركيب الأرض والسماء ، وفي اعتماد احداهما على الآخر . فمن الطبيعي ان تقول ان هذا قد ادى الى الاعتقاد بأن اي تصرف في احد الوسطين يتبع بالضرورة قطيره في الوسط الآخر . لقد كانت السماء والارض متحدين اتحادا لا اقسام له . ولكن اذا كانت الالتزامات المتفقنة من قبل الاولى قد رفضت كليا او جزئيا من قبل الثانية فلن يكون باستطاعة السماء ان تهمل أو تزيل — النظير — التولد على الارض . ولستنا ببالغ هنا حين تعمد استعمال عبارة « الالتزامات » . ذلك لأن اية مدرسة دينية لم تفشل في اثبات حقيقة ان غرض الالهة من خلق الانسان هو لكي يبني المعابد ، وليمارس عبادتها فيها . وهذا هو الذي نريد ان نقوله عن خضوع الانسان الشديد لالهته ، كما يجدر بنا ان نقول بان المواطن البابلي لم يكن يتوقع الكارثة النهاية . ان العالم يجب ان يستمر ما دامت الالهة لا تستطيع ان تستغنى عن الكائنات البشرية .

لقد اعتند البابليون ان العصر الاقدم جاء بعد خلق العالم . وقد وصف هذا العصر في ملحمة كلکامش . وكان مقام الالهة اثناء هذا العصر في السماء كما سكنت ايضا في معبدتها على الارض . وكان بطانة الالهة من الكهنة ما يقابلها في بطانة القصر الملكي . وحين عاودت الالهة الصعود الى السماء ثانية ظلت الصلة تعتبر حقة الوصول التي توحد كلا العالمين في حين

كانت الكهانة ، أو لغة العلامات ، يوحى بها إلى البشر كوسيلة للاتصال
يعرفون بواسطتها مشيئة الآلهة التي أصبح ظهورها على الأرض نادراً .
ولكنني يسهل على الإنسان معرفة تصييه ، او وحى السماء بطرق أخرى تساعد
على ذلك . وهذه الطريقة هي — السحر — اما البرهان النهائي على ان
الكهانة والسحر كانوا عنصرين مقبولين في الديانة الرسمية ، فيمكن أن نراه في
الحقيقة القائلة بأن السابقة كانت تجري تحت رعاية شمس وادد ، وإن
اللاحق كان يجري تحت رعاية — ايها — ومردود وهذا قد تم قبولهما كآلية
عظام في مجمع الآلهة في بلاد الرافدين .

لقد افضت هذه الظروف إلى توازن دقيق لا شيك فيه بين الأرض
والسماء . فكان عند البابليين نوع من التصور ، على الرغم من كونه غير
دقيق ، عن تقسيم الكائنات إلى معالكتها الطبيعية المختلفة . فقد وزعوا
في شكل حصن كل كائن حي أو غير حي ، وكذلك كل شيء مصنوع ،
فوضعوه في مجال عمل الله الخاص به ثم أقر نظام دقيق من العلاقات بين
السماء والأرض . واعتمد الدين في طوره البدائي جداً على تضاعف عدد
هذه العلاقات بسبب الاعتقاد القائل ان الإنسان يستطيع ان يتوقع ما يشاء
عن طريق ادائه لعمل معين ، لأن هذا العمل سيتسبب في وجود ظاهرة في
السماء . مثل ذلك الماء المقدس الذي كان يستنقى به المطر أو حدوث
الفيضان أو الزواج بين الآلهة والممثل في الرواج بين الكهان و هو تكرار
للعملية بين الآلهة مما يتبع عنه ولادة الأطفال .

وزيادة على ذلك فإن آية مدرسة دينية بابلية لم تعرف بأمكانية
محاكسة خلق العالم لما تصييه (مبدأ الاسم) .

مبدأ الاسم

يمكن تلخيص هذا المبدأ بالقاعدة الأساسية التي تقول بأنه لا يمكن ان يوجد شيء دون ان يكون له اسم . تبدأ ملحمة الخلق بالتأكيد على انه في البداية لم يكن توجد سوى الميولى ولم يكن هناك شيء له اسم .

﴿عندما كانت السموات من فوقنا بلا اسماء
ولم يكن تحتها من مسكن يليبع بالاسم
ولم يكن لاي شيء اسم ما﴾ .

وما دام لم يكن ثمة شيء له اسم فانه لم يكن موجودا . واما لا شك فيه ان هذا هو السبب الذي يفسر لنا ما نقرأه في سفر التكوين من التوراة (الاصحاح الثاني) من ان الله تعالى استدعى الحيوانات بعد خلقها اماماً آدم لكي يعطيها اسماءها وبذلك يضفي عليها وجودها الفردي .

فالعبارة الاكيدية التي تقول (كل شيء يحمل اسم) تشير الى الشمول العام ، كما انها تعبر عن هذا الایمان بعد ذاته . واذا ما اعتبرنا هذه العبارة نوعا من الاسلوب الفكري فانها تمثل تمثيلا شديدا مع نظرية - شوبنهاور - (*) القائلة انه لا يمكن ان توجد العلة دون المعلول . ويصور شوبنهاور نظريته هذه بافتراضه وجود بحيرة اكبر من اية بحيرة عرفت حتى الان وذلك في قارة لم يرتادها احد . ثم يمضي ليقول انه لما لم يكن احد تغلل الى داخل هذه القارة فان البحيرة تعتبر غير موجودة من وجهة النظر الفلسفية .

وشارك المصريون البابليين في قدرتهم اذ اعتقدوا ان اسم اي شيء

(*) شوبنهاور (١٧٨٨- ١٨٦٠) فيلسوف الماني صاحب مذهب التشاؤم .

يشاركه في طبيعته الاساسية . واما في كتاب - الموتى - فان العبارتين التاليتين لم تستعمل جزافا وبلا مبالغة . فهاتان العبارتان تقولان : « لم أمت ولم يمت اسمي » .

ونجد ان افلاطون يرکن الى نفس الخط من التعليل ويرى في المعلولات انعكاسا لاسمها الصحيح . والواضح انه اصبح من المبادئ المسلم بها ان الاسماء هي من تنتائج الاشياء و يمكننا تلخيص التكوين كما يلي :-

ان اسم الشخص او الشيء تمثيل حقيقي له . وهكذا فان الاسم يصبح المعلول نفسه ، ولكن بصورة اقل حقيقة واكثر قابلية على التكيف وهذا موضع شك كثير امام المعالجة الفكرية . واختصارا فان هذا الاسم سيشكل البديل العقلي .

وبناءً على ذلك فان الاسم الذي تناقض موضعه والذي تعتبره صورة المعلول ، يبدو انه هو العنصر الجوهرى لهذا المعلول ، وله نفس العلاقة الطبيعية معه والتي تشبه ظل الجسم أو انعكاسه .

ما يزال المجتمع الحديث يشارك في هذه النظرية عند ممارسة السلطة العامة ، ذلك لأن الشخص الذي لا اسم له انا هو « فرد لا يكتسب وجوده الشرعي الا بعد ان يتسلح بالبطاقة الشخصية » ، وهذا يبين لنا ان النتيجة الرئيسة لاي اسم هي ان حامل هذا الاسم يصبح معروفا ، وهنا يفسدو عرضة للتجريح أو النقد » .

الصوت ، الاسماء الشخصية

ثبت التجربة انك اذا صحت مناديا باسم معين مثل — جون — او — بطرس — ووسط جم من الناس ، فسيدفع صياحك هذا الكثير من حملة هذا الاسم الى ان يلتقطوا يمنة ويسرى ، ليروا من المنادي . وهكذا فان الاسم هو اداة تستطيع ان تستثير القدرة الدائمة تقريبا والتي تمنحها معرفة الاسم . ولكن هذه القدرة محدودة عمليا بسبب استحالة التكرار الدائم . واذا ما دون الاسم ، اكتسبت معرفة المعلول صفة الثبات . وكذلك القول بالنسبة للتأثير الذي تستطيع ان تحدثه تلك المعرفة . ان الصوت يستدعي الى حيز العمل القدرة المكتسبة بواسطة المعرفة ، في حين نجد ان تدوين الاسم يظهر خصائصه ويرزه بصورة غير محدودة اي انه في الحقيقة وسيلة لقدرة دائمة .

وما دمنا نقبل القول أن اسم الشخص أو الشيء يتضمن الصفات التي يعبر عنها ، فإنه من الطبيعي ان تنسب الصفة الجيدة الى اي شيء يكتسب اسمـاـ . وهذا ما دعاـءـ العراقيـونـ الـقـدـماءـ «ـبـالـاسـمـ الـحـسـنـ»ـ ،ـ وـكـانـ فـيـ الـاـصـلـ مـساـوـيـاـ لـالمـصـيرـ الـحـسـنـ الـذـيـ يـلـقـاهـ صـاحـبـهـ ،ـ وـالـذـيـ اـضـفـىـ عـلـيـهـ اسمـهـ فـوـذـاـ حـسـنـاـ مـدىـ حـيـاتـهـ .ـ وـتـنـطـبـقـ فـنـسـ الـعـلـمـيـةـ ،ـ وـبـدـرـجـةـ مـتـسـاوـيـةـ ،ـ عـلـىـ الـفـلاحـ أـوـ الـامـيرـ الـذـيـ يـعـطـيـ اـسـمـاـ لـاطـقـالـهـ .ـ

لقد استعد الملوك العراقيـونـ الـقـدـماءـ للـادـعـاءـ باـنـهـمـ اـبـنـاءـ الـاـلهـاتـ .ـ وـكـانـواـ يـشـدـدـونـ عـلـىـ اـهـمـيـةـ الـاسـمـ الـحـسـنـ الـذـيـ تـلـقـوهـ مـنـ اـمـهـاتـهـ .ـ وـكـانـتـ الـاـلـهـةـ تـبـاـدـلـ كـلـمـاتـ مـدـيـحـ هـؤـلـاءـ الـمـلـوـكـ .ـ لـقـدـ تـحدـثـ الـاـلـهـ — تـكـيـرـسـوـ — فـيـ مـعـبدـ — الـوـرـكـاءـ — مـعـ الـاـلـهـ — بـاـبـاـ — حـوـلـ مـوـضـعـ — اـوـرـوـكـاجـيناـ — وـتـمـثـلـ كـلـ هـذـهـ الـعـبـارـةـ الطـوـيـلـةـ فـيـ اـسـمـ عـلـمـ مـفـيدـ اـعـطـاءـ — اـوـرـوـكـاجـيناـ —

إلى حجر مقدس ونقشه عليه . ويشبه هذا الحجر الزيتونة وهو موجود في المعبد . وكل من يردد هذا الاسم سبزه من قدرة هذا العمل وبذلك يتضمن واهب الاسم بهذا الترديد . وكان أوروكاجينا — هو الذي اصلاح مدينة لكتش .

وهذا هو السبب الذي دفع — گوديا — حاكم مدينة لكتش — إلى ان يسمى أحد الاعمدة المنقوشة المقاومة في المعبد الذي بني له — تينكيرسو — باسم ملك الاعصار .

أما الشوارع فانها هي الاخرى كانت تحمل أسماء ، هدف من وراءها انى كسب النفوذ الحسن للمدينة . وكان من بين تلك الاسماء اسماء مثل :— (لا وطاته اقدام العدو) ، وهذا هو اسم طريق الموكب في بابل . ثم اسماء القنوات مثل (حمورابي مصدر الخير للانسان) واسماء الابواب والاسوار مثل (بعل بناء ، بعل ينعم عليه) واتنقلت هذه الممارسة الى الشعب ، اذ اتخاذ أفراده أسماء تدل على البركة أو الرغبة أو الانعام الالهي وما شاكله . ويفظح هذا واضحًا في اسماء ملوك الاشوريين أو البابليين . فمثلاً يعني اسم سرجون (الملك الشرعي الراسخ) ويعني اسم سنحاريب (الاله سن يزيد عدد الاخوان) واسرحدون (اعطي اشور اخا) وآشور بانيال (اشور خالق الابن) . ويعني اسم نبوخذ نصر (يا نبو : احم الذريعة) . ونجد ان بعض الاسماء ما يعادلها في الاسماء الحديثة ، مثل — عشتار — ابني و (إلو — يأتي) يكادان يشبهان في المعنى الاسمين :— (تيودور) و (تيودوسيوس) .

طريقة النطق بالتعاويذ

حين نريد ان نستدعي شخصا ما لا نكتفي بلفظ اسمه حسب ، بل نستعمل نغمة خاصة تضمن لنا الطاعة ٠ والحقيقة ان الصوت يجدي في بعض الظروف ٠ ولقد ادرك المصريون هذه الحقيقة فكانوا يقولون انه يجب ، من اجل لفظ الصيغة المقدسة عندهم ؛ ان نستعمل صوتا حقيقيا لا يشبه الصوت الذي يستعمله المفني ، بل الصوت المستعمل وقت الصلاة أو الدعاء ٠ وهذا هو ما يريد سكان بين النهرين ان يعبروا عنه باشارتهم الى الطريقة الصديعية للنطق بالتعاويذ والحقيقة انهم ما كانوا يستعملون الفعل (قل) بل الفعل (لبوش) والذي يعني (انطق او اهس) ، ويمكن ان يعني (غن او ددم) اما في الصلاة فقد استعملت طريقة كلام تختلف عن غيرها وهذه صورة واضحة في جميع الاديان تقريبا ٠ وتضفي الشعائر البابلية اهمية خاصة على هذه الطريقة عند قراءة الرقى والتعاويذ ٠ فمثلا يستعمل الهمس عند قراءة التعويذة التالية : « ليريحك الحكماء ، اهل التعاويذ » ٠

القدرة على الكتابة والرسم والنعت والفناء والرقص

استعملت الكتابة ، كما اسلفنا القول ، لتثبت ما تمثله الاصوات المختلفة من قوة وقدرة ، والتي تنطق باسم معين ٠ وقد صورت هذه الوسيلة المراحل البدائية للأضفاء الجيأة على التماثيل التي توضع في المعابد ٠ ويوجد تمثال — گوديا — في متحف — اللوفر — بباريس كما تنتشر تماثيل مختلفة الصفات في الكثير من متاحف العالم ٠ اما الغرض الذي يؤديه تمثال گوديا في المعبد فهو لكي ينوب عنه امام الآلهة بصورة ابدية ٠ ويوضع هذا التمثال في المعبد ليحل محل — گوديا — في الصلاة بين يدي الآله في كل الاوقات ٠ وكلمات الصلاة أو الدعاء منقوشة بحروف بارزة في مقدمة رداء التمثال ٠

لقد كانت قدرة الكلمة المكتوبة عظيمة جداً . وكذلك كانت معرفة الآلهة الشاملة . ولذلك فلم يكن ثمة داعي لكتابة الصلوات في المكان الذي يمكن أن يراه الناس افراداً أو جماعات .

توجد في خربشاد مجموعة من المحوتات النائمة تحمل كتابات على ظهرها وكانت هذه المحوتات تدفن في الحائط دائمًا ، وعندما قام الملك بوعدشتارت — ملك صيدا بتقوية أساسات معبد — اشمون — باقامة جدار ساند نقش اسمه على كل قطعة من الحجارة . وقد ارتأى ان تكون الكتابة في الوجه المخفي وبذلك لا ترى بالعين . وكانت العروض المحفورة ما تزال محتفظة بحداثتها البدائية عندما ازيل الحائط بعد عشرين قرناً من بنائه الاصلي ، فإذا كان الدافع الرئيس لاخفاء الكتابة المنقوشة هو الخوف عليها من عبث الاشرار فانها كانت تخفي احياناً عن قصد لجعل المارة يتشوّدون لقراءتها وسبّح هذه النقطة في الصفحات القادمة عندما تعالج موضوع الخطوط السرية للكتابة المنقوشة على الالواح الحجرية المصرية

والتي فك اسرارها درايتون E. Dryton

أهمية أخفاء الاسم الحقيقي

ما دامت معرفة اسم الشخص تضفي قوة على حامل الاسم فمن الطبيعي ان يحترس حامل الاسم من جعل اسمه معروفا . فمثلا نجد ان المصريين يسمون الطفل باسم معين ثم ينادونه باسم اخر طوال حياته . وقد عثر على لوح يعود لاحد كبار الكهنة وزوجته من عهد البطالسة . وقد ذكر في هذا اللوح ان طفلهما سمي - امحوتب - ولكن كان ينادي باسم - بيتو باسته - .

قد يلدو ان هذا الخوف لا مبرر له . ولكن المصريين يأتون بالبراهين القاطعة بحقيقة هذا الخوف . فهم يقولون انه عندما شاخ الاله - رع - وضعف تعلمـت - ايزيس - التي كانت ساحرة كيف تزج لعب بعض الالهة بالتراب . لتصنـع منها - افعوانا - تضعـه في الطريق الذي يجب ان يمشي فيه - رع - . وقد لدغ ذلك الافعوان الالـيـه - رع - في عقبـه ، وفي سورة غضـبـه استدعـى اليـه - ايزيس - التي ادعتـ بـانـها لا تستـطـع ان تعالـجـه ما لم تـعـرـفـ اسمـهـ الحقيقي . وبفضلـ هذهـ المـعـرـفـةـ ارـتفـعـتـ - ايزيس - الى مصـافـ الـالـهـ .

لم يكن حملـ اـسـمـ ثـانـ في ظـرـوفـ مـعـيـنـةـ تـاجـماـ عنـ الرـغـبةـ فيـ التـخـفيـ وقد جـرـتـ العـادـةـ فيـ العـصـرـ السـلـوـقـيـ عـلـىـ اـقـبـاسـ الـاسـمـ اليـونـانـيـ ، وـتـظـاهـرـ بـعـضـ الـاـشـخـاصـ بـحـلـ الـاسـمـ المـأـوـنـةـ وـغـالـبـاـ ماـ كـانـ بـعـضـ الـاـشـخـاصـ يـذـعـيـ بـانـ هـذـهـ الـاسـمـ هـبـةـ مـنـ الـمـلـكـ ، وـبـالـطـبـعـ فـانـ الـهـدـفـ هـوـ خـلـقـ شـخـصـيـةـ جـدـيـدةـ مـفـخـمـةـ .

وبـالـرـغـمـ مـنـ الـاـسـتـذـارـ الـذـيـ يـظـهـرـ الـادـبـ الـاشـورـيـ - الـبـابـيـ مـنـ اـفـشـاءـ ايـ سـرـ مـنـ اـسـرـارـهـ ، الاـ انـ بـعـضـ الـتـدـوـيـنـاتـ كـانـتـ ضـرـورـيـةـ ، وـقـدـ

بذل جهود كثيرة لجعل هذه التدوينات غامضة بقدر المستطاع . لقد كان الخوف شديدا من الاشقاء غير المتمد للاسرار ، حتى ولو كانت التدوينات معدة لاستعمال الكهان وحدهم . وغالبا ما كانت تلك التدوينات تختم بهذه الصيغ المقدسة :-

قد يرى حديث النعمة هذه الشعائر التي تؤديها ولن يراها الغريب الذي لا يخالط بسادة الكهانة ؛ فإذا ما تجاوز احد هذه القاعدة فلتقر ايات هذه الارض . على المبتدئ ان يوضح هذه الشعائر للمبتدئين . واما من كان غير مبتدئ فعليه ان لا يعرفها فان ذلك مكره عند الالهة - آنو - و - انليل - و - أيا - .

سلطان الاعداد

يعتبر سلطان الاعداد نتيجة طبيعية لسلطان الاسم . وكانت الاعداد تعتبر وسيلة من وسائل التعبير فتضفي صفاتها الخاصة بها على الشيء الذي ترتبط به . وبسبب من خاصية الاعداد الملازمة لها ، والتي تؤلف مجموعة متنوعة غير منتهية ، وبسبب من امكانية الوصول الى نتيجة عددية واحدة بطرق حسابية مختلفة ، نقول بسبب ذلك كله كادت الاعداد ان تكتسب الصفة المقدسة التي ادت الى اعتبارها احد انواع اللغة القادره على التعبير عن كل فكرة .

يتجلی احد مظاهر سلطان الاعداد في الترتيب العددي للسلطة البيئية للالله . فمن بين هذه الالهة يعتبر الاله - آنون - الرب الاعلى . او رب الارباب . وهذا بحد ذاته علامه من علامات القدم . وكان - آنون - يمتلك العدد الكامل - ٦٠ . - اما العدد الذي كان ينسب لكل الله فانه يلائم المكانة التي يحتلها في النظام العام الذي اعدته الآلهة والذي تتسمى هي اليه .

ادرک سکان بلاد بين النهرين ، بعد ذلك ، فكرة اعطاء القيمة العددية لكل علامة في لواحهم الترتبية التي تحمل هذه العلامات . وكان هدفهم من ذلك ان يكون كل اسم قابلا للتعبير عنه بالاعداد . وهكذا فانه ، اثناء بناء قصر خرسناد ، اوجد سرجون آصرة بينه وبين السور الذي يمكن بواسطته الدفاع عن القصر وذلك حين قال :-

لقد بنيت السور وجعلت محطيه ١٦٢٨٣ ذراعا وهو العدد الدال
على اسمي .

وكان هذا النظام شائعاً الاستعمال تقريباً . ووُجد نص يعطي شرحاً لتنظيم عشتار وهو يرجع في تاريخه إلى المهد السلوقي ويحمل هذا النص توشاً باصطلاحات عددية لاسم صاحب اللوح واسم والده . وهذه الاصطلاحات العددية هي : - (٢ - ٣٥ - ٥٣ - ٢٤ - ٤٤ أبن ١١ - ٢٠ - ٤٢) .

ولسوء الحظ عثر على هذا اللوح الذي يضم هذه الأعداد الألفاز تالفاً في مدينة سوسة . وقد قام بنشره ، رغم التلف الشديد ، الألب فان دير مير . وقد نبهني عليه ج دوسان . ووضعت مقابل الأعداد المقاطع الأبجدية المطابقة مثل : مي . با . الـ ل ٠٠٠ الخ .

تشير نهاية الوثيقة إلى مزيد من الأدلة على حب البابليين للجنسان اللغطي ذلك لأننا نجد الكلمة شاراً - مقابل العلامة العددية الخاصة بالعدد ٣٦٠٠ - والتي تحمل الاسم شار - والذي يعني الملك .

ونعود فنقول أن هناك لوح آخر يعرف باسم لوح إساغيلا . وقد ترجم هذا اللوح بعدة طرق ويعطي هذا اللوح ابعاد المعبد والزورات . وفي نهاية قائمة الأعداد تكرر التقوش الحظر المفروض على تفسير مدلولها لغير المجريين . فتحن مضطرون إلى أن نستنتج بأن الأبعاد المسجلة رمزية ليس إلا وتحمّل معنى غامضاً .

يعود الفضل في اختراع هذه الطريقة الفاضحة إلى العراقيين القدماء . وقد شاع استعمال هذه الطريقة بين الرومانيين واليونانيين الذين اسموها ايسوبسفيا وقد كان هؤلاء قادرين على إيصال هذه الطريقة إلى درجة الكمال بما كان عندهم من كتابة أبجدية استعملت بعض أحرفها كأعداد وساعدوا على إضفاء قيمة لكل حرف . ثم استعمل هؤلاء نفس عملية

التعليق هذه على الاعداد تماماً كما فعلوا مع الاسماء ، قادر كانوا بعدها فكراً جمع القيمة العددية للحروف التي تشكل الكلمة ، وقارنوا النتيجة مع قيمة الكلمات الأخرى وبهذه الطريقة اقاموا علاقات عدديه بل وحتى معادلات متطابقة بين الكلمات .. وبهذه الحاجة سبق الحكم على — فيرون — لكي يقتل امه . وسبب ذلك ان المعرفة التي تكون اسمه اضيفت الى الكلمة — قاتل امه — وقد اكثر من استعمال طريقة التعليق هذه وآمن بها عن قناعة الادريون (*) وآباء الكنيسة . وبناءً على ذلك ظهر الروح القدس عند تعميد المسيح بصورة حمامه وعددها هو — ٨٠١ — ٠

ولما كان حاصل جمع القيمة العددية للحروف اليونانيين (أوسانت) اي « التا » و « اوسيكا » هو ٨٠١ ايضاً ، فان الادعاء بالقول انا التا اوسيكا يجب اذ يكون تاكيداً للثالث او الثالث فقد تم التدليل على احسان الله ، طبقاً لما ذكره تيوفينيس كرميوس في موعيته ٤٤ ، بالتلازم عن طريق القيمة العددية لـ (ثيوس) ، الآله ، و (أكتافوس) اي الصالح ، في حين انه يذكر ايضاً في موعيته ٣٦ ، انه لما كانت الشياط تسبح كل الـ ١٥٣ نوعاً مختلفاً من السمك في كرفة معجزة للاسماك ، ولما كانت هذه الاسماك تمثل الكنيسة العالمية فان « ريسكا » يجب ان يرمز الى تلك الكنيسة ما دامت القيمة العددية لها هي ١٥٣ ايضاً .

لقد كانت الطريقة سائرة الى ان ثبتت في نقطتها النهاية من قبل الاجبار في القبلة والذين كانوا يعرفونها باسم (جماتريا Gematria) وهو على اكبر احتمال تحريف جيومتریا Geometria الى علم الهندسة .

(*) الادريون او المارقون جماعة من الفلسفه تتقول بان المادة شر وان غير يأتي من المعرفة الروحية للاشياء .

التورية المنطقة والمكتوبة

لتجنيس الحروف في بدء الكلمات المتابعة فضل كبير على تذوق مبدأ أو نظرية الاسم والاعداد التي وجدت في الماضي البعيد . ويطلق على هذا التجنيس اليوم اسم — التورية — سواء المكتوبة منها او المنطقية ، وبعبارة ادق ما يسمى بجمود الاسم والاعداد . وواجهنا الان تمييز حاد . فتحن قد تسر عبارة — التلاعب بالالفاظ — على اساس ما تمنيه من قضاء الوقت بالتسليمة دون الاهتمام بالاعمق من الدلالات . لقد نظر البابليون واسلافهم الروحيون اي السومريون الى الامر نظرة جادة تماما . فتحن تعتبرها حجارة حين يذكرنا شكلها او لونها بشيء اخر ، واقتها مجرد فلتة من فلتات الطبيعة ولكن البابلين كانوا يعتبرونها علامه وانذارا بوجود علاقة ايجابية بين المادتين وتشتد قوته هذه العلاقة اذا ما أصبحت لها اسماء مماثلة .

لقد استمرت في هذه الفترة قدرة الطبقات المثقفة على التلاعب بالكلمات المنطقية والمكتوبة .

الاحاجي

كانت نفس النظرة هي السبب في نشوء تذوق الاحجيات التي اعتاد مختلف الامراء ان يسألوا بعضهم بعضا عن معانها وذلك رغبة منهم لاثبات تفوقهم الذهني الذي كان في ذلك التاريخ يعادل في قيمته القوة البدنية المتفوقة . غير ان ذلك يحتمل ان يكون رفضا لدفع الغرامة التي كان ثمن الهزيمة يمثل في الغالب الدليل لخصومات مكتشوفة مباشرة تقريبا .
فحين نريد ان نبحث قضية الطوفان (التي سترد الاشارة اليها في هذا الفصل) سوف تهيا لنا فرصة لاقتباس الجواب الذي اعطاه اوتا ناشتم (*) عندما سئل عن السبب الذي جعله يهيء استعداداته للرحيل .

لقد اكد للناس في ذات الوقت بالوعد بان الدينما ستمطر عليهم الـ (كبتوا Kibtu) والـ (كوكو Kikkū) اي القمح والجرجر .
غير ان الجواب كان يحتوي على التورية والاحجية مما لان الكلمات تعنى «الحزن» و «سوء الطالع» وكانت القضية قضية اختيار المعانى .
الصحيحة .

فنحن نجد ثورا من سلالة اصيلة كان يعد تقاصحة في نظر صاحبه ويدعى « شرور — ابي » وهذا ما يقصد به « الآله شرور هو ابي » أو بصفة اقل ادعاء « مجد حقل القصب » (انظر ما سبق في الفصل الاول) .

وفي مصر في عهد سيادة المكسوس (***) وطبقا لاوراق البردي التي عرفت باسم مجموعة سالير الاولى ، بعث الملك ابيبي بالرسالة التالية

(*) اوتابنشتم ، هو الاسم السومري للنبي نوح الذي فعل ذكره في القرآن الكريم باعتباره المنقذ من الطوفان العظيم . وقد ورد اسمه في ملحمة كلكاماش .
(**+) المكسوس او الرعاة جماعة من الشعوب السامية خرجت من اطراف الجزيرة العربية الى مصر فاسقطت حكم الفراعنة واستولت على البلاد برمتها وانشاءت سلالة حاكمة خاصة بها مدة مدة قرون .

إلى « سكتيري » الذي تفصله عنه بلاد مصر كلها ، يقول له فيها « غادر مستقعد الجاموس الذي يقع على مقربة من طيبة لأن الضوضاء هناك تصل إلى « أفاريز » وتنعنيسي من النوم ! » ولم يكن سكتيري ليدرك الجواب الصحيح وادي الحادث إلى نشوب الحرب .

وطرح شمشون الأحiciaة التالية على ثلاثين من الشبان الفلسطينيين « خرج اللحم من الآكل وخرجت الحلاوة من القوي » . فإذا ما خسر فان الغرامة ستكون جلباباً وثوباً لكل واحد منهم وبتحريض من القتيلان ! فضى شمشون إلى زوجته بجواب الأحiciaة . فقد مر على اسد ميت استقر سرب من النحل إلى جانبها (وذلك امر غريب لأن النحل لا يخط على لحم متყفن) . وقد سارعت زوجته فافتقت بالسر إلى الشبان الذين أجابوا متسائلين « اي شيء هو احلى من العسل ، أو من هو اقوى من الاسد ؟ » .

وقد قال لهم شمشون : انكم اذا لم تحرثوا بعجلتي ، اي ابنة البقرة ، فلن تعثروا على جواب لاحيتي .

ومن ثم اخذته روح الرب فهبط إلى « اسقلون » (*) وهناك ذبح ثلاثين رجلاً واحد ملابسهم وبذلك وفر الملابس لأولئك الذين أجابوا على الأحiciaة .

وتتحدث التقاليد عن ان ملكة سبا التي سمعت بحكمة سليمان الشهيرة ، قد وفدت عليه من بلد بعيد ، لتجرب حكمته ولتسأله بعض الأحادي (**).

(*) هي مدينة عسقلان الشهيرة في فلسطين ، وقد ظهر منها عدد كبير من علماء المسلمين في التاريخ والفقه والادب .

(**) فصل القرآن الكريم قصة ملكة سبا هذه تفصيلاً دقيناً لا يدع مجالاً للشك والتلاعب فيها . فقد يمث سليمان إلى ملكة سبا يدعوها أن تخضع لسلطانه فلما ابته بعث إليها بطائر الهدهد فاحضرها في طرفه عين ومنها عرتها الذي كانت تتربى عليه في عاصمتها واذ ذاك آمنت بسليمان نبياً من انباء الله .

والتقاليد الاكدية والسوبرية مليئة بمثل هذا النوع من الاحاجي وهي مدينة بوجودها الى صفة متشابهة من اللغة المكتوبة والمنطقه . فقد كانت الكتابة السوبرية في اقدم صيغة لها ، والتي اختارها الساميون فيما بعد ، لغة تصويرية ورمزية ، اي ان العلامات كانت تمثل اما مادة حقيقية او فكرة ولسوف نبين في هذا الفصل كيف اصبحت تمثل المواد او الافكار المتعددة .

غير ان العلامة السوبرية كانت في طبيعتها الاصيلية نوعا من احجية ، وان الكتبة كانوا يتعمدون غالبا في ان يكتبوا بالصيغة التي تكلف براعة القارئ الكبير من العناء .

وهكذا وعلى سبيل المثال ففي الوقت الذي يمكن ان يكتب فيه اسم صحيح مثل مردوخ شوم اودين والذي يعني « منح الى مردوخ اسم » ، اي نسب ، بشكل متقطع فان الكلمتين معا « اسم » و « يعطي » قد تسم تمثيلهما بالعلامة « مو » وان الكاتب ربما فضل أن يكتب « مردوخ مو مو » .

وعلى غرار ذلك الاسم « سن - ايي - او سور » اي « ياسن احم الأخ » فانه يحتوي على عنصرين « احم » و « اخ » كلاهما قابلان لأن يكتب بالعلامة « باب Pap » ، ولذلك فقد يكتب الكاتب « سن - باب - باب » .

وقد تم اقتباس مثال من هذا النوع في القسم الذي يتناول قراءة الفائل في الفصل الرابع .

ففي الامثلة التالية نستطيع ان نرى الكتبة يستعملون هذين المظاهرتين

من اللغة المكتوبة والمنطقية ، وينهمكون في بحث غامض عن علم الاشتقاء ، وذلك لغرض ان يخفوا معنى كتاباتهم والتي لابد وان كانت على اية حالة غير مفهومة بالنسبة لغير المبتدئين ٠

ويصبح مثل هذا الامر اقل دهشة في ضوء ما كان يطبقه جيرانهم ، اي المصريون الذين كانوا يستعملون في بعض الاحيان نوعا من القانون الهيروغليفى في الوقت الذي تعتبر فيه الحروف الهيروغليفية وحدتها صياغة روافية ٠

لباس مردوخ

لقد اجرى السيد ج. دوسان بحثا حول هذا الموضوع الذي يكشف عن عيوب الطريقة التي استخدمها الكتبة وان كانت هذه الطريقة ما تزال في مرحلتها المبكرة ؛ وسندرس جهودنا لدراسة مثال من احدى الطريقيتين اللتين كاتتا ، على ما يليـو ، اكثـر الطرق شيوعا في الاستعمال (اظر النهرس) . يظهر المثال الاول الكاتب وهو يفكـر على ما يليـو ، تفكيرا اعتباطيا ثم يهتدـي الى استنتاج غير متوقع تماما حين يدرك صفة الامكانيات الكامنة في عباراته . وهـكذا نجد في — قصيدة الخلية — ان مجـمـع الالـهـ يقرر ان يفوض الى مردوخ السلطات العليا وتدفع الـرـيـة مردوخ الى ان يبحث من تأكـيد ملموس من الـالـهـ ومن ثم تـضـع الـالـهـ عـبـاءـةـ وـسـطـ مجلـسمـ وـتـقـولـ للـالـهـ مردوخ مـولـودـهاـ الاـولـ : تـأـمـرـكـ بالـهـدـمـ وـاعـادـةـ الـبـنـاءـ)^{٢٥} وسيحدث ذلك . قـلـ الكلـمةـ وـحدـهاـ وـسـتخـفـيـ العـبـاءـ وـقـلـ الكلـمةـ لـلـمـرـةـ الثانيةـ وـسـتـظـهـرـ العـبـاءـ منـ جـدـيدـ » .

ومـاـ انـ نـطقـ مرـدوـخـ بـالـكـلـمـةـ حـتـىـ اـخـفـتـ الـعـبـاءـ وـمـاـ انـ نـطقـ بـهـاـ لـلـمـرـةـ الثانيةـ حـتـىـ عـادـتـ الـعـبـاءـ إـلـىـ الـظـهـورـ .

ان اختيار العباءة لمثل هذا الامتحان يـمثلـ ، بلا شكـ ، ثـمرةـ بـحـثـ معـقدـ للـاشـتقـاقـ وـقـيـدـ ذـلـكـ وـجـودـ فـقـرـةـ مـتأـخـرـةـ فـيـ نـفـسـ القـصـيـدةـ . وـتـسـلاـ اـسـمـاءـ مرـدوـخـ الخـمـسـونـ اللـوـحـ السـابـعـ وـتـيـجـةـ لـلـمـهـارـةـ الرـفـيـعـةـ فـقـدـ طـوـرـتـ الـعـمـلـيـةـ اـلـىـ الـدـرـجـةـ التـيـ اـدـتـ إـلـىـ اـلـاسـلـوبـ الـخـاصـ بـالـاشـتقـاقـ .

لم يكن المقطع الثاني من اسم مردوخ مخالفـاـ لـلـكـلـمـةـ السـوـمـرـيـةـ توـگـ Tug والـتـيـ تعـنيـ — العـبـاءـ — فيـ حينـ يـمـكـنـ اـنـ تعـنيـ كـلـمـةـ مـارـ MAR

(٢٥) اي بناء خلق جديد يحل محل الخلق القديم .

(المكان) وهذه هي الغاية التي قصدتها الآلة من وضع اللباس فيما بينها .. وليس هذا كل ما في الامر ذلك لأن كلمة دوك Duk تعني ايضاً - يتكلم - في حين تعني الكلمة مار - معنى معاكساً على خط مستقيم للكلمات اي ينبع ويطلق ويوحي ، وهذا ما يفسر لنا معنى الجزء الثاني من الاقتباس . هنالك سبب يدعونا الى الإيمان بأن هذه كانت هي الطريقة التي تمثل تفكير الكاتب . ذلك لأن هذا الكاتب كان يترك الاسم الحقيقي للآلة في القائمة التي تضم كني والقاب مردوخ ، والتي تعظمه وتسميه بالخالق . وتليها كني اخرى تملحه وتسميه بالمدمر . وينظر في القائمة كلها تأثير المهارة الاشتراكية . ويقتبس - دوسان - اثناء دراسته للموضوع فقرتين من اللوح السادس الذي يوصف فيه مردوخ وصفاً موجزاً بكونه الخالق والمدمر والملوء رأفة وشفقة الذي يظهر النية الحسنة للآلة . لقد احسن صوغ هذه الاوصاف لكي تعبر عن المعاني التي يضمنها المقطوعان .

ـ مار ـ و ـ دوك ـ .

تعطينا هذه المعاني المختلفة - المادة - التي يمكن ان تكون . العبارة - قد ركبت منها ، وعند مواجهة اية كلمة مفترضة فإن الكاتب يستعمل اجزاءها الممكنة لها كالموسيقي الذي يستكشف عناصر العبارة الموسيقية في مجموعة من العناصر التبانية ، وهو ، في سبيل ذلك : يتبع كل نقطة حتى نهايتها المنطقية دون ان يحجب رؤيته عن الموضوع الاصلي . لقد يبيّن - دوسان - التصنّع الجوهرى في العملية والذي لا يترك مجالاً لآية مهارة ادبية خالصة او اي اهام شعرى . واذا يدرو لنا هذا حقيقة فقد كان هدف البابليين تفكيرك المعنى الواحد للحصول على معانٍ اخرى عديدة .

ولخلق اسم جديد بواسطة عملية اشتقاء . وهكذا وبفضل مبدأ الاسم فاهم يتسببون في ايجاد حقيقة جديدة . قد نعتبر مثل هذه التأملات عملا غير مجدى ولكنه بالنسبة للبابليين يعادل اكتشاف عنصر جديد بواسطة الجهر ، بل ان هذا العمل عندهم حقيقي كحقيقة الكائن البشري وانه يظهر لحظة اكتشافه ، وان دنيا الانسان اتسعت نتيجة ذلك اتساعا مناسبا .

وللكاتب وسائل اخرى تحت تصرفه . فقد رأينا انه يضغط المعنى الاصلى للكلمة لكي يستخلص منها المعانى الخفية . فبدلا من مراقبته وهو يتابع هذه المعانى الخفية متابعة سهلة علينا ان نراقبه وهو يعمل على خطوط اخرى ، وان لا نسمى ذلك كلمة او فكرة بل كتابة .

برغيب ، ملك كتك

— Braygyb, King of Ktk —

حافظت المسلة الآرامية التي اكتشفت في (سفري) القريبة من حلب (*) على نص معاهدة عقدت بين - ماتي - إلو Mati - Ilu ملك (انجاد) ، وبين - برغيب ملك - كتك - وثبت مقارنة هذه المعاهدة مع المعاهدة التي فرضها الملك اشور - نياري الخامس (٧٤٦ - ٧٥٣ ق.م) على الملك (متى - إلو) ان الملكين قد شملتهما المعاهدة . ولكن من الصعب ان نفهم لماذا اتخذ ملك اشور اسما شديداً الغرابة . ومن المقبول ان تفترض بانه اراد ان يستعمل اسمه مستعاراً في تعامله مع الملك - متى - إلو - الذي كان يشك فيه كثيراً . ولكن كيف يمكن تحويل - اشور - نياري - ملك اشور - الى برغيب - ملك كتك ؟

يقدم السيد (ج. دوسان) حلأ للمشكلة بواسطة البلاد الذي كتب بالعلامات - كور - والتي تعني - البلاد و - اش - ل - آشور - و - كي - وهي لاحقة تنتهي بها اسماء البلدان . وغالباً ما تحتوي اسماء البلدان على اكثر من قيمة المذكورة آقنا الا وهي - اش - التي تصبح - دل او - تل . وينشق الكتاب هذه العلامات الثلاث محولين ايها الى الآرامية بواسطة عملية تعتمد ليس الا على اخذ الحروف الابتدائية ، وعلى الاخص ، الحروف K, t, K اما شرح اسم الملك فانه يسير على نفس النهج . اذ ان العلامة المسماوية لـ - نياري - معقدة وتتألف من علامتين منفردين . متابعين وهما : بير (Bir) و - گاب (Gab) او - گا - - Ga -

وقد ادت التقاليد الآرامية الى حذف حرف العلة فكانت (Brg) بـ (يـ)
ومما لا شك فيه ان اللفظ المهموس يمثل الحرف - a - الذي تدعو اليه
الحاجة لفرض التلفظ ، واخيراً فان المقطع - إب - - yb - يمثل الترجمة
الحرفية الآرامية للعنصر الالمي الذي يقوم مقام - اشور - وهكذا فقد
اخفي بطريقة متشابهة الاسم الخاص بالعامل واسم بلاده واصبح الاسمان
في منأى عن اي تدليس قد يهدد من يحملهما . وهذا مثال اخر من ابتداع
الكتاب الذين ازدهرت تقاليدهم في مدارسهم ليس في بلاد اشور وحدها
ولكن قياماً وراء حدودها ، وذلك في الوقت الذي بدأ فيه هوى البلاد يتعد
عن الاشوريين وبخاصة عن الكتابة المسماوية ولصالح الكتابة الآرامية .

وهنالك طريقة ثالثة للتلاعب بالكلمات التي يراد لها ان تبقى سراً .
وتتمثل هذه الطريقة في القراءة العكسية للكلمات ، اي من الخلف الى الامام ،
وتتجري القراءة اما حرقاً فحرقاً ، واما مقطعاً فمقطعاً . ونتيجة لهذه الطريقة
ابدى (ف. شايل (V. Scheil)) اقتراحاً قال فيه ان الاسم الحقيقي للملك
المجوسي - غاسبار - Gaspar - هو - راسباغ - وهو اسم مكتب كبير
الساقين في البلاط الفارسي .

يمكن قراءة العناصر السومرية للاسم - سين - ابتداء من الخلف ،
وهذا يعني ان الاسم - إنزو - يقلب اولاً الى - زوان - ثم الى
- سين . وبنفس الطريقة تقول عن گال لو - الرجل العظيم - ومعكوسها
- لو گال - الملك .

الرموز الاشورية

كل دين كان يمثل المنه واعمالهم بعبارات مادية قد صورهم كذلك في صفة تصويرية مستقرة ووفقاً لذلك اضيفت على الالهة المتواترين صفاتٍ بدنية ومعنىَة ثابتة . وبالطبع فان السبب الرئيسي لذلك هو انه عند وصف الاله باصطلاحات مقبولة فان هذا الوصف ملزم باذ يتطابق مع نمط فريد . وفي الوقت الذي تضم فيه تماثيل الالهة لفائدة عموم المؤمنين بها فانها يجب ان تكون ثابتة الشكل لكي يمكن معرفتها . وامتنجت عادة وضع علامة مميزة مع هذه التماثيل أو بعضاً من توابيعها بالإضافة الى ان هذه التماثيل نفسها كانت تخلق نوعاً من الرموز التي تقرب التمثال وتضعه في ذهن الناظر ، حتى ولو كان هذا التمثال قد صور تصويراً غامضاً .

كانت هذه عادة سكان ما بين النهرين الذين صنعوا التماثيل بالحجم الطبيعي . وسبح المدى الذي بلغته رموزهم في تمثيل الالهة . ولكن العلاقة الشديدة القائمة بين السماء والارض كانت تعني ان كل جسم مخلوق لا بد ان يتبع الى احد الالاهة ، وان كل اداة وكل جسم وكل عنصر يستخدم عند الاحتفال ، له تفسيره الخاص به . علينا الا نوهن من هذا اذا ما تذكرنا ان مثل هذه العلاقات لا زالت حية في علم التجيم الذي ما زال له العديد من الدين كرسوا اقسامهم له .

وهكذا ووفقاً لمصطلحات علم التجيم الحديث يعتبر المشترى سيارة مذكراً وحراً وفاعل خير ، وهو يبعث فكرة العدل والدين كما انه مسؤول عن الناس طوال القامة وبصورة خاصة ذوي الشعر الاحمر المائل الى السمرة (الاصحر) . واما بالنسبة للمهنة فانه يتمايل مع القضاة واصحاب الاعمال . العامة ورجال الكنيسة . وهو على علاقة بامراض الكبد وخفقان القلب . وينفس الطريقة فان - الكبش - علامة اصلية من علامات برج الحمل في .

السماء ، وهو مذكر ومرتبط بالنار ، ومسؤول عن الاشخاص الصريحين المستقلين والمنبسطين ، وهم ذوو الشعر الاسمر والقامات المربوعة ، كما انه يتحكم في الرأس والوجه والامراض التي تصيبها • وهو على علاقة خاصة ببلدان انكلترا والمانيا والدانمارك وفلسطين وسوريا ومدن نابولي وفلورنسا (في ايطاليا) ولونه احمر ويومه الثلاثاء واما حجارته فهي نوع من الياقوت الازرق • وهكذا بالنسبة لبقية الكواكب السيارة والعلامات الموجودة في منطقة البروج في السماء •

وآمن سكان العراق القدماء بمثل هذه فلذلك اعتبروها ذات اهمية كبرى بالنسبة لاحفالاتهم ، وهم يريدون منا الا نعتبرها مجرد شعوذة لا معنى لها ، وعلى النقيض من هذا الظن فان كل امر مفصل كان موضع كثير من التفكير ، وكانت صفاتاته تحديدًا دقيقا ، تساعد المؤمن بها على ان يستكشف عالمًا جديدا كاملا اثناء ادائه مراسيم الاحتفال •

تلقي بعض اللوحات والتي تعرف باسم — التعليقات — الاضواء على هذه الرموز ، ونحن لا نريد ان نشغل افسنتنا بها جميعا ولكن سنقتصر على بعض الامثلة زيادة في التوضيح •

انتا تعرف ان وعاء الماء المقدس (اغابو) يرمز الى ملكة التعاويذ ، اي شجرة الطرفاء ، و — انو — ، الى اكليل النخلة و — تموز — الى القصبة ، ونورتا الى شجرة الارز ، و — ادد — الى الفضة وهي (القمر) ، والذهب هو الشمس ، والنحاس هو — ايا — والرصاص هو نينياء ، والمجرة هي الآله — اوراس — والشعاع هي گييل والجبن هي نورتا • واما العاصفة فترمز الى السلاح ذي الرؤوس السبعة لشجرة الغار ، والشيء بالشيء يذكر فان الخرافات لا تزال تعتبر شجرة الغار ابعد من ان يصيبيها البرق •

وعند قراءة التعاويذ فان انواعا عديدة من الاشكال توصف بانها الصور

والصلب وركبة المريض . ولعله من غير المفيد التعمق في هذا الموضوع ولكن من الممكن ان تصور انه عند سكب الماء المقدس للحصول على المطر من آله الخصوبة العظيم ، فاذ استعمال ابناء الشراب - اغابو - مع وضع قطعة من شجرة الطرفاء أو جذع النخل في الاناء النحاسي الذي سيسبك فيه الماء المقدس ، كل هذه الاعمال تتطلب حضور الالهة التي من اجلها تحدث هذه الاعمال وهكذا تصبح صلاة المؤمن اكثر فعالية وجدوى .

المعرفة

الكتابة ، تربية وتعليم الكاتب

تقدّم الكتابة في العراق القديم ميداناً شيقاً للدراسة اذا ان عدداً كبيراً غير مألف من الوثائق المكتوبة ما تزال موجودة ، كما تنس الكتابة الحياة اليومية في جميع نقاطها . اما تعقيد هذه الكتابة وصعوبتها ، والتي هي اكبر بكثير من التعقيدات والصعوبات الموجودة في النقوش الفريدة ، فانها تعني ان الكتابة من الاعمال الفكرية المقتصرة على جماعة معينة وبخاصة طبقة الكتبة الذين يتحملون مسؤولية المحافظة على المعرفة ونشرها والذين كانوا يرتبطون من قرب أو بعيد بالكهانة ، حيث يمكن الحصول على الكتاب من كل الطبقات الاجتماعية . ولكن هناك حقيقة تقول انه كان من بينهم ابناء واقارب لحكام المدن والامراء .

والواقع انه لم تتوفر لنا صورة كاملة تظهر لنا ما كان عليه الكتاب العراقيون القدماء ، كتلك التي يرسمها الكاتب المصري نقا عن زملائه . ومع ذلك فنحن نقول ان المهنة كانت صعبة بلا شك ، وكان من العسير ان تتقن وانها كانت تتطلب دراسات طويلة . والحقيقة ان هناك مثلاً يقسو على الكاتب الذي يريد الكتابة ان ينمض مع الشمس . لقد كان الكاتب المؤهل يلقى الاحترام الشديد . واذا اردنا ان نبحث عن المعنى الخفي في المثل السابق فاننا نقول ان الكاتب الذي له مهارة معترف بها يشرق كالشمس يقول احد سجلات اشور بانيال منح اذنين عظيمتين (اي ذكاءً شديداً) من قبل - نبو - وقرنته (تاشعيتم) .

ويبدو ان الاشوريين كانوا يساورون الذكاء بالذاكرة ، وقد مكن هذا الذكاء اشور بانيال من ان يعرف ويتقن علامات الكتابة المسماوية .

(يستعمل الكاتب في تعبيره عن هذه العلامات نفس الكلمة التي يستعملها لوصف الترقيس على جلد النمر) . لقد كان هناك العديد من المتطلعين الى مثل هذه المهنة التي تثير الحسد ، ولم تخلي المهنة من كتابات كثيرة زواولتها . ولأسباب ستنظر حالاً كان الكتاب يتخصصون في أحد الفروع المتعددة كالمعابد والاعمال التجارية والجيش والطب ، والكهانة ، وكان هؤلاء المتخصصون يبدأون دراستهم في سن مبكرة .

تکاد الغریفات تکشف في الغالب من بين محتوياتها کالمعابد ، عن الواح تضم تمارین کتابیة مارسها الاطفال وقد وجدت مثل هذه الالواح في - سیار - و - ماري - (تل الحریری) حيث کشف عن مدرسة حقيقة يدرس فيها الكتاب الصغار . وكانت المدرسة تتالف من غرفة متوسطة الحجم ذات مقاعد طینية ثابتة ، وعدد من الاواني الفخارية الكبيرة والتي ستعرف عليها فيما بعد (٢٦) . كان على التلاميذ في هذه المدرسة ان يرددوا العبارات التي صيفت لهم من قبل ، كما كان عليهم ان يستنسخوها عن جملة نموذجية مكتوبة في اعلى لوحهم ، في حين يستمرون في الاستلهام التدريجي لتعابير مختلفة ترتبط بالعمل الذي يتخصصون فيه . كانت المعرفة تتالف في القدرة على الاتاج ، ودون تبيه ، في عبارات معينة ومناسبة لموقف معين وكذلك مع اتقان هذه العبارات اتقانا يجعلهم قادرين على ربط هذه العبارات مع بعضها بشكل مستقيم . وكان لكل حقل ادبي مفراداته الخاصة به . وكان الكاتب يعتبر جيدا اذا ما اتقن معرفته جيدا . وهذا يتطلب منه الذاكرة وليس الفكر الاصيل . وكان الشيء الذي يسأل عنه هو تنظيم المعلومات التي يحملها في دماغه تنظيما صحيحا .

(٢٦) للحصول على وصف مفصل معزز بالصور انظر المقالة المنوعة « أقدم مدرسة في العالم » نشرت في الملحق الادبي لجريدة التایمیں اللندنية في اعداد الصادر في ٣١ تشرين اول سنة ١٩٥٢

قد نجد الامر صعبا عندما نواجه باموال فنية كالنقوش قليلة البروز . وسبب ذلك هو اننا قد لا نعرف يد اي فنان ساهمت في صنع مثل هذه الاعمال . ويصدق نفس القول ، بصورة متساوية ، على الوثائق المكتوبة . وما لا شك فيه انه ما من كاتب يسلم باصالة يمكن ان تعتبر في غير مكانها . ان هذا يوضح لنا لماذا كان على الكتاب ان يتخصصوا . ذلك لأنهم وان كانوا سيتفوقون بصورة ممتازة في حقل محدود من المعرفة الا انهم سيكونون قليلا الفائدة اذا ما اصبحوا « ذوي سبع صنایع » . كانت المدارس التدرية موجودة دائما في البنايات الملحقة بالمعابد . وفي العهد البابلي الحديث نجد ان الكتاب (والاسم المعتمد لهم هو توبيشار Tupshar و معناه من يكتب على الالواح) كانوا يوصفون في العقود بكلمة — شانغو — Shangu و معناها الكاهن (*) .

لن تكون موغلين في الخطأ اذا ما فكرنا بوجود صفات من الكتاب ييدو وكأنه مدرسة يداوم فيها الطلاب . ويمثل هؤلاء الطلاب كتبة تحت التمرين وهم يجلسون على مقاعد ويتقرون من استاذهم لوحا دونت عليه جملة يستظروونها ويستنسخونها في وقت معا . اما التمارين المطاعة لهم فكانت على العلوم منقوشة فوق لوح محدب قليلا . وهذا يفسر لنا سبب وجود احواض الماء الصغيرة القابلة للنقل والموضعية بين المقاعد . وتحفظ في هذه الاحواض كميات ضرورية من الطين الذي يجذب ويكيف حسب الطلب .

وفي العهد الاشوري الحديث ، كانت وثائق العقود مستطيلة الشكل بصفة عامة وكان عرضها اكبر من عرض الالواح المستعملة في الرسائل العادية ، والتي يكون احد وجوه الواحها محديبا قليلا كالوسادة الصغيرة .

(*) هذه الكلمة البابلية مأخوذة عن الكلمة السوميرية سانغا وتعني الكاهن أيضا .

الكتابة المسмарية - صورة من المتحف البريطاني

اما الالوح التي استعملت في الامور المتعلقة بالمعابد فقد كانت اكبر حجما قليلا من الالوح السالفة . وكانت الطريقة الواقعية التي اتبعها الكاتب تمثل في ان يأخذ الكاتب اداة الكتابة (وهي عادة وبكل بساطة قطعة من القصب) تكون احدى نهايتيها مقطوعة قطعا مائلا يشبه القطع الموجود على فوهة الناي . ووظيفة هذه الاداة ليس لتبعد العلامات بل لرسمها على الالوح . وعند الكتابة تبسط نهاية الاداة قليلا او كثيرا على الطين ، وتصاغ الرموز بواسطة سلسلة من الضربات الخفيفة ، ومن نتيجة هذه الضربات تكون ذيول ذات اطوال متباعدة ، ويتوقف ذلك على الزاوية التي يمسك بها الكاتب الاداة وهذا هو السبب الذي يجعل الرموز تشبه المسامير ، ومن اجله سميت الكتابة بالكتابة المسмарية .

بعد الانتهاء من كتابة اللوح يترك ليجف . وكان مثل هذا اللوح عرضة لان يتهمش ولاجل اطالة عمره بصورة غير محدودة فانبه يشوى في تنور فيتحول الى طابوقة صغيرة قادرة على تحمل عوادي الزمن والرطوبة ولا تتحطم الا اذا ضربت ضربا شديدا .

اذ كل من يجرب الكتابة بواسطة المرقم (*) على الواح الطين سوف يكتشف ان كتابة اي شخص تشبه كتابة الشخص الآخر ، وان ليس

(*) هو القلم الذي تكون احدى نهايتيه مستدققة .

للبيصمات الاسفينية اية خاصية فردية . كانت الوسيلة التي تتبع انذاك للاطمئنان على سلامة النصوص المكتوبة ، وحفظها من التلف ، هي في اذ توضع الرسالة أو العقد في داخل غلاف طيني دقيق كان يؤدي خدمة تشبه الخدمة التي تؤديها اغلفة أو ظروف الرسائل الحديثة . واما عن الرسالة فان عنوان المرسلة اليه كان يكتب انذاك خارج الرسالة ، اي على الغلاف ويختتم بختم المرسل . واما العقود فانها كانت تختتم باختام الشهود مسح وجود نبذة من النص على الغلاف واذا كان الغلاف غير مكسور فان الرسالة والعقد لا يصيبهما التلف .

اما الوثائق المطولة قليلا والتي تتطلب بضعة الواح فانها كانت ، بعد ان تكمل كتابتها ، توضع فوق رفوف مستندة ، وتتقش الكلمات الاولى من النصوص على حوافي الاواح . وهذه الطريقة تشبه الطريقة الحديثة المتبعة في تنظيم المنشير البابوية حسب كلماتها الافتتاحية .

لم يكن الخط المساري ، في الحقيقة ، اكثرا من اشكال اسفينية وخطوط . وهو ، بلا شك ، من اكثرب الخطوط استعمالا في الزمن القديم . فقد استعمل ، على الرغم من بعض التباينات ، في البقاع المتدة من اواسط آسيا الصغرى حتى بلاد فارس ، اما الكتابة المصرية ، أو على الاقل شكلها الهيروغليفية ، فانها عانت شيئا من التغير عبر التاريخ ، وكان هذا التغير يميل دائما باتجاه الخط الاشتقافي البسيط ، ثم اصبح ، بعد وقت مناسب ، يؤلف نوعين من الخطوط : اولهما الخط الخاص بالكهنة ، وثانيهما الخط الخاص بعامة الشعب او - الخط الديموطي .

اما الخط المساري فانه كان يستعمل في مساحة محددة ، الا انه ما ان يثبت ويستقر حتى تخنقه منه التباينات ولو انه كان قبل اعراضة لكثير من التغيرات الواسعة .

تطور الكتابة

حلت الغاز الكتابة الاشورية قبل مائة عام تقريبا وبعد ذلك بعشرين أو ثلاثين سنة ظهر نوع من الشك سببه الرأي القائل ان الخط الاشوري سليل من خط لنوع معين من الخطوط التي تختلف عنه كلية والذي يشبه الى حد معين الخطين المصري والصيني .

وكان هذا الخط نفسه قد عانى هو الآخر تغيرا جذريا عن شكله الصوري . لقد تعزز هذا الرأي عند اكتشاف عدد قليل من الالواح التي اوحت بان بعض العلامات كانت لها اشكال مختلفة تماما ، وذلك في فترة اسبق .

وطللت الامور على هذا الحال الى قبل عشرين سنة(*) حين مكن اكتشاف عدد من الوثائق من اقرار مشكلة اصل هذه الكتابة .

لقد ظلت حضارة بلاد بين النهرين ولعهد طويل امتد الى ما لا يقل عن الف عام ، تجهل الكتابة واستعمال المعادن (٢٧) . ويعرف هذا العصر

باسم - عصر العبيد - وتقع نهايته في عام ٣٤٠٠ ق . م ، وبالرغم من اذ فن الكتابة لم يكن معروفا بعد الا ان اسس هذا الفن قد ارسست في المقاطع الصورية المعبرة عن الافكار . وقد امكن الحصول من مقابر - سوسة - والتي تعود الى عصر العبيد على فخاريات ذات زخارف سود مرسومة فوق ارضية خضراء صغيرة . ويبدو ان الرسوم ثمرة جهد كبير ، ويوحي تطورها بان

(*) بالنسبة الى الوقت الذي نشر فيه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وذلك سنة ١٩٥٤

(٢٧) تشير الدلائل المتوفرة في الوقت الحاضر الى ان استعمال المعادن كان معروفا في ذلك العهد وان لم يكن شائعا .

هناك حلقة مع ماضٍ بعيدٍ الغور ، أما مواضع الرسوم فمأخوذة من اوساط الحيوانات ، وقد ادت الجهود التي بذلها الفنان لاتخاذ هذه الاشكال الى معالجتها على اسس هندسية ، ويمكن اثبات هذا من وجود كل مرحلة متوسطة بين الامثلة الاحتياطية . خذ مثلاً افريزا من الطيور المائية فنجد في المرحلة الاولى ان الاقدام غير موجودة ، وان الرقبة مشرابة بشكل يجعلها تبدو وكأنها نوطات موسيقية . أما في المرحلة الثانية فان الفنان يجرد الجسم ولا يترك شيئاً الا مجموعة من الخطوط العمودية (الرقبة) المتهبة بما يشبه المقار .

اما الوعول فانها ترقى الى درجة تجعلها مجرد مثليين متلاحقين . ويبدو الرأس والذنب مجرد زواائد غريبة . كما ان القرون قد كبرت بصورة غير متناسبة ، اذ جعلت في شكل دائرة فخمة على رأس الحيوان وغالباً ما كانت هذه الدائرة تحتوي على دائرة اصغر منها ، او على مربع .

ويضم هذان الشكلان بدورهما شكلاً مختلفاً التصاميم . فتارة سلسلة من الخطوط المتوجة ، وتارة اغصان مورقة . ويتوضح معنى هذه الزخرفة من التخارير موضوعة البحث والتي يراد منها ان تحفظ الطعام والشراب في الحياة الأخرى .

وتجدر بالذكر ان المصريين كانوا يرسمون مشاهد من حياة الانسان الميت . وهم قد فعلوا ذلك في القبور من العهود المبكرة وعلى دكاك دفن الموتى ، وكان الهدف من هذه المشاهد هو ان يعيشها الميت وانه قد يتغدى على حصادة . اما سكان — سوسة — والذين كانت قبورهم تحفر مباشرة في الارض ولا تبقى مجالاً للرسم ، فانهم كانوا يرسمون مثل هذه المشاهد ولكن بصورة مختصرة ، على اسطح الزهريات وكانوا يعتقدون انهم بهذه الوسيلة يمكنون الموتى من ان يتغذوا على الطيور المائية التي اصطادوها

واخذوها (ويضمن اسر هذه الطيور بعملية رسمها على فخارياتهم + انظر ما سبق في هذا الفصل +) كما انهم سيتمكنون من اصطياد الوعول والامساك بها من ذقونها (وهذا ما يشير اليه الفصن داخل دائرة القرون) ويكون الصيد في الارض المنبسطة او عند المورد ، (وهذا ما يشير اليه شكل المربمات والخطوط التموجة والتي هي رمز الماء ، وهذه اقدم طريقة اتبعها المصريون وكذلك العراقيون القدماء في الرمز الى الماء) .

قد لا يمكن اعتبار هذه الرسوم كتابة بل انها تمثل نوعا من المرحلة التمهيدية المبكرة والتي استعمل فيها التصوير للتعبير عن الافكار بواسطة الاصور + ويندو ان هناك تماثلاً مع التصوير الادبي الصيني + واذا ما نظرنا الى الامر بمعزل عن غيره فان هذه الطريقة لا تبدو تعابيرية بصورة جيدة على الرغم من وجود جدول مائي وشجرة مزهرة وسحاب وواحد او اثنين من الطيور المائية + ولكن العادة جرت على اعتبار ان كل صورة من المجموعة لها معنى عميق يقود الناظر الى ابعد مما يرى + فنحن نجد مثلا ان انواع الاشجار تمثل الربيع ، كما ان الطريقة التي رسمت بها السحب تحمل معنى مرور العاصفة ، اما الطيور فتشير الى وقت النهار + وهكذا يبعث عالم كامل من وراء المظهر الشكلي ، ويعاد خلق الكون بواسطة الخيال + ولم يكن عمل الرسام اكثرا من ان يلمع اليها .

وزيادة على ذلك فان هذا المفهوم عن التصوير كتمهيد للكتابة يتاسب تماما مع ما نستطيع ان نتعلمه من النصب التذكارية القديمة والمعاصرة والتي تكشف عن نفس الخصائص التي تكشف عنها الرموز المكتوبة وهكذا فانتا نجد في نصب (اطلق عليه اسم القاعدة الدائرية محفوظ في متحف اللوفر) ان الابهام يظهر طويلا طولا غير مناسب وهو يتوجه الى الوراء (وتنظر الالواح الصدفية التي اكتشفت في كيش) القدم مقوسا تقوسا .

بالغاً فيه ، وتجه الاصابع الى اعلى ، ولا تظهر حظيرة الغنم ، المرسومة عليها ، والمحفورة ، نفس الصورة المظللة التي تشبه الجرس ، وذلك اذا ما نظر اليها من الجانب القصير الذي يضم المدخل ، ويظهر في هذه الحظيرة العمود الاوسط لها والمؤلف من مجموعة من القصب .

اما في المهد اللاحق فنجد ان هناك كتابة في الحضارة المعروفة باسم حضارة - الوركاء - (حوالي ٣٤٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م) وهي معاصرة لاستعمال الاختام والمعادن ؛ ولم يكن الخط في اول اطواره اكثر من وسيلة حسائية تستخدم بعض العلامات لتظهر العدد المشمول في العملية بجانب الاجسام التي كان رسماها ببساطا . وبكلمة اخرى فانتا تقول ان ذلك الخط كان كتابة صورية حقيقة . واذ كان من السهل التعرف على بعض الاجسام الا ان هناك اجساماً اخرى تخلق مشكلة صعبة جدا ، ويمكنتنا ان نفهم هذا بسهولة ما دام ان كل جسم يتطلب علامة منعزلة . وبناءاً على ذلك فان العديد من السوائل المختلفة تتطلب ادوات مختلفة كأنواع الاواني التي يسهل تميزها ، وقد اكتشفت (٦٢٠) لوحة من هذا العصر وهي تكشف عما مجموعة (٨٩١) علامة مختلفة .

يعرف المهد الذي تلا المهد السابق ذكره باسم - عصر جمدة نصر - وقد دام حتى عام ٣٠٠٠ ق.م . وهو لا يتميز الا بظهور نوع جديد من الفخاريات وما عدا ذلك فإنه يمثل تطوراً طبيعياً للعصر السابق ليس الا . وتوقفت في هذا العصر عملية ازدياد العلامات ، وقد بلغ عددها - ٤٣٧ - علامة ، ويعرف العصر الذي جاء بعد العصر المذكور باسم - عصر فجر السلالات المبكر - وقد شهد هذا العصر عملية الاختبار في العمل ، ومع ان الكتبة لم يقلوا من عدد العلامات حقا ، الا ان البعض منها كان يستعمل بصورة مستمرة . وامكن الوصول بعد ذلك الى درجة اكتملي عندها بثلاثمائة علامة ، واعتبر هذا العدد كافياً لقراءة النص العادي .

يشير هذا العدد بالرغم من ضخامته الى اتفاق لا يأس به في عدد علامات عصر الوركاء البالغ عددها تسعين علامه .

لا نعرف المبادئ التي كان سكان البراق القدماء يصنفون ببعضها لواائح ابجديتهم . ولكن يبدو انه كان لكل علامة اسمها الخاص بها والذي قد يشكل احيانا احد معاناتها ، وبالرغم من ان الاسم كان غالبا ما يشير الى خاصية من خصائص العلامة نفسها . مثال ذلك ان العلامة - مو - Mu - تتالف من اسفين افقي متبوعة بمجموعة من اربع خطوط قصيرة ، في حين تجد ان العلامة - زر - Zer - متماثلة الا انها تنتهي بثلاثة خطوط قصيرة تعرف باسم - موغير المتهية .

من الكتابة المصورة الى الكتابة المقطعة

لاقى هذا التبديل عوناً كبيراً من التغيير الأساسي في الكتابة . وكما قلنا فإن العلامة كانت تمثل في الأصل شيئاً واحداً . ولم تكن هناك طريقة للتعبير عن الأفعال والصفات والضمائر وتصريفات الأسماء ، كما لم تكن هناك امكانية لإنجاز مثل هذه الأمور دون وجود نوع من الاتفاق العام بين الكتبة الذين كان بإمكانهم إضافة معاني ثانوية إلى العلامات . فمثلاً إذا ما تصورنا أن الكتابة الحديثة تتالف من صور لاجسام معينة ، وان صورة الحصان كانت تقرأ – حصان – فإن الصورة ايها يمكن ان تعطى معنى – السرعة – في الحركة أو في السفر أو المسافة التي يشملها السفر .

ولا تطرح هذه الأفكار نفسها بصورة مباشرة ، كما ان معانيها لا تتوضّح مباشرة بصورة الحصان التي سيكون معناها الأولى عاملاً للمفهوم البسيط عن الحصان . ويتوقف كل شيء على تقبل المعاني الأخرى التي تحملها العلامات ، وهذا ما يجعل الكتابة بعيدة عن متناول كل انسان ، ويحولها إلى امتياز خاص بطبقة واحدة هي طبقة الكتاب . وهذا بحد ذاته لا يعني بالدرجة المطلوبة ، اذ ليست الكتابة بهذا المعنى الا مجرد مفردات لتعابير وافكار لا يمكن استعمالها . وهذه هي النقطة التي تحولت عندها الكتابة من الشكل الصوري الى الشكل المقطعي ، واما بالنسبة لنا فنحن قد الفنا الكلمات التي يمكن أن تفرق الى مقاطع ثم حروف . وتبعد العمليّة طبيعية . ولكن اكتشاف ذلك لم يكن بالامر اليسير الذي امكن العثور عليه بيسراً .

وما ان تم استيعاب المبدأ حتى سارع الكتاب الى تكوين فكرة عن اعطاء كل علامة قيمة (معنى) المقطع الاول للكلمة التي تمثلها هذه

العلامة ٠ فمثلاً نجد ان العلامة الخاصة بالحصان تكون لها قيمة المقطع الاول منها وهو (حصا) ٠ اما علامات الكلمات الاخر التي تبدأ بذات المقطع من امثال (حصاة) أو « حصاد » فان لها ذات القيمة ٠

وتتجة لذلك فان علامة او رمز مفرد يمكن ان يكون له او لها ، في هذه المرحلة ، عدة معانٍ ؟ وعلى تقدير هذا نجد ان معنى واحدا يمكن ان يكون له عدد من العلامات ٠ وهكذا اصبحت المجموعة باكمالها من اختصاص الخبراء ، وتحولت الى مهارة علية راقية وشديدة التعقيد ، الى درجة ان الرجل العادي لا يمكن ان يدركها ٠ ولو حللت المقطوع الى «العرف» التي تكونها لكان الموقف سليما ٠

وفي الحقيقة اتخذ المصريون هذه الخطوة ولكن بما انهم لم يشملوا بهذه الخطوة بقية المجموعة في نفس الوقت ، والتي كانت انذاك فائضة ، فقد نجحوا ليس الا في اضافة مزيد من التعقيد الى كتابتهم ٠ اما سكان العراق القدماء فانهم لم يذهبوا ، من جانبهم الى ابعد من عزل حروف الصلة ٠ فكانت النتيجة ان مثلت العلامات المتباينة في الكتابة العراقية القديمة في شكل اجسام وافكار واحياناً مقاطع بل وحتى حروف ٠ وعلى العكس من ذلك فانه يجوز ان يكون لكل علامة عدد من المعانٍ والقيم مماثلة في الاجسام والمقاطع والحرروف ، غالباً ما كان ذلك يتسبب في مضاعفة قيم العلامات الاخرى ٠

اما وقد تحدثنا بما فيه الكفاية عما تعنيه العلامات فان علينا ان ندرك انها لم تحافظ على شكلها البدائي ٠ ولقد بحثنا في الكتابة الحقيقي في الفقرات التي اتت على ذكر مدارس اعداد كتاب العلامات ٠ لقد بدأ الكاتب يدرك ان اية خطوة لرسم اي جسم على سطح من الطين الطري بواسطة المرقّم ستكون غير دقيقة طالما ان أي ضغط لرسم خط منحنٍ

سوف يتعرض لأن يكون مصحوباً بتصوّر تشوّه الشكل العام للخط وذلك اذا كان هذا المجنى اعمق من الخدش الواهي . ويسرع الكتاب الى ان يرى ان الطريق الوحيدة للتغلب على هذه الصعوبة هو في ان يضغط رأس القلم على لوح الطين لطبع العلامة وليس لرسمها ، وهذا يعني ان المحننات تحول الى خطوط متقطعة . ونتيجة لذلك أصبحت الكتابة خطية ، واكتسبت بالتدرج الصفة المسماوية . كانت العملية بطيئة وظلت تتطور في اثناء استمرار الكتابة العراقية القديمة . وآخر ما لدينا من نماذج ترجم في تاريخها الى بداية العصر المسيحي .

كان الخط المسماري يكتب ، اصلاً ، من اعلى الى اسفل بشكل اعمدة متوازية ، ومن اليمين الى اليسار . وغالباً ما كانت يد الكاتب تشوّه او تنسخ الاعمدة السابقة . وبناء على ذلك اصبح طبيعياً ان يدار اللوح بزاوية قائمة الى اليسار ، وان تكتب العلامات بصورة افقية ؛ ثم صارت الكتابة تقرأ كما تكتب ، اي بشكل اسطر افقية تجري من اعلى الى اسفل اللوح ، وتكميل قراءتها على التوالي من اليسار الى اليمين . وكانت النتيجة ان غلت اللغتان الاكادية والحبشية هما الوحidentان بين اللغات السامية اللتان تقرآن بنفس الطريقة التي تقرأ بها اللغات الاوروبية ، وهذا يعني بالطبع انه لكي تكتشف الشكل الاصلي للعلامة لابد ان تدير اللوح بزاوية قائمة الى اليمين ، وهكذا تعيد العلامات الى وضعها الاصلي .

وبمرور الزمن عانت الكتابة ، التي صارت الان سماورية حقاً ، مزيداً من التحورات الهامة ، كما انها كانت تعرف باسم الكتابة الاكادية في اثناء العصر الذي سبق تقسيم بلاد بين النهرين الى مملكتين متفصلتين . وعندما وقع هذا التقسيم نشأت وتطورت بصورة تدريجية بعض الفروق بين الكتابتين الآشورية والبابلية على التوالي . فلقد مالت الكتابة الآشورية الى

اطالة وزيادة العلامات الاقمية ، في حين اظهرت الكتابة البابلية ميلا نحو
ابقاء علاماتها بشكل اشرطة تشبه الرقم ٧ أو ٨ .

لقد توضحت قوة تأثير حضارة بين النهرين على سكان آسيا الغربية ،
من خلال الطريقة التي استعار بها حيران هذه البلاد خطها اذ تبناء الحشون
والمتانيون بسرعة ، في حين تقبل الميلانيون مبادئه ولكنهم اصطفوا لاصحهم
الخط الخاص بهم والذي كان يحتوي على بعض الفروق الكثيرة . بعد
ذلك استخدم الصينيون الشماليون والغرس الاخمينيون خطًا قام على
اسس مختلفة ، بالرغم من انه كان مساريا . وتعود هذه الفروق بصورة
صميمة الى تاريخ الابجدية .

فك الرموز

كان فك رموز هذا الخط أو هذه الكتابة امرا بالغ الصعوبة . ففي البداية لم يستطع احد ، بعد ان جوبه بلغة غير معروفة مكتوبة بخط غير معروف ، ان يدرك وجود اي حل ما عدا وجود نقوش مكتوبة بلغتين . احدهما معروفة والاخرى مجهولة . وحدث مثل هذا عند قراءة الكتابة المصرية بعد الاستعانة بكتابية يونانية موازية ؛ ولم تأت الجمود التي بذلك في اوقات مبكرة بشيء يزيد على كشف معانى بعض العلامات وذلك عندما تم العثور على كتابات منقوشة ليس بلغتين ولكن بثلاث لغات .

لقد تنبه السير هنري رولنচون في احدى حملاته ، الى وجود نقوش ضخمة محفورة على وجه صخرة على الطريق بين كرمتشاه وهمدان وقد تبين ان تلك النقوش تمثل وصف دارا لوقائع اعادة فتح بلاده واتصاره على رعاياه المتمردين والمطالبين بالعرش . ولم تكن هذه الوقائع معروفة حتى ذلك الوقت . كانت الواقائع في شكل ملحمة طويلة ذات ثلاثة اقسام . وكانت علامات القسمين الاوليين معقدة ، وفيها الكثير من التباين ، في حين كان القسم الثالث مبسطا ويكثر فيه التكرار .

انهمك الباحثون في قراءة القسم الثالث وفك اسرار رموزه . ووجد احتمال يقول ان اكتشاف النقوش في بلاد فارس يوحي بان لغة هذه النقوش فارسية كما ظهر شيء من التماثل مع الافستا والوندة المكتوبين بهذه اللغة^(٢٨) .

وي زيادة على ذلك فان تشابه بعض العلامات التي تكرر في البداية توحى باحتمال كون هذه الكتابة المنقوشة مرسوم ملكي . ومن الكلمات المكررة نجد (الملائكة ، بن ٠٠٠) ومن المحتمل ان تمثل الكلمات المتداخلة

(٢٨) الافستا ، هي الكتب الفارسية التي تحتوي على الاعمال المنسوبة الى زرادشت ، اما الزنده فانه من اقدم المخطوطات الفارسية .

الاسماء اشهر ملوك الاخمينيين . لقد كانت معالجة المشكلة سليمة . وبعد العديد من البدايات الفاشلة تبسطت المهمة بوجود علامة تدلل على وجود الفواصل بين الكلمات فتمت السيطرة على النص وشخص على اساس انه نص فارسي قديم.

وفي عام ١٨٦٢ نشر - فـهـ شـبـيـگـل F. Spiegel كتابا يضم قواعد ونصوص وترجمات ومفردات اللغة المكتشفة حديثا . واخيرا حصل الباحثون على ما كانوا يريدون واعني النقوش المكتوبة بلغة معروفة لتكون مفتاحا لنقوش مكتوبة بلغة غير معروفة .

لم يكن بالامكان الحصول على نتيجة من احد النقشين المتبقين ، وبالذى كتب باللغة المحلية العيلامية ذات الصفة الاسيوية والتي كان عدد قليل من كلماتها معروفا . اما النتش الثالث فكان بالاكدية وهي لغة بلاد بين النهرين الشائعة والتي تفرعت الى البابلية والاشورية ؛ واذ تشير بساطة وقلة عدد العلامات نسبيا في النتش الاول الى استعمال الابجدية فان النتش الثالث يوحى بالكتابة المقطعة بسبب من كثرة علاماته المقدمة . ولقد ذهل الذين فكوا رموز هذه النقوش حين وجدوا انهم كانوا اثناء اقدمتهم على العمل يواجهون من حين لآخر بعلامات لا يمكن ان تربط بالعلامات السابقة لها واللاحقة ، اي ان تلك العلامات كانت صورا تمثل فكرة كاملة لا علاقة لها بالكلمات الاخرى . وبالرغم من كل هذا فقد ادركت اسرار هذه النقوش وفككت رموزها ما عدا بعض النقاط المعينة منها . وقد دهش المترجمون اثناء عملهم من التشابه الموجود بين لغة النقوش وبين اللغتين العربية والعبرية بل وحتى بين اللغات السامية

الآخرى . وزيادة على ذلك فان الحاجة الى القاموس الذى يحوزتنا الان، جعلت دارسي اللغة الاشورية يحصلون على معرفة بلغات سامية اخرى لكي يكتشفوا في المفردات الاشورية جنرا فعليا يمكنه ان يعطيهم المفتاح الذي كانوا يبحثون عنه ولا زالت هناك بعض المظاهر غير المعروفة في اللغة الاشورية ولكن يمكن استجلاؤها بالرجوع الى سياقها . واذا ما بذلك جهود لتتبع الكلمة غير المعروفة فانها ستظهر عاجلا أو آجلا في احدى الفقرات وسيصبح معناها واضحا .

ان مثل هذا الفك لرموز لغة معينة لا يعني انه لاقى قبولا تاما لا سيما وان العلامات في هذه اللغة لها قيم مختلفة في مناسبات مختلفة ، او انها تارة تمثل مقطعا متفردا وتارة كلمة باجمعها وبصورة متبدلة .

تقدر اجراء اختبار لترجمة هذا العلم الجديد بشراف الجمعية الملكية الاسيوية في لندن ، واعطي للمشتريتين نص غير منشور فعل كل منهم بطريقه الخاص . وعندما قورنت الترجمات في النهاية وجد انها مشابهة حقا ، ما عدا بعض التفاوت البسيط . وكان هذا الاختبار بداية لسلسلة متواصلة من الترجمات ولم يطل الوقت بالترجمين حتى اصطدموا بنصوص مكتوبة بلغة اخرى .

لم يكن بالامكان تقديم علم الاشوريات دون وجود النصوص المكتوبة بلغتين . وقد اتضح اندماج انه ليس من الممكن النظر في حضارة بلاد بين النهرين دون التعمق في معرفة اللغة والذين يتكلمونها . وكانت اللغة السومرية هي اللغة غير المعروفة ، وكانت لغة شعب اتشا وطور حضارته الخاصة به في الجزء الجنوبي من بلاد بين النهرين وهذه هي الحضارة التي اقتبسها الساميون فيما بعد .

كانت اللغة السومرية لغة مختلفة كلية وذات صفة اسيوية . وقامت

على نفس ميادئها بعض اللهجات التي تختلف عنها ، ولا يزال بإمكاننا ان نجدتها في بلاد القفقاس . لقد جمع العراقيون القدماء وباستمرار ، العدد الكبير من فهارس الكلمات ونظموها بشكل اعمدة متوازية ، وذلک بعد ان واجهوا الاختلافات بين الakkدية والسمورية . لقد كونَ هذا الجمع والتأليف اساس المعرفة الحديثة باللغة . واذ كان الاكديون قد اطلقوا على مدى فضل السومريين الكبير عليهم لكنهم لم يظهروا اي نكران لهذا الفضل . وحتى بعد ان استوعبوا السومريين بصورة تدريجية ، وبعد ان حولوهم الى اقلية سياسية لا يعتقد بها ، زرahlen يحافظون بكل عنائية على الترکة التي تسلموها من السومريين . وقد ضمت هذه الترکة الدين والقانون والمبادئ الفنية والخط بل وحتى اللغة التي اصبحت — اللغة المقدسة — فهي تشبه في هذه الحالة اللغة اللاتينية التي اصبحت مقدسة في الاقطار الكاثوليكية اليوم .

وحالما امكن اتقان اللغة السومورية صارت مفتاحا لحل تقييدات الكتابتين الاشورية والبابلية . وكان السومريون قد فعلوا نفس الشيء من قبل والذي فعله الاكديون مؤخرا . لقد كانت علاماتهم المكتوبة قيمة الكلمات وقيمة المقاطع التي استعاروها من تلك الكلمات . وما دامت اللغتان مختلفتين فقد كانت الكلمات والمقاطع تقرأ قراءة مختلفة . ولا يوضح هذه القضية نرجع الى خطنا الصوري الخيالي فنقول اننا اذا رأينا صورة الحصان فاتنا نقول انه حصان ولكن الفرنسيين يقولون — شغال — وتعني — حصان — ايضا . وليس ثمة حاجة الى الاكتثار من الامثلة ، اذ سيتضح ان بعض العلامات سيكون لها العديد من القيم ، اي المعاني ، سواء اكانت سامية او سومورية . ان كل من يأنس بولوج هذا الميدان سيعشر بالطسانينة اذا ما تسرعنا وقلنا ان العديد من هذه القيم نادر ، وان المرء غالبا ما يجد ان عدد قيم كل علامة لا يزيد ثلاثة او أربعة .

فن الكتابة السرية

لقد كانت طريقة الكتابة معقدة بحد ذاتها ، بالإضافة إلى كونها مسألة تدعو إلى الدهشة . ولكن الكتاب الأكديين أوصلوها إلى درجة عالية عندما راحوا يستعملون فن الكتابة السرية . وقد استخدم هذا النوع من الكتابة بمهارة محيرة ومتناقضه ظاهريا ، وبصورة متعمدة لتشييط همة من يريد قراءتها . كما أن هذا النوع من الكتابة كان يمارس في مصر ، حيث أجرى السيد (يوهان درايتن) دراسة خاصة به .

كانت هناك أنواع مختلفة من الكتابة السرية التي كانت تستعمل في ظروف مختلفة ولكن واحدا من أشهر هذه الأنواع من الكتابة هو ما اصطلحنا على تسميته باسم (الكتابة السرية الخاصة بدن الموتى) .

لقد شارك المصريون سكان العراق القدماء في الزعم بأن قول الشيء كان يساوي في الحال فعل أو خلق الشيء . وقد اعتادوا أن ينشروا على قبور موتاهم مفردات النذور التي كانوا يرغبون في أن يتسللها الموتى . وما دام كل فرد كان قادرا على تحويل قائمة المفردات هذه إلى حقيقة بمجرد قراءتها ، لذلك كان يطلب من المارة أن يفعلوا هذا . وبهذه الوسيلة يمكن الحصول على النتيجة المرغوب فيها . وما دامت هذه الرغبة قد عبر عنها باصطلاحات متشابهة في كل قائمة من قوائم الكتابة الخاصة بدن الموتى فإنها ، أي القائمة ، أصبحت مجرد عمل شكلي لم يعد يسترعي انتباها خاصا . ولو وضع الأمور في نصابها الصحيح ، خطرت لدى أحدهم فكرة لصياغة كلمات كتابة الماقبر باصطلاحات غير مألوفة ، أي استخدام الكتابة السرية مع اعطاء الحروف قيمًا غير مألوفة لكي يدهش المار حين يتطلع ، ولو عرضا ، إلى النصب وغرابة الكتابة ، فيضطر إلى قراءتها دون أن

يفهمها ، وقد يكرر ذلك في وقت من الاوقات ومهما يكن فان الكتابة ستقرأ ، وعندئذ يرثاح الميت .

لقد كان هذا احد استعمالات الكتابة السريّة . اما ما هو اكثـر شـيـوعـاً مـن الـاستـعمـال فقد كان في كتابـةـ شيءـ لا يـقـرـأـهـ الاـ العـارـفـونـ بـهـذـهـ الـكتـابـةـ . مـثـالـ ذـلـكـ كـتابـةـ الصـيـغـةـ الـخـاصـةـ بـصـنـاعـةـ الـانـوـاعـ الـمـخـتـلـفـةـ مـنـ الـزـجاجـ . فـوـقـاـ لـتـلـكـ الـحـقـيقـةـ اـصـبـحـ كـلـ نـوـعـ مـنـ الـعـمـلـ سـرـيـاـ الـىـ حدـ مـعـيـنـ ، وـكـانـ مـثـلـ هـذـاـ الـعـمـلـ يـتـطـلـبـ كـفـاءـاتـ مـعـيـنـةـ ، وـمـرـفـةـ بـنـوـعـ مـنـ الصـيـغـ . كـانـ الـاـحـتـيـاطـاتـ تـتـخـذـ لـكـيـ لـاـ تـنـصـلـ الصـيـغـةـ إـلـىـ اـيـديـ كلـ مـنـ هـبـ وـدـبـ . وـهـكـذـاـ فـاـنـاـ نـجـدـ فـيـ الـحـالـةـ الـخـاصـةـ بـصـنـاعـةـ الـزـجاجـ انـ الـكـاتـبـ اـعـطـىـ لـلـعـلـامـاتـ الـتـيـ اـسـتـعـمـلـهـاـ فـيـ الصـيـغـةـ الـمـكـتـوبـةـ قـيـمـةـ عـفـوـيـةـ بـدـرـجـةـ كـبـيرـةـ . فـمـثـلاـ بـدـلـاـ مـنـ اـنـ يـكـتبـ (ـأـبـاـ -ـأـنــ)ـ (ـa~ba~anـ)ـ (ـالـصـخـرـةـ)ـ فـانـهـ كـتـبـ (ـخـاـ -ـبـارـ -ـأـنــ)ـ (ـHa~bar~anـ)ـ وـتـبـدوـ هـذـهـ عـدـيـمـةـ الـعـنـيـ لـمـ لـيـسـ عـنـدـهـ مـفـتـاحـ لـهـذـاـ اللـغـزـ الـخـاصـ .

والكتابات الاشورية والبابلية مليئة ليس بهذه الخطوات المضللة عمدا بل بحالات نجد فيها وجود علامة مكان علامة اخرى في كتابة كتبت على استعجال ودون عناء . فمن المألوف مثلا ان نجد في الواح الوصف عدم اتفاق الاعداد الفردية والمجاميع . ولقد حاول علماء الاشوريات في حالات معينة ان يقنعوا انفسهم بالقول انه يجب اضافة العلامة التي تظهر بانها ذات قيمة غير مألوفة الى المعاني المقبولة . ولقد ظهر هذا القول مضللا الى درجة جعل البعض يحمل ابحاثه ابعد من مجالها ، فابتكر قيمتا جديدة لما كان في الحقيقة مجرد اخطاء ارتكبها الكاتب من جانبه . فنحن مثلا اذا ما رأينا كلمة - Platler - مكتوبة هكذا - لا نستطيع ان نقول ان هذه الكلمة تكتب في ظروف معينة كما في الشكل الثاني وانما التفسير هو ان الكاتب لم يتمكن من اعطاء الهجاء الصحيح للكلمة . وكبدأ عام فانه

ما من عالمة اشورية لم يعرف عنها الا مثال واحد ، يمكن ان يسلم بامكانية الوثوق بها ، كما ان كل قيمة جديدة تنتج من استعمال عالمة متماة تماثلا شديدا مع ما هو متوقع ، يجب ان ينظر اليها على اساس انها مشكوك في اه

مكتبة آشور بانيالي

يتضح مما مضى انه توجب على الكتاب ان يكرسوا وقتا كثيرا لاتقان مجموعة كبيرة من العلامات التي فوق عدد علامات لغة المتدربين الصينيين والتي اوجبت على كتابها اتقان علاماتها . ويتضح ايضا انه لم يكن يملك ناصية الكتابة الا القلة ليس الا ، مما جعل من الكاتب عنصرا حيويا في الحياة الفكرية او التجارية للمجتمع . ولذلك فأنتا عندما نجد الملك (اشور بانيالي) يفخر مثلا بمعرفته التامة بالخط المساري يكون من الانصاف ان يتم بالبالغة اذ ليس لديه الوقت الكافي لاتقان هذا الخط .
نعم كان عند الملك ذوق ادبي خالص لا ننكره . وهذا هو الذي جعل العاهل الاشوري متحمسا للحفظ على كل المعرفة في زمانه على الرغم مما عرف من تورطه في اخطاء المباهاة والفضاضة والقطاعة والتخريب الشنيع اثناء حملاته العسكرية . ان هذا الذوق الادبي هو الذي جعل (آشور بانيالي) يبني مكتبة في قصره حملت اسمه . وأقرارا بالواقع فانه لم يكن الملك الوحيد الذي ادرك فكرة تكوين مجموعة من الألواح التي كان يجب ان تضم كل فروع المعرفة آنذاك . فقد سبقه في ادخال هذه الفكرة الكثيرون ومنهم سرجون الثاني مؤسس السلالة الحاكمة . ولكن عمل (اشور بانيالي) هو الذي اتم المهمة بنجاح ووسع مجالها بطريقة لم يسبق لها مثيل .

تألف المكتبة ، بعد ان نقلت الى لندن احد الكنوز الرئيسة في المتحف البريطاني . ولا حاجة بنا الى ان نعيد وصفنا للألواح وكيف جرى حساب

ان اروع قطعة ادبية هي طرفة (الخليقة) وهي بالنسبة لنا تحتوي على فائدة لا تقدر لتمثيلها المبدأ الرسمي عند العراقيين القدماء أثناء المهد الاشوري الحديث وهذا لا يعني ان هذا كان المبدأ الوحيد الشائع . ذلك لأنه ، بمضي الوقت ، اقرت العديد من المراكز الدينية مجموعة من المعتقدات ولكن معرفتنا بها متفرقة كما انها اقل تمثيلاً لل الفكر المعاصر من المثال الذي عندنا في مكتبة اشور بانيال وهو ملحمة الخليقة . وغالباً ما تعرف هذه الملحمه باسم (متى٠٠٠٠ في السماء) وقد اقتبس هذا العنوان من الكلمتين الاوليتين الافتتاحيتين وال موجودتين في الرقيم الاول من رقمها السبعة .

ـ تخبرنا هذه القصة ، وهي كالقصص الأخرى الضاربة في القدم ، انه لم يكن في البداية الا (كاوس) (محيط الماء) مع (ابسو) (الماء الحلو) و (تيامات) (الماء المالح) وفي هذا الوقت لم يكن للسماء اي اسم ، كما لم يكن أي اسم لاي مكان تحت ولم يعط كذلك أي اسم ، أي لم تتم تسمية اي من الآلهة(*) .

ـ وشرع بعدها بتعريف مبادئ الطبيعة وولد لخمو (Lakhmu) وزوجته لخامو (Lakhamu) من ابوبن اصلين . ونحن لا نعرف شيئاً عنهم . ويمثل لخمو ولخامو مرحلة واحدة حسب في عملية تنظيم العالم التي ما زالت غير كاملة . وقد ولد لهاما اطفال وكان أولهم مومو ثم انشار ثم كيثار الذين يشكلون السموات والارض ، واخيراً الآلهة الثلاثة الذين يقفون على قمة مجمع الآلهة البابلي وهم - آنو - آله السموات ، وائليل رب الهواء (والذي سيصبح رب الارض بعد ذلك) ثم - ايا - آله المياه والهاوية التي تحيط بالعالم وهو من ابناء آنو . ولأسباب وبطرق لا نعرفها تخبرنا الملحة أن الآلهة الثلاثة وذریتهم يصيرون موضع كراهة مريرة جداً

(*) اي لم تظهر الى حيز الوجود بعد .

عند (آبسو) و (تيامات) (ولعل سبب ذلك انهم يملكون النظام الذي يعاكس الفوضى)، وقد خطط الآلهان للتخلص من ذريتهما على الرغم من ان المبادرة جاءت من (آبسو) و (مومو) وحين كانت (تيامات) قد استبعدت من هذا المخطط فأن الآلهة الصغار قد حذروا في الوقت المناسب واتخذوا الاجراءات المضادة واستطاع - ايا - بفضل قوته السحرية ان يقهر (آبسو) و (مومو) فيقتل الاول ويسجن الثاني . واشتد حنق تيامات وتجاوز به حدوده فولدت احدى عشر جباراً مربعاً وهم الذين مستخدمهم في اخضاع خصومها وكان (كنغو) احد هؤلاء الجبارين والذي اصبح زوجاً لتيامات . ثم قدر له ان يصبح زعيماً ، وأثناء هذه الفترة الطويلة ولد ايا (ولد وهو (مردوخ) الذي يلعب دوراً في الاساطير البابلية ويشبه هذا الدور دور آشور في الاساطير الاشورية ، وقد ولد مردوخ في قاعة الحكم المعروفة باسم (آبسو) . لقد كان مردوخ اعجبوبة منذ ولادته . فهو حكيم الحكمة وأكثر الآلهة ثقاقة وقد ولد في وسط (آبسو) المقدس . وكان هيكله هائلاً ، ويريق عينيه ساطعاً ، وكان مولده مولداً للرجل القوي . ومنذ اليوم الاول وهو يستطيع ان يلد اطفالاً . وأبعاد جسمه غير مناسبة للفهم الانساني وصعبة القياس . واربع كانت عيونه . واربع كانت آذانه .

عندما كانت «تيامات» في المخاض ، اكتمل نمو جسم مردوخ ولكن بالرغم من ان قوى - ايا - السرية كانت كافية لقهر (آبسو) فلا هو ولا (آتو) كانوا قادرين على مواجهة تيامات . ثم اشترك كل الآلهة ، مساعدة تيامات وجيشه كنغو ، في تهيئة القوات ضد تيامات وأتباعها ، ويحتسب الآلهة ل تستبق دفاعهم ، ويشربون من اجل تشجيع انفسهم ، ويبالغون في الشراب والموسيقى الجميلة . ويقبل مردوخ اقتراحهم الذي يدعوه ان يكون زعيماً ، ولما كان مردوخ لا يقل ذكاء عن أبيه فأنه طرح شروطه الخاصة

والداعية الى وجوب منحه سلطات قوية تفوق سلطات الآلهة ، ولا يعصيه .
احد فيما يتغذى من قارات ، وان يكون بيديه تحديد المصائر . ووافق .
الآلهة على شروطه واعطاه كل منهم السلاح الذي يستمد منه قوته .
واعتبرت هذه المناسبة الوقت الصحيح لاختبار الرداء لاثبات وجود
سلطات مردوخ .

و قبل الاشتباك راح المتخاصمون بشتم بعضهم البعض . وهما مردوخ ،
اسلحته وكان قسم منها عاديا ، في حين يعتمد القسم الآخر على قوى الطبيعة .
وهي الرياح الاربع والصواعق والزوابعة . ولم تنتفع - تيامات - بقوتها
السحرية فقذف مردوخ بشبكته عليها ، وعندما فتحت فمها لتبتصر اللهب ،
استغل مردوخ الفرصة ليقذف احد الرياح الاربع في داخل فمها ، ثم راح
مردوخ يغنى اغنية النصر فوق جنة العدو المقهور ، ثم شق مردوخ جسم
تيامات الى نصفين كما شق الصدفة . وقد صنع السماء من أحد النصفين .
وصنع الارض من النصف الآخر . وفي السماء ثبت العدو الحقيقي للآلهة
الثلاثة الكبار . لقد وقع كنگو اسيرا منذ البداية فاسترد مردوخ منه ألواح
المصير التي كانت بحوزته .

وبعد ذلك يستمر الحديث في وصف النظام الذي فرضه مردوخ على
السماء . اما الرقيم الخامس فإنه ولوسوه الحظ محطم جزئيا وهو يحتوي
على وصف موجز للمعرفة الفلكية في ذلك العهد .

وبعد هذا الاستطراد تعود القصة من جديد فتذكر ان مردوخ اقترح
ان يخلق كائنا اسمه «الانسان» وواجبه هو خدمة الآلهة وهم في راحتهم
وتم خلق الانسان ولكن العملية تطلب الدماء التي تم تجهيزها من قبل كنگو
الذي تم قتله . ثم قسم مردوخ الآلهة الى جماعتين ، جماعة السماء وجماعة
العالم الاسفل على التوالي .

واعترافا من الآلهة لمدوح بالجميل منحوه (ايساغيلا) أو معبد بابل . وعندما أشفى كل الآلهة لقيا على مدوخ وهب كذلك حقيقة الوجود للعبد بواسطة تلفظه .

لقد سلح مدوخ في البداية بالقدرة لينطلق إلى المعركة ، أما الآن وبعد أن اتصر فإنه لا يزال يتحكم بهذه القدرة وبالآلهة وذلك كما وعدوه بعد أن جردوا أنفسهم من صلاحياتهم .

هناك تفسيرات أخرى لقصة الخليقة . ولكن النتف المتوفرة لدينا غير كاملة وغير مترابطة وهي لا تظهر أية اختلافات أساسية عن ملحمة (انوما أيليش)^(*) كما نعرفها . يمكن أن نقول عن الملحمة بأنها التفسير المسموح به للديانة البابلية الجديدة . ذلك لأنها تجيب عن كل الأسئلة التي يمكن أن يسألها الإنسان عن أصلها وظرفها الأرضي . وتقول بكل طمأنينة أن الجواب عن كل سؤال يستقر عند مدوخ وقد كررت تلاوة قصيدة الخليقة في احتفال السنة الجديدة . وقد اختلط هذا الاحتفال بتقاليد قديمة أخذت من دين طبيعي .

الطوفان

قصة الطوفان قصة حية في بلاد ما بين النهرين وقد طلبت الشرح والتفسير مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر . ويكتفي عجبا القول بأنها تبدو وكأنها لم تنشر ولم تعاد كتابتها ، كما لا يلعب مدوخ أي دور فيها . وبخلاف من أن تكون قصة الطوفان قائمة بذاتها زراها تتدخل مع ملحمة گلگاماش بشكل قصة يرويها (أوثانا بشم) لأحد زائريه ، ليبين له كيف أنه وزوجته

(*) ملحمة « انوما الش » Enuma Elish هي ملحمة الخلق لدى البابليين وتصور كيفية خلق العالم . والكلمتان « انوما الش » ليستا عنوان الملحمة بل هما بدياتها ، وتعنيان « عندما في السماء » .

صارا خالدين . والرواية الكاملة لهذه القصة تملأ الرقيم الحادي عشر من ملحمة گلگامش . ولكن هناك قطع اخرى توحى بوجود قصائد كاملة عن دورة الفيضان في فترة معينة .

لقد تقدم الزمن على مدينة (شروبالك) الواقعة على نهر الفرات ، وتعرف احيانا باسم (فاره) ، وذلك عندما اعتزرت الآلهة ان تغمر الارض بالفيضان . كان - ايها - موجودا في مجلسهم فقرر ان ينذر (اوثانا بشتم) الذي كان تحت حمايته فاقترب من كوهه المبني من الاغصان الجافة والطين وراح ينادي :-

« ايها الجدار ، ايها الجدار ، اسمعني »

« يا رجل شروبالك ابن سفينة »

« اهجر المال واقذ حياتك ... »

« ضع في السفينة كل بنور الاشياء الحية »

« وستقاس ابعاد هذه السفينة »

ثم ينصحه بأن يجعل الثروات في الداخل ، وهذا امر فيه من الفراية ما يكفي . وسأل اوثانا بشتم الآله قبل البدء بالعمل عن العجواب الذي يعليه اذ ما سئل عن العمل الذي يعمله ، فقيل له ان عليه ان يقول ان (اتيل) كان معديا له ، وانه يريد ان يعيش في المكان الذي يحكمه « ايها » ولكي يخفف من شكوك السكان فأن اتيل سوف يجعل (كاكو) (وكتو) يمطران عليهم مطرا غزيرا (وهذه استعارة في غاية السمو لأن (كوكو) تعني صوت العجوب عند الطعن كما تعني المصيبة . اما كبو فتعني العجوب والاسى) ثم يجيء وصف موجز ل揆بات الظروف عند بناء السفينة وظهور الابعاد المسجلة ان السفينة كانت مثل صندوق مسقف والذي ينقسم من الداخل بصورة افقية وعمودية ويطلق هيكل السفينة بطبة من القار لكي

لا ينفرد منه الماء وبعد ذلك تقام مأدبة تكريما للعمال ويوضع أوثانا بشتم اهله وأملاكه في السفينة ويركب هو كذلك ويلفق الباب حال ما تبدأ الامطار بالسقوط ، وكان انهمار المطر جارفا كما كانت الرعد تهدى والبرق يومض ، وبسببت الغيوم ظلاما شديدا و تتقول القصيدة ان الالهة كانوا يرتجفون في السماء من مشهد الاعصار فيهربون عائدين الى سماء - آنو - نَم يجتمعون كالكلاب خائفين من الحائط (السماء) . وتصرخ الالهة - عشتار - كالمرأة عند المخاض وتقول :-

ليتحول ذلك اليوم السابق الى طين لاني امرت بالشر بين جماعة الآلهة او كيف أستطيع ان اصدر اوامر بتدمير شعوبى - أنا وحدي التي اخرجت شعبي ليملا البحر كالاسماك الصغيرة ؟ »

وطللت العاصفة والرياح هائجة ستة ايام بلياليها وعندما هدأ كل شيء فتح - أوثانا بشتم - النافذة فرأى ان السفينة تستقر عند جزيرة ، ولم تكن هذه الجزيرة في الحقيقة الا جبل « نصير » . وظل هناك ستة أيام دون ان يتحرك ثم ارسل حمامه وبعدها سنونو فرجع الاثنان الى السفينة ، واخيراً أرسل غرابا ولم يرجع فاطلق سراح الحيوانات وقدم قربانا على قمة الجبل . وتمضي القصيدة قائلة :-

(القد شمت الآلهة رائحة الطعام الحلو فتجمعت كالذباب على القربان) وهنا تتدخل عشتار لتقول انه يجب على كل الآلهة ان يشاركونا في اكل القربان الا - اليل - الذي اطلق الفيضان من عقاله وبلا تعقل . وهذا يصل - اليل - وعندما رأى السفينة قال ان هناك اشخاصا هاربين ، فأجابته - نمورتا - باقتراح قالت فيه ان « ايا » وحده قادر على توجيه الانذار لمن هرب ، اما - ايا - الذي سبق ان عرفنا دوره في القصة ، فيجب قائلًا :-

«اما بالنسبة لي فاني لم اكشف سر كبار الآلهة الى اوتانا بشتم . لقد جعلته يرى رؤيا وبذلك سمع سر الآلهة » . وبعد ذلك اصدر — اليل — امره القاضي بان يكون اوتانا بشتم وزوجته من الخالدين ، وان يسكننا في منطقة نائية عند مصب النهر .

ان ما يذهل القارئ هو الصورة الحية لشخصيات الآلهة التي تضفي عليها صفات الانسان البدائي كما يذهب القارئ من الصراحة في وصف هياجها وغضبها ، ثم في وصف شروح — ايا — .

لقد استقرت فكرة — الطوفان — في ضمير كل العالم القديم وتحتفظ الكثير من البلدان بمختلف القصص عنها . والمعتقد بصفة عامة ان القصص المتداولة في بلاد بين النهرين ترجع في اصولها الى الفيضاقات القاسية وغير العادلة للنهرتين الكبيرتين في تلك البلاد (دجلة والفرات) .

يقدم السيد (ج . دي مورغان)^(*) ، وهو خبير جيولوجي ، رأيا يقول فيه ان هذه القصص تخلد ذكرى فيضان حدث في آخر عصر جليدي ويرجع تاريخه الى عام (٨٠٠٠ ق . م) وانه كان لهذا الفيضان اثر واسع النطاق الى درجة لا يمكن نسيانها .

هناك مجموعة من القصائد الوصفية التي تصور المراحل المختلفة لنشوء وتطور الدين عبر فترات زمنية طويلة ، كما تصور تمركزه على نوع خاص من المعابد ومن هذه القصائد قصيدة (انوما ايليش) التي تشرح الدبر القيادي الذي لعبه هذا الاله او ذاك .

(*) جاك دي مورغان J. De Morgan عالم فرنسي وطبيعي ترأس البعثة الاشربية الفرنسية التي بدأت التنقيب في مدينة « سوسوة » عاصمة الفرس الاخميين سنة ١٩٠٢ وقد عثر على مسلة حمورابي التي تضم شريعته الشهيرة ونقلها الى متحف اللوفر في باريس . وكانت هذه المسلة من بين المئويات التي نقلها العيلاميون اثناء استيلائهم على بابل سنة ١١٥٧ قبل الميلاد .

لدينا قصة اخرى عن الخلية من معبد « نفر » حيث كان يتبعه
 - اثيل - (بعل القديم) و (نليل) زوجته وذلك اثناء العهد الذي فقد
 فيه (آنو) اهميته ، وقبل ان يستسلم فيه اثيل لبعل مردوخ . ويساهم
 في هذه القصة الآلهان (آنو) و (اثيل) والالهة (نيناه) ويقال انهم
 كانوا مسؤولين عن وجود الكائنات البشرية على الارض ، وتعرف هذه
 الكائنات باسم - الرؤوس السود - وهذه كنية لا زال معناها الدقيق غير
 مقرر ، ولعلها تشير الى لون شعر السومريين او يتحمل انها تشير الى التقاطيع
 البرونزية . واما ما صرحت به هذين التفسيرين فانها ستنظر ان السومريين
 كانوا على اتصال مع شعوب شقر الشعور او البشرة . واما اذا لم يكن
 التفسيران صحيحين فان من المحتمل ان يبدو لونهم عاديا تماما وغير مشهور .
 ويعتقد العديد من الباحثين ان السومريين جاءوا من منطقة كثيرة التلال
 غير محددة ، اذ لم تقل انها منطقة جبلية حقا .

اساطير - ذو - والتنين - لا بو

تنتهي هاتان الاسطورتان الى مجموعة اساطير نفر وتدور الاولى حول
 الانسان الطير ، ذو(**) ، السارق الطبيعي ، والذي استغل فرصة وجود
 (اثيل) في مرفق الماء حيث كان يغسل بالماء الصافي تاركا عرشه ونازعا
 تاجه الذي هو شعار سلطته ، لكي يحصل على رقم المصير التي كان اثيل
 حامي حماها ، ثم يسلب اثيل سلطاته .

لم تتبع الخطة لأن الآلة قررت الاشتراك في عملية مطاردة اللص .
 ومن الممتع ان نلاحظ العدد الذي وقف عندها مؤلفو هذه الاساطير الذين
 كلما وجدوا دافعا للكتابة كرروه . نجد في هذه الاسطورة ، كما في اسطورة

(*) يعتبر ذو طير الصاعقة في الاساطير المراقية القديمة .

(انومالش) ، ان الآلهة تفسح المجال أمام (زو) فتبعد عن طريقه وطريق اتباعه وبالرغم من ذلك فإن الذي قسر القاء القبض على زو هو ألهه (لوگال بند) (الذي ييدو انه ملك وله صفات الالوهية) . وقد قرر هذا الآله ان يلقي القبض على (زو) عن طريق اقامة وليمة يدعوا اليها (زو) مع زوجته وابنه . ونجد ان هذا الموقف يتكرر في اسطورة (التعبان العظيم) (اللو يانكاس) وهذه الاسطورة من الاساطير الحثية . نعود فنقول انه بدلا من مخاطرة القيام بهجوم مباشر على (زو) قام الآله المكلف بالاتقام بدعوته الى الوليمة ، فجعله يشرب ويشرب حتى تتمكن من السيطرة عليه .

لدينا بعض الاختام الاسطوانية التي يظهر عليها الانسان الطير ، ويحمل انه (زو) نفسه ، وهو يقاد الى آله جالس على عرش ويصدر حكماما . وهناك ترجمة بابلية لهذه القصة تجعل من مردوخ متغلبا على زو . وبالتالي يتلقى الآله لقب - محطم جمجمة الطير زو - .

أما اسطورة التنين - لا بو - فإنها تروي لنا كيف سيطر الرعب على الآلهة حين رسم الآله - الثليل - في السماء رسمًا على غرار التنين الذي عاد الى الحياة . ونجد في هذه الاسطورة انه لم يجرأ سوى الله واحد من الآلهة على الاصطدام بالحيوان المولود ومن ثم ذبحه ، وظل الدم يجري لعدة سنوات . ان جبكة القصة ليست مألوفة حسب بل أنها تلقي ضوءا على عملية خلق مخلوق حي . فالآله الخالق يحدد الطبيعة التي ستكون عند المخلوق حينما يأخذ شكله النهائي في مخيّلته ، ثم حينما يعطيه اسمًا . انه يرسم شكله الذي يكاد يحصل بواسطته على الحياة الكاملة وتحتوي ملحمة كلّكامش على عملية خلق مشابهة فعندما ارادت الآلهة (أرورو) ان تخلق (انكييدو) فأول ما فعلته أنها خططت له في عقلها ومن ثم رسمت الخطوط العريضة لشكله العام على الارض عن طريق كتلة من الطين وتنفخت الحياة في هذه الكتلة بعد ذلك .

القصيدة المسماة (الهبوط)

تنتهي الى مجموعة قصص اثيل اسطورة اخرى في غاية الغرابة والتي اعتبرها مترجمها الاول - س . لونగدون - S . Longdon - خطأ بأنها قصة هبوط الانسان . وبالرغم من ان القصيدة تزخر بالغموض الا انه من الممكن اعطاء وصف عام عنها . لقد عاشر اثيل (نينيل) وآلهة أخرى ،عاشرة جنسية ، وتتج عن هذه العاشرة العديد من البنين . اما تائج ذلك على الارض فهي انتاج المطر والفيضان وخصوبة التربة ، واصحاب المائولات البشرية . والحقيقة أن هذه القصيدة من اكثرا الساطير شيوعا ، كما انها تقدم مثلا عجيا عن اقدم المعتقدات التي يرجع تاريخها الى عهد يوجد فيه دين يعاني من عملية التغير بأقتراب فجر التاريخ .

اسطورة نينورتا Ninurta)

تضفي صورة غريبة على اسطورة (نينورتا) ابن الليل وترتبط هذه الاسطورة بجموعة اساطير وقصص (نفر) . وتخص هذه القصيدة الكفاح الذي خاضه الآله ضد اعدائه . كما ان فيها ذكرا لبعض انواع الصخور التي قيل عنها ان البعض منها قد حارب من اجله كما حارب البعض الآخر ضده .

لقد كانت هذه الصخور قبل القتال بلا اسماء . اما بعد الاتصال الذي حققه (نينورتا) فإنه قد وهبها الاسماء ، (اي انه ثبت وجودها الفردي) كما اعطتها احسن الصفات المختارة ، واعترافا بجميل الصخور التي حاربت الى جانبه ، فإنه جعلها ثمينة جدا . فصار منها الرخام ، وحجر الازورد والحجر البلوري والمرمر . و تستعمل هذه الاحجار في زخرفة القصور والمبادر . اما الصخور التي حاربت ضده فقد أصبحت من ارخص

مواد البناء أو أنها كانت تستعمل في بناء عتبات الأبواب وهي وبالتالي تدوسها الأقدام فتصبح كثيبة وغير محترمة ولا مشرفة .

تستدعي القصة وجود تعليقين يقول الأول منها ان القصة لا تقدم أي دليل عن قوة الاحساس عند العراقيين القدماء بالنظام الذي ينطوي عليه الكون ، والذي لا يمكن ان يوجد شيء فيه بلا سبب . اما التعليق الثاني فيقول ان القصة تظهر كيف ان عيون العراقيين القدماء لم ترض عن الحدود التي كانت قائمة بين مختلف انواع الوجود الطبيعي وانهم اعتبروا هذه الحدود سيئة التعبين .

تمجييد عشتار

قد يبدو عصر سيادة (آنو) طويلا وهو يتطابق مع عصور ما قبل التاريخ وكذلك مع المصور التاريخية المبكرة ولهذا فليس لدينا الا الادلة القليلة عن هذا العصر . وقد يكون احد هذه الادللة نتيجة الجهد اليائسة التي بذلها كهان (الوركاء) ، مركز عبادة آنو ، لمقاومة النفوذ المتامي للآلهة العدد في الوقت الذي كانت فيه عبادة آنو تعاني الانحطاط .

تناول القصة موضوعة البحث كيف ان (آنو) اشرك الآلهة عشتار في تاجه ، بعد فترة طويلة من حبه لها ، واعتراضا منه بجميلها فقد رغب في ان يرفعها الى نفس درجة المساواة معه ، ولقد اشركها في تاجه اطاعة لنصيحة الآلهة . لقد اقترح مجتمع العائلة السماوية وبالاجماع ان عليه ان ينظم مكانتها فنفذ ذلك متحصنا بهذا الاجماع ثم امر بأن يكون اسمها بعد الزواج (اتو) وهو صيغة المؤنث لـ - آنو - وهذا يشبه تماما - تليل - صيغة المؤنث لأنثيل . وبعد ان مجدت عشتار وبجلت بهذه الطريقة احتلت مكانا مهما في السموات حيث كان آنو يقيم من قبل ثم شخصت بالكوكب السياط (الزهرة) .

يأتي ذكر العالم السفلي في صييم الكثير من الاساطير وتقابل مناطق هذا العالم في اهميتها السموات ، كما يشكل ذكر احدى هذه المناطق جزء من الرقم السماوية التي اكتشفت في تل العمارنة من صعيد مصر . وعند مقارنة ترجمات هذه الرقم مع بعض القصائد وعلى الاخص ملحمة گلکامش، تقدم هذه المقارنة برهانا على الشعبية الواسعة للأدب البابلي في كل انحاء العالم القديم .

تخبرنا القصة موضوعة البحث كيف ارتبط (نيرگال) بريبيبة الجحيم التي كانت ملكتها (ارشكىگال) وهذه إملكة هي اخت عشتار . وبالرغم من انها كانت ملكة وآلهة لكن يبدو انها كانت ايضا من سجناء — أراللو — (Arallu) وهو الاسم الذي يطلق على العالم السفلي والذي عرف ايضا باسم — الارض الرحيبة — او — ارض اللاعودة — وهذا ما ترمي اليه الحقيقة القائلة بأنه عندما أرادت الآلهة ان تجتمع على وليمة ارسلت رسالة الى (ارشكىگال) تدعوها فيها الى الوليمة قائلة لها انها اذا لم تستطع المجيء فلترسل رسولها لكي يأخذ لها حصتها من المأدبة . وبناء على ذلك ارسلت (نامтар) (المصير) لينوب عنها وهو في نفس الوقت (عفريت الوباء) وعندما ظهر نامtar بين الآلهة قام الجميع احتراما لسيده باستثناء الآله (نرگال) وحده . وعندما رجع نامtar الى الجميع شكى امر الشكوى من هذه المخالفة ، فأرسلته (ارشكىگال) مرة ثانية وهو يحمل امرا بوجوب تسليمه (نيرگال) لكي يقتل . وحينما ظهر (نامtar) ثانية بين الآلهة لم يكن (نرگال) هناك وبذلك لم يستطع (نامtar) ان ينجز مهمته . ولكن الآلهة حذرت نيرگال فبادر بالذهاب الى الجميع برقة المغاريت . وبعد ان وضع حراسا عند كل باب من الابواب

التي سيسجل عليه المرويـب منها راح يماجم (اريشكـيكـال) جاراً ايـها من شعرـها ثم سحبـها من فوق عرـشـها وظاهرـ بأنه يريدـ ان يقتلـها . لقد تلاـشـ كلـ غرورـها في الحالـ واخذـت توسلـ الى قـاهرـها لـكي يـقـيـ على حـياتـها وعرضـت عليهـ الزواـجـ منهـ وانـ يجعلـهـ قـريـنـها المـلكـيـ وقدـ حدـثـ هـذاـ بالـفـعلـ . وفيـ ملحـمةـ گـلـگـامـشـ سوفـ نـرىـ انـ عـشتـارـ ، وهـيـ اختـ اـريـشكـيكـالـ ، تـعرضـ هيـ الاـخـرىـ مـشارـكتـهاـ فيـ السـلـطـةـ وـالـمـالـ عـلـىـ الـبـطـلـ الـذـيـ تـرـغـبـ فـيـ رـغـبةـ عـاطـفـيةـ .

هـبوـطـ عـشتـارـ الـعـالـمـ السـفـليـ

كانـ العـالـمـ الـأـسـفـلـ هوـ المـوـحـيـ ايـضاـ باـسـطـورـةـ (عـشتـارـ) المشـهـورـةـ وـجـيـبـهاـ تـمـوزـ . ويـبـدـوـ انـ هـذـهـ اـسـطـورـةـ حـصـيـلـةـ مـزـجـ بـيـنـ اـسـطـورـتينـ قـديـمـتـينـ مـتـمـيـزـتـينـ ، تـخـصـ اـحـدـاهـمـاـ (دـمـوزـيـ) (تـمـوزـ) (الـهـ الـحـبـوبـ) وـالـذـيـ يـمـوتـ كـلـ سـنـةـ ثـمـ يـعـودـ الـىـ الـحـيـاـةـ مـنـ جـدـيدـ .

وهـنـاكـ روـاـيـةـ أـخـرىـ تـنـفيـ عـنـ الـمـوـتـ ، وـتـقـولـ انهـ كانـ يـقـسـمـ حـيـاتـهـ بـيـنـ مـرـاقـقـ الـآـلـهـتـينـ ، فـيـقـضـيـ نـصـفـهاـ فـيـ الـعـالـمـ السـفـليـ حـيثـ تـمـضـيـ الطـبـيعـةـ الشـتـاءـ نـائـمـةـ ، وـيـقـضـيـ النـصـفـ الـآـخـرـ ، فـيـ بـداـيـةـ الـرـيـبـ ، عـلـىـ الـأـرـضـ ، وـقـدـ اـزـدـادـتـ مـحـتوـيـاتـ هـذـهـ اـسـطـورـةـ بـعـدـ اـنـ اـضـيـفـتـ إـلـيـهاـ اـسـطـورـةـ هـبوـطـ عـشتـارـ الـىـ الـعـالـمـ السـفـليـ وـلـاـ تـذـكـرـ النـسـخـةـ الـأـصـلـيـةـ مـنـ اـسـطـورـةـ ايـ سـبـبـ لهـذـهـ الـرـحـلـةـ كـمـ اـنـهـ لاـ تـعـيـنـ الـمـدـفـ المـقصـودـ مـنـ الـاـتـيـانـ يـتـمـوزـ الـىـ الـعـالـمـ الـعـلـوـيـ وـيـذـكـرـ هـذـاـ الـمـدـفـ بـصـورـةـ غـامـضـةـ فـيـ عـهـدـ مـتأـخـرـ وـتـجـريـ وـقـائـمـ النـسـخـةـ الـتـيـ بـأـيـدـيـنـاـ كـالـآـيـيـ :ـ

قررتـ عـشتـارـ الـهـبوـطـ الـىـ الـعـالـمـ السـفـليـ دونـ الرـجـوعـ الـىـ تـمـوزـ . وـعـنـدـ وـصـولـهاـ الـىـ هـنـاكـ كانـ عـلـيـهاـ اـنـ تـحدثـ الـىـ حـارـسـ الـبـابـ . وـبـالـرـغمـ مـنـ اـنـ (اـريـشكـيكـالـ) هيـ اختـ عـشتـارـ الاـنـهـ فـرـحتـ كـثـيرـاـ بـهـذـهـ الغـنـيـةـ ،

وأمرت بادخالها على الفور . وخلال ابواب الجحيم السبعة التي كان على عشتار ان تجتازها كان حارس الباب يعبر عشتار على ان تنزع جزءا من حلتها فنزعت اولا تاجها ، ثم أقراطها ثم قلائدها ومن ثم حمالة الثديين المصنوعة من المعدن الشinin ، ونطاقها الذي يضم تعاوين احجار الولادة ثم الاساور التي كانت في مقصميها وبعدها الغلاطل واخيرا ملابس الحشمة . وهكذا وقت عشتار عارية بين يدي ملكة العالم السفلي . وبعد ان غلبها الغضب وبدون اية لحظة للتفكير ، هجمت على اختها التي امرت وزيرها فامatar ان يطلق على عشتار العذيد من الامراض مثلما تطلق مجموعة من كلاب الصيد .

واذ تجري هذه الاحداث في العالم السفلي كان كل شيء على الارض يجف ويذبل . فالاشجار لا تخضر ، وتحول الحيوانات والكائنات البشرية الى كائنات عقيمة ، أما الآلهة فكانت تبحث حائرة عن وسيلة لتخلص الآلهة ويفلح - آيا - فردا يحكم عليه بأن يكون ضحية فيذهب باحثا عن (أريشكىّال) ويطلب منها ان تعطيه ماء من قربة ماء خاصة . وما لا شك فيه ان هذه القربة لا يشرب منها الا الآلهة . وعندما سمعت (أريشكىّال) هذه الكلمات ضربت على فخذها وغضت أصابعها . وأخذت تلمعن الرسول وتخبره بأنه لن يتناول من الطعام والشراب الا الفضلات ومياه مجاري المدن . واخيرا وبالاحاح من طلبات الرسول تنصاع (أريشكىّال) وتسكب على عشتار الماء الذي يعيد اليها الحياة ، ثم امرت بقادتها عبر الابواب السبعة (وهذا ما يذكرنا بدوائر الجحيم السبعة في الكوميديا الآلهية للشاعر الايطالي داتي) . وعندما كانت عشتار تمر خلال هذه الابواب كانت تسترد البستها وجواهرها عند كل باب .

تحتوي القصيدة ، كسائر القصائد الاخرى ، على العبارات القديمة الجافة والتي تتكرر في كل المحتويات المتشابهة . تقول القصيدة ان الآلهة

سيئي الطباع يضربون افخاذهم ويقضون اصابعهم ويعجزون عن الاجتماع دون ان يشروا الى حد الافراط . ان اللعنة التي تصب على رسول الآلهة تشبه اللعنة التي تصب على عاهرة العبد في ملحمة كلكامش . فالصورة العامة التي تحصل من اساطير بلاد بين النهرين يروى لها اذ نجد العنف عند الآلهة بالإضافة الى شراحتها وجموحها وانعدام الایمان وحقدهما . فهي خلاصة الناس السذج الذين بعث هذه الآلهة من تصوراتهم ، وكما اسلفنا القول فإنه يمكن ملاحظة درجة معينة من التطور في اخلاقهم بعد مضي القرون العديدة . ولكن من المفيد ان تذكر انهم يعطوننا صورة حقيقة عن الانسان المتوسط في حضارة ذلك الزمان .

ملحمة كلكامش

كانت قصة گلگامش تعتبر القصيدة البطولية التي يستطيع قارئها ان يتق من نفسه في السيطرة بواسطتها على سامييه [اللوح ١٩] . اما بطل القصة فقد كان ملك الوركاء في الماضي البعيد والذي بنى المدينة بقصورها ومعابدها وابوابها واسوارها المحيطة بها ، وهذا الاتجاه الذي كان مدعاة فخره وتباهيه ، هو الذي كان يتعرى به عن نهاية مغامراته غير الناجحة .

لقد كان حاكماً جيداً ولكن وطأة حكمه انقلت كاهل الشعب وبخاصة كاهل الزوجات وبناتهن فقد قدمت الصلوات والأدعية بصورة عامة شاملة الى ارورو آلهة الخشب لكي تخلق مخلوقاً يكرس گلگامش له نفسه وبذلك يتحول اتباهه عن رعایاه . تأملت (ارورو) مخلوقها الذي ستعطيه الحياة ، ثم رمت بكتلة من الطين على الارض ، وشكلتها واعطتها الحياة . وهكذا جاء (اتكيدو) المتورث الى الحياة وهو يجهل الحضارة جهلاً تماماً ، وكان جسمه متداعياً ، كما كان يأكل العشب كالغزال ويطفئ ظماء من التقوب التي فيها ماء . لقد كان حقاً حيواناً من جميع الوجوه . احتاج

گلگامش الى القوة التامة للعنصر الآلهي في كيانه للسيطرة عليه (كان گلگامش ثلث انسان وثاثي آله لانه ابن الآله) (نين سن)

ولكن يستقر في اعمق انكيدو عنصر لشيء معين أبعد من كونه مجرد حيوان لانه كان ينقد الوحش من شباك الصيادين ، الذين فيما يتخلصوا منه جلبوا له عاهرة من معبد عشتار ، وهذه بدورها قد هيأته للتمدن بطريقة واضحة امتدت ستة أيام وسبع ليالٍ . فقد قص شعره ، وحلق جسمه وتم دهنه بالزيت ، ولكنها ظل لا يعرف شيئاً عن الخبز ولا عن طعام الانسان أو شرابه . وعندما تذوق الطعام والشراب شرب الشراب المخمر سبع مرات ثم سبع مرات اخرى فسكر نتيجة ذلك وفي النهاية احضرت عاهرة المعبد انكيدو امام گلگامش الذي كان قد اعلم بما سيقع من خلال الاحلام المفطرية التي فسرتها امه له . وادي اول لقاء بين انكيدو وگلگامش الى العنف ، فراحَا يتبارلان الضربات في سبيل الآلة التي تريده ان تشكل اتحاداً مع گلگامش وكان النصر حلif الخصم المترن ، فأعترف انكيدو بالهزيمة واصبح صديق گلگامش ، وانطلق الاثنان في سلسلة من المغامرات تذكرنا بمعامرات هرقل اليوناني ولكن عمر هذه المغامرات قصير (*) .

كانت اولى الحملات الى ارض الارز لحاربة العملاق (همبابا) الذي كان عدواً لدوذا (لشمس) ، لاسباب لا نعرفها . ومن المحتمل ان تحتوي القصة على صدى المحاولات القديمة جداً ، والتي يذلت في بلاد بين التهرين والتي لا تقل عن نظيرتها في مصر من اجل الحصول على الاختساب التي لا تستطيع ترتيبها ان تمدها بها .

(*) هرقل اليوناني : بطل ورد ذكره في الاساطير الدينية الافريقية واعتبر بيتامراته العربية مع الوحش والآلهة .

يكرس قسم كامل من القصيدة لوصف التحضيرات التي استدعتها الحملة وكانت الاسلحة التي اعدها الصديقان لنفسهما تتشابه في الحجم والوزن وهي مناسبة لقتال العملاق . لقد حاول كبار القوم في الوركاء اقناعهما بالعدول عن تنفيذ الحملة التي تخفي مخاطر لا شك فيها . ولكن گلگامش رفض هذه المحاولات بعبارات تبدو غريبة لنا ، ولكنها كانت مألهفة في بلاد بين النهرين فتقول هذه العبارات ان گلگامش يرغب في ان يحصل على الشهرة ، وحماسته لهذا الامر لا تقل عن حماسة امه الآلهة (نين سن) تضرعت الى الآلهة الشمسي لترعى ابنها .

من الجائز ان يتخد وصف الغابة حجة لكتابه جميلة تعطي بضمع صفحات . ولكننا لا نستطيع الا ان نترجم بالغيب فنقول وبما كان الشاعر نفسه موجودا هناك ، او ان الوصف جاء تعبيرا عن عدم الاحساس بالجمال الطبيعي الذي يتميز به الادب الاكدي . ومهما يكن فإن الغابة نفسها مكان مربع ، والغراسة شديدة على مراتها التي يمر بها (خبابا) ، وهذا العملاق وحش جبار ينفث اللهب . ويدركنا هذا الوصف بعبارات (طوروس) في تركيا بيركان ارجيروس (۲۸)(*) الذي ربما كان ما يزال في ثورانه في ذلك التاريخ .

وبعد ذلك نشب قتال استطاع خلاله گلگامش ان يشنل (خبابا) بواسطة اطلاق عدة اعاصير مدمرة عليه ، وقطع گلگامش رأس (خبابا) عندما كان عاجزا عن العركة وسط الاعاصير ، وبالرغم من كثرة توصلاته طالبا الرحمة .

وعند عودة گلگامش من حملته منتصرا قابلته الآلهة عشتار وهو

(۲۸) يعرف الان باسم ارجام داغ .

(*) وهذا البركان يقع في جبل ارجام داغ في الاناضول .

يغادر قصره وعلى رأسه التاج ، ويرتدى ملابسه الجديدة . وكانت عشتار تعيش انذاك في معبدها الارضي مع بطايتها من العاهرات المقدسات . ووقدت عشتار بجانب گلگامش لكي تغريه ، ثم راحت تخبره بقدرتها على رؤية المستقبل ، وقالت له بأنه سيركب في عربة من الازورد والذهب ، ولها عجلات ذهبية كذلك ، ومقدع مرصع بالاحجار الكريمة ، وعندما يصل الى المعبد سيركم الجميع له . ومجمل القول انها كانت تعرض عليه ان يكون آلهها . رفض گلگامش هذه العروض بصوت اجش يحمل الاهانة لعشտار ، والحقيقة أن هذه الفقرة متناقضة تناقضها غريبا مع ما نعرفه عن شخصية گلگامش ، وبأنه يمثل ربها لكل نساء المدينة . بعد ذلك ذكر گلگامش عشتار بعثاقها السابقين العديدين ومصيرهم ، ذكرها يتموز وموته وبالطائر الأرقط التي حطمته هي نفسها جناحيه ، وبالاسد والحسان ، ثم الراعي والبستاني اللذين حولتهما الى حيوانين . ثم يضيف مستفهما :- وانا ايضا ، وبعد ان وقعت في حبي ستعامليني كما عاملتكم .

غضبت عشتار غضبا شديدا ، وصعدت الى السماء لتطلب من ايها - آنو - ازو " لموت بـ گلگامش ، ولكن اباها ، مثله مثل - أرورو - وبقية الآلهة الدين تصورهم هذه القصائد ، لا يتخذ عملا مباشرا ، بل انه يغلق ثورا سماويا لا يستطيع السيطرة عليه حتى مئات الرجال . ولكن گلگامش ينجح في قهر ذلك الثور ، اما عشتار التي كانت تراقب الصراع من شرفة المعبد فانها تلعن گلگامش فيرد عليها - انكيدو - بتمزيق احد اطراف الثور ، وقدفه على رأس عشتار ثم يصبح :- « لو امسكت بك للفت احشائه حول عنقك » .

وبناء على ذلك راحت عشتار ومعها خدمها تندب موت الثور ، في حين أحضر گلگامش وعاء ليضع فيه زيت قرني الثور ، لأن هذا الزيت يستخدم في عملية التزييت المقدسة .

وفي الليلة التالية يرى – انكيدو – حاما (وهو يعادل الحقيقة عند العراقيين القدماء) ، فيرى في هذا الحلم اجتماع مجلس الالهة الذي يقرر فيه – انليل – ادانة – انكيدو – بالرغم من احتجاجات شمس ، ويحكم على – انكيدو – بالموت لانه ذبح ثور عشتار ، مع العلم ان – گلگامش – هو المسؤول الفعلي عن ذلك . وينفذ الحكم في الحال ويصاب انكيدو بالحمى فيندب حياته القصيرة شبه المتوجحة ، ثم يلعن عاهرة المعبد التي اتت به الى الحياة المدنية . ويويجه شمس على نكران الجميل . ولكن ما دامت اللعنة قد لفظت بصيغتها المناسبة فانه يقبل الالتزام القاضي بجعلها سارية المفعول ، فيتحول عاهرة المعبد الى شجرة – البستول – . واخيرا مات انكيدو ، فرثاه گلگامش بهذه الكلمات التي تذكره بما ترثها :-

« قد قبضنا على الشور السماوي وقتلناه »
« نحن ذبحنا – خبابا – الذي عاش في غابة الارز »
« اي نوم هذا الذي يمسك بك الآن ؟ »
« لقد اصبحت كثيما ولم تعد تسمعني »

وبعد ان ارتب گلگامش من فكرة مجيء اليوم الذي يموت فيه ، راح يفكر في سلفه البعيد – اوتانا بشتم – (يوم الحياة) وكيف ان هذا وحده ، من دون البشر ، هرب من الطوفان ، وهو يسكن الان مع عائلته في اطراف الدنيا ، ولذلك فهو يضع خطط الذهاب اليه ليسأله كيف يمكنه نيل الخلود – .

يعيء گلگامش اولا الى جبل – ماشو – وهو الجبل الذي ترتاح عنده الشمس كل ليلة ويحرس هذا الجبل الرجل العقرب الهائل . وبعد ان يقتضي الجميع بان گلگامش اكثر من نصف آله ، يصفون له الطريق الظليل

المؤدي الى الغاية التي يقصدها ، فيمشي في هذا الطريق ، ويصل الى شجرة جليلة المنظر تحمل اثمارا من الازورد . وهذه الشمار هي العنبر الاسود اذ نحن الان مع گلگامش في سوريا . ثم يمضي البطل مواصلا سيره فيصادف امرأة قرب البحر اسمها - سيدوري - وتوصف بانها صاحبة حانة . والوصف الانسب لها هو انها كانت من منتجي الخبرة لان هذا يشكل اشاره الى تجارة الخمور التي كانت تجري مع الساحل . وعندما علمت سيدوري بمخاوف گلگامش تعمدت تبديد اماله قائلة له :-

« انك لن تجد الحياة التي تبحث عنها لأنها جزء من الآلهة ، وإن الموت نصيب البشر » ثم نصحته بأن يسلی نفسه حيث هو وإن يتمتع بالحياة في الوقت الذي يتنتظر فيه يوم موته . وبالرغم من هذه النصيحة فإنها اخبرته بالمكان الذي يجد فيه النوتى التابع لاوتانا يشتتم . اذ انه الان قريب من هدفه . ويعرف هذا النوتى باسم - اور - شنابي (Ur - Shanabi) (خادم الثنين او خادم - ايا -) .

نحن نعرف ان الآلهة مصنفة بترتيب عددي يحدد مكانتها ، ويرتكز هذا الترتيب على - آنو - الذي يعتبر رقمه الوحدة الاساسية للنظام الستيني (*) عند سكان بلاد بين النهرين ، ولذلك فان العدد - ٦٠ - هو رقمه ، في حين كان الصد - ٤٠ - رقم - ايا - ولذلك فهو ثالثا - آنو - . كان النوتى ذكيا وكان على هذا النوتى ان يعبر مياه الموت لكي يصل المسافر الى سиде ، وان قطرة من تلك المياه تعني خرابا اكيدا ، ولذلك جعل من گلگامش مساعدًا له في قطع اعمدة طولية يدفع بها الزورق كما يدفع المشحوف بال محمود . كان النوتى لا يستعمل العمود الواحد الا

(*) يقصد بالنظام الستيني ان تكون الـ - ٦٠ - هي الوحدة الاساسية في النظام .

مرة واحدة في دفع الزورق ، ولذلك فانه استعمل ما لا يقل عن مائة وعشرين عموداً لعبور مياه الموت الى - او تانا ييشتم - . واحيرا وصل گلگامش الى - هدفه ، وهناك الخبر - او تانا ييشتم - بالهدف الذي جاء من اجله ، ثم سأله عن الكيفية التي در بها هربه من الطوفان .

ان هذا القسم من القصيدة يشكل ملحمة منفصلة وليس لقصة او تانا ييشتم - التي مر وصفها اي ارتباط عضوي بالعمل الرئيس گلگامش . ذلك لأن - او تانا ييشتم - ساهم ، كما فعل الاخرون ، في تثبيط همة - گلگامش - اذ انه تسأله قائلاً : كيف يستطيع گلگامش ان يأمل في جعل الآلهة تعقد اجتماعاً خاصاً من اجل تحقيق هدفه الوحيد الا وهو الخلود او الحياة الابدية ؟ انه مجرد خاني ضعيف . ولكن يثبت هذا ، امره - او تانا ييشتم - بان يجلس وان يظل يقطأ ستة ايام وسبع ليال ، فلما جلس گلگامش ثام وعندما استيقظ اعطاه - او تانا ييشتم - التجهيزات اللازمة لرحلته ، كما اعطاه مجموعة من الملابس السحرية التي تبقى جديدة دائمة . وفي اللحظة الاخيرة اوضاع او تانا ييشتم ، وبأيماز من زوجته ، لکلکامش قائلاً له ان هناك نباتاً شائكاً في اعمق الماء قادر على اعادة الشباب . وربط گلکامش الاحجار بقدميه مثلما يفعل غواصو المؤلو ، ثم غطس الى القاع وجرح يده جرحاً بليغاً لكنه نجح في سحب النبات الشائك واخرجاه الى السطح ، فصاح باعلى صوته : يسمى هذا النبات (رجع الشيخ الى صباح) ؟ سأكل منه واستعيد شبابي .

وعند عودته الى وطنه رغب البطل في ان يسبح في ينبوع ماء عنبر . وبينما هو يسبح سرق ثعبان النبات منه ، وكان الثعبان قد شم رائحة النبات فجاء اليه . وتشبه هذه السرقة ورقة الواح المصير من - التليل - عندما كان يستحم هو الآخر . ونعود الى الثعبان فنقول ان النبات هو السبب الذي يجعل الثعبان يبدل جلده كل عام لكي يجدو صغير السن دائماً . بكي گلگامش من البكاء وعاد الى الوركاء ، مع النوتني حيث وجدناه .



شيئاً من التأسي ، حين اراه بوتي — اوتانا بيشتم — اسوار المدينة وانوضح له كيفية اتمام العمل بها .

لا تزال القصة غير منتهية . ذلك لأن — گلگامش — يرغب اخيراً في ان يعلم من — انكيدو — عما يجري في العالم السفلي فيظهر له — انكيدو — في المنام ، وينتزع فرصة المجيء اليه والاتصال به ، ولكن — گلگامش — يفعل تماماً عكس ما اقتربه عليه صديقه . ويبدو شيء من التعسف في هذا الامر ، ولا يستطيع — گلگامش — الا ان يدعوه — انكيدو — الى العودة الى الارض ما دام هو نفسه قد اضاع فرصة نزوله الى عالم الاموات ثم يطلب من — اليل — ان يسمح — لانكيدو — بالمجيء الى الارض ولما كان ذلك ليس من اختصاصه فانه عرض الأمر على — سين — وهذا بدوره عرضه على — ايا — الذي وضع الطلب بين يديه — نيرغال — حاكم العالم السفلي والذي اعطى أذناً بعودة روح — انكيدو — الى الارض لبضعة دقائق ليس الا .

تحدو القصيدة حدو القصص البدائية في اسلوبها المألوف والذي يكرره المؤلف بصورة متناقضة ، فيضع نفس العبارات كلمة فكلمة على اساس كونها خارجة من فم كل آله من الالهة ، وذلك عندما يتوالون في ابداء حججه .

تکاد القصة تكون مروية فكـلـکـامـش يـسـأـلـ صـدـيقـهـ بالـحـاجـ وـلـكـنـ انـکـيـدـوـ يـشـمـئـزـ مـنـ الجـوـابـ ، لـاـنـ الحـقـ يـرـهـقـهـ . وـيـصـنـفـ الموـتـىـ الـمـجـمـوعـاتـ مـخـلـفـةـ . فـالـذـيـ مـاتـواـ فـيـ الـعـرـكـ يـحـظـونـ بـتـأـيـدـ اـقـارـبـهـ ، اـمـاـ الـإـنـسـانـ الـذـيـ يـتـرـكـ بـلـاـ دـفـنـ اوـ الـذـيـ لـمـ يـجـدـ مـنـ يـأـتـيـهـ بـالـذـورـ الـخـاصـةـ بـالـمـوـتـىـ ، فـانـهـ يـتـجـولـ بـحـثـاـ عـنـ الطـعـامـ اـذـ لـيـسـ لـهـ الاـ مـاـ يـسـقطـ فـيـ الشـوـارـعـ منـ فـتـاتـ .

وهكذا تنتهي هذه الملحمه بملحظة مثيرة في حزنها كذلك الملاحظه التي وردت في نهاية قصة الطوفان ، كما ان هذه الملحمه تتمتع بشعبيه كبيرة ، وجدير بالذكر ان شذرات مترجمه عنها قد اكتشفت في البلدان التي تناхم بلاد بين النهرين ٠

يأتي الفن في كل ارجاء الشرق الادنى على وصف بعض مآثر گلگامش ولا سيما اخضاعه للكائنات الرهيبة ٠ ويظهر البطل وهو يهاجم من جانبين من قبل أسدين أو ثورين الا انه ينجح في رد الهجوم وجمل الحيوانين تحت رحمته ٠ حيث يمسك گلکامش بالوحش من رقبتها ٠

لقد كان تجميع الاشكال المأخوذة من أحد مشاهد ملحمة - گلگامش - يسطر تأثيره احيانا وبصورة ملحوظة على تناول مشهد - دانيال - وبخاصة حينما يظهر گلکامش وهو يرفع الثور من ذيله ، أو من رجله الخلفية ، ويدوس على رقبته بعقبه وكان - دانيال - يصور احيانا وعلى جانبيه الاسود وقد نكست رؤوسها بشكل واضح ، في حين تبدو يدا - دانيال مبسوطتين ومرفوعتين الى السماء في الوقت الذي تلحس فيه الاسود قدميه ٠

اساطير - ادباء واتانا

تنتمي قصة - أدبأ - بن - ايـا - الى مجموعة القصائد البطولية التي تسمى ، مثل ملحمة كلـكامـش ، الى تقديم العلة الأخلاقية . كان أدبـا - سماـكا يزودـ مائـدة الـآلهـة فيـ المـيدـ بالـأسـماـكـ وـحدـثـ ذاتـ مرـةـ وـيـنـماـ كانـ يـصـطـادـ الأسـماـكـ فيـ اـحـدـ الـخـلـجـانـ انـ قـلـبتـ هـبـةـ قـوـيـةـ منـ رـيحـ جـنـوـيـةـ زـورـقـهـ فـعـضـ . أدـبـاـ - جـرـاءـ ذـلـكـ وـرـاحـ يـلـعنـ الـرـيحـ الـجـنـوـيـةـ قـائـلاـ نـهـ سـاحـطـ اـجـنـحتـكـ ، فـمـاـ كـادـ يـتـسـمـ كـلـمـاتـهـ حـتـىـ تـكـسـرـتـ اـجـنـحةـ الـرـيحـ . وـبـعـدـ سـبـعةـ ايـامـ لـاحـظـ الـآـلهـ - انـوـ - انـ الـرـيـاحـ لـاـ تـهـبـ . وـعـنـدـمـاـ سـأـلـ عنـ السـبـبـ قـيلـ لهـ انـ أدـبـاـ - بنـ ايـاـ - كـسـرـ اـجـنـحتـهاـ ؛ـ فـطـلـبـ آـنـوـ - استـدـعـاءـ - أدـبـاـ - خـطـيرـةـ اـمـامـ الـرـعـشـ لـكـيـ يـقـاضـيهـ عـلـىـ فـعـلـتـهـ وـكـانـ التـهـمـةـ الـمـوجـةـ لـ . أدـبـاـ - جـداـ فـرـاجـ وـالـدـهـ ايـاـ - يـشـيرـ عـلـيـهـ فـيـ كـيـفـيـةـ تـخـلـيـصـ تـسـهـ قـائـلاـ لـ اـنـهـ مـاـ دـامـ انـوـ ، كـمـاـ يـظـهـرـ ، سـوـفـ يـعـدـ اـلـىـ سـنـهـ قـائـلـ عـلـىـ . أدـبـاـ - الاـ يـقـبـلـ الطـعـامـ مـنـهـ . وـزـيـادـهـ عـلـىـ ذـلـكـ اـخـبـرـهـ بـاسـماءـ الـآـلهـهـ الـذـينـ يـحـتـمـلـ اـنـ يـوـاجـهـمـ فـيـ طـرـيقـهـ ، ثـمـ نـصـحـهـ وـعـلـمـهـ كـيـفـ يـتـصـرـفـ تـجـاهـهـمـ . وـيـفـعـلـ . أدـبـاـ - ماـ قـالـهـ لـ - ايـاـ - فـيـظـهـ بـمـظـهرـ الـحـزـنـ ، وـيـلـتـقـيـ عـنـدـ بـابـ آـنـوـ - بـالـمـيـ الخـصـوبـهـ - وـهـمـاـ تـمـوزـ . وـ تـسـيـغـيـذـهـ - اللـذـينـ سـبـقـ اـنـ قـابـلـاهـاـ فـيـ نـصـوصـ اـخـرىـ وـهـمـاـ يـسـكـنـانـ الـعـالـمـ السـفـلـيـ فـيـ اـثـنـاءـ الـفـتـرـةـ السـنـوـيـةـ لـلـمـوـتـ . سـأـلـ الـآـلهـانـ - أدـبـاـ - عـنـ سـبـبـ حـدـادـهـ فـأـجـابـهـماـ قـائـلاـ نـهـ . حـزـينـ عـلـىـ . تـمـوزـ وـنـيـنـكـزـيـدـهـ الـذـينـ نـعـدـهـماـ ، نـعـنـ أـهـلـ الـأـرـضـ ، مـنـ الـأـمـوـاتـ . سـرـ الـآـلهـانـ بـهـذـاـ الجـوابـ وـسـمـحـاـ لـهـ بـالـدـخـولـ ، وـنـجـحـ فـيـ الدـفـاعـ عـنـ تـسـهـ اـمـامـ . انـوـ فـقـرـ هـذـاـ الـآـلهـ تـقـدـيمـ طـعـامـ الـحـيـاةـ لـ . أدـبـاـ - لـكـنـ هـذـاـ ، وـقـدـ تـلـعـمـ الـدـرـسـ جـيـداـ ، لـمـ يـقـبـلـ الاـ رـدـاءـ وـزـيـتاـ لـطـلـاءـ جـسـمـهـ . وـتـيـجـةـ لـهـذـاـ الرـفـضـ خـسـرـ نـعـمـةـ الـخـلـودـ . وـمـعـ ذـلـكـ فـانـ هـذـاـ مـاـثـلـ اـخـرـ عـنـ التـناـقـضـاتـ فـيـ شـخـصـيـةـ - ايـاـ - الـذـيـ اـنـقـلـبـتـ نـبـوـتـهـ إـلـىـ كـلـبـةـ مـدـمـرـةـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـوـنـهـ - رـبـ الـمـرـفـةـ .

لا يتردد مؤلف القصص من عرض الآلهة وهم يحملون نقاط الضعف الانسانية وهو يتركنا نحمل افطاباً بان هذه هي الطريقة التي كان ينظر بها اليهم فالرغم من انهم كانوا اقوىاء الا ان هناك حدوداً لقوتهم ٠

تنتمي قصيدة - إيتانا - Etana الى نفس المجموعة فبطل القصيدة يتحمّس لتخفييف آلام المخاض عند زوجته ، ويلتّس من الآله شمس - ان يهبه حجر الولادة الذي سبق ان واجهناه موضوعاً في نطاق عشتار عند هبوطها الى الجحيم ٠ وينصح شمس - إيتانا - بالذهاب الى الجبل حيث سيجد المساعدة التي يطلبها ، فيفعل - إيتانا - ذلك فيصادف ثعباناً ونمراً اشتراكاً في البحث عن فريسة ، لكن النسر نكث بالهدى الذي قطعه للشعبان ٠ وبالرغم من تحذيرات صفاره له الا انه لا يعبأ بهم فياكل صفار الشعبان الذي منحه شسس النصيحة فيلتف هذا الشعبان على جنه ثور ميت ٠ وعندما جاء النسر ليأكل منها قفر عليه الشعبان فجأة فكسر جناحيه ، وحطّم مغايشه ، وتركه يموت جوعاً على الرغم من توسّلاته ووعوده ٠

هنا يظهر - إيتانا - على المسرح فيقدم الطعام للنسر ٠ وعندما يشفي من جراحه يعرض على - إيتانا - ان يأخذه الى السماء ليأخذ من عشتار طلسم الولادة الذي يرغب في الحصول عليه ٠ ويقصد الائنان الى السماء ، وتبدأ الارض تصفر وتتصفر ، ولكن مسكن عشتار - لا زال يبدو بعيداً فوق سماء - آتو - حيث تحفظ - رموز الملكية - من قبل الآلهة ٠ وبعد أن يعجز - إيتانا والنسر - عن بلوغ مقر عشتار يهبطان الى الارض راجعين اذ ليس من قدرة الانسان ان ينافس الآلهة ٠

القصص الأخلاقية . المعنّب الصالح . الحكمة البابلية :

تعتبر القصيدة المعروفة باسم - المعنّب الصالح - من اشهر القصص الأخلاقية وتبدأ هذه القصيدة بالكلمات :- « سوف أغني لأله الحكمة » ٠

وترتكز هذه القصيدة أساساً على قصيدة قديمة ذات طابع تشاوئي .
لقد أقعد المرض الرجل الصالح ، وقد حيرت اعراض مرضه الكهان واصحاب
التعاويذ على حد سواء ، كما غلت معرفتهم ولم تعد صلواته تجديه فهما
ولذلك فإنه يصبح قائلاً : « لم يدر الي ربي وجهه ، ولم ترفع المتسى حتى
رأسى ولم ينقذني المعز بشعائره ، من الغضب المقدس . لقد حرست
دائماً على الصلاة ولم اختلف عن تقديم النذر واكرمت يوم موكب الألهة ،
ووُجدت السرور في عبادة الملك ، وكانت موسيقاها فرحتي الدائمة » (*) .

لقد ابتعد عنه كل الناس لانه اضاع كل ما كان في حوزته ، ولا نهم
اعتقدوا ان هذا البلاء جاء نتيجة الاثم ، وهنا يجد الرجل الصالح نفسه
لا يستحق اللوم فيقول : « لعل ما يظنه الانسان صالحًا فيحترمه يبدو شرا
عند الألهة » .

وتنتهي القصيدة أصلاً بهذه الملاحظة الكثيبة ، ولكن الشخصية في
هذه القصيدة تتبدل تبلاً جذرياً في اثناء الاصلاح الديني العظيم الذي قام
به السلالة الاولى في بابل . فقد وجد الكهان انه من اللائق اضافه فصل
ثان يستعيد فيه الرجل الصالح صحته واملاكه واحترام زملائه له . وسبب
ذلك ان مردوخ قد اشفع عليه وتختتم القصيدة بالكلمات التي تقول :-

« يستطيع مردوخ ان يهب الحياة حتى في القبر و تستطيع زوجته
(ساربانيت) ان تنقذ حتى من هاوية الموت » .

وثير القصيدة مشكلة جديدة ، ترى هل ينبغي لنا ان نرى اشاره خفية الى
اسرار البداية والاحتفال بها وذلك عندما يقول الرجل الصالح وهو يشير الى ابواب
معبد ايساكيلا المختلفة التي استطاع ان يثبت حقيقه كل اسم من اسماء هذه الابواب ؟

(*) المدب الصالح يقصد به النبي « ايوب » الذي ورد ذكره في التوراة
وفي القرآن الكريم .

«لقد توقف نحبي عند - باب وقف التحبيب - واشرقت شاراتي عند باب المعجزات» . وهملجرا قد يبدو هذا اشاره الى الارتباط الكائن بين اسماء الابواب والاسرار كما ان هذا تأكيد لاشك فيه على جدوى واهمية الاسم الحسن للابواب المختلفة وعلينا ان تذكر ان القابها كانت تعتبر قادرة على خلق السجايا التي تشير اليها هذه الالقاب . وهكذا فانه عندما يمر الرجل الصالح من هذه الابواب يجب عليه ان يرى تغيير طبيعته . وعندما كان مردوخ يسير في موكب خاص بالاحتفال بعيد - اكيتو^(٣٤) كان يلقى التحية كل مرة باسم جديد وذلك عندما يصل الى مكان جديد ، وهكذا فاتنا يجب ان ننظر الى الامور بهذا المعنى لا بالمعنى الشائع المقبول عن الاشارة الى بدء الاحتفالات بالطقس الدينية .

والى هذه المجموعة من الادب التشاؤمي تنتهي الامثال التي جمعت ونشرت تحت عنوان - الحكم البابلية - وقد جمعها ونشرها السيد (س . لانگدون) وتأخذ هذه الحكم صيغة المحاورة بين (سيد) وابناعه من العبيد . (والسيد في التفسير البدائي هو الملك دون شك) وتعالج هذه الامثال مشاكل الحياة اليومية وغالبا ما يتافق ما تستنتجه مع ما يتوصل اليه الرأي الحديث .

(٣٤) عيد السنة الجديدة .

الشعر الفنائي ، بعض الترانيم

يؤلف هذا النوع من الشعر فصلاً متميزاً بما فيه الكفاية بين مجموعة الابتهايات التي تقدم الى الآلهة في الاحتفالات الدينية وتشمل هذه الابتهايات - الترانيم - التي غالباً ما تكون ذات روح وقوة كبيرة ، ويغاطب بها الآلهة ، وتضفي عليها هذه الروحية والقوة ، بصورة مميزة ، انواع الثناء المل وغير المثير والذي كانت ترتكز عليه الابتهايات .

ويعيد الثناء على النهر الى الاسماع ذكر القوة الخلاقة للمياه ، والدور الذي تلعبه هذه المياه عند الابتلاء بالمحن . اما الثناء على النار فانه يعيد الى الاسماع ذكر قوتها في تنقية المعادن . اما الترنيمة المقدمة الى - شمس - فانها تعرضه في دور - القاضي الاعظم - الذي يتوجه اليه كل الكون ، وهو يصدر حكماته الصائبة في السموات والارض على حد سواء .

اما الآلهة - سين - فتطلق عليه كثي عديدة ، فهو - آله القمر - كما يوصف بأنه ثور صغير العمر مكتمل الخلقة في كل عضو من جسمه ، وقيل عن لحيته بأنها من (اللازورد) ويشكل هذا الوصف اشاره الى الصبغة الورقاء الممتنة التي كان يتضصب بها رجال بلاد ما بين النهرين ، اما مدار الآله سين فقد كان ثمرة ضخمة جداً تكتاثر ذاتياً وكانت قرون الآله تعتبر اشاره الى الملال على الرغم من اعتبارها احياناً الزورق الذي ينزلق فيه بين ارجاء السموات .

وتحتوي الابتهايات التي تقدم لعشتار على مختلف النعوت من بينها اهنا - الكوكب - الذي يمثل عشتار مساءً وعشتار صباحاً . وكانت هذه الابتهايات منظومة بشكل شعر جيد القافية ، وتذكر فيه الصفات المنسوبة الى فشتار ليشكل الازمة المكررة ، وكان بيت الشعر المكرس للمدح يردف ببيت اخر تذكر فيه احزان المؤمن مثل :-

يهرب قلبي
فيصعد كالطير في السماء
انت كالحمامه
انا انحب كل يوم °
اما الترنيمة فانها تنتهي بمزيد من تكرار صفات الآلهه ، فهسي تحقق
نبوءات ايها - سين - واخيها - شمس - ثم تنتهي الترنيمة بالعبارة :- انا
عشستار °

ولبعض الترانييم صفة متميزة تماما ° ويدذكرنا مطلع بعضها بالقصيدة
الفنائية للشاعر الاغريقي - بیندار Pindar - ° تقول الترنيمه :-
سأسبح بحمد - بعل - إليل - فاصنع اليء يا صديقي ° ايهما المحارب
استمع لي فالتسبيح بحمد - بعل - إليل - أفضل من العسل والخمر ° اتم
افضل من احسن زبدة خالصة °

الخرافات

نشأت الحكاية الخرافية والتي يعد بابريوس ثقة فيها^(٣١) اصلاً في الشرق واستخدمها سكان العراق القدماء . وهذا امر طبيعي تماماً . ذلك لأن الاساطير تضم آلاف الامثلة عن الحيوانات التي تتحدث وتفكر مثل الكائنات البشرية . فصار منطقياً ان تحول هذه الحيوانات الى شخصيات معنوية تستعمل في الحكايات الخرافية التي استعملت لتوضيح بعض الدروس الخاصة ، هذا على الرغم من ان مجدها محدود . وزيادة على ذلك فقد استخدم الفن الحكائي الخرافي لتصوير مخلوقات نصف انسانية ونصف حيوانية ، فتتجزئ عن ذلك مشاهد تلعب الحيوانات فيها الدور القيادي .

تبين اقدم الاختام الاسطوانية التي عثر عليها في – سوسة – الاسود والثيران والابقار في اوضاع انسانية كالمشي وقيادة الروارق ، ويمكن العثور على مثل هذه الجوقة الحيوانية – في ازمنة تساوي في قدمها مقابر – أور – وتتضمن مثل هذه المشاهد حماراً يعزف على الناي . وقد استخدم كتاب الخرافات المتأخرة مثل هذه المواضيع .

لقد ازدهر في مصر فرع آخر من الفن ، اذا جاز لنا ان نسميه كذلك ، ولم يشخص مثل هذا الفن في العراق . لحد الان . ومعنى بهذا الفرع القصة القصيرة عن المغامرة . ويجب الا نخلط بينها وبين الحكايات الخرافية على الرغم من فضل الاولى على الثانية . وقد عثر في مصر على احسن نساج ل لهذا الفرع واكثرها تهذيباً ومنها – قصة الاخرين – و – مغامرات سنوجي المصري – الذي استفز في – سوريا – في عهد الامبراطورية الوسطى .

ولسوء الحظ اصيب نص الخرافات الذي يحوزتنا بتلف شديد بمرور

(٣١) طبقاً لما ذكره للدل وسكت في القاموس اليوناني ظهر بابريوس كاتباً للخرافات سنة ٥٠ هـ .

الزمن ولكن ، وبالرغم من التغيرات فيه فاننا نستطيع ان نرى الحصان والثور يتذارعان على فضائلهما ، كما تباهى النخلة وشجرة الايل بسجاياهما فسي صفة نزاع .

فتدعى كل منهما اهنا خير من الاخرى واخيرا تنتصر حجج النخلة ذلك لأن سعنها وخشبها وعصيرها وثمرها عناصر ثابتة في الاقتصاد + وزيادة على ذلك فان مشاهد تلك التي تصور حيوانات تحمل على ما يظهر تجهيزات للأدب معينة تظهر محفورة على لوح من عاج كان يستعمل لتزيين قياثرة وجدت في المقبرة الملكية في اور . وينتمي هذا المشهد على اكثر احتمال الى هذا النوع من الادب .

تقويم التأريخ

اتخذ اسلوب الكتبة شكله المحدد اثناء حكم السلالة الاشورية المتأخرة والامبراطورية البابلية العديمة وجاءت بعد الكتابات التي سجلت منذ بداية التاريخ اعمال الملك العبارة مجموعه مختلفة من الصيغ الروائية التي وضمت لها قواعد في وقتها . وهذا ما ساعدنا على استخلاص بعض الاستنتاجات المؤقتة عن الروايين واسلوبهم في الكتابة ، وعن احساس سكان العراق القدماء بالتاريخ كسجل للحوادث .

سجل الحواليات الواقع البارزة حسب التسلسل الزمني التاريخي فتحظى العملات العسكرية في بلاد آشور بالمكان الافضل في سجل الواقع . ذلك لأن الحروب كانت صناعة آشور الثابتة . اما في بابل فان قسمات البناءات هي التي ثالت المكانة الاولى . ونستطيع ان نراقب نمو الامبراطورية الاشورية نتيجة للسجلات العسكرية المتتابعة . وكانت اوامر الآله هي التبريرات التي تعطى لد الواقع هذه الحروب ، والتي كان يزعم عنها بأنها كانت حربا مقدسة . كما كان هناك عذر آخر طالما اتخد ذريعة لهذه الحملات ، وهذا العذر هو العجز عن تقديم الاحترام الى ملك بلاد آشور . ويتمثل هذا العجز في اهمال تصویص معاهده ، او في اهمال العلاقات الدبلوماسية . واخيرا فان الاخبار تأتي على وصف الطريق الذي سلكته الحملة ، وقصة الاتصالات المكتسبة ، مع عودة الملك الى عاصمه متقللا بالعنائمه .

هناك نوع ثان من الكتابات اقل شيوعا يعرف باسم - (كتابه العرض) يصف المراحل المختلفة التي يمر بها غزو منطقة معينة . اما النوع الثالث فهو قادر جدا ويمثل تقريرا موجزا عن حملة عسكرية . وقد قدم الملك هذا التقرير الى الآله المقيم في احد معابده . ويحرص الملك في هذا النوع على ان يتذكر بأنه هو نائب الآله ، وانه يقدم له تقريرا عن اعماله في نفس الوقت الذي يقدم له فيه الشكر .

واذ تحفظ هذه الانواع الثلاثة من النص ذكرى الملكه المسئولة عن كتابتها فانها ، مع ذلك ، لا تهتم بالتاريخ المعاصر لها 。 اما البابليون فانهم كانوا يكتبون المقالات عن هذه المهمة في السجل التاريخي البابلي ولهذا فقد خلقو وراءهم سجلا باهم حوادث بابل وآشور ، والتي وقعت في الفترة ٦٦٨-٧٤٥ ق . م

كان تحت تصرف سكان العراق القدماء سجل تاريخي عن العصور المبكرة عندما اردوها ان يهربوا من الواقع المعاصر في منتصف الالف الثاني قبل الميلاد 。 وبالرغم من ان هذه السجلات غير كاملة من عدته وجوه ، فانها كانت مع ذلك تمثل جداول بالسلالات ومع كل ذلك فقد كانت ثمة مخاطر تحيق بكل محاولة لتحميل الابحاث ابعد مما يجب وتتتج هذه المخاطر من عدم امكان الوثوق بمعرفة الكتاب عن الفترات المبكرة جدا 。

هناك الكثير من التناقضات في نسخ الجداول التي بحوزتنا ، وبغض النظر من هذه التناقضات الموجودة في كل مجموعة فانتا نقول ان هناك نوعان من الروايات التاريخية احدهما بابلية ، والاخري آشورية ، والواقع ان هذه الجداول تمثل نوعا من المذكرات التي تخص السلالات حسب التسلسل التاريخي ، على الرغم من وجود سلالتين تحكمان في نفس الوقت في مركزين مختلفين ، او ان احداهما قد ظهرت قبل ان تتلاشى الاخرى من المسرح 。

لقد ازداد عدد الاكتشافات من هذا النوع زيادة هائلة اثناء الخمسين سنة الماضية 。 ولقد ساعدتنا الاكتشافات الحديثة على تصحيح النظام السابق الخاص بالتسلل الزمني الذي كان يرتكز على عدد محدود من الوثائق التي كانت تشكل اساسا ثابتا بدرجة معينة ولكنه غير دقيق من التسلسل التاريخي الخاص بهذه البلاد ، والذي كان يفترض السنة (٤٠٠٠ ق . م) بداية للتاريخ ، وكان هذا الرقم هو المقبول رسميا 。

اما العادة الحديثة التي تعلق اهمية على احدث الوثائق اكتشافا حسب ،
فانها تشبه المزاعم القائلة باعادة تنظيم التسلسل التاريخي الخاسن بالشرق
الاوسع كل اربع او خمس سنوات ، دون الحاجة الى مزيد من الوقت للتفكير
في قابلية الاعتماد على اخر ما تقدمه التسقييات من نصوص ، وبالطبع فان مثل
هذه الميول لا يرضى بها *

* لأخذ ، مثلا ، هو اولا التنافضات العجيبة في الارقام التي تشير الى عدد
الاسرى الذين اخذهم شلما نصر في معركة - قرقار - Qarqar وثانيا المنشور
المعروف باسم (منشور نبونيدس) المحفوظ جيدا والذي لا خلاف على قراءته ،
والذى نجد ان الكاتب قد ادرج فيه قصته الفسنـة الى الوراء . وهناك تفسيران
مقبولان لمثل هذا الخطأ وهما موجودان في وثيقة رسمية وبناءً على ما في
هذين التفسيرين فان هذا الخطأ ناتج اما من عدم مبالاة عامة ، او من غش
متعمد وليس للتاريخ شأن في اي منهما *

الاسلوب التاريخي وصلاحيته

كانت السجلات التاريخية حتى نهاية العصر الذي تتحدث عنه تصاغ الاسلوب الادبي القديم الذي تمثله القصائد الهومرية (*). ووفقاً لهذا الاسلوب كان اسم كل شخص او شعب او بلد يرد بكتبة لا تنفصل عنه . ونجد نفس العبارات التي استعملت في وصف حملات - سرجون - تتسكرر دون تغير وذلك في اخبار آخر اعضاء السلالة الآشورية المتأخرة . وهذا نتيجة لطريقة ترتيب الكتاب الذين كانوا يكتبون ذاكرتهم لكي يحفظوا العبارات المعدة من قبل ، والتي يجب ان يقولوها في ظروف معينة . صحيح ان اوصافاً جديدة قليلة العدد قد ظهرت في عهد حكم - آشوريان وبال - ولكنها تمثل مظاهر نادرة في السجل العام الممل .

وفي نهاية المطاف فانه لا يمكن الاعتماد تماماً على هذه الوثائق ، لا لأنها متهمة بالبالغة في وصف بعض الاتصالات ولكن لأنها مشهورة بعدم ذكرها لآلية هزيمة لحقت بالآشوريين ، هل يطارد العاهل الآشوري عدوه النهزم عبثاً ؟ اما الاخير ، اي العدو ، فانه استطاع ، كالطير ، ان يحصل على مكانه لا يمكن الوصول اليه وذلك من خلال تراجعه ، هل تتراجع جيوش الملك في المعركة ؟ انها تعد العدة لانسحاب مخطط الى العاصمة .

وإذا ما اردنا مثلاً أكثر قدمًا فاننا نستطيع ان نجد واحداً تأخذة من وصف معركة - قادش - والتي وقعت بين رمسيس الثاني والحيثين . اذ يذكر كل كل طرف وصفاً للنص الذي يزعم انه قد احرزه . ومع ذلك فانه عندما تأخذ التصريحات حصلتها فان الكمية عينها من المادة التي تحت تصرفنا تمكتنا من ان تكون فكرة جيدة وجميلة عن سياسات الدول التي كانت تمثل قوى عالمية في الوقت الذي قلما بدأ فيه الضمير الاوربي يتحرك .

(*) نسبة الى الشاعر الافريقي القديم - هوميروس - صاحب الالياذة -

المراسلات الخاصة

المراسلات الملكية

كان سكان بلاد بين النهرين من كتاب الرسائل الذين لا يتعبون . ولقد خل سالما جزءاً كبيراً من مراسلاتهم ، أو هكذا قد نظن على الرغم من أنه يجب علينا أن تتذكر بأنه لم يتلف شيء من مراسلاتهم طالما كانت رسائلهم غير قابلة للتمزيق . وتنصب معظم المراسلات على قضايا الاعمال ، التجارية منها خاصة ، ومن غير المألوف كثيراً أن نعثر على رسالة ودية إلى صديق غائب . تتعقد مشكلة ترجمة هذه الرسائل ما دامت تعالج مواضيع متعددة ، وتنتقل فجأة من موضوع إلى آخر . ويبدو أنها تذكر حقائق مختلفة ليس لدينا معرفة عنها .

كانت هناك تقالييد خاصة باستهلال الرسائل ، وظهور هذه التقالييد جامدة . وكمارأينا عندما بحثنا في موضوع الخط المساري الذي لا يترك إلا مجالاً ضئيلاً للمعالجة الفردية ، فإنه لم يكن في ذلك الوقت من يستطيع، من تسلمي الرسائل ، أن يحدد اسم المرسل بمجرد النظر إلى الرسالة ولذلك كان المرسل يكتب اسمه دائماً كما يلي :-

(إلى (أ) من خادمكم (ب))

ثم يلي ذلك تمنيات بحسن صحة المرسل إليه وغالباً ما نضع مثل هذه العبارات في نهاية رسائلنا . وقد تكون الرسائل أحياناً كثيرة ألف والدوران ولكنها في صورتها الموجزة والبساطة كانت تجري كالتالي :-

« ليهبك (هذا او ذاك) الآله الحياة » .

وتأتي بعد ذلك مادة *الرسالة* التي تنتهي عندما لا يجد الكاتب ما يكتبها .
ولم تكن هناك صيغة مقررة لابناء الرسالة ، وكان الكتاب ، اذا ما اعتقد بان
هناك سبب للشكوى ، يحضر توبيخاته او اوامره من التبرارات التي يراد منها
ان تهدىء من فكر المرسل اليه ومن امثال ذلك قوله : *ألم تعد أخي ؟ ألم
تعد أبي ؟*

ان اهم الرسائل ، من العصر الذي ندرسه الان ، هي تلك التي كتبت
من قبل والي مختلف الملوك الآشوريين المتأخرین وتلقي هذه الرسائل ضوءاً
على كل وجه من وجوه الحياة سواءً في البلاط او الشؤون العامة . وهنالك
اشارات الى الحرب ، ولقد سبق ان ذكرنا مقتنيات من بعض هذه الرسائل
التي تشير الى حملة نرجون على ارمينيا ، وبكل بساطة فان تلك الرسائل لم
تكن الا تقارير سرية قدمت الى الملك من قبل وكلائه .

وكان الملك يهتم بالاعمال اليومية مثل النقل بواسطة الزوارق ، واصلاح
اضرار الفيضان ، وتوجيه التوبيخ الى المقصرين بواجباتهم . وهكذا فقد جاء
في احدى الرسائل :-

« يحمل حائقو الميد اعمالهم او الطلبات القاضية بوجوب حضورهم بين
يدي الملك لل الاستماع اليه » . ولقد جاء في رسالة الملك قوله :- « سوف
تمنحون في وقت لاحق فرصة المثول بين يدي فاذا كان لديكم شيء تريدون
قوله لي فاكتبوه » .

وتمضي الرسالة فتقول :-

« كيف يمكنني ان اتحمل رفض طلب المشول ؟ الى من اتوجه في
المستقبل ؟

وهنالك العديد من تقارير الشرطة عن اشخاص مفقودين فمثلاً نجد
رسالة تقول :- لقد بحثنا عنه في - بير حالزا فلم نجده . كما بحثنا

عنه في مدینته ، ولم نظر عليه ، الا ان اخاه وجد هناك ويکاد يكون وحیداً فاعتقل + وجيء به امامي ، وعندما سأله : اين اخوك ؟ اجاب قائلاً : لم أره + اتي ارسل الاخ الى الله » .

اما في الرسالتين التاليتين فاتنا نرى الموظفين وهم يؤدون اليمين القانونية ، وتستطيع ان ترى من خلال هذه اليمين التركيب الكهنوتي المتسلسل حسب الدرجات لمجتمع الموظفين + وتشدد الرسالة الثانية على الأهمية التي تفضى على هذا الاحتفال الخاص + تقول الرسالة الاولى : -

« الى الملك ربي ، من خادمه (عشتار - شن - ارش) + الصحة للملك ربي ولياركه - نبو ومردوخ + لقد أدى يمين الاخلاص للالهة في اليوم السادس عشر من نيسان الكتاب والكهان والسحرة والاطباء ومراقبو طيران الطيور ، وموظفو القصر الذين يسكنون في المدينة ، ويمكثون الان ان يؤدوا يمين الاخلاص للملك » .

اما الرسالة الثانية فتقول :-

« الى الملك ، سيدى ، من خادمه - كابطيا الصحة للملك سيدى + اما عن مسائل اليمين الخاصة ببابل ، والتي كتب لي عنها الملك فأقول اني لم اكن موجوداً والسبب هو ان رسالة الملك وصلتني بعد ان سافرت واخي الى بلاد - أراضي - Arashi في جولة تنشيطية ، ولم استطع ان اصل الى بابل في الوقت المناسب لاداء اليمين لقد قابلت في رحلة العودة كبير موظفي البلاط + وعندما يوجهني الى الوركاء التي تحميها آلهتكم + ساكون قادرًا على تلقي يمين الولاء لسيدي الملك ، ولكنني لا اثق ثقة تامة في هذه اليمين التي تؤدي بصورة سرية ، والتي فكرت في ان يجعل الجنود وابناء هم وزوجاتهم ، وكذلك آلهتكم يؤدون اليمين الالائفة بالملك ولكنني لن اقبلها الا وفقاً للصيغة التي وضفها الملك في رسالته ، وذلك عندما يأتي كبار القوم لاداء يمين الولاء للملك ربي » .

وختاماً ها هي الرسالة التي بعث بها بعض كبار الموظفين والذي لا نعرف اسمه وهي مرسلة الى الملك سنحاريب الذي عكس قوانين وراثة العرش ، فجعل ابنه الاصغر - اشور بانيال - على عرش بلاد آشور ، وجعل ابنه الاكبر على عرش بلاد بابل .

تقول الرسالة :-

« لقد فعل الملك ، ربي ، على الارض فعلة لم يسبق ان فعلها احد حتى في السماء ، وقد جعلنا شهوداً لها . لقد خلعت على احد ابنائك الكسوة الملكية ، وجعلت منه حاكماً على بلاد آشور ، وجعلت ابنك الاكبر وريثاً لعرش بابل . ان ما فعله الملك ، تجاه ابنه ليس من صالح بلاد آشور ، ويفينا ايها الملك فان بلاد آشور هي التي منحتك السلطان حتى مشرق الشمس الى مغربها . وحين ينال افالاتك الاعزاء شيئاً من هذا السلطان فان قلبك قد يرضي . ومع ذلك فأن الملك ربي تقد خطة شريرة . ولذلك صرت ضعيفاً في هذه البلاد » .

قارن هذه الرسالة بالرسالة التالية المرسلة من قبل مواطن بابلي جاء ليقدم شكواه الى الملك فطرد بسرعة من الحضرة الملكية . تقول الرسالة :-

« انا كالرجل الميت » تهادى بعد رؤية الملك ، سيدتي ، وعندما ارى ملامح الملك ، سيدتي ، تعود لي الحياة ، وبالرغم من اني لا زلت جائعاً فاني اشعر بالاتعاش وعندما ثلت شرف سماع الملك لي غلبني الخوف فلم اجد كلمة اقولها » .

والحقيقة ان الرهبة من الملوك هي غير الرهبة من القوانين المقدسة آنذاك . ونحن نشعر بالذهول من البلاط الآشوري وما فيه من عبودية وصرامة تجاه شخص الملك . وكانت هذه الحالة مظاهر بارزة في الشرق القديم .

العلوم ، موضوع الالهام

يحفظ لنا المؤرخ - بيروسس (*) في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها بعد ان ضاع معظمها ، احاديث قديمة جدا عن بداية الحضارة في بلاد بين النهرين . ووفقا لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون ، وهم في مستوطنتهم الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي ، مخلوقا خرافيا عرف باسم - اوينيس - Oannes - وكان نصف انسان ونصف سمكة . ويخرج هذا المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشدآ ايامهم الى كل فرع من فروع المعرفة ، ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق . وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق اربع مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه .

شاع اعتقاد عام يقول انه منذ ذلك الوقت وما بعده لم تسجل اية ملاحظة لظهور مثل هذه المخلوقات .

وتتجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة حسب بل ومقدسة ايضا . وقد ظهر التأثير الاول لذلك في انتشارها ، اذ اصبح من غير المناسب نشرها في العالم على نطاق واسع ، بل يجب ان تكون مقصورة على قلة مختاراة جديرة بها . وهذا يعني اولا وقبل كل شيء - الكهان - الذين يعتبرون قيمين عليها ، وهم بدورهم يهبونها لمن ثبت انه يستحقها ونخص بالذكر منهم التمرين .

وكان مفهوم التمرين آنذاك عاملا حاسما في عملية التعليم ، فهو يمنع اولا الاعلان عن المسائل السرية جدا او الحظيرة والتي تستوجب عدم شرحها

(*) بيروسس Berossus كاهن معبد بابل الذي ترجم الى اليونانية مؤلفات البابليين عن الفلك والتنجيم ، ووضع عن بابل تاريخا مفصلا في ثلاثة اجزاء نشر باليونانية . وقد ضاعت مؤلفاته وبقيت منها فصول وشذرارات في مؤلفات كل من يوسف واميانيوس

في الكتب . وهكذا فقد تمحّم القيام بالتعليم الشفوي وبعد ذلك تعطى المواضيع الممنوعة بصورة تدريجية ، والواقع اتنا لانملك اي كتاب مدرسي يفسر لنا كل ما ضمه اي فرع من فروع التعليم . لقد حرص الكهان على اعطاء المتعلم حسب ، المقالات التي تكون معانيها العميقه ابعد مما يبدو ظاهراً ، وهسم واثقون من ان هذه المعاني لا يمكن ان تفهم الا بوجود مفاتيح لها . وغالبا ما تواجهنا العبارة التالية في احد النصوص :- (عليك ان تشرح للمترندين ٠٠)

لم يطبق هذا الحظر تطبيقا شاملا على قراءة نص معين ، ولكنه طبق على تفسيره . لقد سبق ان رأينا ان سبب ذلك يعود الى اللغة والارقام ، اذ غالبا ما يسعى الفكر البابلي الى اخفاء نفسه عن طريق - الرمزية واروع مثال على ذلك هو ما نجده عند شرح اهمية معبد (بعل - مردوخ) في بابل ، اذ يضم هذا الشرح سلسلة من الارقام التي تسجل ابعاد ساحة المعبد ودكاكه ، وابنية المعبد - ايساكيليا - وقد عرف هذا المعبد باسم - المعبد الشامخ - بسبب زقوراته السامة .

بعد ذلك ينتقل كاتب اللوح فجأة ومن وسط وصفه الصريح ، الى ادخال الصيغ التحذيرية ، ان من المذهل حقا ان لا تظهر اية دلالة خاصة في قائمة الارقام والابعاد هذه ؛ ومع ذلك فاتنا تقول ان السر يكمن في معانٍ هذه الارقام ، اذ اتنا نعرف انه غالبا ما استعملت الارقام لاخفاء القضايا السرية المقدسة ، كما اتها تولف لغة سرية يسمو معناها على افهمانا . وهنا تستطيع ان تتذكر بناء - سرجون لاسوار خرسناد - الخارجية ، وجعله طولها مساويا لارقام اسمه ، وهذا شيء يجب اخفاؤه الا عن المترندين .

جمعيات العبادة السرية

هناك سؤال يقول :- هل كانت جمعيات العبادة السرية موجودة في بابل وآشور كما كانت موجودة في أماكن آخرين بصفة عامة كاليونان مثلاً ؟ لقد أحكم كتمان السر ومع ذلك فإن هناك أساساً للتفكير والقول بأن مثل هذه الجمعيات كانت موجودة . فقد ورد في القصيدة الشهورة والمعروفة باسم - المذهب الصالح - كيف زكي الله مردود خ هذا الرجل الذي وصفت القصيدة محنته ، والذى سبق أن نزل إلى القبر ، ولكنها عاد إلى الحياة في بابل ، وفي أثناء عودته كان يمر عند كل باب بتجربة مباشرة من النعيم الذي يوحى به اسم الباب ، مثل - باب الكوثر ، وباب الجن الصالحين ، وباب السلام ، وباب الحياة - وباب الشمس - وباب الوحي - وباب كنس اللعنات وباب البحث عن الفم ، وباب انتهاء التواجع ، وباب التطهير . وبعد هذه التجارب سمح له بالدخول في حضرة الله مردود خ وكانت هناك قرينته - ساربانيت - والتي يبعدها ، فقدم بين يديهما تضرعه .

هناك أدلة تشير إلى أن بعض أبواب معبد - إيساغيلا - كانت تعرف بهذه الأسماء . وبناءً على ذلك فإن السؤال المطروح هو : هل كان النص مجرد سجل لرحلة حج إلى مكان مقدس أو هل انه وصف لحالة عاش فيها المؤمن درجات من النعيم ، وأن مقدار هذا النعيم يتوقف على مقدار تقدمه في مراحل المعرفة ؟ .

يجب علينا أن تتمسّك بما سبق أن قلناه أكثر من مرة ، من أن لكل مظهر من النصوص والشعائر الدينية معنى سري ورمزي ولقد سبق أن ذكرنا أمثلة عديدة حول هذه المسألة . وكلما ازدادت دراستنا للحضارة البابلية كلما ازداد تأكيناً من احتواء الفكر على عنصر خفي وأنه في أصل كل شيء يوجد رمز ، ومع أننا غالباً ما قد تتجنب حتى الشك بعدم وجوده ،

الا ان معرفتنا تسمح لنا بأن نستتتجه حتى ولو كان ذلك على حساب التفسيرات
التي قد تبدو بعيدة المدى ٠

وهكذا فإنه حتى ولو لم يكن هناك اساس ايجابي لايجاد هذا القدر من
نقاط الضعف في هذه المسألة ، فانها على الاقل كانت تمثل شيئاً معيناً كان سكان
العراق القدماء متمكنين منه ٠ ونحن نأخذ برهان ذلك من الاواح التي سبق
ان اقتبسنا منها ٠

اما سكان العراق القدماء ، الذين مزجوا احترام الدين مع قوة التعليل
المنطقى ، فانهم كانوا ملزمين بالحصول على بعض الاستنتاجات من مفهوم
الالهام هذا ٠ فهذا المفهوم لم يكن قابلاً للتحسين واذا ما صدقنا الاحاديث
المنقولة فان الكثير من المحاوالت المختلفة التي بذلت من اجل ذلك لم تأت الا
بالنفع القليل ٠ والشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الانسان للمعرفة التي
توحي بها الآلهة هو ان ينسقها وينظمها ٠

تؤكد الديانة البابلية القائمة على عبادة الطبيعة وتعدد الآلهة ، على الایمان
العام الشامل بهذا الالهام ٠ اما في الديانة التوحيدية والتي يكون فيها كل
شيء من خلق آله واحد ، فأن الایمان يتطلب نوعاً معيناً من معرفة الذات لكي
تشكر الله على كل ما هو خير في هذه الحياة ٠ واما بالنسبة (للبابلي الفرد)
فأنه كان يؤمن ايماناً قوياً بعدم وجود شيء في هذه الحياة ، سواء كان طبيعياً
ام من صنع الانسان بلا آله مناسب له ٠ فالشاعر هو الآلة النافية (نيدابا)
اما الكرمة فانها تذكره مباشرة بالآلهة (كيشتين - انانا) (الكرمة السماوية) ٠

ولم يكن لدى سكان مدينة (اماً) سوى الله (شارا) الذي يتذكرونه
بعجرد النظر الى حقولهم وبساتينهم ٠ وكان الرمز الذي يستعمل لكتابته اسمه
هو نفس الرمز المستعمل لكتابية كلمة الخضراء ٠

ومجمل القول كانت الديانة البابلية تمثل نوعاً من الاساطير التي تتخذ

من القاعدة التاريخية مرجعا لها + اما ما يدخل عليها من تحسين فليس نتيجة جهد اجتهد شخصي بل نتيجة احسان تفضل به احد الاله على الانسان ، ويتنمي هذا الاله الى مجمع الآلهة البابلي الذي لا ينضب معينه +

هذا هو السبب الذي يجعل التقسيم الحديث لل الفكر والمعرفة الى فنون وعلوم طبيعية وعلوم تطبيقية ، يدوغريا على التصور البابلي الذي اعتبر كل فروع العلوم ذات اهمية متساوية ، وبسبب مصدرها تساوت جميعها في دقتها + اتنا سنجسن صنعا اذا ما تأكدنا من ان تقسيمنا الحديث للعلوم لم يعد يدعى الدقة وانه قد يتوجب علينا تغييره ذات يوم ذلك لان حقائق الفيزياء والكيمياء والرياضيات تتوء تحت المكتشفات الحديثة + وما لم يكن هناك شك يطابق البابلين فأنهم لم يستطيعوا ان يروا ، كما نستطيع نحن ، عملية نشوء وتطور المعرفة على الرغم من ان هذه العملية كانت عندهم ابطأ مما هي عندنا +

علينا ، عند تكوين احكامنا عن الشعوب البدائية ان نحرص على عدم توجيه اللوم اليها بسبب ما يبدو فيها من ركود ظاهر + ان الفكر وحده لا يخلق بعد ذاته التقدم فهو بحاجة الى مهارة في العمل ، والتجربة التي تجعل من كل خطوة الى امام استغلالا ممكنا لاتفاق جديدة تمتد امكاناتها الى المستقبل دائما وتعطي تائج غير منتهية + ان الاكتشاف لا يمكن ان يتحقق الا في مناخ مفضل تماما عند المكتشف ويرهن تاريخ العلوم ان كل جيل يكاد ان يواجه اولئك الذين سبقوه في وطء نفس الارض قبلة + ولو لا حاجة المجتمع المعاصر الى المعرفة ولو الحاجة الى المعدات الضرورية لتأخرت عملية الاكتشافات +

وبعد ان تذكر هذه الظروف سوف نمضي ، لفرض التبسيط ، في تقدير قيمة العلوم بأسمائها المألوفة كالرياضيات وتطبيقاتها والفلك والعلوم الفيزيائية والكيمياء +

الرياضيات

عند وصفنا للرياضيات البابلية سوف نعتمد واثقين على دراسات شاملة لهذا الموضوع قام بها (تورو دانجان) . وقد نشرتنتائج هذه الدراسات في عدة اجزاء .

يركز نظام العد الستيني على العدد (٦٠) او على حاصل ضرب ، او احد كسور الرقم (٦٠) ، وقد استعمل العرب والاغريق هذا النظام على حد سواء ، ولا يزال يستعمل في أوروبا الغربية في القياسات الرياضية للاقواس والزوايا ، واجزاء الوقت .

لقد استعمل البابليون هذا النظام بأضطراد كما استعمله السومريون من قبلهم . وهناك سؤال اثير عن فائدة هذا النظام الذي ترك آثاره على نظام العد الحديث ، حيث يكثر الحديث عن (الدوزينة) او الكروص او عن - بضعة دوزينات - (*) ونعني بذلك عددا نستخدمه بدلا من كلمة مئات او الاف .

لنفرض ان العدد (٦٠) هو اصغر عدد يحتوي على أكبر عدد من الكسور ، وهذا هو السبب في استعمال العدد المذكور في تقسيم السنة الى أيام ، وكذلك في اتخاذه وحدة للتعبير عن عدد الدرجات وفي تقسيم الدائرة الى ستة قطاعات . ومن المحتمل ان يكون استعمال هذا النظام قد اقتصر اول الامر على الاعداد ومن ثم طبق في مراحل متأخرة على القياسات .

نحن نعرف ان السومريين كانوا يحسبون بوحدات من الواحد الى العشرة . وبالطبع فإن هذه عملية طبيعية ما دامت الاصوات تهي لهم الاعداد من واحد الى عشرة وبدلًا من ان يستمروا في حسابهم من العشرة الى المائة ،

(*) الدوزينة Dozen تعداد انكليزي مقداره ١٢ اما الكروص Gross فمقداره ٤٤ .

فأنهم توقيوا عند العدد (٦٠) وابتداءً من هذا الاساس شرعوا يولدون نظاماً يرتكز على الوحدة (٦٠) او كسرها (٦) و (١٢) وصولاً الى النظام العشري . ويمكننا التعبير عن النظام العشري والنظام السومري بالعمودين المتوازيين التاليين :-

السومري	العشري
١	١
١٠	١٠
10×6	10×10
$(10 \times 6) \times 10$	$(10 \times 10) \times 10$
$6 \times (10 \times 10 \times 10)$	$10 \times (10 \times 10 \times 10)$

اما نظام القياسات الذي استخدمه السومريون فقد كان سنتينياً بصورة جزئية . فمثلاً كان جدول الاوزان يقوم على أساس المنهوم العرفي المستند الى ما يستطيع الانسان او الحيوان حمله . اما القيم العرفية التي تتبع النظام السنتيني فقد خضعت للاوزان الصغرى مثل (المينا) وهي تساوي سدس (الحمل) المذكور آنفاً ، ثم الطالين وهو من مضاعفات المينا ، ويعادل (الجزء) واجزاءه .

ان للسومريين فضلاً كبيراً علينا في تقسيم اليوم الذي اعتبروه شروق الشمس بداية له ، فقسموه الى اثني عشر ضعفاً للساعة ، أي أربعة وعشرين ساعة ، ثم قسموا كل (ضعف ساعة) الى ثلاثة اجزاء وقد قدر الفلكي الاغريقي (كديناس) ان منتصف الليل يجب ان يعتبر بداية لليوم . ويسبب هذا القياس خطأ أقل من الخطأ الذي يسببه الحساب بشروق الشمس . لقد طبق على الدائرة نظام تقسيم اليوم الى (٣٦٠) جزءاً ، وقسم (ست)

الشمس الى قطاعات دائيرية تتالف من اثنى عشر (ضعفاً للساعة) ، اي (٢٤) ساعة . وفي النهاية فقد تتجه منطقة البروج من هذا التصور وفي هذه المنطقة تعطي كل علامة $\frac{1}{12}$ من الدائرة الكاملة او ثلاثة درجة . وقد وسع هذا التقسيم ، الذي يعود تاريخه الى نهاية عهد الاختينين ، مجال علم التنجيم الذي استوعب استيعاباً كاملاً بعد ان تحققت مهامين الاعدادات . وعلى الرغم مما في النظام السومري من عيوب بسبب اخته بالنظام العشري تاره ، وبالنظام الاثني عشرى تاره اخرى ، فأن مجال هذا النظام يمكن في كون حجم العدد غير مطلق بل نسبي وكان يعبر عنه بالموقع الذي يحتله (*) . وكان العدد يربط سلسلة كسور في قوة شيئاً فشيئاً نازلة مع سلسلة اعداد صحيحة في قوة ستينية تصاعدية ، وهكذا صار هذا النظام اداة مرنة تستعمل في الحساب – وعندما تبني اليونانيون هذا النظام بصورة جزئية فقط حرموا انفسهم من هذه الخبرة ، ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الهنود الذين لم يأخذوا الا بالجزء الخاص بالاعداد الصحيحة وعندما ادخل هذا النظام الى اوروبا الغربية من قبل العرب كان على العالم ان يتضرر حتى القرن السادس عشر للميلاد ، حتى يدرك تماماً المنافع التي يحصل عليها من سلسلة الاعداد الموجودة في قوة نازلية .

لدينا الان العديد من المجموعات المهمة من المسائل الرياضية البابلية والتي تظهر انهم كانوا قادرين على حساب الحجم المضبوط للهرم والمخروط الناقص ، وهم لم يحسبوا الزوايا بواسطة المستوى الافقى ولكنهم حسبوها بمقدار الانحراف عن الخط العمودي . كانوا ينظرون الى اشكال ذات بعدين تتفق على مستوى عبودي ولكنهم رأوا هذه الاشكال معمكوسه ولذلك وصفوها بالاشكال التي افترضوها وقالوا عن المثلث بأنه (رأس مسمار) وان متوازي الاضلاع

(*) لم تكن في هذا النظام علامة واضحة او مرئية للاعداد التي تحت العشرة والتي كانت نستخرج من المحتوى .

(رأس ثور) . وفي الوقت الذي اوفت فيه الهندسة البابلية متطلبات حياتهم اليومية ، نجد ان تطور الجبر يحظى بمساعدة كبيرة متأتية من وسائل الحساب التي اتقنها البابليون ، فتقدّم علم الجبر بخطوات عملاقة ، واعتبر نتيجة لذلك من اعظم انجازات ذلك العصر . ونتيجة للاتقان المدهش الذي اظهّره البابليون في المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، فإن تور ودانجان يعتقد اعتقادا جازما ان لهذه المعادلات تاريخا يمتد في أعماق الماضي البعيد ، وانها لابد ان تكون تراثا ورثه البابليون عن السومريين .

مجموعة من الاسئلة

تتخذ المجموعات السالمة من التلف اشكالا مختلفة فهي تارة تذكر السؤال وتارة اخرى تذكر جوابه كذلك وتارة ثالثة تقرر هذه المجموعات السؤال والخطوات الازمة لايجاد الحل ، اما عملية الحساب الحقيقة فترى للطالب ، وقد نجد احيانا ذكرها للمسألة مع طريقة الحل + والجواب + وتبين الامثلة المطاء عن النموذجين الاخرين وبصورة كاملة انه يجب استعمال الجداول الحسابية ، ولكن لا يوجد شرح نظري للعمليات المتتالية التي تستخدم + وستقتبس مثلا عن كل نوع ، زيادة في الايضاح ، ولكننا ستبدل الاصطلاحات البابلية بأصطلاحات مألوفة عندنا +

(أ) المستطيل :-

لقد ضربت الطول بالعرض فحصلت على المساحة ، ثم جمعت الطول والعرض فكان حاصل الجمع فكان حاصل الضرب مساويا للمساحة وجمعت الطول والعرض والمساحة فكان الناتج الكلى للثلاثة هو تسعة ترى ما هي ابعاد المستطيل ؟

(ب) جمعت مساحة اربعة مربعات فكان الناتج دقة واحدة وثلاثين ثانية^(٣) وكان مجموع اضلاع هذه المربعات دقيقتين وعشرين ثانية فما هي اطوال اضلاع هذه المربعات ؟

(٣) استعملت العلامات عن الدقة والثانية في هذه المسائل لكي تشير الى اجزاء القوة المتعاقبة للعدد ٦٠ وهكذا فان الرقم ١ ، ٣٠ يعني دقة واحدة وثلاثين ثانية = ٦٠ + ٣٠ لتفصيل المسالة (٣) انظر 60×30 المسالة (٣) الملحق (١) .

الجواب :-

طول اضلاع هذه المربعات هي على التوالي :-

الاول خمسون نينده (3^3) الثاني (40) نينده الثالث (30) نينده والرابع

نинده $\cdot (20)$

(ج) حجر مجهول الوزن :-

طرحت $\frac{1}{7}$ وزنه $\frac{1}{7}$ شاقل و (15) جبه ، استعدت $\frac{1}{11}$ من المقدار

المطروح $+ \frac{9}{6}$ شاقل وهكذا ارجعت الحجر الى وزنه الاصلي فما مقدار

ذلك الوزن ؟

الجواب :-

أدوان :- $11, 7, 25, 50$ ثانية و 50 ثانية

اطرح (1) من (7) وأضيف (1) الى (11) \cdot اضربباقي بخمسين ثانية

ثم اجمع واطرح من المجموع (25) ثانية \cdot اضربباقي في (7) وهذا يعطيني
الوزن الاصلي للحجر \cdot

د - حقل : ریعت الفرق بين عرض الحقل وطوله طرحت ثمانى دقائق وعشرين
ثانية من المساحة فكان طول الضلع الجانبي يزيد على طول الجهة بعشر
وحدات \cdot

طريقة الحل : ربع العدد (10) : دقيقة واحدة و (40) ثانية + ثمانى

دقائق وعشرين ثانية = عشر دقائق ، $\frac{10}{2} = 5$

$25 = 10$ (دقيقة + ٢٥ ثانية = 10) دقيقة ، 25 ثانية ، ويمثل

النتائج الاخير حاصل تربيع (25) اضعف خمس ثوانى الى (25) ثانية = (30) ثانية

ثانية = الضلع اطرح خمس ثوانى = 20 ثانية وتساوي العرض \cdot

(٣٣) قد تكون النده اما قياسا للطول او المربع .

وبالاضافة الى هذه المسائل المطولة جدا ، وتسهيلا لعملية الحساب ظلم السومريون العديد من الجداول التي تحتوي الخطبوطات الالزمة للعمليات الحسابية المختلفة . وكانت هذه الجداول ضرورية لأن وحدات القياس والكيل والوزن كانت تشتت من طول الاصبع والذراع ، وهذا يشبه تماما ما اتفق عليه في أوروبا الحديثة حول اتخاذ المتر اساسا لقياسات .

وبالرغم من ان هذه الطريقة تعتمد اساسا على التجربة اكثر مما هي نظرية وبالرغم من أن (راي) (Rey) قد تطرق في وصفها قائلا بأنهـا طريقة الخطأ والصواب الخالدين ، فأنت لا تذكر بقىء الرياضيات البابلية فريدة من نوعها في العالم القديم كما أنها تسمو على كل شيء ورثناه من العهود القديمة .

الجغرافية – رسم الغرائط

ليس لدينا اي بيان واضح عن التصور الاشوري للارض . وعلينا ان نستنتج ذلك بأحسن ما يكون معتمدين على الوثائق المختلفة التي تشير الى هذا الموضوع ، لقد كان الاشوريون مقتربين بعدم كروية الارض . وكانوا يقولون انها قرص دائري توجد في حدود محيطه حوافي الجبال التي تستقر عليها السماء مثلما يستقر الغطاء فوق القدر . واعتقدوا بوجود منفذين في هذه الجبال احدهما للشروع الشمس ، والثاني لغروبها . لم يبيت بصورة واضحة في مسألة مسار فلك الشمس الذى تتعقبه اثناء ليل . فهل كانت تجري في مسار دائري يمر في الجزء السميكة من حوافي الجبال ، ام انها كانت تمر من جوف الارض ، اي تحت قرص الارض .

كان يعتقد ان الارض تطفو فوق مياه الهاوية ، وهي المياه التي تقابل جدول الماء المر الذي يدور حولها ، على الرغم من ان هذا على ما يظهر ، لم يكن عائقا امام وجود المياه الجوفية العذبة التي كانت تغذي الينابيع والانهار . كما لم يقع وجود عوالم سفلی تحت سطح الارض . والحقيقة ان فكرة السومريين والاكيدين عن الارض شديدة القموض ، ولا تستطيع الا ان تستخرج فنقول ان رجال المعرفة ، وهم الكهنة ، لم يتلقوا الى مشاكل تعريف علم الكون ، وسبب ذلك ان أولئك الكهنة لم يدخلوا وسعا في تكريس انسفهم لمعرفة انساب الآلهة ، ولتقرير نظام مجتمع الآلهة .

يتضح من الوثائق الغديدة المتعلقة ببيع الضياع والحقول والبيوت انه كانت عند سكان العراق القدماء درجة مضيه من المعرفة الرياضية لتذليل مشاكل المسح ، كما انهم عرروا ايضا كيف يرسمون بدقة متناهية مخطوطات مدنهم ، وتوجد الادلة البارزة عن ذلك بشكل لوح مسامري يظهر المخطط الاساسي العام لمدينة (نفر) وقد اثبتت هذا المخطط انه يتطابق تطابقا عجيا

وشديدا مع المخططات الذي رسمتها البعثة الامريكية اثناء تنقيبها في المدينة .
لقد لوحظ ان النصب الاشورية والبابلية ، وخلافا لنصب اوربا الفريبية ،
لا تتجه الى جهات البوصلة الاربع بل الى جهات فرعية ، اي مثلا الى الشمال
الغربي بدل الشمال ، والى الجنوب الشرقي بدل الجنوب . ويعتقد ان هذا
التوجّه يرتبط باتجاه الرياح في بلاد بين النهرين هنالك لوح يعود الى المهد
الفارسي ويمثل مخططا للارض كما تصورها البابليون . وتقع بابل في مركز
القرص الارضي (وهذا يشبه اعتقاد الصينيين القائل بأن الصين هي مركز
العالم) . ولقد اشرت على المخطط بعض المدن والقنوات ، ثم يأتي بعد ذلك
البحر المحيط ، واخيرا يؤشر في جهة ثانية بالثلاث على المناطق البعيدة جدا
ومن الجميل ان نرى ان المثلث الشمالي قد كتب فيه ملاحظة تتقول :-
(البلاد التي لا ترى فيها الشمس قط) . وعلى ما يظهر فإن من المحتمل ان
يكونوا عرفوا الليل القطبي عن طريق الامثال المنقوولة . هناك بعض الالواح
التي تمثل ما يعرف اليوم باسم (دليل المسافر والسائح) وتعطى هذه الالواح
المسافة بين مدينة واخرى ، والزمن اللازم للرحلة وتقدم هذه الالواح المزيد
من البراهين ، وان كانت ثمة حاجة اليها ، على تطور التجارة ، وعلى تكرار
الاسفار بين مختلف بلدان الامبراطورية والاقاليم الملائقة لها .

التقويم ، علم الفلك

لقد اعتبر العراقيون القدماء علم الفلك وسيلة وليست غاية وفائدته الرئيسة هي ان يستخدم كدليل لاهداف علم النجوم (التنجيم) والذي سوف نبحثه فيما بعد ، وليتمكنهم من تثبيت التقويم ٠

وفي عام ١١٠٠ ق.م تبني الاشوريون هذا العلم على الصورة التي وجدناها قيد الاستعمال في المهد الاشوري فكان الاشوريون قد اخذوا التقويم عن البابليين ؛ وكان هذا التقويم القمري - الشمسي يتتألف من اثنى عشر شهراً ، ويتألف كل شهر من ثلاثين يوماً ، وهذه الاشهر هي بحسب بداية السنة البابلية ٠

- ١ - نيسان (اذار / نيسان) ٠
- ٢ - ايار (نيسان / ايار) ٠
- ٣ - صيوان (ايار / حزيران) ٠
- ٤ - تموز (حزيران / تموز) ٠
- ٥ - آب (تموز / آب) ٠
- ٦ - ايلول (آب / ايلول) ٠
- ٧ - تيسميري (ايلول / تشرين اول) ٠
- ٨ - مارچيسوان (تشرين اول / تشرين ثانی) ٠
- ٩ - كيسليف (تشرين ثانی / كانون اول) ٠
- ١٠ - تبیت (كانون اول / كانون ثانی) ٠
- ١١ - سباط (كانون ثانی / شباط) ٠
- ١٢ - آدار (سباط / اذار) ٠

وما دامت دورة الاثنين عشر شهرا تتألف من (٣٦٠) يوما فقد تقرر اضافة شهر كبيس في فترات منتظمة تقع اما في منتصف السنة او في اخرها ، ويسمى هذا الشهر الكبيس باسم الشهر السابق له مثل ايلول ثاني او ادار ثاني ٠٠٠ الخ ٠ ومن ناحية عملية فان هذا التقويم اثبت خلوه من عيوب غير مشكوك فيها ٠ وسبب ذلك ان رداءة الطقس قد تمنع المراقبة الصحيحة لهلال الشهر الجديد الذى يعتمد اعلانه على هذه المراقبة ، ونتيجة لذلك فقد يؤخر الاعلان يوما او يومين كما ان الملك كان هو الذي يعلن هلال الشهر الجديد مستندا الى التقارير التي يرفعها اليه الفلكيون بشكل رسائل تتضمن تائج ملاحظاتهم ٠ ويشير ذلك الى ظاهر بارز من مظاهر المراسلات الرسمية ادناه نموذج من هذه المراسلات :- (قمت بالمراقبة في اليوم التاسع والعشرين) ٠

وعما اذا كانت هناك غيوم ام لا ، فان الرسالة تختتم بالقول :- (لقد رأينا القمر او لم نر القمر) ٠

وهناك رسالة اكثرا تفصيلا تقول :-

(لقد رأيت القمر في اليوم الثلاثين ، والذى كان في علو اليوم الثلاثين ٠٠ انه في الوقت الحاضر في علو مناسب لل يوم الثاني من الشهر) ٠ وهكذا يستطيع الملك ان يثبت اليوم الاول من الشهر) ٠

والنتيجة المحتملة لهذا التلکؤ في الزمن هي انه قد يكون من الضروري اضافة شهرين كبيسين الى نفس السنة ٠ اما عن بداية السنة بشهر نيسان فان هذا يعني ان هذه البداية تتطابق في الوقت مع الهلال الجديد الذى يليسي الاعتدال الربيعي ٠ اما الاهمية الخاصة التي يحتفظ بها شهر (تيسري) في

النصوص الدينية ، فانها تشير الى الذاكرة الماضي البعيد عندما كانت بداية السنة تحل في الخريف .

كانت السماء تعتبر مقسّمة الى مناطق كبيرة . وهي تشبه الارض في هذا التقسيم . وبناء على ذلك اعتبرت المنطقة الوسطى طریقاً ا - آنو - وتمر هذه المنطقة ، وبشكل منحرف ، عبر محور شمالي - جنوي . ويوجد فوق هذه المنطقة طریق - الیل - اما تحتها فطریق - أیا - .

جداول النجوم الثابتة

لقد سجل الاشوريون والبابليون ، وبقدر ما سمحت به لهم مصادرهم البدائية ، اسماء النجوم المرئية في كل منطقة من مناطق السماء التي كانوا يعرفونها . كان طريق - افليل - يحتوي على ثلاثة وثلاثين نجماً بما في ذلك مجموعتي نجوم ذات الكرسي ، والجبار ، وذي العنان ، والسرطان ، والأسد والاكليل الشمالي ، والدب الأكبر ، والتين ، والدب الأصفر ، والعقاب والنسر ، والنصر الواقع ، والدوالين ، والمرأة المسلسلة ، والمشتري (*) .

أما طريق - آنو - فإنه يحتوي على ثلاثة وعشرين ، بينها الحمل ، والحوت ، والثريا ، والديوان ، والشعرى ، والعدراء ، والكلب الأكبر ، والشجاع ، والغراب ، والميزان ، والنقاب .

ويحتوى طريق - ايما - على خمسة عشر نجماً ومن بينها الحوت الجنوبي ، والدلو ، وقطورس ، والذئب ، والعقرب ، وقلب العقرب ، والراعي .

لقد ميّز سكان العراق القدماء بين الكواكب السيارة وبين النجوم الثابتة . وقد قارنوا الكواكب السيارة بالمعزى الفضالة بينما قارنوا النجوم الثابتة بالمعزى الالية . وتمكن العراقيون القدماء ، عن طريق الرصد والحساب ، من ان يؤلفوا جداول بالنجوم الثابتة مع سجل للمسافات الفاصلة بينها . وكان يعبر عن هذه المسافات بواسطة وحدات زمنية ترتبط نسبتها الحسابية يوزن الماء الساقط من « الساعة المائية » (وهي اداة عرفها البابليون واستعملوها لهذا الغرض) على المراكيب بين نجمتين وقت الزوال . وهكذا كان من الممكن ان تقرأ في الجدول :-

(*) لزيادة الاطلاع على موقع هذه النجوم نحيل القاريء الكريم الى كتاب (الطريق الى النجوم) الذي نقله الى العربية الدكتور عمر فروخ .

المسافة من غامتو Gamtu الى برج الجوزاء هي اثنان ونصف مينا (من وزن الماء) ^(٣٤) .

وكان هناك طريقة ثانية لقياس الموقع النسبي وهي بشكل صيغة تتضمن تقسيم الخط المتوازي الذي يعتقد ان النجم يقع عليه . ويعبر عن هذا التقسيم بالدرجات . مثال ذلك اتنا نقرأ في اللوح :-

(خمس درجات على مستوى الارض هي المسافة من برج الجوزاء الى برج نجمة المساء) .

واخيرا فقد كانت هناك قياسات مطلقة او سماوية ويعبر عنها بالرجوع الى دائرة مطلقة ذات (٣٦٠°) ، واتساع مقداره ستة أميال ونصف ، وببناء على ذلك فانا قد نجد اللوح يقول :-

(هناك ثمانية عشر الف دائرة في السماء ، تفصل بين برج نجمة المساء والنجم الواحد والناسك) .

كانت هذه النتائج هي المعمول عليها في بلاد بين النهرين ذلك لأن الالات الوحيدة التي استعملت لمراقبة الاجرام السماوية كانت عبارة عن اثني عشر مراقباً . ومنها الساعة المائية والمزولة الشمسية ، والبولو - وهي نصف كرة جوفاء فيها ابرة مثبتة في مركزها وتلقي ظلها على الجدران فتضبط الفترات عن طريق تأثير الظل .

لم يتقييد الفلكيون بانتظار ظهور القمر الفعلي للقمر ليحددوا بداية الشهر الجديد . بل انهم كانوا يحيطون الملك علما بظهور النجوم والشمس والقمر المتوازية في مواعيد دقيقة تحديد الاختلالات الفصلية ، واوقات الخسوف والكسوف . وقد يتملكنا شعور بالعجب الشديد من اهتمام الملك بالظواهر

(٣٤) انظر الملحق (ب) عن طرق احتساب المسافات بين النجوم .

السماوية . وهذا امر لا شك فيه . فمن المؤكد ان الملك كان يلقى التشجيع من الفلكيين على اهتمامه هذا ، والذى يعتبر وسيلة لغاية نهائية الا وهي التنجيم وبناء على ذلك فان تقارير اولئك الفلكيين كانت في شكل اجوبة بعض الاسئلة التي يطرحها الملك نفسه .

وبناء على ذلك ووفقا للمارسة التي كانت مألوفة آنذاك ، والمتمثلة في محاولة مزج المبادىء العلمية المعروفة وقتذاك بالحكايات ذات المسحة الدينية والملحمية فلم يكن يوجد الا تفسير واحد للحمة الخليقة . وقد أريد به ان يضم كل المعرفة الفلكية الشائعة آنذاك ، وذلك عن طريق استاد صفة خلق الاجرام السماوية وحركاتها الى - مردوخ . ولكن من المؤسف ان يكون الجزء الاكبر من الرقيم الذي يتحدث عن هذا الموضوع ضائعا .

ان آخر ما تم خصته عنه احدث الابحاث في مسألة علم الفلك البابلي هو الاعتراف ببعض الفضل للاكتشافات التي توصل اليها الفلكيون الكلدانيون . ويبدو ان الرواد الحقيقيين في هذا الحقل كانوا جماعة من فلكي القرن الثالث ق.م ، وكان من بينهم الفلكي - سودينس - Soudines - من بلاد الكلدان ، والذي كان يعيش في بلاط (بيرغام) (Pergamum) عام ٢٣٩ ق.م ، ثم (نابوريانوس) (Naburianos) والذي لا نعرف عنه شيئاً سوى اسمه ، ثم (كدينو Kidinnu) وهو مؤلف القوانين القمرية ، ويعرف باليونانية باسم (كدناس) .

العلوم الطبيعية

علم النبات • علم الحيوان • علم المادن

كان البابليون من خيرة المراقبين • وكانوا ، منذ محمد بعيد ، على علم بوجود مجموعات واسعة من انواع الكائنات المرئية • وقد جاء هذا الكتاب على ذكر هذه النقطة مرات عديدة •

ان الظاهر السببي في موضوعنا الحاضر هو محاولة البابليين العملية المحسنة لحل مشكلة التصنيف لنباتات مختلفة • فمثلاً نجد ان حديقة (مردوك بلدان) قد نظمت بشكل الواح رتب فيها النباتات لا اعتباراً للمباديء العلمية ولكن على اساس الرجوع الى فوائدها او استعمالاتها الشائعة • ويمكن ان يقال نفس الشيء عن الرقم الذي وجد في - سوسة ، والذي يسجل قوائم باسماء النباتات التي كانت تستعمل في صناعة المراهم • وتحمل هذه القوائم كتابة صورية تعنى - رائحة - •

ان احدى العادات الانسانية العامة والدائمة والمدهشة هي طريقة الفلاحين في تسمية الاشياء وفقاً لتماثلها مع بعض الاشياء المألوفة • فنحن نجد، مثلاً ، وكما هو الامر عندنا ، انه كان لدى الاشوريين ثبات اسمه - لسان الكلب - ويبدو ان هناك اضطرار الى استعمال مثل هذه الاسماء على الرغم من ان النبات قد يختلف اختلافاً كبيراً عن الاسم الذي نعرفه نحن به •

ولا تزال هناك بعض قوائم بأسماء النباتات لا تبدو فيها الاسماء جارية حسب تسلسل منطقي في تكوين بعض القوائم نوعاً من القواميس التي تضم اسماء سومرية وآكديية بشكل اعمدة متوازية • وقليل من التفكير عن • الموضوع يجعلنا نرى أنه على هذه الشاكلة يجب ان يكون الحال •

لقد سبق ان عرفنا ان اسم الشيء يضفي وجوده عليه • وفي نفس الوقت فان معرفة الاسم تضفي القوة على - المسمى - ذاته • فالحصول على

قائمة الاسماء يضمن الحصول على الاشياء (السميات) ذاتها ، وبالنسبة للبابليين فان تصنيفها يشكل غاية بذاتها اذا لم يكن الترتيب تحكيميا خالصا .
واما عن التعرفات المطاء لـ الحيوانات والخضروات والمعادن فانها ردئه جدا . ولذلك فاتنا نجد ترفا واحدا لكل من - البرد - ، والحجارة و كذلك نواة التمر . اما ما نعتبره نحن - عثبا - فغالبا ما كان يعتبر (شجيرة) والمكس بالعكس .

لم يكن سكان بابل اقل رغبة في مراقبة الحيوانات وكذلك الاسماء والطيور التي احسنوا تصويرها باشكال تشبه الحيوانات المعاصرة . وهناك قائمة يعود تاريخها الى ما بعد عام ٢٠٠٠ ق.م بقليل . وتعطى هذه القائمة اسماء الاسماء التي يعيت في السوق في مدينة - لارسا - القرية من الخليج العربي وكان يجب ان تضم القائمة اسماء الاسماء التي صيدت في البحيرات والقنوات ، وكان عدد انواعها لا يقل عن ثمانية عشر نوعا صالحا للأكل .

تظهر الدلائل التي بين ايدينا ان انواع معينة من الحيوانات ، كالكبش طويل الرأس ذي القرنين المتباعدين والمقوسين ، قد اختفت الان . كما تؤكد هذه الدلائل على ان حيوانات معينة كانت تعيش بصورة سائبة في داخل حدود بلاد بين النهرين ومن بينها حصان السهوب الصغير والذي يشبه رأس الجمل وله عرف كثيف يابس . اما صورة الشور الاحدب او الهندى الموجودة على مزهريه تعود الى عهد تاريخي مبكر ، فانها ثبتت وجود العلاقات التجارية بين بلد وآخر حتى في هذا التاريخ المبكر .

وحتى الاحجار المختلفة قد جرى جردتها وتصنيفها في قوائم خاصة وكان من الممكن التعرف على العديد منها . ولقد سبق ان عدتنا المعادن الصناعية الرئيسة ، وذلك عندما تحدثنا عن التجارة . لقد اعطيت الاحجار اسماء كما اعطيت النباتات ، واستندت طريقة التسمية الى - شبيه مفترض - موجود بين

اعضاء جسم الحيوان ، ولدينا ، الان ، ملحمة سومرية كان الهدف منها شرح اسامي الاحجار . وتقدم لنا هذه الملحمة مثلا رائعا عن الطريقة التي لخص بواسطتها السومريون الخواص الطبيعية للاجسام ، وهي تعتبر بدليلا للنمط الحديث المتمثل في كتابة المقالات الواسعة لهذه الخواص .

لقد كتب السومريون القصائد في تعليقاتهم على اسامي هذه الاجسام . وكنتيجة لظروف غير معروفة لدينا ، واجه الآله العظيم - نورتا - تحالفا من قبل اعدائه ، واخذت الاحجار نصيتها من القضية فضلع بعضها مع الآله وضلع البعض الآخر مع اعدائه ، ولكن الآله انتصر ، وحلت الهزائم بخصوصه . ويبدو ان كل هذا حصل في عهد بعيد من التاريخ . ذلك لأن الاحجار قضاها كانت آنذاك تتفاوت بعضها عن بعض ، ونتيجة لهذا الانتصار ، قرر الآله ان يبدي اهتمامه المباشر بالاحجار فاعطاها اساميهما ، وأقرَّ مصيرها . فالاحجار التي وقفت الى جانبه اعطتها اجمل الاسماء واحسن المصير ، اذ جعلها تتخذ مواد للتماثيل والهيئات الخاصة بالآله ، في حين تصنع الجواهر من الاحجار الكريمة ، كما استعملت هذه الاحجار لاغراض الزينة في العبادة . اما الاحجار المعادية والمدحورة فقد حكم الآله عليها بياناً تستعمل ابخس استعمال ، ولتصبح عديمة القيمة . فجعل منها مواد لرصف الطرق ، واعتبار ابواب التي تطؤها الاقدام ، او ان تبقى مجرد حصى مرمى في الطرقات .

لقد عرف سكان العراق القدماء مجموعة واسعة من الاحجار ، وبخاصة الاحجار الجميلة النادرة التي صنعوا منها الاختام الاسطوانية ، والتي كان كل فرد يحملها . ومن امثلة ذلك الصوان الازرق ، واللازورد ، والصخر البلوري ، والعيق واحجار كثيرة اخرى لا تعد .

الكيمياء

تألف القسم الاعظم من علم الكيمياء ، كما مارسه سكان بلاد ما بين النهرين . من تطبيقاته العملية . وقد كان هؤلاء السكان من المهرة المشتغلين بالمعادن ، كما كانوا خيريين في معالجة المواد المعدنية ، وفي تصفية الفلزات ، وتركيب السبائك غير المألوفة ، والتي حصلوا عليها عن طريق ادخال تغيرات بسيطة في نسب العناصر . فمثلاً نجد أن الصيغة التي استعملت لصنع نوع من الزجاج المعروف آنذاك باسم - زجاج الزاج الأخضر ، كانت تتألف - من ستين جزءاً من الزاج العادي ، وعشرة أجزاء من الرصاص ، وخمسة عشر جزءاً من النحاس ، ونصف جزء من ملح البارود (ترات البوتاسيوم) ، ونصف جزء من الكلس . ولكن اذا ما استعملت نفس العناصر وفق النسب ٦٠ ، ١٤ ، ١ ، ٢ تكون النتيجة هي الحصول على ما يعرف باسم «زاج أكد» -

كانت تصفية المعادن تجري عادة بطريقة وضع المعادن في بوتقات ، ثم يعاد تسخينها عدة مرات . وهناك نص يعود في تاريخه الى عهد - الملك نيونيدوس . ويبين هذا النص الاختبارات العديدة التي أجريت على سبيكة وزنها خمس (مينات) اي ما يقارب باونتا واحدا وأونسا . وتعمد هذه السبيكة الى الخزينة الملكية . لقد فقدت السبيكة ، عند بدء التسخين في تنور خاص ، نصف مينا وخمس شوائل من وزنها ، اي ان وزن الذهب المتبقى كان اربع مينات وخمسة عشرة شاقلا ، وبعد عملية التسخين الثانية كان مقدار المقدان في الوزن نصف مينا وشاقلين ، وتقصى وزن الذهب الغالص الى $\frac{2}{3}$ مينا و $\frac{3}{4}$ شوائل .

وعندما كان الذهب يرسل من عاهل الى عاهل ، كانت هناك شكوى يسيب الخسارة المفرطة في الوزن اثناء عملية التصفية .

لقد كان ملك مصر احد مجاهزي الذهب ، لكنه لم يكن يستعمل هدا الذهب كهدايا ابداً الى من يتراسل معهم ، وانما استعمل بدلًا من ذلك مواد خام في القسم الاعظم من هداياه فكانت هذه المواد تصنع ثم يعاد ارسالها الى البلاط المصري .

لقد شكا الملك البابلي (بورا بورياس) من القرن الرابع عشر ق . م تقريباً) مرتين لدى الملك المصري - امينحوتب السادس من رداءة نوعية الذهب الذي تسلمه منه ، وادعى في شكواه بأن الذهب قد غش دون علم الملك ، والدليل على ذلك ان ما كان وزنه عشرين مينا لم يعط عند تصفيته الا اقل من خمس مينات من الذهب الحالص .

لقد اظهرت التحليلات التي اجريت على انواع مختلفة من ادوات الذهب المكتشفة في مقابر - اور - الملكية (النصف الاول من الالف الثالث ق . م) تفاوتاً كبيراً في النقاوة . ويتراوح هذا التفاوت بين سبعة قواريط الى اثنين وعشرين قيراطاً ، في حين اظهر تحليل السبائك من محمد - نابونيدوس - وجود ٩٦٨ ، ٩١٤ ، ٨٧٠ جزء ذهب في كل ألف جزء .

الاعراف الفنية

لقد سبق ان تناولنا بالبحث الصورة التي كونها الاشوريون من العالم . وبحثنا كذلك طائق رسمهم لمخطط بناء ، او قطعة ارض معينة ، ثم رأينا ان الصورة التي كونوها تختلف عن صورتنا نحن . اما طائق رسم مخططات المدن والاراضي فهي نفس طائقنا التي تستعملها اليوم . وما دمنا لا نستطيع ان نحكم حكماً ملخصاً على انجازهم الفني ، وذلك وفق المقاييس التقديمة العصرية ، فاننا تسائل عن كيفية رؤيتهم للعالم المادي الذي من حولهم ، وكيف كانوا يحاولون التعبير عما كانوا يرونه .

يؤلف الوجود المجرد لهذه المقاييس ، في الحقيقة ، اغراءً قائماً يجعلنا نعتبرها من اصلاح المقاييس . وهذا اعتبار زائف تماماً . ويدفعنا هذا الاغراء الى ان نقول عن وسائل تعبيرنا بأنها ارقى الوسائل للتعبير عن الواقعية ؛ والواقع ان ادعاءنا القائل بأن مبادئنا التقديمة هي وحدها الصالحة ، انتابه من إلقتنا الطويلة المدى لهذه المبادئ التي تحكمت باذواق العالم الغربي منذ عهد سيادة اليونان .

ان علينا ان تذكر بان امتداد العهد الى حوالي الفي سنة ، هو اقل من ثلاثة التي تسكن خلالها الشرق الاقصى (منذ القدم) والشرق الادنى من تقبل سلطان تقاليدهما الخاصة . وحتى لو زعمنا ان خفر الاشكال ثلاثية الابعاد كان يعتمد اعتماداً طفيفاً على الاعراف ، فاننا يجب ان نأخذ بنتظر الاعتبار الحقيقة القائلة بان فن الرسم كان ملزماً باستعمال وسائل فنية معينة لكي يحل مشكلة تمثيل الاشكال ثلاثية الابعاد ، باشكال ذات بعدين ، او ان يهمل البعد الثالث اهتمالاً تاماً . ان الخاصية التقليدية لهذه الوسائل تظهرها الحقيقة القائلة بان العديد من الناس الذين واجهتهم نفس المشكلة كان عندهم حلها الخاص بهم ، وأن تقبلهم لهذا الحل جاء نتيجة لفترة طويلة من

الممارسة والتدريب ، وكذلك نتيجة التشويه المتمدد للملاحظات الحسية قبل امكانية الحصول على هذه النتيجة ، ولو لا هذا النوع من الممارسة والتدريب، والذى هو في الحقيقة عملية تفتيق الذهان عن امكانيات تقبل ما يعرض عليها من افكار ، فلن يصبح بامكان غير المتعلم ان يحصل على هذه النتيجة التي ستكون صعبة التعلم بالنسبة له ، وسيبدو امامها كالهمجي الذى يقلب الصورة عدة مرات دون ان يعرف كنهها ، وكذلك استعدادنا لان نلقن الاعراف الفنية الحديثة .

النحت

نبأ بالنحت لأنه يعتبر من أقل الفنون التي مارسها الأشوريون حاجة إلى الاعراف الفنية . ولستنا ملزمين بأن تتوقف طويلا عند هذا الموضوع . وبسبب ذلك أن سكان بلاد بين النهرين لم يظهروا الحب الشديد لل تصاوير ثلاثية الابعاد لجسم الإنسان على قطاع واسع باية حالة ، اذا ما اردنا ان ندخل في حسابنا تماثيل هذا العصر التي بقيت سالة .

ان علينا ان تذكر ان التماثيل البشرية ذات الحجم الطبيعي كانت - على حدة من الاهتمام المحدود الذي كان البابليون يبذلونه في هذا الشكل من الفن - تتطلب كتالا من الحجارة يصعب الحصول عليها في حين كان من السهل الحصول على الا لواح الصخرية التي كانت تستعمل في صنع المنحوتات المحفورة . وزيادة على ما تقدم ، وكما نعرف من الكتابات ، غالبا ما استعملت الاحجار الكريمة لتزيين التماثيل . الخاصة بالآلهة والعظماء من الاشخاص . ولم يكن بالامكان آنذاك سرقة تلك الاحجار دون كسر التماثيل ؛ ومع كل ذلك فانه من الصواب القول بأن الاشوريين لم يكونوا مولعين جديا بالجسم الانساني . وظهور التماثيل التي بحوزتنا انها ألبست الملابس بصورة متفاوتة . فصار من العسير رؤية اجزاء الجسم التي غطتها - المثال - بالملابس السميكة .

هناك حالة واحدة عشر فيها على جذع انساني وقد بدا من الوهلة الاولى انه يمثل عشتار ، ولكن الاسم الذي يحمله هو اسم الملك - آشور بعل - كالا . ويمثل هذا الجذع المنحوت قطعة فنية رديئة الصيغة .

تظهر نوعية النحت انحطاطا ملحوظا جدا في الفن منذ ان نحت تماثيل - گوديا - وذلك قبل عصر سلالة - سرجون - بالف وخمساًئة سنة ، وتشبه الفترة المبكرة الفترة اللاحقة في استخدام الاعراف الفنية ولكن ليس الى الحد الذي يقييد جهود الفنان العارف تماما بجمال نموذجه . ويعتبر تمثال

أشور بانيال الموجود في المتحف البريطاني نموذجاً للمنحوتات الآشورية المحفورة . ونجد في هذا التمثال أن البعد الثالث له قد اظهر بصورة ضعيفة وعن عمد ، مما جعل التمثال يبدو وكأنه طفل . ان قلق - المثال - البادي في خوفه من صنع تمثال كبير ينوب عن الذات العليا ويحل محلها في المثال بين يدي الله في المعبد ، قد جعله يتبع ما يشبه عسود البناء المربع الشكل . ثم انه استغل الرداء الطويل الذي يرتديه الملك والآلهة لكي يتتجنب نحت الساقين اتنا نعرف من المنحوتات المحفورة ان المثال كان قادراً على ان يفعل هذا من ناحية فنية ، ولكنه رأى ان الساقين كانتا تمثلان اكثر اجزاء التمثال سهولة للتهشم .

ومن جهة اخرى فاننا نستطيع ان نجد السرور والملتعة في مهارة الفنان العراقي القديم ، كما نجد قدرته على تصوير الحيوانات وهنا نجد اتنا لاكتناول صناعة تماثيل واسعة النطاق . ذلك لأننا نجد ان تماثيل الحيوانات تتلوق في جودتها ، وبوضوح ، على تماثيل الانسان التي كانت اكثر شيوعاً من التماثيل الكبيرة .

المنحوتات المحفورة

اظهرت لنا الاكتشافات الاثرية الحديثة مجموعه من الرسوم الجدارية والتي يمكن ان تتخذ ميدانا لدراسة شاملة تامة . فعندما ترك النحت متوجهين الى تحصص المنحوتات المحفورة أو التصوير لن يتمكننا شعور يجعلنا نظن بأن الفنان كان يمارس عمله تحت اي نوع من الاحساس بوطأة الاعاقة او تشبيط الهمة ، وسنجد انفسنا امام تقاليد عريقة . لقد حقق الفنان ، وبكل جلاء ، اظهار العناصر غير التصويرية بجدارة وانطلاقه غير مترددة الى درجة يجعلنا نحن المشاهدين تتقبل ما نرى دون ان نحس بالصدود على الرغم من غرابة المشهد .

وعلى سبيل المثال اتنا قد تتحقق الصياغة الاعمال التي انجزت في فترات حكم مختلفة للسلالة الاشورية المتأخرة . لقد كانت المنحوتات الثالثة في عهد الملك سرجون نفسه تتصرف ، وعلى نطاق واسع ، بطول يفوق الحجم الطبيعي وكانت تتفاصيل الصورة واضحة وحددت المسافات بصفة حيدة . اما المنظر العام الذي يضمها فلم يكن يوحى الا باشياء طارئة وغالبا ما كان يغض النظر عنه كلية .

هناك القليل من المواضيع الشاملة التي تشغّل اللوحة بطولها . ولكن لا يوجد في هذه المواضيع العديد من الاشكال . فنحن نستطيع ان نرى ، اعتمادا على مخلفات الفترة الاخيرة من حكم عظماء ملوك السلالة الاشورية ، تبدل الاعراف الفنية تبلا جذريا يشبه التبدل الذي اصاب الفن الزخرفي . في فرنسا والذى ظهر اثره بين التصاميم العظيمة للفواكه والازهار (كتركة من القرن السابق) وذلك اثناء حكم لويس الرابع عشر ولقد تحولت هذه التصاميم الى باقات ورود في عهد لويس الخامس عشر بصورة تدريجية . ومهدية ثم الى ازهار في عهد لويس السادس عشر .

لقد قسّت المحوّلات الآشورية المحفورة ، بنفس الطريقة وبصورة دقيقة في عهد آشور بانيبال ، إلى أقسام ظهرت فيها الأشكال الإنسانية بنطاق أصغر، وزيادة على ذلك فانتا نجد مشاهد لمعارك حقيقة وهي تختلف كلية عن مشاهد أخرى من عهد آشور ناصر بال والتي نجد فيها أن الأجسام وعربات القتال والخيل والمحاربين قد اختلطوا اختلاطا لا خلاص منه ، بالموتى والعرجى .

وفي الحقيقة فقد وصل الفن آنذاك درجة كان عليه عندها إما أن يرسم خطة جديدة أو أن يصاب بالهزال . ذلك لأن الصيغة التقليدية اكتملت اكتمالاً منطقياً فوصلت إلى النتيجة النهائية .

لم يرکز الفن الآشوري في عهده المبكر إلا أقل ما يمكن من الأهمية على المناظر العامة . ويحتمل أن يكون هذا الفن قليل الاحساس نسبياً بانواع الجمال في الطبيعة . ومن الأدلة التي تشير إلى هذه الأمور اشارة مرضية ، ما تم العثور عليه من أشكال يسهل تشخيصها ، وهي تمثل الأشجار كالنخيل والصنوبر والشجيرات كما أن هناك اشارة إلى منطقة الجنوب التي توجد فيها الكثافة النموذجية للقصب العالي والذي يكفي لاخفاء الخيال ، ولغرض الاشارة إلى الشمال رسمت شجيرات العنبر باغصانها الملتقة والتي تشكل انماطاً زخرفية جميلة .

إن أحسن رسوم المناظر العامة جاذبية هي بلا شك تلك التي تمثل ركناً من مكان مخصص للصيد ، والذي كانت تحفظ فيه أسود آشور بانيبال . ويدو في هذا المشهد أحد الحيوانات وهو يضطجع ، في حين يقف حيوان آخر في مكان تكلله شجيرات العنبر ، وتبرز وردة ضخمة من الأرض ، وتؤلف كل أشكال هذا التركيب مشهداً ريفياً أخذاداً .

الاشكال المنظورة

يتتألف هذا المنظر الخاص مما يمكن ان يوصف بأنه قطعة ذات بعدين لمنظر عام . وهو لا يغطيانا جوابا لتساؤلنا عن كيفية معالجة الفنان الاشوري لمسائل الاشكال المنظورة . ويبدو ان مبدأه الاساسي يكمن في اتباع ما توحى به نباهته ، عوضا عما تراه العين . كما انه تجاهل ما يبدو من تساؤل الاشكال البشرية عند ازيداد المسافة . فهو لذلك يرسم هذه الاشكال جميعا بنفس المقاييس ، فتكون النتيجة عدم اطباق الشكل المنظور على الاشكال البشرية ، ولا على معالم المنظر العام . والواقع ان هذه المعالم كانت تهمـل كلية ، مما يجعل ملامح المنظر العام متراكبة ببعضها فوق بعض ، فتبعد و كأنها معلقة في الهواء . كما أنها تكون موزعة توزعا متبايلا بين مختلف المستويات . وهنا يجب على الناظر ان يتبعها من اعلى الى اسفل . وبالعكس ، وذلك وفقا للجهة التي يتمركز فيها عمل الفنان ، ان كان في اعلى المنظر او في اسفله .

وبالرغم من ان الاشوريين والبابليين لم يستخدموا الرسم المنظور بالمعنى الحديث للكلمـة ، الا انهم كانوا يتبعون اسلوبا خاصا بهم ، يصورون بواسطـته مختلف الشخصيات من آلهة وملوك ، ورجال بلاط ، وناس . عاديين . وكانت العناية بالتصوير تزداد تـبعا لازدياد المكانة والأهمية . فالمتحـولات المحفورة والكبيرة الحجم ، والموجودة الان في متحف - اللوفر - في باريس تصور - كلـكامـش - بأنه النـد الاشـوري لهرقل اليونـاني ، وهو يصارع اسدـا وشيء المـهم في المـجموعة هو البـطل نفسه الذي كان بـامـكانـه ان يـسـحقـ الحـيـوانـ بالـجلـوسـ عـلـىـ صـدـرهـ وـدونـ ايـةـ صـعـوبةـ .

ولو كان المشهد جدولـا او بـحـيرـةـ اـسـمـاكـ تحـفـ بـهـيـاـ الاـشـجـارـ لـكـانـ . الفنان يصور اولا الجدول او البحـيرـةـ ، ثم يـضعـ الاـشـكـالـ البـسيـطةـ وـالـجـانـبـيـةـ لـلـاشـجـارـ عـلـىـ شـوـاطـيـءـ الجـدـولـ اوـ الـبـحـيرـةـ .

ويبدو بعمله هذا وكأنه يصور بوحي من وجهة نظر خيالية او يعرض كل مظهر من مظاهر التصميم وكأنه يمثل وجهة نظر المشاهد الذي مشى - ووقف عند كل مظهر على التوالي . لم يكن الفنان الاشوري يرسم منظراً ناقصاً لبنيان معينة فيجعل احدى الواجهات وكأنها تكاد تخفي على الرغم من ان لها نفس ارتفاع بقية الواجهات ؛ انه يتصور نفسه واقعاً مباشرة امام البناء فيرسم الواجهة التي يراها في حين يتحجب عن الجانب الآخر .

تعني هذه المحاولة ان الفنان كان عاجزاً عن رسم صورة جانبية لهجوم على مدينة معينة واحتلالها ، وكذلك للجنود whom يصدعون السالم ، ما دام السلم لا يتالف من عمود واحد بل من عمودين قائمين وقبسان جانبية . سوف يخفر النحات المنظر الجانبي للسلم اذن ، وبناءً على ذلك سيظهر المهاجمون وهم يتسلقون السلم كله وبشكل مواز للارتفاعات (اللوح ٢٠) . ولما لم يكن يستطيع - كما قد يفترض ذلك - ان يظهرهم واقفين على الدرجات ، لانه لو فعل ذلك لاختفى جزءاً من السلم حيث انه كان يعرف بان السلم كامل في الحقيقة ، وانه يجب ان يصور بهذه الطريقة . وهذا ما يفسر لنا سبب عدم ظهور جزء من القوس امام وجه احد رمأة السهام ، والذي ظهر في الصورة وهو يسحب سهماً .

وعندما نأتي الى الاشكال البشرية نجد ان الرأس يرى جانبياً في حين يرى الجزء الاعلى من الجسم تماماً او منحرفاً بزاوية صغيرة ، وهذا قليل الواقع . اما العوض فانه ، كما هو الامر في الرأس والسيقان ، يرى في صورة جانبية ليس الا ، في حين ترى الاقدام واحداً اثراً واحداً وفي نفس المستوى . وينظر القدمان كاملين دائماً . ولا يحاول الفنان على الاطلاق تقدير خطوط الرسم لاظهار الاجزاء المختلفة . فالفنان يحاول جاهداً ان يحافظ ، بقدر ما يستطيع ، على مبدأ تصوير الاشياء كما هي حقيقة . وهكذا فنان العين الانسانية ، عندما تشاهد كاملة ، يكون لها تعيرها الخاص ومظهرها ،

ولذلك فإن الفنان يحفر العين كاملة في الشكل الجانبي للوجه . وبنفس الطريقة فاتنا نقول أن لحية الأشوري مربعة . ولما كانت لا تظهر هكذا في الشكل الجانبي للوجه ، فإن الفنان يظهرها مربعة على الرغم من أن وجهه صاحبها لا يظهر منه إلا جانب واحد .

لقد درس السيد (ر - فلافيوني) (R. Flavigny) العديد من الصور الصغيرة دراسة تفصيلية لبناء على ذلك فأتنا حينما نظر إلى مشهد ديني يتحتم علينا أن ننظر إلى كل معالم الهندسة المعمارية ، واللوازم الخاصة بالطقوس الدينية ، وان نرى بعين العقل الأعمدة والنيران المقدسة والتي تظهر مضمومة وراء الآله . وإذا ما صورت عربة تسير بأقصى سرعة ، وهذا غير مألوف ، فإن الخيول الاربعة تمثل أزواجاً أمام العربة ، وكأنها ترددان تمزقها . كما أن مقدمة العربة واضحة للعيان . وغالباً ما نجد منظراً جانبياً للآله وهو جالس على العرش الذي يستقر فوق اسددين . لقد حفراهما الفنان كل على افراد ، وكل واحد أمام الآخر

وأخيراً فأتنا قد نجد متبعداً بين الرين متماثلين يواجهه أحدهما من اليمين ، ويواجه الآخر من اليسار . والتفسير المحتمل لهذا التمايز هو وجود نسختين لصورة الآله تتجه كل منهما إلى جهة معينة . ويضفي الفنان على هذه الاشكال التغيرات بمهارة فائقة ، وإذا ما واجهته مشكلة اظهار الجنود اثناء العمل في معسكر أو قلعة ، فإنه لا يتردد عن جرنا إلى داخل الخيام ليبرينا ما في داخلها ، او انه قد يرسم مخططاً أساسياً لجدران القلعة الخارجية التي ييرذ البرج في خارجها ، فهو يشبه اشجار بحيرة الاسماك التي سبق وصفها . أما في الفراغ الطليق المتroc داخل القلعة فإنه يظهره بأقسامه التي تضم الرجال . وهم منهمكون بالطبع .

اما استثناءات هذه القواعد فهي نادرة ، وتتمثل بعض الاعمال الفردية التي جاءت قبل اوانها ، ويمثل تصوير الاصطبلات الملكية احد هذه

الاستثناءات ، وهو من عهد آشور بانيبال والذي يظهر ثلاثة ارباع الوجه .
ونرى في هذا المنظر صورة كبيرة لضابط واقف عند مدخل الاصطبل
بفي حين ازال الفنان الجدران من الداخل ما عدا الاعمدة القائمة ، وقصده
من ذلك اظهار ما يجري في الداخل . وبالفعل فأنتا تستطيع ان ترى الصور
الصغرى للخيول وهي سائبة .

وتعطينا (خرسناد) مثلا اخر يعتبر استثناء وهذا المثال عبارة عن
منحوته اشورية تمثل جولة اصطياد الطيور . ويظهر في المقدمة صياد بلا لحية
في حين يكون الصياد الثاني متخيما ، واقبر عمرا فاذا لم يكن الشخص الاكبر
المذى يظهر في الوجه اميرا حسبما قلت ذلك قبل في الفصل الاول فأنتا
يجب ان تعتبر هذا المشهد التصويري يمثل محاولة لاستعمال الرسم المنظور
يالمعنى الحديث للاظلال .

الجري السريع في الفن

لرسوم الحيوانات تقاليدها الفردية الخاصة بها وبعض هذه التقاليد لا يمكن تجنبها فهي تشبه التقاليد الضرورية اللازمة لتصوير الخيل وهي تجري . ونود ان نقول هنا انه حتى وقت ظهور السينما لم تحاول اية امة ان تحلل وبكل دقة التتابع المضبوط للحركات التي يصنعها الحصان الجاري . اما في الماضي فأن كل امة اختارت طريقتها التي استعملتها في تصوير هذه الحركات . فمثلا نجد ان اليونانيين صوروها كنوع من الغب ، في حين كان المصريون والاشوريون يظنون ان الحصان الجاري يقف على ساقيه الخفيفتين وكأنه على وشك الوثوب . والاختلاف البسيط بين التصویرین هو ان المصريين اظهروا الساقين الامامتين منحنیتين في حين يظهرها الاشوريون ممتدين . واخيرا فأن الفن (الایجي) يظهر الحصان طائرا في الهواء مع اظهار حوافره الاربعة مرتفعة عن الأرض .

لقد استعملت آلة التصوير المتحركة في تحليل الحركات فأظهرت ان كل هذه التصويرات القديمة لم تمسك بالحركات الحقيقة ، وان اليونانيين وحدهم قد اقتربوا كثيرا من الحقيقة .

علينا ان نعتبر هيئة المشي بيد الساق مجرد تقليد تصویري اخر استخدمه الاشوريون في تصويرهم حركات الخيل . وعلينا ان لا ندهش من ذلك لعدم امكانية وجود مراقبة دقيقة للحركات .

وهناك مثال اخر عن العرف العالص هو معالجة صفات من الشخصوص البشرية ، او عربة تسجّبها عدة خيول ، عندما يتصور الناظر اليها وكأنه ينظر مباشرة الى المادة موضوعة البحث فالفنان يشير الى عدد محدد جدا من الاشخاص او الخيول قد يصل الى اربعة ، وذلك بمحض صفات واحد او اكثر يتعقب بكل دقة مقطع الشكل الرئيس .

فهذا المعرف الخاص لم يكن في الواقع مقتصرًا على الفن الآشوري وحده . فقد تم تعقب ذات الاجراء عندما يفترض ان يشاهد حيوان ذي قرون في شكل جانبي بصفة دقيقة بحيث لا يرى منه سوى قرن واحد . ففي مثل هذه الاحوال لا يصور الفنان سوى قرن واحد حسب وهذا بدون شك هو اصل اسطورة وحيد القرن .

ومما يعادل ذلك تصوير اسد بوضع جانبي اذا كان يهاجم فريسته . حقا ، فان النحات بصوره وقد امتدت قوائمه الاربعة وتقاطع احدها خلف الآخر في وضع غير فني كليه حتى بالنسبة الى صورة دب يوشك ان يتهم فريسته .

وفي الختام فأننا نستطيع ان نذكر عرفا فنيا كان يتحكم في اشتغال النحات بتماثيل الثيران المجنحة هائلة الجسم ، والتي كانت تحرس ابواب القصر الملكي ، وهي نافثة اجنحتها على المدخل الذي كان على الزائر ان يمر منه . وهذا امر منطقي تماما اذا كان يفترض في المشاهد ان يكون دائما امام الجسم الذي يتطلع اليه . اما الزائر فأنه سيرى الثieran امامه ، وعلى جانبه في تناوب . وبناء على ذلك فأننا نجد ان جناحي الثور يبدوان يازدين في المنحوة ، في حين جعل الرأس والجزء الامامي ثلاثة الابعاد . ونتيجة لذلك وضع الفنان للحيوان اقدامه الاربعة ، ولكي يحدث انسجاما مع اجزاء الجسم الامامية ثلاثة الابعاد ، كرر الفنان القدم الامامي لكي يظهر الحيوان وكأن له خمسة اقدام حقيقة . واجملالا للوصف فأن الحيلة تبدو تهويلا اخرق ، وقلما يهز مشاعر المشاهد . وفي الحقيقة فأن الكثرين من شاهدوا هذه الاعمال لم يدهشو منها . والفضل في ذلك يعود الى مهارة النحات وسيطرته على تقاليد صنعته . العريقة التي جعلت هؤلاء المشاهدين يحسون وكأنهم يرون التماثيل الآشورية المهجنة كالانسان ذي الرأس الحيواني ، والحيوانات ذات الرأس البشري . وسبب ذلك هو

ما لدى الفنان من صفات عجيبة وهدوء وثقة ، مكتنته من ان يفرض وحده الموضوع على العالم المنفصلة . وختاما فاتنا توكيد على المهارة السامية التي تعلم الاشوريون بواسطتها تصوير الحيوانات كالاسيد المحتضر ، والدم التوار يخرج من فمه ، او اللبوة التي شكل السهم جزءاً . الخلفي ومع ذلك فهي تجر نفسها متهدية الصياد ، ثم صورة الاسد وهو يغادر القفص فكل هذه الصور قطع فنية خالصة وجديرة باللاحظة .

لم تلون النحوت الثالثة جميعها . وهي بذلك تشبه النحوت التي تلتها فيما بعد ، والتي لم يلون منها الا بعض المعلم البارزة كاللحية السوداء ، مع وجود لمسات حمراء او زرقاء على الملابس ، او ادوات الزينة التي جعلتها الالوان تبدو مرتفعة . ويبدو ان هذا التمييز في استعمال الالوان كان ممارسة مقبولة في هذا التاريخ في الشرق الادنى ، وقد استعمل في قلمون وتميز التوايات الفينيقية المصنوعة من المرمر ، والتي تعرف باسم التوايات البشرية وتشبه هذه التوايات ما كان عند المصريين . فنحن نجد في هذه التوايات ان نموذج الرأس يصنع منخفضا ، ويقاد التلوين ييرز الشعر والعين ، في حين يترك الباقي دون تلوين .

الفصل الرابع

الحياة الدينية

السلف الروائية

نستطيع القول ، وبقدر ما يتعلق الامر بممارسة العبادات ، ان لدينا امكانية الوصول الى مصادر الاخبار المباشرة عن الحياة الدينية التي نشأت وتطورت على نطاق واسع في بابل ذلك ان الاوصاف العديدة للشعائر الدينية والتي ظلت محفوظة ، ذات قيمة خاصة ليس بسبب الضوء الذي تلقى على كل تفاصيل المراسيم التي تراعي في الاعياد ، ولكن لأنها تمكنا . ايضا من استنتاج الممارسات المختلفة في المناسبات الاخرى ٠

هناك تقرير يقول ان للاعياد ممارسات خاصة بها ، ويظهر هذا التقرير ان الممارسات الاخرى هي من مسائل العمل اليومي ٠ وفي الحقيقة ، ومع وجود بعض الشفرات فأنه سيكون من الممكن اعادة تركيب التقويم الديني لسنة كاملة ٠ ان من الصحيح القول باننا لا نملك المدونات الاخلاقية بذاتها والتي تبحث في موضوع الخير والشر ٠ ولكن المعرفة الضرورية موجودة في قوائم الآثام ، وفي التحذيرات واللعنات التي ترفض بواسطتها اعمال معينة باعتبارها مكرروهه عند الآلهة ٠ وما علينا الا ان نلجم الى التحليل المثابر لكي نستخلص من هذه النصوص الفكرة البابلية عن الخير والشر ٠ ولكن اذ يعتبر الفكر الحديث هذه المفاهيم مشتملة على نوع من الوجود المطلق ، فأن الفكر الديني العراقي القديم قد اعتبرها من تراث اراده الآلهة ٠ فالخير هو ما ترضي عنه الآلهة والشر هو ما لا ترضي عنه الآلهة ٠ ولم تنتج التصورات

المجردة عن الحق (كيتو) والعدل (ميشادو) مظاهر مقبولة في مجمع الآلهة البابلي الا في اثناء عهد سلالة بابل الاولى .

اننا نستطيع ان نسمع صدى النمط الفكري المبكر يتعدد في قطع شجية من الادب البابلي ، وهي متوفرة لدينا في قصيدة (آلام الرجل الصالح) .
فبعد ان تستولي المصائب على البطل يقوم بتعذيب اعماله الماضية فلا يجد فيها الا الفضيلة فيصييه الشاوم ، ثم يتساءل عما اذا كان ما يعتقد المرء صالح يكون في اعين الآلهة شرآ ؟ .

وبنفس الطريقة تقول اننا لا نمتلك اي وصف صريح عن الفردية ،
واخلاق كل آله على حدة . ويتوارد علينا مرة ثانية ان نعتمد على التحليل
المقارن لما نعرفه عن ابوتهم ، وعلاقات عائلاتهم ، والخصال التي يتمتع بها كل
منهم ، والاسباب الموجبة لعيادتهم . وفي الحقيقة يجب ان نعرف كل الدراسة
ال المتعلقة بطبيعتهم الحقيقية .

لقد اشبع البابلي رغبته التي تدعوه الى ان يكون سجل دائمًا عن
الحقائق الدينية الاساسية ، وذلك عن طريق تأليف القصائد ذات الصيغة الملحمية
قصيدة الحلق ، وقصيدة هبوط عشتار الى العالم السفلي ، وعندما ندرس
كل هذا الادب ، فأن دراستنا هذه ستترك عندنا شعورا بالكتابة . وهذا
امر لا شك فيه . ونستخلص من هذا ان الدين الذي يكشف عنه هذا السجل
يعجز عن معاشرة ذكرى احدى حضارات الماضي العظيمة والتي دامت لما
يزيد على ثلاثة آلاف سنة ولعلنا بحاجة الى ان نذكر انفسنا بالحقيقة القائلة
بان اية عقيدة يجب ان تحمل طابع العصر الذي صاغها او تقبلها ، وان اي
عنصر سامي قد يكون فيها ، يصبح ملوما عندما يتقادم عليه الزمن ويصبح
بالامكان معرفة الفت من السمين .

ان كل عهد زمني لاحق لا يشكل الا حلقة واحدة في سلسلة الزمن ،

ولا منفه له من الاعتماد على سابقه . اما في دنيا الفكر فيجب ان تمضي قرون ، وان تكون مفردات ذهنية جديدة قبل ان يكون بالامكان التثبت من صحة شيء معين ، وقيل ان يتضح الطريق للمرور الى عوالم ابعد من الاعراف المقبولة . وهذا يشبه تماما ما يحدث في دنيا العلوم الطبيعية . حيث تمكنا المهارات الفنية المحسنة من الاهتداء الى تجربة جديدة تمهد لنا الطريق الى اكتشاف جديد .

ان فشل الفكر البابلي في بناء نظام ديني متجانس لم يكن بسبب ضعف اساسي ملازم له ، ولكن بسبب ان مستوى انجازه كان قد تقرر مسبقا بحدوداته الزمنية .

التقلبات والتناقضات

تعتبر التناقضات وعدم التماسك من اغرب المظاهر التي تبرز في اية دراسة عامة للديانة البابلية . ولقد كانت العقيدة البابلية تميز بتنوع الآلهة . كما امتاز مجتمع الآلهة للبابلي الذي ضم هذه العقيدة بأنه ، واسباب عديدة ، كان مليئا بالعبادات المتناقضة ، وتكرار الصفات التي نسبها الى الآلهة . قد لا تكون الالوهية نفسها نتيجة لايحاء مباشر ، ولكنها كانت من أهم أنواع المعرفة التطبيقية . وكان من المقبول بأن تحظى بما وهبته الآلهة إنما هو مجرد أمر طاريء . لقد كان هذا هو السبب الرئيسي ، وهو غامض ان لم نقل واضح ، الذي جعل ادخال التحوييرات امرا مستحيلا الى حد كبير .

وبالاضافة الى ذلك فأن ديانة العراقيين القدماء نبتت من أنواع مختلفة من الجذور ، وابتعد نمط نمو القطر نفسه ، وواحدة بعد واحدة راحت اقدم المدن السومرية تتبع جاراتها فكانت كل واحدة من هذه المدن تتمتع بالاستقلال الذاتي في سنواتها المبكرة ، كما كان لها كهاتها الخاصة بها ، وتقاليدتها الرفيعة . ان علينا ان ندرك انه كان لهذه التقاليد مظهر مزدوج ، اذ كانت ملزمة بأن تسابق نظرة العصر السائدة اثناء تكونها ، وهذا ما أضفى عليها نوعا من الوحدة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان عليها ان تنسجم مع التنظيم ومع الاتجاهات الخاصة ، ومع حاجات كل مدينة منفردة . وهذا ما أدى الى بروز اختلافات عظيمة في التفاصيل .

لقد تقبل الفكر الديني نظاما معينا من الابوة والقربى خاصا بالآلهة ، وهو يشبه ما عند البشر ، وفي داخل هذا الاطار راحت كل سلطة كهنوتية تضم مجموعة معتقداتها المنفردة بما في ذلك اختيار الآلهة الخاص بالمدينة الذي كان ، وبصورة عامة ، يختلف عن آلهة المدن المجاورة . وعندما راحت المدن تكون وحدات اكبر بصورة تدريجية اندمجت اولا مجاميع

الآلهة المختلفة ثم جعل الآلهة السومريون على تماس مع آلهة الغزو السامي، مع وجود عملية لا مناص منها من الأخذ والعطاء .

لقد جاء الساميون بأفكارهم الدينية معهم ورupoها اسوةً بالافكار التي اخذوها من سومر وهضموها . فهم قد حافظوا على مجمع الآلهة السومري، ولكنهم أعادوا تسميته باسم «سامي» وهكذا ضاعفوا العدد الذي يمثل مجموع الآلهة التي شاعت عبادتها . ووفقاً لمبادئ الجماعات المختلفة من الكهان فأن النتيجة الطبيعية لكل هذا كانت اعتبار أي إله مفروض وفي مختلف المناسبات ابناً لابوين مختلفين . ولعل أكثر أمثلة عدم الثبات دهشة هو المثل الذي يسكن ايجاده في الطريقة التي كانت فيها اسماء الازواج المختلفة من الآلهة مترابطة . لقد كانت عشتار اكثر الآلهات احتراماً وتبجيلاً ولكنها غالباً ما اعتبرت زوجة لآلهة زفيفة للمدن العظمى وعندما أدمجَ المجمعان كان بإمكان كل آله من الآلهة العديدين ان يدعى بأنه زوجها .

اصلاحات سلالة بابل الاولى

كان يحتمل ان تقع عدة تعديلات صغيرة نسبيا ، وذلك بمضي الوقت . ولكننا لا نعرف شيئا عن هذه التعديلات ، سوى ان اكبر الاصلاحات حدثت في عهد سلالة بابل الاولى . كانت طريقة محاولة حل المشكلة غير مباشرة . ومن المحتمل ان يكون البيت الحاكم قد حسب ان تبنيه الرسني ااسين من آلهة المدن القديمة ، قد يثير غضب بقية المدن الاخرى ، ويدخلن في حساباتها ان المدينة التي اتخذت منها الآلهة الاسمية تجعل اكثرا من غيرها . ولذلك قرر هدا البيت ان يوجد نظاما جديدا بين جمهورة الآلهة التي تتسمى الى نفس المجتمع . وبقدر ما نعلم لحد الان ، كان الله - مردوخ - حتى هذا الوقت ذا مكانة بسيطة نسبيا لكنه اختير ليكون الله الرئيس ليس للدولة الجديدة حسب ، بل للمدينة وبلاد بابل ايضا . ويفضل هذه المكانة وضع مردوخ على رأس آلهة المجتمع . وبقدراته قادر ارتقى الكهان عدم الحق الفرر بعدد او اهمية الآلهة القدماء . وان كل ما حدث هو ، بكل بساطة ، اختيار آله تكون له السيادة دون الاستغناء عن الآلهة الموجودة من قبل . لقد فقدت نفس العملية في بلاد آشور بالنسبة الى الآلهة القومي ، آشور ، والذي كانت عشتار زوجته . تقدم ملحة - العطق - الدعم المناسب لهذه العملية الثورية والتي اعتبرتها الكهانة البابلية ذات اهمية كبيرة . وكما نعرف من قبل فان الملحة وصفت هذه الآلهة بالعنف وبأن الرعب قد تملكتها ازاء تهديدات - تيامات - وكاؤس - وانها طلبت المساعدة من مردوخ الذي منحه كل سلطاتها طوعا لكي تمكنه من النجاح . واعتبر مردوخ عند بعض مدارس الفكر الديني خالقا للعالم . وعلى الرغم من هذه التغيرات الجذرية فإنه لم يكن هناك اي انقطاع عن التقليد الخاصة بعبادة الآلهة الاخرى او في قراءة تراثهم جديدة لتجيدها .

كما لم تكن هناك اية علامة تخرج من عدم التنااسب بين التراثيين والمبادئ الدينية الجديدة .

ومما لا شك فيه ان سبب ذلك راجع اما الى الفموض الذي يمؤلف المظهر العادي في الفكر الشرقي او الى خاصية تعدد الالله الموجودة اساساً في الدين البابلي .

ديانة الطبيعة البدائية وتطورها

قبل ان نبدأ بدراسة الدين في عهد السلالة السرجونية علينا ان نصف
بما يجاز الاشكال المبكرة التي كان عليها هذا الدين . ذلك لأن هذه الاشكال
تركت وراءها اثاراً مهمة . وحتى هذا العهد ، وبقدر ما نستطيع ان نصدر
من احكام ، فان دين بلاد بين النهرين قام على عبادة القوى الحيوية في اطواره
المبكرة جدا ، والتي انتهت قبل حلول تاريخ السجلات المدونة المبكرة ،
والتي ما زالت باقية .

وكما تقول العبادة المشهورة :- ان الانسان مقاييس كل الاشياء ، فان
الفكر العراقي القديم قد عبر عن هذه القوى بقوله ان هناك ارواحا للولادة
والتكاثر تتثل في وحدة الذكر والاثني كما في العائلة البشرية . وكانت
مجموعة هذه القوى تضم دائما شخصا ثالثا هو الآلهة الشاب الذكر
(وهو الابن) . وكان هذا الابن يشكل دائما مصدر ازعاج طفيف لرجال
الدين الباطلین ، لانه كان يمتلك سلطات وخصائص ايه ، وكأن يتعذر
اما ابنـا او محبوبـا للآلهة ، وذلك وفق ما كانت الظروف تتطلبـه غالبا
ما كان يكتسبـ الصفتـين في وقتـ معا .

لقد خفـ هذا الدين من هذه القوى الحـيوـية عن طريق خـلق عدد من
الآلهـة الذين كانت لهم وظائف مـعـينة ومـحـدودـة ، فـمـثـلا خـلق آلهـة للـحـبـوبـ،
والـقـابـاتـ ، والـكـرـومـ والـجـداـولـ ، بـالـاضـافـةـ إـلـىـ وجودـ أـرـوـاحـ بـرـتبـةـ اـدنـىـ ، اوـ
وـجـودـ العـفـارـيـتـ . وكلـ هـذـاـ ليـمـثـلـ مـحاـوـلـةـ تـجـعـلـ هـذـهـ الآـلـهـةـ مـسـؤـولـةـ عنـ
قوـىـ الشـرـ الخـيـثـةـ .

لقد كان هذا الدين اسيـوـياـ في خـاصـيـتـهـ ، وهو يـشـبـهـ ، من بعضـ الـوجـوهـ
الـديـانـاتـ الـهـنـدـوـ - اوـريـةـ الـبـدـائـيـةـ .

جاءت المرحلة الثانية عندما اخليطت هذا الدين السومري بمظاهر أخرى مختلفة لا تتوضع إلا بعد تماستها مع الدين السامي ، هذا مع العلم انه حافظ على عنصر عبادة الطبيعة الخاص به .

يرجع تاريخ هذا التماس إلى العصر التاريخي . ومن المحتمل انه يرجع حتى إلى ما قبل عصور ما قبل التاريخ . فلم تكن المدينة السامية في هذا الوقت متقدمة تقدما ماديا ، ولكنها في الوقت الذي كانت تتقبل فيه الحضارة السومرية تقليلا كلية تقريبا ، كانت تمتلك افكارها الخاصة بها لكي تغير وتوسيع طابعها من مصادرها الخاصة بها .

كان الاله - آنو - في هذا العصر هو الشخصية المهيمنة على مجتمع الالهة . لقد كان آنو او ان يقيم في السماء (ورمزه هو نفس الرمز المشير إلى الكلمة - نجم -) كما كان يمتلك سلطات لا حصر لها بما في ذلك السلطات التي كانت تنسب إلى ارواح - الولادة والتكاثر . اما اقرب الاقرباء إلى - آنو - فهم - اليل (آله الريح) و - انكي آله العالم السفلي ، والذى اصبح فيما بعد آله مياه الهاوية التي لا قرار لها والتي رست عليها الارض . وتأتي بعد ذلك آلة الاجرام السماوية مثل - انزو - الله القمر ورب المعرفة ، و - أوتو - الله الشمس ، و زگال - حاكم العالم السفلي او مملكة الاموات الذين كان مسؤولا عنهم ، وكان لكل واحد من هذه الاله زوجته ، وكانت (عشتار) من اهمهن جميعا ، وينظوي تحت اسمها نطاق واسع من الهويات الشخصية .

ان علينا الا تصور ان عنصر عبادة الطبيعة قد تلاشى باجمعه . بل على العكس من ذلك اتنا لازال نجد آلة تمثل هذا العنصر مثل (دمورزي) (تموز) و (نينكتزیده) و (شارا) و (نتكرسو) وهي ، على التوالي ، آلة الحصاد وحطب الحياة والخضار والفيضان . اما زوجاتهم فهي (با با) آلة الصحة ، و (ننتود) آلة الولادة و (گاتمدگ) مانحة العلیب الرحيمة ،

و (گیشتین - أئتا) الكرمة السماوية ، و (شالا) ربة سنابل القمح . ولن يستدعي أحد من هؤلاء - المعبودين - أهمية من الدرجة الأولى كما للألهة التي سبق ذكرها ، ولكنهم مع ذلك يدللون على عصر مضى :

ومما لا شك فيه أن سبب هذه الحقيقة ناجم عن تأثير ونفوذ الساميين ، الذين ادخلوا عبادة النجوم .

واخير جاء العصر الثالث الذي سبق أن جتنا على ذكره بایجاز . ويحتمل أن يكون هذا العصر قد شهد ادخال معبودين كبارين إلى مجتمع الآلهة . وقد قدر لهذين المعبودين أن يصبحا فيما بعد الآلهتين الوطنيتين لبابل وأشور . ونقصد بذلك مردوخ وأشور .

وباستثناء ما ادخله الكشيون من عدد قليل نسبياً من الآلهة إثناء سيادتهم على العراق ، والتي استمرت عدة قرون في الالف الثاني ق.م ، فإن الدين قد استعاد الشكل الذي نستطيع أن ندرسه فيه ، وذلك في ظل السلالة السرجونية والامبراطورية البابلية الجديدة .

تركيب الهيكل أو مجمع الآلهة

اذا ما مضينا نحسب الآلهة الرئيسين في الهيكل البابلي ينبغي لنا ان نفهم ان ذلك يحتاج الى كتاب لكي يضم قائمة كاملة بهم ، هذا مع العلم ان الوثائق الجديدة التي تم اكتشافها ما تزال تعمل باستمرار على زيادة معرفتنا بالعديد من الآلهة الجدد الذين كانوا على الرغم من ضآلة اهميتها يصوروون لنا الزيادة المدهشة للآلهة التي كانت تحدث في بلاد ما بين النهرين ٠

ومما لاشك فيه ان الكهانة حاولت ، وعلى الاقل ، ان تحقق نوعا من التضييق ، وان كبار الآلهة قد جمعوا في مجموعات تألفت كل واحدة منها من ثلاثة آلهة واول هذه المجموعات هو الثالوث الذي يضم الآلهة (آنو) و (اليل) و (ايا) باعتبارهم الحكام الوحديين للكون ٠ وقد فعلت الكهانة ذلك بسبب الضغوط المتضاعدة والناتجة عن تعقد تركيب مجمع الآلهة ، هذا بالإضافة الى الخوف من عملية الاقصاء الضرورية ٠

كان - آنو - من اكثر الآلهة اهمية في العصر السومري ٠ وكان مقامه في السماء ولقد مكث هناك بالرغم من وجود آلهة آخرون يعادلونه في القوة من فاحية عملية ٠ لقد تركزت الطقوس الدينية الخاصة به (آنو) في (دير) (*) في بلاد اكد ، وفي (الوركاء) في بلاد سومر وقد عبد هناك مع ابنته عشتار في المعبد الذي كان يعرف باسم أنتا - وهو صرح (آنو) او صرح السماء ويلاحظ ان - النجمة - هي العلامة التي استعملت لتقوم مقام اسمه ومقامه ٠ كان لـ (آنو) معبد محترم جدا يقع في (الحي المقدس) الذي عرف

(*) دير : موقع على مقربة من نهر اليوسيفية جنوب بغداد . تدل كل الشواهد على انه موقع مدينة اكد عاصمة الاكديين عشر فيه مؤخرا على مكتبة عامة تضم الالوف من الرقم الطينية .

باسم (گرسو) من مدينة (لگش) وفي هذا المكان عبدت عشتار كذلك
وكان اسمها بالسومرية (نينــي) واعتبرت ابنة (آنو) ، وفاقت عبادتها
عبادة والدها في الاهمية ، وظل (آنو) معتقداً به على انه اعظم الآلهه شأنها
حتى طول العصر السومري الجديد وقيام سلالة بابل ، بادخال ديانة
مردوج .

كان شعار الملكية موضوعاً بين يدي - آنو - ويتالف هذا الشعار من
الصلجان والتاج ، ويشكل هذا الثنائي اشارة واضحة الى ملكتي سومر
واكد التوأمین اللذین کاتتا تشبیهان مملکتی الصعید والدلتا (مصر العليا
ومصر السفلی) وعند باب مقام (آنو) السماوي ، اي مستوى منطقة
البروج اوسمت الشمس ، سكن الهان شديداً التشابه ، وكانوا مسؤلين
عن دورة الطبيعة ، اي تكوين الفصول ، وهما تموز وكیزدھ . وحتى ولو
كانت العبادة والألقاب تعود الى (آنو) فإن ذلك لم يكن عائقاً لعبادة آلة
آخرين . ذلك لأن الشعائر الخاصة بالله معين لم تكن تستبعد طقوس آله
آخر اللهم الا اذا اراد التبعيد نفسه ان يجعلها كذلك .

نستطيع ان نشير على الدلائل التي تشير الى علو شأن - آنو - وتفوقه ،
من الطريقة التي يستضيف بها الآلة الآخرين . وتعتبر سماء - آنو -
المكان المفضل لاجتماع الآلة في الافراح والاتراح . وكانت هذه السماء
هي مكانهم عندما هددتهم الدعاة الذي اقتذهم منه مردوج ، وكذلك في
وقت الطوفان الذي دمر معابدهم عندما كانوا يقيمون على الارض . كان
- اليل - ثانية آلة عظيم في اول ثالوث ويعرف عند الساميين باسم (بعل)
ومعناها (الرب) . وكان يحكم الارض .اما في بلاد سومر فقد تمركزت
عبادته في - نفر - وقد خاطبه احد ملوك لگش في اوائل العصر السومري
بعبارة (ملك الآلهة) . وما لا شك فيه ان السيادة التي غالباً ما كان
يتمنى بها ، تمثل انعكاساً لتقاليد كهنووية . اذ بالرغم من انه كان يحمل

القاب الحكيم والعاقل فانه (وتحديا لرغبات عشتار وايا) كان مسؤولا عن امر بداية الفيضان . وانتا نستطيع ان تحكم على مقدار تلاشي سلطته من الحقيقة القائلة بأنه عندما ظهر مردوخ على المسرح اتخذ بدوره اسم (بعل - مردوخ) في حين اصبح اسم اتيل ، وهو صاحب الاسم ، بعل القديم . اما زوجة (اتيل) فكانت تسمى (بعليت) (السيدة) وبالطبع فان هذا تأنيث لاسم الزوج (بعل) .

اما ثالث هؤلاء الآلهة الثلاثة فهو - ايا - ويعرف بالسومرية باسم (انكي) . وكان يطلق عليه (رب الارض السفلي) والتي يقول عنها البابليون انها (هاوية المياه) التي يطفو فوقها العالم الارضي ولا يطفو فوقها العالم السفلي الذي يحكمه الاله - نيرگال . يعني اسم - ايا - (بيت الماء) وهو بحد ذاته وصف لمملكته . وكان البابليون يعتقدون ان الحكمة والمعرفة تقيمان في هذه الهاوية ، والتي كانوا يعرفونها باسم أبسو . وتمثل هذه الكلمة الصيغة السامية للكلمة السومرية - أبزو - ومعناها - مقر المعرفة - .

كانت (دامكينا) زوجة - لأيا - ولم تكن مشهورة على الاطلاق . في حين كان - ايا - نفسه حامي السلالة البشرية وهناك بعض الروايات الدينية التي تجعل منه خالقا للانسان . ووفقا لما في هذه الروايات فانه خلق الانسان من الطين ، ثم نفع فيه الحياة . وكان - ايا - يعرف كذلك باسم - الفخار الالهي - وبسبب من تحذيره المسبق بالفيضان ، فانه كان مسؤولا عن ضمان نجاة زوج من الكائنات البشرية ، وبما انه كان يحكم المكان الذي كان مقر المعرفة فانه صار حاميا لكل نوع من المعرفة المتقدمة كالكمانة والسحر والطب وكان الآلهة يوصف بأنه الآله الذى كانت عيناه تشعلان فهما وكان الماء المقدس الذى استعمل في المراسيم الدينية يؤخذ من الآبار والتي تعود لمملكته ، والتي كانت نفسها ترتبط بالبحيرة الباطنية ، او بمصibi النهرین

العظيمين دجلة والفرات اللذين كانوا يعتبران آلهين أيضا .
وقصير القول فإن هذا الثالوث الاول من الآلهة قد اقتسموا فيما بينهم
السيادة على ثلاثة عناصر الاربعة ، والعناصر الثلاثة هي الهواء ،
والارض ، والماء ، هذا على الرغم من ان سيادة(آنو) على الهواء غير منازع فيها .
اما السماء فكانت هي الاخرى مقسمة بين نفس الآلهة الثلاثة . وكان طريق
(آنو) ينضوي تحت سموات (الليل) و (آيا) .

الثالث الثاني سن ، شمس ، عشتار

بالرغم من ان امكانية اعتبار الثالث الاول ، بأي معنى من المعانى وحده منطقية قائمة بذاتها فقد كان هناك آلهه لا يمكن ان يركوا دون ذكر . ويقودنا هذا القول الى (الثالث الثاني) المؤلف من سن ، الاله **القمر** ، وطفليه ، شمس (الشمس) وعشتار (كوكب الزهرة) .

الاسم (سن) هو الصيغة السامية للاسم السومري (ان زو) والذى يعني آلهه المعرفة . وتشير هذه الحقيقة الى مفهومين متضادين ووفقا لما جاء في احد هذين المفهومين فأن المعرفة تقيم في السماء ، في حين يقول المفهوم الآخر انها تقيم في المياه التي تحت الارض . وكان الذين قد جعلوا من القمر (الها) وليس آلهة جماعة صغيرة من سكان العراق القدماء والتي نسيت اهمية كبرى الى القمر ، وانه هو الذى يتحكم في مرور الاشهر فهو ينموا من هلال الى بدر ، ثم يتأفل . كما ان السنة تتألف من اثنى عشر شهراً قمريأ ، ويجب اجراء تبديل في هذا العدد من وقت لآخر ، وذلك لكي يحدث انسجام مع مرور سنة حقيقة . ونتيجة لذلك اصبح عدد ايام الدورة القرية الكاملة ، وهو العدد (٣٠) ، مرادفا لالله (سن) . وقد كتب بالعلامة التي تتضمن معنى اليوم .

لقد اعطت الدورة القرية الثانية لالله (سن) ارتباطا خاصا بالنظام والحكمة ، وقد تصوره العراقيون القدماء بشكل انسان في ربيع حياته ، له لحية طويلة من اللازورد . وعندما يكون هلالا كانوا يقولون انهم يشاهدون الزورق الذي يبحر به عبر السموات ، وجدير بالذكر ان الهلال يرتفع في عروض بلاد ما بين النهرين في خط مواز للافق ، وتتجه نهايته الى اعلى .

الله الثاني في هذا الثالوث هو شمس (الشمس) (أتو السومري)
قد ندهش اذا علمنا انه الابن الوحيد للله القمر ، وانه ليس له
حق خاص به يجعله سيدا ، ذلك اتنا تعتبر الشمس اهم بكثير من الاثنين
وهما القمر والزهرة اما في الشرق فأن الآية تتعكس اذ بينما يرحب الناس
بشمس الصباح الباكر والتي تدفئ الارض وتطارد الغلال التي تكمن فيها
الارواح الشيرية مثيرة الرعب ، نجد الشمس تفتقد هذا الترحيب الذي
حظيت به اول النهار وذلك حين يبدأ هذا النهار بالاتهاء . وتسير الشمس
في طريقها الى الغروب ، وعندما تبلغ المستوي لا تعتبر صانعة الخير للانسان ،
ولكنها تصبح قاتلة تلتهم جلود كل الاشياء النامية ، فتحول السهول الى
صحاري وتسبب ضربة الشمس التي تأتي بالموت والآلام . وزيادة على
ذلك فأن الشمس تفتقد عند هذه الدرجة صفتها التي يجعل منها (شمس)
وتصبح (نركال) آله العالم السفلي والذي يسكن في دنياه ضحايا الآلام
والاوجاع التي سلطها بنفسه على البشرية .

ان الحقيقة القائلة ان (شمس) كان يعتبر آله العدل يؤلف ضوءاً جانياً
جميلاً في طريقة التفكير البدائي الذي كون هذا التصور عن الشمس التي تدفئ
كل شيء والتي تعمد العالم بضوئها وتبدل ظلمات الليل التي تخفي الاثنين .
وهذه الصفات لا تليق الا بأله العدل ، والذي برعايته وحمايته استطاع الملوك
الشريون العظام قبل حمورابي ، ان يضعوا قوانينهم . وفي متحف اللوفر
بياريس توجد مجموعة قوانين هذا العاهل الشهير والتي تصوره وهو واقف
بخشوع امام شمس .

وفيما يجب ان يكون مرحلة متأخرة نسبياً في تطور طقوس عبادة
(شمس) اعتبر هذا الله اباً للطفلين (كيتو) و (ميشادو) (الحق
والعدل) وكلاهما يمثل تصوراً دينياً مجرداً ابعد من مدى الذكاء في الفكر
البدائي وكانت (آيا) (Aia) زوجة شمس تكمل هذا الثالوث الثاني بالآلهة

عشتر التي يمكن وصفها بانها خلاصة (نخور ساڭ) او (نتي) او (إتنا) او العديد من الآلهات السومريات الاخريات واللواتي جسدن جميعهن مبادئ الخصوبة او التنااسل .

ان وجود عشتار كعبد مساوى مع الآلهة الاخرين الكبار في مثل هذا الشالوث لهو دليل مدهش على شدة عبادة قوى الطبيعة والتي تأصلت جذورها في المجتمعات البدائية ، ذلك لأن المجتمع السامي كان أقل استعدادا من المجتمع السومري لاعطاء المرأة اية مسئولية حقيقة في حياة البلاد ، على الرغم من احتمال ان قوانين حمورابي قد اعطت المرأة في بلاد بابل حقوقا لم تحصل عليها المرأة الفرنسية مثلا الا في بداية القرن العشرين . ومن امثلة تلك الحقوق الحضور لاداء الشهادة في المحاكم القانونية . لقد كانت قرينة الملك في المجتمع الاسيوى عضوا في مجلس الدولة وكانت توقع على مرسيم الدولة ولها حق التملك . كما كان لها عيالها الخاصون بها والذين أوكلت اداره شؤونهم الى حاجبها الشخصي .

ولم يكن هذا الامر مقصورا على الشعوب الاسيوية وحدها ، بل تعداد اليونان البدائية حيث كانت المرأة تصرف امر عيالها . ويتبين هذا من قصة (نوسيكا) المذكورة في (الأوذسا) ، والتي جاء فيها انه عندما كانت الاخيره تخبر (اولسن) عن السبيل الذي يسلكه لكي يحصل على المساعدة من ايها الملك . وقد طلبت منه ان يدخل القصر حيث سيجد آباهما جالسا في احدى الغرف وهو يشرب مع الآلهة ، ثم قالت له بأن عليه الا يتowan او يتآخر عند ايها ، بل يمضي في طريقه ، ويرمى بنفسه عند اقدام امهما التي لها القول الفصل .

ان القول بان عشتار تمثل تخيلا للعديد من الآلهات المختلفات ، يجعل من نفسها غامضا . وتأتي مختلف النصوص على ذكر عشتار في مواضع مختلفة ، وهي تذكر ابنة لكل من (سن) و (آنو) واخت لكل من (شممش)

و (إشكىگال) . أما قائمة ازواجها وعناقها فانها تملأ كتابا كاملا ، وهي تصبح بهذا الاسم او ذاك زوجة للله العظيم الذى يكاد ان يكون لها لكل مدينة . فهي تمثل مزيج شخصتين مختلفتين في شخص احدى الالهات مدينته . (سيدة الحب) و (سيدة المعارك) ولا حاجة هنا لكتي نرى في هذا التصور الثنائي شروحا فلسفية او شعرية قدمت في اوقات مختلفة كالقول بأن الحب شقيق الموت ، او ان الموت يعادل الحب .

يجتمع في عشتار مبدأ الخصوبة الطاغي ، وهو يمتزج مع شخصية سيدة العادات . ومع ذلك فقد عبدت عشتار تحت اسمين مختلفين يعبران عن مظاهرها المختلفة في قد أهلت في - الوركاء - باعتبارها (عشتار عبادة الطبيعة) ، في حين كانت عشتار (حلب) و (أربيل) هي سيدة المعارك وحدها . وقد تطلب هذان المظهران شخصيتين مختلفتين وكذلك صفات ورموزا مختلفة . أما في الأنظمة الدينية المتأخرة فأن المظهر المزدوج لتقوى الطبيعة كان واضحا ، اذ كانت (فينوس) (الزهرة) آلة للحب واللذة ، اما اذا كان اسمها (سايل) Cybele فيعني أنها تمثل النماء البشري والحيواني .

نينورتا ، نوزكا ، نيرغال ، اداد وتموز

علينا ان ندرك بوضوح ان الثالث الاول (آنو ، اليل ، ايا) كان بحد ذاته كافيا من ناحية عملية لتوضيح معالم الكون .اما العنصر المفقود فهو عنصر - النار - والذى يمثله (شمش) ، من الثالث الثاني . ومع ذلك فقد احتوى مجمع الالهة على العديد من الالهة الاخرين الذين يعتبرون ثانويين بالنسبة للاعضاء الرئيسيين ، وبالنسبة لوظائفهم . وكانت الكهانة عاجزة عن تصنيفهم .

كان من بين هؤلاء الالهة - نتورتا - او - إينورتا - والذى اصبح في العصر الاشوري الحديث آله المارك ، واما في بدايته فكان آله الطبيعة . وكان في العصر السومري المبكر لها للخصوصية ، كما كان في هذا العصر « رب گرسو » (نتگرسو) اي الحي المقدس في (لگش) . وعندما صار - نتورتا - الله الخصوبة كان يتحكم في الفيضان السنوي للنهر والذى بدنته لا يمكن ان يكون هناك شيء اخضر . كان المحراث رمزه في السابق . وعندما حل العصر الاشوري ابدل المحراث بالسلاح . انه يمثل اندماج آلة اخرى بما في ذلك (نشوشينا) آله سوسه و (زبابا) الله كيش . ويعبر تعدد زوجاته الواضح عن تنوع اسلافه . وتظهر النصوص المختلفة انه كان زوجا لـ (بابا) و (نينكارك) و (گولا) . وتجسد هذه الالهات الثلاث تنوع الصفات ، وهن لا يكتفين برعاية صحة الانسان وشفاء سقمه ، بل انهن قادرات ، في مناسبات اخرى ، على أنزال الموت بالانسان . وتقول الاساطير اليونانية ان الكلب رفيق گولا يصبح رفيقا كذلك لـ (ايسكولايوس) بجسد الاله المعروفة بالسومرية (گبيل) (Gibil) عنصر النار ويعرف عند الساميين باسم (نوزكو) وهو الله اللهب . ويمتحن عباده فائده ومنافعه حين يقدمون له الشكر اذ لا يمكن تقديم للقرايين المحروقة دون مساعدته .

لقد كان الماء الجاري هو الآخر إلها فكان مهتما اهتماما خاصا بادارة العدل ، اذ كانت له القدرة على تمييز البريء من المجرم وكان هذا في الحقيقة تجسيدا لما اسمته العصور الوسطى بقضاء الله ، حين كان التهم يقذف في الماء ويترك امر اثبات براءته او اجرامه الى الآلهة . فأن غرق فهو مجرم وان طفا فأنه بريء وقد قدست شريعة حمورابي هذه الطريقة فاتبعتها في احقاق الحق .

اما (نيرغال) الـ العالم السفلي فقد كان معرورا وكما رأينا فأنه كان في الاصل الـ الشمس ، وكان مدمرـا للحياة ، وهو الذي خرج باحثا عن مملكته ، فشق طريقه وسط ارض اللاعودة ، والتي عرفت باسم (أرالـتو) ، والتي كانت تحكمها (أرشـكيـغال) شقيقة شمس وعشـتار . وقد أظهر نيرـغال شيئا من العنف مع الملكة التي عرضت عليه الاقتران به حالـا .

اما (آدد) ، وهو الثاني في هذه الجماعة فقد كان عضـواً مهما في المجمع . وكان الـ العواصف بما في ذلك الزوابع والبروق والمطر الرحيم الذي يرجـب به الناس . لم يكن اصل آدد سومـريا ولا ساميـا فقد عرفنا ذلك من الاساطيرـ الفينيقية التي اكتشفـت في (رأس شـمرا) (*) ونقرأ فيها انه عندما قدم كل الـ الله مع معبده الى المجمع كان (آدد) الآلهـ الوحيد الذي لم يجهـز بشـيء . ومن هنا نستطيع ان نستنتج ان (آدد) لم يكن عضـوا في الجماعة الـ اصلية لـ الآلهـة . الواقع انه كان الـ الله الـ اعظم في العالم الـ اسيـوي . وكان يعتقد انه يقيم على ذروـات الجـبال وسلاـحـه الرعدـ والـبرـوق . أما صفتـهـ الحـيوـانـيةـ فهيـ الثـورـ الذي كانـ خـوارـهـ يـشـبهـ هـدـيرـ الرـعدـ .

كان آدد يـمثلـ المـبدأـ السـاميـ للـتكـاثـرـ ، والـذـيـ يـنـجـسـدـ بـآلـهـ الاـشـجارـ والـيـنـابـيعـ وـاـمـثالـهـ .

(*) رأس شـمرا هيـ مـديـنةـ (اوـغـارـيـتـ) منـ اـعـظـمـ المـدنـ الـفـينـيقـيةـ خـلالـ الـأـلـفـ الثانيـ قـبـلـ الـمـيلـادـ تـقـعـ إـلـىـ الشـمـالـ مـنـ مـيـنـاءـ الـلـاذـقـيـةـ السـوـرـيـ . نقـبـ فـيـهاـ «ـ شـافـيـرـ »ـ اـبـتـادـ مـنـ ١٩٢٩ـ وـاسـتـمـرـ التـنـقـيبـ حـتـىـ سـنـةـ ١٩٦٠ـ .

كانت (شالا) هي زوجة أدد ، وأما كنيتها فهي (سيدة الفيلة والقمر) ونوضح هذه الكنية شخصية (شالا) توضيحاً كافياً ، وما دمنا نبحث في موضوع آلهة الخصب الذين يقروا حتى العصر الاشوري ، فأنتما نذكر (نيدابا اويسابا) آلهة الخضار ، ويختلط ذكرها بالقصب الذي كان ينسو نمواً كثيفاً في الاهوار والقنوات . وبسبب من استعمال القصب كأدوات للكتابة على الطين ، أصبحت (نيدابا) آلهة للأعداد والنباءات التي كانت تعتمد على الأعداد . وبالإضافة إلى ذلك كانت نيدابا آلة لم تتوج كثير الفائدة واعني به النبات المعروف باسم ذيل الحصان وهو من السرخسيات ، والذي يحتوي رماده على الصودا ، التي تستعمل عوضاً عن الصابون عند خلطها مع الرمل والدهن .

وآخر هذه المجموعة هو تموز الذي كان غالباً ما يعطى اسمه إلى أحد أشهر السنة . وعلى الرغم من تناقض أهمية عبادته بمضي الوقت إلا أن الحفاوة به استمرت ، ولم تمت الأساطير التي تتحدث عنه ، وفي الحقيقة عادت الأساطير الخاصة به إليه أخيراً وذلك في المناطق المحيطة بشواطئ البحر المتوسط ، حيث عبد في العهد الاغريقي الروماني تحت اسم (ادونيس) . وهذا الاسم بكل بساطة هو تقبل للاسم السامي (آدون) والذي يعني الرب أو السيد . ولقد عبد الأبطال أيضاً ، والذين هم من نسل اب آلهي وام بشرية . ولقد سبق أن تعرفنا على كلكامش الذي كان التند الاشوري لهرقل اليونياني وهو مثله قوي ، وقد حق المأثر الأسطورية ولكنه ، وفي الفترة الأخيرة ، لم يجعل بدرجات شديدة تشبه درجة تمجيله في الآلف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فإن ذكرى أعماله الجبارية غلت حية في الأذهان .

العفاريات

لقد تأثر كل من الدين البابلي والدين الاشوري تأثراً عميقاً بالاعتقاد القائل بوجود الجن والارواح الشريرة والخيرة التي تحيط بالانسان احاطة دائمة . ولا يوجد اي حديث ثابت يفسر حقيقة هذه الكائنات . الا ان الاشرار من الجن والارواح ، كانوا يعتبرون ابناء للآلهة الاشرار القدماء ، والذين اوقع بهم مردوخ هزيمة لكي يحرر زملاءه الآلهة من تأثيرهم ونفوذهم ، أما الاختيار من الارواح والجن فقد قيل عنهم انهم ينحدرون من بعض كبار الآلهة الذين كانوا ما يزالون يعبدون .

لقد قسمت الفالية التي يتحدر كل عفاريتها من اصل آلهي ، قسمة غير متساوية بين الجن الاخيار والاشرار . ولقد تم تصوير الجن الاخيار في حالتهم الظاهرة في شكل لثيران مجنة تولف زخارف ابواب القصر الملكي ، او انهم كانوا ، في هذه الحالة المنظورة من بين الحرس الخاص لعشтар ، وقد كانوا جزءاً من سلسلة اعدادها . وتحن تعرف ان الآلهة قد تم تصنيفها بشكل هرمي . كما يمكن استخدام مجموعة الاعداد في التعبير عنها بشكل جماعي . ولقد كان اسم هؤلاء الجن الاخيار يتالف في شكله المكتوب من علامات الآلهة عشتار الموجودة داخل العلامة والتي تحمل معنى ثلث او ثلثي عشتار ، وما دام العدد الذي يمثل عشتار هو (١٥) فأن العدد الخاص بالجن الاخيار هو (٥) او عشرة .

يتفوق الاشرار من الجن على عدد الاخيار منهم تفوقاً هائلاً . واعتبر الجن ابناء للآلهة الذين يتحمل ان يكونوا اما اصدقاء واما اعداء للانسان . كما وصفوا في احياناً اخرى بأنهم ابناء (بعل) ، وفي احياناً غيرها ابناء (آتو) .

وفي مثل هذه الحالات كان يظن بأن امهم هي احدى إلهات العالم السفلي ، وهناك وصف اخر ينسبهم حتى الى الآله (ايا) وزوجته (دامكينا) ، هذا على الرغم من ان هذين المعبودين كانوا محبين للانسان + أما العفاريت الذين صوروا بشكل كائنات رهيبة مرعبة فقد قسموا الى مجموعات كثيرة + وأول هذه المجموعات واكثرها شيوعا هي المجموعة التي تعرف باسم (اوتكتو - Utukku) كما تعرف باسم السبعة ايضا ، على الرغم من احتمال تغير عدد افرادها في بعض المناسبات +

يحيط الفموض الشديد بالمراجع التي تشير الى هذه العفاريت ، في حين نجد النصوص متناقضة ، وهي تؤكد ان هذه الكائنات غير معروفة في السماء ، ولا يوجد هناك منها الا سبعة ليس الا + كما تشير مراجع كثيرة الى انهم كانوا يعرفون بوجودهم على شكل عشائر منفصلة ، وبشكل تجمع لانواع مختلفة من العشائر + وكان من أشهرها (ستيمو) أو (الاشباح) ثم (نامتسارو) وهو غوريت الوباء +

وعندما نسأل عما كانوا يفعلون نجد ، وفي كثير من الاحيان ، ان نباهم باسوأ من عظمهم + ذلك لأنهم قد يجعلون المسافرين يتبعهون الى وجودهم فيستقبون خطواتهم + وهم لا يستطيعون دخول البيت او الصفير ، أو التمته ، او قلب الاشياء رأسا على عقب ليس الا ، بل انهم كانوا يستطيعون ان يشقوا طريقهم الى الاصطبلات وهناك يؤذون الحيوانات ويقتلونها ويجعلونها تفر الى مختلف الجهات ، وهذا هو مبدأ سيطرة الارواح الشريرة وبالمعنى الذي كان مفهوما في العصور الوسطى +

ومهما كانت القوة التي يغلق بها الباب ، ومهما وضعت من حواجز ، فإن بأمكان هذه الارواح ، ولوچ البيت والآتيان بالاعمال الشريرة ، وجعل العوائل تخصم مع بعضها البعض + الواقع ان هذه الارواح تتحمل مسؤولية

اي ظرف سيء يحيط بالانسان كبر هذا الظرف ام صغر وواقع الامر ان الكآبة الشديدة كانت طابع احساس الانسان بأنه محاط من كل جانب بأنواع من اداء غير منظوريين والذين تفرعت عن خياتهم كل مصيبة كانت تنزل بالسكان البابليين في حياتهم اليومية ،كسوء الحظ ، والماكسة والعصبية وهذه الارواح تحيط بالانسان ليل نهار ٠

لقد أغضب أحد البابليين إلهه بعصيائه قوانينه فقدر عليه العقاب ٠ وبالرغم من احتمال هروبه من بيته فقد يصل الى الشارع وهو غير قادر على توفير الحماية له وتقول الاسطورة :-

(ان من يمشي بلا الله في الشارع سيكون الغريت دثاره) ٠
لقد كان هناك اخرون من جماعة السبعة الذين كانوا يذهبون سكان العراق القديم وهؤلاء هم الكوايس وشيطانات الاحلام اللواتي يجتمعن الرجال اثناء نومهم ولا يمكن ان يفلت اي انسان منهم مهما كافح ٠ وتنمع الشيطانة (او غريته الاحلام ابنة آنور) ولادة الاطفال في الوقت المناسب ، كما تقتل الطفل الوليد ٠ واخيرا فهي العين الشريرة التي لا يمكن ان يوفق أحد اذا ما وقع تحت نفوذها الذي يمتد بقوته فيحبس المطر في السماء ، ويعيق القصب عن النمو ، ويسلط العقم على الماشي في الاصطبلات والعائلات في البيت ٠ اما الجماعة الرئيسة الثانية المنحدرة عن الجن الاشرار فيمكن ان تقول عنها بأنها تضم العفاريت الذين لا يظهرون الا في فترات متقطعة ٠ فهم يمثلون الاشباح (ستيمو) ٠ وهم ارواح من كانت حياتهم شديدة والذين خدعوا بأمال معينة ، او ماتوا ميتة عنيفة ، او من لم يتمتعوا بالسعادة التي اضنوها انفسهم في سبيل الحصول عليها ٠ وليس مدهشا ان نرى عددهم كبيرا:-

من ترك جثمانه على الارض السهلة ٠
من لم يدفن ٠

من تموت عذراء
من تموت عند الولادة
من مات رضيعا
من يسقط من أعلى النقطة
من انفرقا فسنه

وأخيرا غيرهم من لا يحمى عددهم كالذين لم يشيّع جثمانهم تشيعا
كريما لاي سبب من الاسباب ، ومن لم يكن عندهم صديق يهسيء لهم
نذور الجنائزه . فكل هؤلاء يتلقون بأدعاءات غير مرضية ، وجميعهم يلتحقون
بصحبة (أوتوكو) لغرض تعذيب الاحياء .

تصوير الآلهة

من المؤكد انه لم يكن لدى الآشوريين او البابليين في المهد السرجوني ، اي تصور عن الآلهة يمكن ان يطبع عليهم صفات بشرية . ومن الممكن الان ان نأخذ الامر مأخذ التأكيد ، فنقول ان الآلهة كانوا منذ البداية ، ما عدا في بعض الحالات النادرة ، يصوروون بهذه الهيئة البشرية مع عدم وجود علامات خاصة تميزهم عن البشر ، ولم تضف عليهم العلامات الخاصة كالاتساح او الشعارات الاخرى الا في عهد متأخر . وفي الحقيقة فإن ما حدث في بلاد بين النهرين تكرر حدوثه في اوروبا الفريرية .

كيف يمكن مساعدة جماهير شعب جا حل في التعرف على المشرات المختلفة من اعضاء مجتمع الآلهة ؟ الواقع انه لم يكن بأمكان اي فنان على سطح الارض ان يعطي للآله العلامات الفارقة التي تساعد جماهير الشعب على التعرف بصورة كاملة على الآله المذكور . وهكذا فقد اضطر الفنان البابلي الى الانسياق في نفس مسامق فناني اوروبا الفريرية الذين أعطوا القديسين والرسل الموجودين في واجهات الكنائس ، علامات فارقة تجعل امر التعرف عليهم سهلا .

وبالنظر لذلك اعطى الفنان البابلي للآلهة خصائص يمكن بواسطتها تمييزهم لكي يمكن البابليين من التعرف عليهم وبهذه الطريقة ولد التصوير البابلي المبكر ان رسما كان وان نحتا . ومنذ ذلك الوقت راحت كل حضارة تستخدم هذا التصوير . وكانت الخطوة الاولى لنشوء هذا الفن تمثل في وضع التيجان على رؤوس الآلهة ، ثم تلى ذلك تصوير الآلهة بلاسمهم عندما يمكن تصوير اشخاصهم . وهذا يفسر لنا الحقيقة القائلة ان الآله كانوا يصوروون احيانا واثناء العصر الاشوري ، وهم يرتدون بدلة تشبه البدلة التي كان يرتديها الملوك الاشوريون او الملوك في المهد الكيشي ، هذا بالإضافة الى وجود التاج القديم الذي كان اسطواني الشكل في اعلاه

صف من الريش ، او انه كان يضوئ الشكل حوله عدة ازواج من قروذ الثيران . وقد اضيفت هذه القرون الى التاج لتكون من علامات التقديس في العصر المبكر جدا . وبالرغم من ان هذا كان كافيا لخلق نوع عام من التقديس الخاص بالآلهة ، الا انه غير كاف بحد ذاته لجعل الآلهة متميزة بصورة فردية ، وقد وجد الحل في اضافة علامة معينة بفردة وغير غريبة الى كل الله ، ومن العلامات التي استعملت لهذا الغرض ، السلاح والآلات والحيوانات الى غير ذلك من العلامات التي كان الهدف منها ان تكون علامة شخصية فارقة .

كان لكل الله اسطورة تضاف الى اسمه . وتزخر مثل هذه الاساطير بالحروب العجيبة ضد الآلهة الخصوم او الوحوش المخيفة . فنحن نجد الحيوان الضاحية مصورا بجانب الآله او تحت اقدامه . وهذا الموضوع مفضل عند الفنان ، ويحمل الآلة بيده السلاح الذي استعمله في الحرب، او انه يحمل آلة شخصية او خاصة . وقد تندمج صفات آلهية مختلفة في شخص الآله الفرد ، والذى تتجمع فيه عدة مظاهر مقدسة . وهكذا نجد ان عشتار ، وهي الآلهة التي تجعل الحب ينمو ، تتخذ الشعبان مرافقا لها . ولكن تؤكد على شخصيتها كآلهة على الارض ، اي عشتار على الارض وسيدة المعارك ، تراها تتخذ الاسد رفيقا لها وتحمل السلاح ، اما عشتار السموات وآلهة الحب فتتخذ لها سربا من الحمام .

شعارات ورموز الآلهة

لعل من الجميل ان نأتي ببعض الامثلة عن الشعارات المختلفة التي كان يراها البابلي مرافقة لآلهته ، او انها كانت تحملها في مواكبها او في اثناء دخول البابلي الى معابدها .

كانت شعارات (انوا) و (أنليل) ، اللذين كانوا من بين أقدم الآلهة ، تمثل في التيجان التي على شكل بيضة اما - آيا - فقد صور رمزا بشكل غول خرافي له جسم سمكة ، ويشبه الجزء الامامي من جسمه مقدم جسم العزة ، ويحمل هذا الغول صولجانا ينتهي برأس كبش .

اما الحيوان الذي يعود الى شمس فهو الاسد ، ويكون له احيانا جناجان ، اما شعاره فهو قرص الشمس وغالبا ما كان يصور الآلهة والستنة اللھب تندلع من كثنيه .

اما حيوان (سِن) فكان تنينا خرافيا وشعاره قرص القمر .

اما عشتار وبالاضافة الى الحيوان الذي سبق ان ذكرناه ، كان يوسعها، كسيدة للمعارك ، ان تحمل القوس والكتانة ، وكانت حزم الاسلحة تبرز من كثنيها .

واذ تحمل الة الحرب السلاح فان الة الخصوبية كانت تحمل الاغصان والمساحة . ومن امثلة الة الخصوبية مردوخ، ثم ابنه ، نابو ، اما شالا Shala

ربة سنبلة القمح ، فقد رمز لها بسنبلة الشعير ، و كان شعار (نسكو) هو المصباني الغريب الشكل ، والذي يشبه حدوة الفرس .

ولقد صور (ادد) واقفا فوق ثور ويحمل بيده القأس والبرق ، ويشبه فأسه الرمح المثلث الرأس والاسنان المقوسة ، في حين نجد ان آشور كان

يصور احياناً بنصف طوله الاصلي وهو يطلق سهاماً ليصيب به صميم قرص الشمس المحاط بالاجنحة .

لقد تبسيط امر التعرف على بعض الآلهة عن طريق خصائصهم المميزة لهم . فلقد كان (نابو) في مدينة (يورسبيا) القرية من بابل ، ينعتصب مكانة ايه مردوخ بصورة تدريجية . ولقد سبق ان عرفنا هذا من قبل وهذا يشبه تماماً ما فعله ماردوخ في وقت مبكر عندما طرد اباء « ايما » . وكالة للكتابة والمصير كان « نبو » يحمل الواح الكتابة والقصبة الخاصة بها او اداة الكتابة ولكن ، وتخليداً للذكرى الاله العظيم الذي هو والده ، اتخذ (نابو) نفس الشعار الذي كان لوالده وهو (التنين الغرافي) وذلك تماماً كما فعل ماردوخ . لدى الحشين المجاورين نقش محفور لموكب معبد (يازلي) قايا (Yazili Kayâ) الكائن في العراء ، يعيد الى الذهن الزواج المقدس الذي تم بين الآلهة والآلهة اللذين يمثلان مبادئ التكاثر والسلسل ، ويشترك الاله الاصغر ، وهو ابن الاله الاصغر ، في الموكب مرتدية ملابس الاله الاصغر ، اي والده ، ويركب ابن والاه الكبيرة ، اي والدته ، على نفس الحيوان وهو نمر ارقط . وهذا يذكرنا ، وبشكل مدهش ، بالرابطة بين الاثنين .

وعندما نقل هذه الفكرة الى مرحلة ابعد ، فاتنا تقول انه اذا ما اريد تصوير مختلف آلهة المجتمع في مجال محدود فليس هناك حاجة الى اعادة انتاج اشكالهم ما دامت شعاراتهم ورموزهم تفني عن ذلك .

الارقام ونجوم الالهة

استعمل سكان بلاد ما بين النهرين الطريقة الغريبة في الاشارة الى آلهتهم ، وذلك عن طريق الارقام ٠ ولقد استطاعوا بامكانيات الحساب الموجودة في الارقام من ان يشملوا بهذه الطريقة حتى مجمع الالهة نفسه ٠ وهكذا تمكنا من ان يكتشفوا علاقات مختلفة بين الارقام ٠ ولم يكن بالامكان ادراك هذه العلاقات لو نظر في امر الالهة بمعزل عن الارقام ٠

تظهر الطريقة التي وزعت بها الارقام افطواءً على نظامي العدد الستيني والعشري اللذين كانا شائعين في بلاد بين النهرين ٠ كان العدد (٦٠) هو رقم الاله (آتو) ٠ ويعتبر هذا العدد اساس النظام الستيني ٠ وكأن رقم - نينكرسو - هو (٥٠) ورقم - ايا - هو - ٤٠ - او ثلثا رقم - آتو - اي (شنبى ومعنها ثلاثة) اما (سین) فكان رقمه (٣٠) ، وهو عدد الايام في الشهر القمرى ٠ وكان رقم عشتار هو (١٥) ، ورقم الجن الصالحين التابعين لها فهو (١٠ ، ٥) ٠

تبعد معظم الارقام وقد اختيرت اختيارا تعسفياما عدا الرقم الخاص بالاله (سن) فاننا لا نعرف سبب هذا الاختيار ، ولا نملك الا ان نقول بأن هذه الارقام قد اختيرت لارتباطها بدرجات القربى ، والتي يعتقد باها كانت موجودة بين الالهة ٠ ونجد احيانا ان العلاقات العددية اياها تكون مسؤولة عن مثل هذه القربى ٠ واذا ما فهمنا هذه النقطة فاننا نستطيع ان نقول بأن ابعد معبد - ايساغيلا - كانت تضفي معنى غامضا ، وليس من الضروري في الارقام نفسها ولكن في مضامينها التي تجعل القياسات منظوية على عالم كامل من المعانى الخفية ، والتي تحرك بدورها القوى السماوية التي لا يدركها الا المترنون على هذا النوع من اللغة الرياضية التي تمجد الامور الخفية

المقدسة كما يقول المتضلعون في هذه القضايا ما بالنسبة لغير المتمردين فانها تبقى مجرد مجموعة أبعاد .

لقد كان كل من الشمس والقمر اليهين قائمين بذاتهما، في حين كان يتم تشخيص بقية الآلهة عن طريق ارتباطهم بالنجوم او الكواكب السيارة فمثلا ترتبط عشتار مع الزهرة ، مردوخ مع المشتري ، وايا مع الحوت الجنوبي والدلو والشراع والسفينة وعندما دعت الحاجة الى ايجاد القاب احتفالية لمردودخ في سلالة بابل الاولى عبرت ملحمة الخليفة في احد اجزاءها عن ذلك قائلة ان مردوخ ، وبعد خلق الارض ، قام بفرض النظام في السموات وقرر مسارات النجوم .

ان الفصل الذي يحتوي هذا القسم يكاد يضع بكليته .
لقد جعل مروخ منقذا للآلهة وفيه تنتهي المعرفة الفلكلورية . ثم يؤكد على تحقق مردوخ على بقية الآلهة . ولما كانت كل نجمة لها وبطلا ، او فردا من الجن فاذ مردوخ هو الذي وضع قوانين هذه النجوم التي يجب ان تتمسك بها .
كان المشتري هو الاختيار المناسب بصورة خاصة لمردودخ ، ذلك لأن مدار المشتري يختلف عن مدارات كل الكواكب السيارة الاخرى ، اذ انه يظهر اقل ما يمكن من الانحراف عن سمت الشمس ، كما انه من اكثراها ، استقرارا ، فهو يناسب الحكم .

تقع كل النجوم ضمن دنيا (آنو) . وعندما تكون سلطته في الحضيض فاذ هذه النجوم تشكل - جيش آنو . وهذا ليس بالشرف الرفيع اذ انها تمثل آنذاك كل جماعة الآلهة ، بما في ذلك الآلهة الذين تم اخضاعهم في الصراع الذي دار بين مردوخ و (كاوس) .

تماثيل الآلهة

لدينا العدد الكبير من صور الآلهة من عهد السلالة السرجونية ، وذلك اذا ما ادخلنا في حسابنا كل الاختام الاسطوانية التي يظهر عليها هؤلاء الآلهة . اما عدد التماثيل فانه صغير نسبيا مع ندرة التماثيل كبيرة الحجم . والتفسير المحتمل لذلك هو ما نقرأ في كتابات المؤلفين القدامى من ان التماثيل كانت تصنع من مواد ثمينة ، فإذا ما اخذنا هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ، بالإضافة الى حجوم التماثيل ، نجد ان قادة الحملات العسكرية الظافرة قد ابدوا اهتماما خاصا بهذه التماثيل . وبناءً على ذلك فانهم قضوا بتدميرها . هناك تمثالان جديران بالذكر . يمثل الاول جنعا نموذجيا لاثي وهو من الصخر ، ويوجد عليه ما يشير الى الملك - آشور بعل كالا^(*) ، فهو لذلك ، اكثر قدما من عهد السلالة السرجونية ، ولعله يمثل (عشتار الوركاء) ويكون التمثال بلا شكل ، بالإضافة الى كونه ثقيلا وهذا ما يظهر قلة احساس الاشوريين في تصوير الجسم الانساني .

اما التمثال الثاني (او بالاحرى الفرد الثاني من الزوج) فانه اقل صيانة ، وهو موجود في المتحف البريطاني ويعتقد انه يمثل الله - نبو - . ولزيادة التأكيد على قابلية تحمله لعوادي الزمن فان النحات صنعه اقتداء بالتمثال البرونزي الذى يمثل الملك (ناير - اسو) ملكة (سوسه) وال موجود الان في متحف اللوفر في باريس . وقد صنع هذا التمثال في زمن يسبق زمن التمثال الثاني بخمسة قرون وصانعوه هم صناع البرونز العيلاميون .

(*) اشور بعل كالا من ملوك بلاد اشور دام حكمه ثمانى عشرة سنة في الفترة ١٠٧١ - ١٠٥٤ قبل الميلاد .

نعود الى الحديث عن التمثال الثاني فنقول ان النحات يلبس هذا التمثال -
 الصداري التي تتناسبه جيدا مع التوردة الطويلة التي تشبه الجرس ، والتي تنسع
 عند القدمين لتسفح بقدر من الاستقرار والصلابة للتركيب كله . يقف
 الاله رافعا ذراعيه امامه وله لحية ويضع على رأسه تاجا ذا قرنين متعارضين .
 وتشير الكتابة الموجودة في مقدمة رداء الاله الى (سامو - دامات) وهي
 نائبة الملك في زمن (ادد نياري الثالث) (مصدر اسطورة سميرامييس) (*)
 ويرجع تاريخ التمثال الى عام ٨٠٠ ق.م . فهو يشير الى عصر سابق لعصر
 سرجون . تنتهي الكتابة بالذكر بموعظة رزينة تقول :- (ايها الانسان
 القادم بعذنا ، لا تثق باي الله آخر سوى (نابو) . وهذه صيغة غير مألوفة
 لكنها معقولة ، وهي مجرد امتداد منطقي للكتابات التي تشير الى عدد الاله
 وكان تدعوا كلها منهم باسم - ملك - الاله - او - رب الارباب
 لم تحظ النظرية التي تقول بان التمثال يمثل الاله - نبو -
 بالقبول الشامل ، اذ تماكسها الحقيقة القائلة بان التمثال فرد من زوج ليس
 الا . وهذا يوحى بان كلام من التماثلين كانوا موضوعين في مدخل احد المغارب ،
 كما كانت العادة جارية بالنسبة للالهة التي هي اقل شأنا (وجدت تماثيل
 مشابهة في ارسلان طاش وفي ساحة المعبد في خرباد) .

وزيادة على ذلك فان لباس التمثال الموجود في المتحف البريطاني الان
 بسيط ، ولا تزنه الا القليل من المجوهرات ، وهذا ما يجعله موازيا للتماثيل
 التي كانت موجودة في (ارسلان طاش وخرباد) كما يجعله متافقا مع
 ما نعرفه عن تماثيل كبار الاله . اما القول بان التاج غير مزين ففرد عليه
 قاتلين بان وضع التمثال ووجود يديه في حالة ارتفاع مع ملامسة الخصر ،
 وكون الكفين مفتوحين وكأنهما تصفقان ، يقول ان كل هذا يشخصه
 بالله قليل الشأن ، او بأحد الجن وليس باي من الالهة الكبار . وتبدو

(*) حور اسم سميرامييس في الاصل من اسم سامرآمات . وكانت الاساطير وكتب
 المؤرخين القديمي تعتبر سميرامييس الـة لأشور وليس نائبة الملك .

الوجه سليمة اذا ما طبقت على النحوت المحفورة ولكن عندما يتعلق الامر بالنحت تكون الاهداف الكبرى للنحات هي الثبات والقوة . لقد كان تحطيم اي تمثال لاي آله يعتبر مدعاة لحدوث كارثة ذلك لأن هذا التحطيم لا يجعل التمثال عديم القائمة حسب ، بل انه يثير غضب الآله نفسه .

ان الحاجة المطلقة هي التي تفرض ارادتها . وختاما نقول انه من المحتمل ان تستحسن الحجج المقدمة سابقا ، ووجهة النظر القائلة بان من المحتمل ان يمثل التمثالان الهين صغيرين . ذلك لأن الكتابة المدونة عليهما والتي تمتدا (تايو) لا تقول انها تمثله .

تسم الكتابات غير المألوفة المدونة على التمثال المحفوظ في المتحف البريطاني ، والذي سبق ذكره ، مع جمود بعض الكهان المادفة الى التقليل من عدم التوافق القائم بين الادعاء القائل انه ليس هناك الا ملك آلة واحد او رب ارباب وبين العبادة المكرسة لعدد من الآلهة الاعضاء في مجمع الآلهة .

لقد ذكرنا من قبل اعتقاد الكهان القائل بان عدد الآلهة اصغر مما يظهره ، وان سبب ذلك هي الطريقة التي تصاغرت بها الاسماء . فلقد كانوا غالبا ما يشددون على اهمية تماثيل مختلف الآلهة ، ويزعمون مؤكدين على ان العديد من الآلهة المنفصلين ظاهرا ، كانوا في الحقيقة يمثلون مظاهر مختلفة لنفس الآلهة .

ونستطيع ان نرى تطبيق هذه العملية في نصوص دينية معينة مثل :-
إرا هو - نيرگال - مدينة كوتا
سلستاي هو - نيرگال - مدينة بابل
لخشن هو نيرگال - مدينة كيش
وتقرا بعد ذلك في مكان اخر :-
نيرگال هو مردوخ الماراك
زبابا هي مردوخ النهر

الليل هو مزدوج السيادة والشوري
شمش هو مزدوج العدل
وهكذا نستطيع ان نرى ان التماثيل تضمن ترتيب الالهة في جماعات
مختلفة والحقيقة ان هناك نصاً يتطرف فيساوي كل مجمع الالهة مع (نيورتا)
ويجعل بقية الالله مجرد اجزاء منه . يقول النص :-

الليل وتنليل هما عيناه

سن بؤيؤ عينيه

الكائنات الالهية السبعة اسنانه

اذناه - ايا - و دامكينا -

ثدياه ثابو *

وغالباً ما يعبد نفس الاله في مختلف المدن تحت مظاهر واضحة التحديد
ومتميزة ولذلك تقرأ :-

ادد من بيت كركارة هو الـ المطر

ادد من معبد (ي - نامبه) هو الـ الفيضان

ادد من حلب هو الـ الريح ..

ان الاطباع الذي نحصل عليه من هذه النصوص وامثالها يظهر لنا وجود
هيكل تجري فيه عملية صهر الاله ب بصورة تدريجية حتى يصبح الاعضاء
المختلفون مجرد مظاهر مختلفة لاله يضم الجميع .

تبعد الصلات والعلاقات بين الاله والبشر ، بانها كانت علاقات
وروابط بين سادة وعييد على الالغب الاعم وهي تشبه العلاقات العائلية بين
الاباء والاباء مع انعدام وجود أي تصور للعطف او الحب . وكانت هذه
موجودة في عهد سلالة بابل الاولى . كما ان الاله كان سريعاً القضب ، شديداً
العقاب . ويمكن التخفيف من غضب الاله عن طريق الصلاة ، وفوق كل
شيء ، عن طريق التذور . كان الهدف الرئيس من حياة الانسان على الارض

هو عبادة الآلهه . و تعد قصص الخلق تعييراً واضحاً عن وجهة النظر هذه فهي تقول :- (لقد خلق مردوخ الانسان ليقيم العباد التي تدخل السرور الى قلوب الآلهه)

ليس في ديانة بلاد بين النهرين اية علامة تشير اصلاً وفي كل الاحوال، الى مفهوم لأله الحب او المودة ، ولم يكن يوجد قبل عهد سلاله بابل الاولى اي اثر لامية نظرة صوفية . ولكن معظم التراثيم الصوفية قد صيغت في تعابير تدل على التوبة والتضرع ، بدلاً من الاعتراف بالجميل .

أما في مصر فانها تظهر تناقضاً حاداً . ذلك لأن المصري في الامبراطورية الجديدة ، كان يتطلع فرحاً الى المهام اليومية للحياة في العالم الآخر ، في حين نجد المواطن في بلاد بين النهرين لم يكن يتصور ما قد يتوقعه في العالم الثاني ، ولم تكن عنده رغبة لهجر حياته ما لم يكن وجوده قد أصبح لا يحتمل .

الانسان – ابن الاله –

ما لا شك فيه ان الامبراطورية البابلية تشير الى العصور التاريخية في تاريخ الحضارة . وانت الان قادر على القول ، وبكل ثقتك ، باننا نستطيع ان نرى بدايات لنهم جديد وثوري . لقد كان الایمان متمركزا حتى الان حول هذا الاله او ذاك من الاله المجتمع في حين ، وكما نعرف ، كان الملوك يتباينون مفاخرین يكتونهم ابناء الاله ، ولكن هذا الایمان بدا يتغلغل الان في المجتمع ، وبين كل مستوياته ، فصار كل انسان ابنا لاله الذى يشفع له كذلك عند الاله الآخرن وهذا امتياز كان يقال عنه آنذاك بأنه حق مقصور على الملوك وحدهم ، الملوك الذين يصنعون لاشتئهم تماثيل تقف بالنيابة عنهم ، امام الاله العظيم الذي يتحكم في مصيرهم ، والذي يأخذ باليديهم الى هذا المكان ، والذي يعيشون في ظل رعايته .

لقد كان الله الانسان الشخصي مستعدا دائما لان يأتي بمربيه و ابنته الى حضرة العظيم حيث يشفع له هناك . وكان الله الشخصي يتولى حراسة الانسان وحمايته من التأثيرات الشريرة ، وكذلك من العفاريت الموجودة في كل مكان ، او من الاشباح التي تبحث عن الضحايا . ولكن اذا لم يعذ المؤمن يظل ابنا للاله ، بسبب الاثم ، فان هذا الاله سيشيخ عن ابنته وسيتركه وحيداً ، وسيدخل احد العفاريت المكان الذي اصبح خلوا . ذلك لأن هذه العفاريت تتسلك دائما باجنة من مثل هذه الفرق .

تعكس الاسماء الشخصية الظهور الطارئ لفكرة الاله حامي الانسان . وتجمل هذه الفكرة الانسان الذي كرس نفسه لاله الشخصي يسرع الى أن ينفذ الاسماء التي كانت ترمز الى الحماية التي يوفرها احد الاله الكبار . وهو يفعل ذلك تفضيلا لاله الخاص به . انه قد يختار لها اخرا وذلك حسبما تقرره حاجته . كما انه قد يختار اسماء مثل : (العي ملاذي) او (إلهي اصagne)

اليء) او (الـهـيـهـ هو ابـيـ) او (الـاـنـسـانـ لـاـلـهـ) وـزـيـادـهـ عـلـىـ ذـلـكـ فـاـنـ الـاـلـهـ
استـعـادـ فيـ هـذـاـ عـهـدـ خـصـائـصـ الرـحـمـةـ وـالـخـيـرـ ،ـ وـالـتـيـ لمـ تـكـنـ مـعـرـوـفـةـ ،ـ وـهـذـاـ
الـاـلـهـ هوـ الـذـيـ كـانـ يـطـلـبـ مـنـهـ ،ـ آنـ يـمـنـحـ الـاـنـسـانـ الـعـمـرـ الـمـدـيدـ وـالـغـنـىـ جـزـاءـ
لـاـيـفـاءـ الـاـنـسـانـ بـوـاجـبـهـ نـحـوهـ ٠ـ كـانـ خـيـرـهـ قـادـراـ عـلـىـ آنـ يـقـدـمـ مـاـكـانـ يـعـتمـدـ فـيـ
نـوـالـهـ عـلـىـ مـؤـهـلـاتـ الـعـابـدـ فـقـطـ وـهـذـاـ يـمـثـلـ نـقـصـاـ مـكـنـ الـعـابـدـينـ مـنـ مـخـاطـبـةـ
آلـهـتـهـمـ ،ـ فـيـماـ بـعـدـ ،ـ باـعـتـبـارـهـمـ آلـهـةـ الرـحـمـةـ ٠ـ

بدايات التصوف

لقد كان هذا هو العصر الذي شهد بداية الحماس الديني الذي استطاع بمفرده ان يمد الدين بملاء والخصوصية ليزيد من نمائه . لقد كان على المؤمن في الماضي ان يخشى الآله . وهذا جزء من واجبه . لكن معنى هذه العبارة قد اتسع حتى صار تمجيدها ساميا لا يدركه . وعندما قورنت العبادة بالخوف من الآله ، صار من الممكن تحويل هذا الخوف الى غاية للحب . فنحن نجد في قصيدة (آلام الرجل الصالح) ان البطل يقضي حياته بتأمل الذاتي والحسرات ، ثم يقول :-

(ومع ذلك فان سروري هو في الخوف من الآله أو الملك) ففي عصرنا الذى تتحدث عنه كان بوخذنصر يحب الخوف من الآله من كل قلبه وروحه وايا كانت الشكوك التي قد يشعر بها القارئ حول التقدم الروحي الذى تمثل في هذا الخوف ، سوف تتبدد اذا ما نظر هذا القارئ في الطمأنينة الضئيلة التي كان من الممكن وجودها في الديانات البدائية لهذا الماضي الغابر . لتأخذ احد الامثلة عن هذا الحال من مصر فنقول انه عندما يموت (الفرعون) وهو نفسه ابن الله ، فإنه يتحول الى (او زريس) ويستطيع وحده ان يضمن بان رسائل احسانه هي التي يجب ان تشتراك في هذه المكانة الخاصة بالآله . لقد كانت النخبة المختارة التي تدفن على مقربة من الفرعون تضم النبلاء وكبار افراد الشعب . اما العوام فلم يكن لهم اي امل في الحصول على النعيم بعد الموت .

ان هذا يفسر لنا سبب اكتشاف توأیت حجرية صغيرة جدا لا يتجاوز طولها بضع بوصات وقد دفنت هناك من قبل الاتقيناء املا في ان تأتي بعض برکات الملك الميت لابائهم الاموات . لقد بلغت هذه الحاجة الى الامل درجة انه عندما استقرت الامور ثانية بعد اول ثورة كبيرة في التاريخ المدون والتي

اوصلت الامبراطورية القديمة الى نهايتها ؛ ولو ان اوضاعها المادية لم تتغير ، في هذه المرحلة لم تكن الجماهير اقل رضا ، لانها قد اشترت حاجتها الملحة التي كانت تشعر بها ، وعني بها الحقوق الدينية والحرية الدينية لقد صار بامكان اي انسان ، منذ ذلك الوقت وما بعده ، ان يصبح « اوزريسا » بعد موته شريطة ان يكون لائقاً بذلك معنوياً .

القيمة الإنسانية للآلهة

اعطى الدين في بلاد بين النهرين ، وفي صورته القديمة جدا ، مفهوما فظا وساذجا عن الآلهة . وقد تبين هذا المفهوم في عبارات الإنسان المعاصر لهذا الدين . وفي الوقت الذي تطور فيه الدين السومري القديم بكل تفاصيله يكون عهد عبادة الطبيعة قد انقضى . وقد تميز هذا العهد بقدرته الخلقة الكامنة في آلهته الفانين الذين يموتون ويمودون إلى الحياة حسب تابع الفصول الاربعة وبعد انتقامه هذا العهد لم يعد الموت يحصل بالآلهة . ولكن حتى وإن كان الأمر كذلك فإن وجود هؤلاء الآلهة على الأرض كان يتبع نفس نمط الحياة البشرية . كان (كلكامش) ملك (الوركاء) يخرج من قصره ومعه خدمه ومرافقه فيمشي مخترقا المدينة ليقابل عشتار ، وهي خارجة من المعبد يرافقها موكب خاص بها يضم الكهان والكافئات فيتقابل الاثنان على قدم المساواة . وعندما كانت عشتار تقع في حب (كلكامش) فإنه ، وهو الفاني ، يوبخها كالماء ، وكان يستعمل في توبيخها سلسلة فظة من عبارات القسم التي قد تتوقع تبادلها بين الاثنين من الابطال المؤمنين^(*) . وجبا في الاتقان شق عشتار طريقها إلى سماء - آنور - وهناك تطلب من أيها أن يتحقق شيئاً يستطيع أن يخلصها من (كلكامش) . وما هذا الصعود إلى السماء وخلق الثور السحاوي الذي لا مثيل لقوته ، إلا أحد مظاهر القصة التي تظهر الآلهة ذات قوى خارقة للطبيعة .

واثناء الحرب ، وبعد العودة إلى (الوركاء) أقامت عشتار مع اتباعها على شرفات المعبد لكي تتفقد انتقامها حتى النهاية . ولكن كلكامش يجدد آمالها ، ويظهر متتصراً في حين يقوم رفيقه (انكيدو) بقطع جميع اطراف الثور ، ثم يرمي

(*) يراد بذلك الابطال المذكورون في اليادة الشاعر اليوناني (هوميروس) ،

بجزء منها في وجه عشتار مهدداً إياها بان يخنقها بقلادة يصنعا من امعاء
الثور .

لدينا رأي يقول ان هذه الفقرة تمثل حشو متأخراً يعبر عن رد الفعل
ازاء الممارسات التي اشتغلت عليها طقوس عبادة عشتار ، ومنها (البغاء
المقدس) ولكن هذا امر مشكوك فيه . وسبب ذلك ان الفقرة ظلت جزءاً
من الملحة في الوقت الذي كان فيه البغاء المقدس ما زال يمارس في بلاد بين
النهرین ، وفي الوقت الذي كان فيه المؤرخ الاغريقي (هيرودوتس) يجربها ،
هناك فقرات اخرى في ملحمة (الخلق) . ومنها القصة الطويلة التي
تصف الطوفان . وتعزو هذه القصة كل نوع من الفشل الى الآلهة بالرغم من
استعمال الكلى التي توحى بالعكس من ذلك . فالآلهة تتضخم بعضها البعض
كرؤجات السمك ، وعندما استطاع احد الرجال الصالحين الهروب من
الطوفان ، وعرض تقديم الضحية للآلهة سمال لعابها لذكرها فتجمعت
كالذباب حول هذا الرجل صاحب الضحية ، لقد حاولت عشتار ان تمنع
(اثيل) من المشاركة في الضحية فابتعدت عجبيها قائلة :-

لينقلب هذا اليوم الى طين !! هل جئت بقومي لاملا بهم البحر مثل صفار
السمك ؟

كان اثيل هو الذي امر بالطوفان . ورغم انه كان من كبار الآلهة الا
ان مصادر اخباره لا تزيد على ما عند الانسان العادي . فهو لم يكن يعرف
قصة هروب أحد من البشر ، وكيف تم ذلك . فهو يتسائل قائلا :-
من فعل ذلك ؟

ثم يقع شكه على (ايآ) الذي كان بطبيعته محسنا الى البشر . ولقد
كان هذا الشك في محله . ولكن تحذير (ايآ) جاء محرفا بعض التحرير ،
لانه عندما اقترب من الكوخ الذي كان يقيم فيه الرجل الصالح ، همس

بالرسالة التحذيرية من خلال العائل المبني من الحصران والطين ، ونجد الاله العظيم (ايَا) رب (ابسو Apsu) موقع كل المعرفة ، محدداً وهو يرتجف كالطفل الذي اكتشف امره ثم يقول :-

(اذا لم اقل شيئاً بل القصب) . لم يكن (ايَا) يقدم نصيحة حسنة على الرغم من كل حكمته . ولكنها يحذر (أدابا) لكي يحرص على عدم قبول فتات الطعام ، لانه ان فعل ذلك فلسوف يموت . وكان (أدابا) تحت حماية (ايَا) ، وقد استدعي الى السماء لينال العقاب . والحقيقة ان الطعام الذي قدمه (آنو) الى (أدابا) كان طعام الحياة ، والذي بامكانه ان يضفي الخلوود على الانسان . وهكذا فإن هذه الفقرة المقصودة هي التي اثقلت كاهل الانسانية بعبء الموت .

انتا تحتاج الى وقت طويل لكي تعدد خصائص الانسان البدائي ، والتي تستطيع ان تتبصرها في سلوك الآلهة الذين اصابهم الذعر الشديد عندما هاجمهم (كاوس) فهربوا الى سماء (آنو) ، حيث انحناوا على الجدران وراحوا ينبحون كالكلاب . ان هذا هو مشهد نداءهم لمروخ ، وعندما استعادوا شجاعتهم ، التأموا في وليمة وسکروا .

لقد حفظت كل هذه العناصر والتي يتوقع المرء ان يجعلها في المهد البدائي ، اما مجمع الآلهة فانه قلما اصابه التغيير ، وحتى في نهاية العهدين البابلي والassyوري . فقد بدأ زعماء الكهنة ، وبصورة تدريجية تم تكوين المفهوم الذي ينال احترام المتعبدين ، وذلك عن طريق اضفاء العديد من المؤهلات المحترمة الى الآلهة القديامي ولكن لم يكن هناك تبدل اساسي عما كان مطبقاً في الحقبة التاريخية البعيدة والتي نضجت فيها الافكار الاصلية .

السلطات الالهية ، المصير

يعتبر سلطان الآلهة غير المحدود على الانسان ، من اول واخطر انواع السلطات التي كان يعتقد انها بحوزة الآلهة ، وينضوى تحت هذا السلطان الملك والفالح على حد سواء . كانت هذه السلطات مصدر الملكية التي تظهر صورتها المادية في اوسمتها ، والتي كان يقال عنها ، كما نعرف ، بأنها ترجع إلى السماء لتوضع أمام عرس - آنو - في حالة خلو كرسي العرش بسبب من الاسباب ، اما عندما يبدأ عهد جديد فان الملكية تهبط من جديد راجعة من السماء .

وفي زمن السلالة السرجونية بدأ الآلهة يسترجعون صفاتهم بصورة تدريجية ، وكما عرفنا فإن هذه الصفات كانت غير موجودة عندما كان الآلهة ما يزالون في حالتهم البدائية ، وكانوا آنذاك يوصفون بأنهم كانوا عادلين ، وغير مت Mizizin ، وخيرين ، وكارهين للشر الذي كان مكروراً أيضاً عند كبار الآلهة .

وبالرغم من هذا فمن المحتمل ان يكون المواطن البابلي قد شعر بالاطمئنان على مكانته عندهم . ولما كان هذا المواطن يواجه يومياً اتصار الشر على الخير ، وعلى الايمان والصبر ، فإنه كان يشعر بالحاجة الى (دين خلاص) لم تكن شروطه متوفرة في الدين الذي كان موجوداً آنذاك في بلاد بين النهرين . ونتيجة لهذا صار لزاماً على الانسان البابلي ان يعيش في خوف دائم من هاجس آلهي جائر .

اما عن السبب الذي دعا (انليل) الى ان يأمر بالطوفان فلم يقدم اي تفسير له .

كان الآلهة يتمتعون بسلطان اكبر بكثير من هذا ، واعني به قدرتهم

على تحديد المصائر . وكان الآلهة يجتمعون في مجلسهم الخاص لتحديد وتبسيط المصائر الخاصة بالسنة القادمة . فكان - نابو - هو الذي يكتب هذه المصائر على الواح من طين . أما موعد هذا الاجتماع فهو عيد مردوخ الكبير ، الذي كان يقام في بابل في بداية كل سنة ، وذلك بعد مسيرة الموكب إلى المعبد الذي يعرف باسم (أكيتو Akitu) والذي يقع خارج المدينة . لقد كتب (نبو) الواح الطين ، لأن كتابتها كانت من اختصاصه باعتباره كاتب الآلهة ومنذ ذلك الوقت صار يحكم الإنسان .

ولقد كانت سلطات الآلهة موضع حسد وقد حدث ذات مرة وقبل الخليقة ، أن سرقت هذه السلطات من قبل الطير (زو ZU) . وعندما أراد (كاوس) أن يهاجم أحفاده من الآلهة ، كانت الواح المصير في معسكره ولم يكن بمقدور مردوخ أن ينتصر لو لم يخطب في اجتماع الآلهة الذين عهدوا إليه بالثار لهم . لقد قال مردوخ في خطابه :-

(اذا كنت ساثار لكم ، وأذبج (تيامات) ، وامنحكم الحياة ، فإن عليكم ان تعظموا وتعلوا منزلتي . اجلسوا كأصلقاء في مكان الاجتماع ، ودعوني اقر المصائر عن طريق فتح فمي ، وحتى ولو كان الامر كما تفعلون . لا تغيروا اي شيء افعله ولا تبطلوا او تفشلوا اثر ما اتفوه به) .

واجتمع الآلهة على مأدبة ضمتهم جميعا ، فشربوا هناك وسکروا ، وغلبهم شعور بالسعادة ، فراحوا يصرخون صراخا عاليا ، كما اخذت قلوبهم تدق بشدة ، وحددوا المصائر لمردوخ الذي سيثار لهم .

انتا نجد في نص اخر ملكا يوصف بأنه احد الذين حدد لهم الآلهة مصيرًا جيدا . وهذا تمثيل بديل للقول بأن اسمه كان جيدا . ان الاسم الجيد والمصير الجيد يشكلان ضيافة لحياة ناجحة . ولكن عندما يترك السائق

غامضاً فان الاله يكُون ، او على الاقل ينبغي ان يكون ، محدداً تحديداً أكثر دقة .

لقد كان الاله ، عند قيامهم بعملية تثبيت سنوي لمصير بابل يرقبون عن كثب حوادث الساعة ، كما كانوا يرقبون بصورة خاصة القضايا السياسية الجارية . ومع ذلك فان المصائر تمثل مزيداً من التأكيد على الوجود الالهي في كل مكان وعلى سيادة النظام المقرر . وكما قال (مردوخ) نفسه ، كانت مصائر بابل تلزم مجمع الآلهة بان يتبع ما يتعهد به غير قابل للتغير ، وان ما تنطق به شفاته ثابت لا يتبدل . ان ما يقوله يشكل في نفس الوقت ضمانة للنظام ازاء الفوضى ، وهو برهان على الوجود في كل مكان ، كما انه تحديد للارادة الفردية الحرة ، بل انه قد يمثل حتى ضمانة تقدمها الكهانة ازاء هواجس الاوتوقراطية الملكية .

ليس هناك شيء غير محتمل حول الدور الذي يلعبه المصير في مجتمع صحيح التنظيم كالمجتمع العراقي القديم الذي لم يترك فيه اي شيء للصدفة ، ولم يفسح مجالاً لامال غير واع لها .

ان علينا ان نفكر جيداً بببدأ سلطان الاسم لكي ندرك مقدار ، قوة التعزيز الذي ناله وجة ظر العراقيين القدماء عن المصائر التي ما ان ثبتت وينطق بها حتى تكتسب وجودها المتميز الخاص بها ، وتتصبح واجبة التحقيق . ذلك لأن نطقها وحتى مجرد التفكير فيها ، يجعل منها وشيكه التحقيق . لقد لميت المصائر دوراً يعتد به في توجيه الشؤون الدينية .

قد يتسبب الائم الانساني احياناً في جزع الآلهة فينفرون من الانسان . ولقد سبق ان بحثنا الاعتقاد الواسع الاتشار حول وجود العجب الاشار،

والذين يبحثون عن اي مكان يستقرؤن فيه ، حيث يتحينون الفرصة
للانقضاض . ان أحد التفاسير التي يمكن ان نعطيها عن العدد المفرط من
المظاهر الخيرة المكتوبة على النصب الدينية ليس الرغبة في زيادة التأثير والنفوذ
لهذه النصب ، بل الحماية أيضا بقصد عدم افساح المجال للدخول وتشييش
اي تأثير شرير في الاماكن الخالية .

الخطيئة والاعتراف

كانت الفكرة البابلية عن الخطئه ، في نواحي معينة ، مألوفة في كل دين .
ولتكن في العديد من الحالات قد تدرج الاختلافات الاساسية بين الدين
البابلي والدين الجديد . والتحقق في عصرنا الحاضر ان يشعر المرء بنوع من الحيرة
والذهول . ان معرفتنا عن الموضوع لم تأت عن قوائم الخطئات الشاملة بل
من كتب الاعترافات التي عدّت فيها الخطايا . ويأخذ الاعتراف اشكالا
مختلفة بين الشعوب المختلفة . فهو في الاقطار الكاثوليكية يتألف من
قراءة الذنوب التي يعلم المذنب انه ارتكبها . ويرافق هذه القراءة تأكيد من
المذنب نفسه على كراهيتها ثم اصرار بالتنويه الخالصة .

اما في مصر وحيث كان الاعتراف مطلوبا في الحساب الاعظم بعد الموت ،
فان المؤمن يسلم بدور مضاعف ، فيطلب من نفسه الا تفرقه بالذنوب امام
الله . والواقع ان المصري كان يقدم اعترافه باستعمال صيغة التفي . فهو
يقول :-

(لم افعل هذا او ذاك) .

(لم افعل شيئاً يكرهه الله) .

(لم احب اي انسان ضد سيده ولم اترك اي انسان جائعا . لم اقض
على حياة ٠٠٠٠ لم ارتكب ، فاحشة في المكان المقدس لاله مدینتي قط . لم
انقض كيل الحبوب قط . لم انقص قياس اي شيء اعطيته قط . لم اسد
مجرى الماء الجاري قط . لم أعق الله من تسلیم حقوقه) .

اما في بلاد بين النهرين فتجد الامر على العكس ، حيث كان الاعتراف
امراً شاقاً . فلم يكن على المذنب ان يعترف بكل الخطايا التي يعلم انه
ارتكبها حسب بل ان عليه ان يتلو بعض الخطايا الاضافية التي يمكنه ان
يفكر فيها خشية ان يكون بعضها من خطایا الخاصة التي كان ارتكبها

عرضًا او دون وعي . كان الاعتراف يتم عادة عن طريق وكالة الكاهن
بسبب عدم قدرة التائب على اعطاء نفسه القفران .

ان العديد من الامثلة التي عندنا والتي تقدم بعض المظاهر الجديدة ،
بالرغم من الكثير من التكرار ، تمكنا من ان نعيد تركيب قائمة تمثل قائمة
الخطايا بدرجة معينة . كان الكاهن يسأل التائب ، بعد ان يسمع اعترافه ،
ان كان قد اساء الى الله او الى آله معينين ، او انه مارس الكذب ، او عاند
سيده ، او اثار العداوة بين الموائل والاصدقاء ، تسلم ما ليس من استحقاقه ،
او زيف علامات الحدود ، او استعمل الموازين غير الدقيقة او احتفظ بما
وجب عطاوه ، او سرق ودفع الاخرين الى السرقة ، او تسلل الى بيوت
الاخرين ، او جامع زوجة جاره ، او ظلم احداً ، او رفض اطلاق سراح اسير .

ان كل هذا يمثل قائمة مختارة للذنوب المقصودة ، ونجد فيها ان
كتابها يكررون نفس الذنوب عدة مرات في القوائم الاخرى التي
استسخوها من النسخ الاصبة .

وبالاضافة الى هذه الخطايا المقصودة والموجهه ضد الاله والانسان ،
فإن هناك مجموعة اخرى يتحمل انها ارتكبت سهوا ، ولكن كان ياماً كأن ياماً ان
ثير حتى الاله . ولذلك فانتا تجد الكاهن يسأل التائب ان كان رافق أحد
المسحورين ، او نام في سريره ، او جلس على مقعده ، او اكل من صحنه ، او
شرب من قدحه . كما كان يسأله عما فعل اثناء مشبه في الشارع ، وهل
تخطى فوق الماء المقدس المسكوب ، او دأس ماءً قدراً ، او قلل مرتابا الى
الماء المستعمل لغسل الايدي ، او لامس امرأة بيدين غير نظيفتين ، او نظر مرتابا
إلى امرأة ويداه غير مفسولتين او لامس احداً غير نظيف .

تشير كل هذه الاسئلة الى عدم الطهارة في تأدية الشعائر الدينية ، والتي
يتحمل ان يكون التائب غير منتبه اليها ، وعلاوة على ذلك فان المسحور يصيب

الناس بالعدوى . ومن الواضح انه اذا كان كل عمل من اعمال هذا الانسان يعتبر خطيئة فانه من النادر جدا ان يكون باستطاعة اي مواطن من بابل ان يأمل في التهرب من الاتقان الالهي . وبنفس الطريقة نقول ان النهر كان آلهما . ولذلك فان البصق او التبول فيه خطيئة كبيرة . ومن الطريف ان نقول هنا ان هذه المجموعة من الخطايا هي بالنسبة لنا من مسائل الصحة العامة، وهي قضيائنا نظر ايها ببعوض في ايامنا هذه .

علينا ان ندرك ان مجرد ادراج خطيئة خاصة من الخطايا موضوعة البحث في قائمة من هذه الشاكلة ، كان هو المطلوب ذلك لأن (مبدأ الاسم) يؤكّد على ان النطق بالخطيئة يجعلها مكتشوفة ، وبالتالي يقضي عليها . ومع ذلك فاننا نجد في عهد السلالة السرجونية ان الشعائر المستخدمة في عملية المصالحة بين التائب والاله ، تعبر عن الاسف على ارتكاب الخطايا ، وعن كرهها ، ولكن بكلمات قليلة . وبالرغم من كل عدم المرونة ، وعدم الكمال الموجودين في الدين البدائي ، فان هناك درجة معينة من التقدم الذي يمكن بدوره تقدما فكرييا ، ويكتشف عن الاختلافات بين الصياغة الاولى لهذه الشعائر ، وبين الشكل الذي استقرت عليه في العصر الذي تتناوله في هذا الكتاب .

الشك

لقد قام عالم الاشوريات البريطاني المرحوم (س . لانكليون) بجمع ونشر العديد من النصوص التي تظهر ما كانت عليه ردود فعل الناس ازاء ظروف الحياة . وقد نشرت هذه النصوص تحت عنوان - الحكمة البابلية - . لقد سبق ان تعرفنا على الشك الذي كان يذهب روح انسان بابل ، ازاء المصيبة التي لا يستحقها ، والواردة في القصيدة التي كانت تعرف باسم - الام الرجل الصالح - وأنه كان من الافضل ان تعطى هذه القصيدة عنوان (اريد ان امدح الله الحكمة) . وهذه العبارة هي فاتحة النص .

اتنا نستطيع ان نكتشف اشاره التساؤم ، او عدم المبالغة ، في المحاورة بين السيد وعبده ، والتي جاء فيها :- (اسمع ايها العبد ، اريد ان افعل شيئاً) . اما العبد فيجيب قائلاً :-
(فلم سيدني . افعله الان) .

ثم يمضي العبد ليؤكد الاسباب الممتازة لقرار سيده ، واذ ذاك يعلن السيد انه لا يريد ان يفعل (الشيء) وبناء على ذلك يغير العبد موقفه ، ويجد بنفس الطريقة الاسباب المناسبة لذلك . وبعد سلسلة من الاحاديث المتعاقبة يرغب السيد في الذهاب الى القصر لكي يتناول طعام العشاء ، ثم يتورط في ثورة ، ويرغب في ان يأخذ امرأة وفي كل مناسبة كان العبد يوافق على اختيار سيده ، وعلى تبديله لهذا الاختيار .

لدينا مجموعات من الامثال والتي ينحو بعضها منحى خلقياً . وهذه نماذج من تلك الامثال :

(لا تدوم الصداقة الا يوماً واحداً اما الذرية فتدوم الى الابد . من هو اليوم حي يموت قبل غد) وهناك امثلة اخرى تهكمية مثل : هدية لملك تضمن نبوءة مبشرة بالخير .

هل يقبض المستقمع ثمن قصبه ؟ وهل يقبض
العقل ثمن محاصيله ؟ (معناه انك لن تحصل على ما تستحق)
واخيرا فهذه نصيحة عملية يمكن ان يقدمها الاب المعاصر الى ابناءه .

(لا تتزوج المرأة التي كان لها عشاق كثيرون لأنها ستتخلى عنك اذا ما
سألت احوالك ، و اذا ما تخاصمت معها فانها ستهزأ بك . انها تأتي بالكارثة
الى اي بيت تحل فيه وتحطم اي رجل يتزوجها) .

المعابد

لقد كان هناك أصلاً عدد من الأنواع المختلفة من أماكن العبادة . وبعد حلول الالف الأول قبل الميلاد ، أصبحت الخطوط الفاصلة غير واضحة ، مما ادى الى نشوء شكل المعبد الذي كان شائعاً في ذلك التاريخ .

تقع معابد آسيا الغربية في ثلاثة مجموعات واسعة ، ويمكن ان نجد مثلاً عن النوع الاول في معبد عشتار في آشور والذي يعود تاريخه الى العصر السومري . *

يتكون هذا المعبد بكل بساطة من قاعة مستطيلة الشكل تضم احدى نهاياتها قاعدة كان يستقر عليها تمثال الآلهة .

اما النوع الثاني ، والذي هو سومري كما يتضح بكل جلاء ، فانه يتكون من باحة تكون اما خالية او محيطة بمعبد لا يختلف عن النوع الاول الا في وجود باب في وسط احد الجوانب القصيرة ، مع وجود الآلهة في الجانب الآخر في حين يقوم المذبح المقدس في العراء مقابل الباب ، ومن الممكن التعرف على المعابد البابلية من الالف الاول قبل الميلاد باعتبارها مشتقة من هذين المعبددين .

لتتحقق مبدأ غير مهم نسبياً ولكنه يعد نموذجاً صحيحاً للمعابد التي كشفت عنها التنقيبات في بابل .

عرف هذا المعبد باسم (ي - ماخ E - Mah) (المعبد الرفيع) وكان مكرساً للعبادة (نين - ما) (السيدة الرفيعة) وهي احد مظاهر عشتار . كانت ابعاد هذا المعبد تتكون من 110×160 أقدام اما الجدران فكانت تشبه جدران معظم الصرحون الدينية . كما أنها تشبه ما هو موجود في معظم ابنيه بلاد بين النهرين من حيث اتخاذها اتجاهها على محور جنوب غربي شمالي شرقي .

وكان المدخل يقوم في احد الجوانب القصيرة ، وهو بشكل ، شأنه العديد من ابواب الابنية الاشورية ، حجرة صغيرة تؤدي من جهة اليسار الى غرفة الباب الصغيرة ، وينفتح الباب على فناء واسع غير متناسق قليلا من جهة اليمين ، وبذلك لا يتوفّر مجال للنظر المباشر من الشارع حتى النهاية القصوى من الحرم . ويؤدي الفناء الى غرفة الانتظار ، كما يحتوي على بئر ماء التطهير . وتؤدي غرفة الانتظار الى الحرم نفسه والذي يضم قاعدة تمثال الاله نفسه وهي مربعة الشكل .

وكانت توجد في أسفل الجبان اييسن من النساء سلسلة من الغرف الطويلة الضيقة ، والتي كانت تستعمل لسكنى عدد معين من الكهان ، كما استعملت كمخازن لبعض المواد الخاصة بالشعائر الدينية . ووجدت نفس التنظيمات على الجانب الايسر بالإضافة الى قاعة طويلة قريبة جدا من الحائط وهي تمثل في الاصل ممرا يمتد خلف جدار الحرم الذي تستند عليه قاعدة التمثال . ويمكن ان نقول ان هذا الممر كان اما وسيلة لحماية الطريق المؤدي الى قدس الاقdas ، ذلك لأن الجدران الطينية بحد ذاتها لا يمكن ان تكون عائقا هاما امام اللصوص ومن التسلل الى الداخل ، وبالتالي فان هؤلاء المعتدين لا بد ان يمروا عبر ممر العراسة . هذا من جهة اخرى فمن المحتمل انه كان وسيلة اتصال مع المقام الالهي وتمثال الاله . وهكذا يتمكن الكهان من الحصول على اجوبة الاله .

لقد كشفت الحملة التي نسبت في (ماري) الواقعة على نهر الفرات ، عن تمثال للاله عشتار ، وتوجد على صدرها مزهرية جوفاء تتصل بانبوب داخل التمثال وهذا . الاتصال يمكن من هو خارج الحرم أن يجعل الماء ينبع من المزهرية اشارة الى الخصوبة والرضا الالهي . اما النبع المقدس فلم يكن في المبد على الاطلاق بل كان يقوم على مسافة ما أمام الباب .

معبد مردوخ في بابل

كان معبد مردوخ من اكبر المعابد البابلية . ويبلغ طوله حوالي (٤٧٠ قدمًا^(٣٥) ، ولم يكتشف الا جزء منه . تشغله مجموعة الابنية كلها قطعة ارض مستطيلة الشكل تزيد مساحتها على السنتين فدانًا . يحد المعبد من الغرب نهر الفرات ، ومن الشرق طريق الموكب الذي يوجد باب عشتار في نهايته . وعلى الرغم من كثرة التتقبيات التي اجريت في الماضي ، الا ان البعثة الالمانية هي التي تمكنت بصورة جزئية ، من الكشف عنه . وحتى عملها هذا تطلب ازالة ما يقارب الأربعين الف ياردة مكعبية من الانقضاض .

يمتد تاريخ المعبد الى سلالة بابل الاولى . وقد نهب من قبل العحيشين عندما اغاروا على المدينة ونهبو تمثال مردوخ وسريرانيت ، ثم استعادهما مؤخراً الملك (الكيشي) (آغوم كاك) الذي اعاد تزيينهما بالاحجار الكريمة، فوضع على رأس الاله تاجاً من الذهب واللازورد ، وزين ابواب المحراب باوراق الارز المنقوشة على الواح نحاسية تحمل صوراً عديدة لحيوانتين الخرافي واسماعيل ماعز البحر ، والكلب ، وكلها كانت شعارات لمردوخ بواليه (آيا) .

لقد عانى المعبد في تاريخه الكثير من اعمال الترميم الهادفة الى اصلاح الاضرار الناتجة من الحروب بين بابل واشور . فبعد ان ضمن ملكاً آشوري، اسرحدون وآشور بانيال السلطة في البلاد ، حاولا ان يصلحا ما افسده سلفهما سنحاريب (٦٨٩ ق.م) . ولكن المعبد لم يستطع ان يستعيد مجده المنشقق النظير الا على يد السلالة البابلية .

ووفقاً لما نقوله القصة العجيبة عن الجهد التي بذلها (اسرحدون) في

^(٣٥) يبلغ طول كتدرائية القديس باول خمسماة وعشرين قدمًا على اكثـر تقدير .

اعادة بناء المعبد ، فان مردوخ امل على الكهان ، وهو في حدة غضبه على المدينة ، نص اللوح الذي يمنع فيه عملية اعادة البناء الا بعد انتهاء فترة سبعين عاماً . وفي اللحظة التي كان فيها اسرحدون متৎماً للمباشرة بالعمل. اعلن الكهان ان مردوخ امر بعكس ترتيب الارقام التي دون العشرة (وهذا يعني تغيير ترتيبها ، كالارقام العربية) ، وذلك حسب النظام الذى تأخذه الارقام في الحالة الجديدة) وكان من نتيجة ذلك، ان تناقصت السبعين سنة حتى صارت احدى عشر سنة ، وبذلك صار اسرحدون طليقاً لكي بيasher العمل .

لقد جاءت الاضرار التي لحقت بالمعبد من الثورة التي قامت بوجهه (خشريخيس) عام ٤٧٩ ق.م وهو من السلالة الاخمينية . لقد كانت هذه الاضرار من الشدة والجساممة بحيث اجبرت الاسكندر على ان يتخل عن نوایاه الرامية الى اعادة بناء الابنية على الرغم من رغبته الشديدة في أن يترك اثراً خاصاً يبيّن فضله على بابل ، وذلك عن طريق جعلها العاصمة اكثر اهمية من بين عواصمها .

لقد كان عند الاسكندر عشرة الاف عامل تفرغوا للعمل مدة شهرين ويع ذلك فانهم لم يستطيعوا ان يزيلوا الا جزءاً من الركام وانتقاض الحجارة .

تعتبر القاعة الامامية الكبرى اول مظهر من مظاهر معبد (ايساكيلا) (اي معبد الرأس الشامخ) التي تدهش الناظر اليها الذي يقترب منها قادماً من بوابة عشتار وقد كانت هذه القاعة تحتوي على برج المعبد ، وكانت بنيات المعبد الخارجية تقوم في اجدى النهايات . وكان المعبد الرئيس يقوم في القاعة المجاورة لها ، وكانت هناك وسائل اتصال بين القاعتين .

اما الفراغ المفتوح الكائن في مقدمة المعبد فتلعب ابعاده (١١٠×٥٠ ياردة) في حين تجد ان ابعاد مثيله من الفراغات المكشوفة في معبد (بعليت) و (زبابا) هي (٤٥×١٠٥ ياردة) .
 اما الحرم الذي كان يعرف باسم (اي كور E-Kur) ومنساة (جبل المعبد) فقد بني على دكاك من الآجر الاسفلتي . وهنالك ظرية تقول ان هذه الدكاك تمثل ذكرى موغلة في القدم ، عن تلول الاراضي التي يحتمل ان يكون السومريون قد سكنوها قبل اذ يستقروا في بلاد بين النهرين . قد يكون هذا صحيحا الا ان هناك امرا آخر ، هو فيضان دجلة والفرات . وبالرغم من عدم احتمال وصول المياه الناتجة عن الفيضانات الى المستوى الذي كانت عليه التماثيل الا ان شدة الرطوبة الناتجة من الفيضان الشتوي قد تؤدي الى وجود خطر يتحقق بالبنيات الطينية الجافة والتي تمتص الماء .
 يسر *

ان كل معلوماتنا عن الزخرفة العراقية لمقام (ي - كور) وغيره من الاماكن الاخرى الموجودة في معبد (اياسغيلا) ، والتي بنيت على نفس المخطط الارضي الذي بنيت عليه اماكن العبادة البابلية ، انما جاءتنا استنتاجا اما من الكتابات التي خلفها الملوك الذين كانوا يتبعدون هناك ، واما من الوصف الذي قدمه (هيرودوتس) الذي يقول انه رأى هناك تمثلا عظيما للكله ، وعرشا ومنصة ، ومنضدة هدايا ، وكلها من الذهب وهي تزن في مجموعها الشانعانية طالين (أربع وعشرين طنا تقريبا) (*) .

ويبدو ان هذه الارقام قد بولن فيها الى حد كبير . والحقيقة انه تم العثور على كيارات مذهلة من الذهب في مقابر - اور - الملكية وتؤلف هذه الكيارات هدايا من الصحون الذهبية والاثاث الخاص بالمقابر الملكية . ولكن على

(*) ترجم سليم طه التكريتي ما كتبه المؤرخ هيرودوتس عن العراق في مقال خص به مجلة «الورد» العدد الثالث لسنة ١٩٧٩ .

الرغم من ان بعض القطع الصغيرة هي من الذهب الخالص الصلد ، فان البقية كانت تتالف من الواح رقيقة من اعمال الذهب البارزة ، بدل و حتى من اوراق ذهبية مشكلة فوق اجسام خشبية او برونزية مستخدمة في الزخرفة .

تحتوي قاعة المعبد في (خرسناد) سلسلة من الاعمددة الخشبية غطي كل منها بصفائح برونزية تعطى العمود شكلا يشبه جذع النخلة ، وينطوي سطح البرونز المحفور بدوره بورقة رقيقة مناسبة من الذهب ، والتي تجعل العمود يبدو وكأنه عمود ذهبي ضخم . وعلى العموم فان التأثير التي اظهرتها التتقينيات حتى الان ثبتت بان الذهب الاصم لا يزيد على كونه قطعا مصاغة .

لدينا العديد من اوصاف الابنية والسكنى المغطاة بالذهب والتي تتألق في الشمس . وغالبا ما اظهرت التتقينيات التي اجريت في مثل هذه الابنية قطعا من الفيسفاء ، او الطابوق المطلي بطلاء اصفر لامع . وهذا العمل من الاختصاصات البابلية المعروفة . ومن المحتم ان يكون مثل هذا الطلاء لاماً في شمس الشرق الساطعة .

وينطبق نفس الشيء على الاحجار الكريمة المزعومة لبلاد بين النهرين . اذ لم تكن مثل هذه الاحجار التي ذكر وصفها ، قبل العصر الهيليني ، الا ما نسميه باشباه الاحجار الكريمة ، كاللازورد والعقيق واثباه ذلك . وعلاوة على ما تقدم فقد توفرت للسكان وصفات صنع الزجاج الملون . وما لا شك فيه ان انتاج هذه الوصفات يبدو وكأنه من الاحجار الكريمة على الرغم من عدم وجود المعرفة الفنية آنذاك ، والتي تيسر عملية تمييز الفروق .

نستطيع ان تكون بعض التصورات عن زخرفة معبد (إيساگيلا) ، وذلك عن طريق تناول التتقينيات . وبناءً على ذلك فاننا نجد ان الزخرفة الخارجية تعكس نمط التقاليد الشرقية التي لا تزال موجودة في جامع

(أيا صوفيا) في إسطنبول مثلاً، حيث يكون القسم الأعظم من الزخرفة بسيطاً، أما الزخرفة من الداخل فهي ليست كذلك، فما ان نمر من الابواب حتى نرى اشكال الاوراق النباتية المزخرفة باشرطة من البرونز المرصع والذهب، كما نجد نفس الزخرفة على الابواب التي عثر عليها في (بلاوات) و (سوسه)، والمحفوظة الان في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر.

يجد الزائر ان الجدران مغطاة بالواح من المرمر، وتوجد فوق هذه الالواح رسوم ذات الوان زاهية وصادفة، وهي تشمل الازرق والاحمر والاسود، وتبين هذه الالوان عن ارضيتها البيضاء، ويمكن رؤية نماذج مماثلة في معبد (ماري) وقصور تل برسبيب وخرسباد، ومن المحتمل انه كانت توجد الواح وطنوف من الطابوق المزجج كما نجد في باب عشتار في بابل مثل ذلك، هذا على الرغم من ان كل هذه كانت تشكل نوعاً من الزخرفة التي تحتاج الى ضوء ملامع لكي ترى باحسن صورة، ويبدو ان مثل هذه الزخرفة قد اقتصرت على السطوح الخارجية جيدة الاضاءة، فنحن نعرف ان احدى غرف الاستقبال الكبيرة في القصر الملكي في بابل، قد زينت باشرطة عمودية من الطابوق المصقول اللامع وتنتهي الزخرفة من الاعلى ومن الاسفل بنخيلات كبيرة العجم، لقد كانت ملابس تمثيل الالهة القائمة فوق قواعدها غنية بالتطريز المذهب، في حين كانت السرائر ومبارات العرش والموائد ووااني النذور تصنع من المعادن الثمينة أو أنها كانت تختلف بالذهب؟، فلا عجب اذا ما ذاعت شهرة المعبد شرقاً وغرباً.

الزقورات ابراج المعبد

كانت الزقورات التي قامت قرب المعبد تسمى (ايتمانشكبي) ويعني هذا الاسم (اساس معبد السماء والارض) وتستعمل حكمة *Temen* للتعبير عن حجر الاساس في البناء ، وهذه الكلمة هي التي استعار منها اليونانيون كلمة (*Temos*) تدل على معنى (مركز مجموعة من المعابد) . ولما كانت الارض والسماء تعتمدان على بعضهما البعض فان هذا يعني ان زقورات بابل اصبحت حجر الزاوية لكل البناء . لقد وصفت زقورات المعبد الاخرى بأنها صلة الوصل بين الارض والسماء . وانا اعتقد ان الرعم القائل بان اساس الزقورات في الارض وان رأسها يكاد يضيق بين السحب ، يخفي وراءه تصورا اكثرا عمقا حول الامور غير المادية التي تربط بين عنصري الكون المنظمين .

لقد كانت الزقورات مظهرا نظاميا لكل معبد مهم . فهي تقوم منفصلة عن بقية البناء . وهي تشبه في هذا الحال برج الاجراس في الكنيسة الايطالية .

وقد اظهرت التنقيبات التي أجريت في بلاد بين النهرين نوعين مختلفين تماما من الزقورات ويسود احدهما في شمال البلاد ، ويتألف هذا النوع بغض النظر عن الاساس من عدد من الدكاك المستطيلة الشكل المتراكبة ، والمتناقصة الحجم . ويوجد طريق ينحدر تدريجيا وقد بني على الجدران الخارجية ، ويؤدي الى القمة التي يعلوها معبد صغير . وبصفة عامة كانت هناك سبع دكاك او طوابق . وكان كل طابق يحمل لونا يختلف عن لون الطابق الذي يليه من الاسفل او من اعلى . وجدير بالذكر ان في خرسناد زقورة لا تزال تتتصب مرتفعة حتى الطابق الرابع . وبين الطابق المتبعد الالوان والتأثير رقامه فوقها ، بان الوان الطوابق ، اعتبارا من الاسفل ،

كانت على التعلق : بيضاء ، سوداء ، حمراء ، بيضاء ، برتقالية مائلة الى الحمرة ، فضية ، واخرا ذهبية . وكان قياس كل جانب من القاعدة حوالي اربعين قدما . وكان ارتفاع كل طابق تسعه عشر قدما . وبذلك يبلغ مجموع الارتفاع ١٣٣ قدما .

يوجد نوع مختلف آخر من الرقصورات في الجنوب ، وبخاصة في اور - ويتخذ هذا النوع نموذجا لدراستنا هذه^(٣٥) . تبدو البناء ، كما نعرفها ، بأنها قد بنيت اصلا من قبل الملك (اور نمو) قبل عام (٢٠٠٠ ق.م) بقليل . وقد عانت هذه البناء العديدة من عمليات الترميم ، واعادة البناء ، وبخاصة في عهد (نبونيدوس) آخر ملوك بابل . كانت هذه البناء تقوم في مركز « اور » مع العديد من المعابد الأخرى ، والتماثيل الدينية . ثم الحقت بعد ذلك بمعبد (سن) الذي كان على هيئة شكل رباعي (١٩٠×١٥٠) قدما) وتحته زواياه الى الجهات الاربع الاصلية . كان يوجد على احد جوانب هذه البناء الطويلة سلم عمودي تقريبا تتجه زواياه القائمة نحو السياج الاعلى ، في حين يوجد سلماً اخران يلتقيان في مكان واحد ، ويتدنى كل منهما من الطرف البعيد لنفس الجانب ، ويلتقي هذان السلمان في قمة الطابق الاول .

لقد كان هذا البناء يرتفع الى علو خمسين قدما ، وكان محاطا ببنيانين مربعي الشكل مشابهين له ، ولكنهما اصغر منه . وكان مجموع ارتفاع البناء سبعين قدما . وكانت جدران كل واجهه من واجهات ارصفته تنحدر انحدرا خفيفا الى الداخل ، كما كانت مزخرفة بالواح بارزة للزينة ليس الا وكل البناء مبني ثالثين الذي قوي بالطابوق والزفت .

^(٣٥) لفرض الاطلاع على اعادة تركيب شكل زفورة اور ، انظر كتاب السرييوناردي « تقييمات اور » المجلد الخامس سنة ١٩٣٩ .

وفي الحقيقة ان زقورة (أور) لم تكن مؤلفة من سلسلة من الدكاك المربعة والمستقيمة الاضلاع تقريباً ، كالتى كانت في (خرسباد) . بل ان هذه الزقورة تتخذ شكل ثلاثة متوازيات السطوح بعضها فوق بعض وعلى القمة محراب صغير مرصوف سطحه بالطابوق الصقيل ذي اللون الازرق الفاقع الجميل ، ويمتد تاريخها الى زمن اعادة بنائها من قبل (نوبيندوس) . وكان الطابق الاسفل هو الاسود ولون الذي يليه هو الاحمر .

يوجي الوصف الوارد في الادب القديم ، بان زقورة بابل كانت تشبه زقورة خرسباد . ووفقاً لما ي قوله هيرودوتس فإن مسافة كل اتجاه من عند القاعدة يؤلف (ستاداً واحداً) ^(٢٧) . وكان يوجد فوق هذه القاعدة سبع طوابق متراكبة ، في حين يلتقي طريق على الجدار الخارجي صاعداً من طابق الى طابق . وجدير بالذكر انه أثناء زيارة هيرودوتس لبابل كانت الزقورة مدمرة تدميراً شديداً^١ بناء على اوامر « اردشير » (٤٧٩ ق.م) . ولذلك يعتبر وصفه من الدرجة الثانية .

لقد كشفت التقييمات أن الطوابق السفلى تظهر عليها اعادة للبناء حسب خطة اور ، ولكن على قاعدة مربعة . وقد سجلت الابعاد على لوح يعرف باسم لوح (ايساگيلا) . ويشير هذا اللوح الى ان طول القاعدة كان اكثراً من (٢٩٥ قدماً) بقليل ، في حين تؤكد التقييمات بأنه كان (٣٠٠ قدماً) . ووفقاً لهذا اللوح فقد تساوى كل من الارتفاع والعرض والطول . ولكن هذا القول لا يشمل ابعاد الطوابق المنفردة السبعة ، والتي اعتبرها هيرودوتس ثمانية حين ادخل المنصة في حسابه . واذا ما صدقنا اللوح فيجب أن يكون مجموع الارتفاع « ٣٠٠ قدماً » تقريباً .

لقد بذل الكثير من الاثاريين محاولات عديدة لاعادة بناء الزقورة ،

^١ اي حوالي مائتي يارد .

معتمدين على القياسات التي كشفت عنها التنقيبات ، وعلى معلومات اللوح .
ووصف هيرودوتus .

ويعتقد (يـ. اوـنـگـرـ) (*) ان الزقورة المعروفة باسم إـمـتـانـبـيـ .
كانت تضم المظاهر العامة للأنواع الشمالية والجنوبية . فالطابقان .
السفليان ينتهيان الى الانواع الجنوبية ، في حين تنتهي الطوابق العليا الاربعة .
النوع الشمالي ، ويحاط الصرح كلـه بـمحـرابـ ، وكـما قـيلـ لهـيرـوـدـوـتسـ ،
فـأنـهـ كانـ يـضـمـ سـرـيرـاـ جـيـلـاـ ، وـيـجـانـبـهـ منـضـدـةـ منـ الـذـهـبـ ، وـلـمـ يـكـنـ فـيـهـ
أـيـ تمـاثـلـ ، وـأـنـ الشـخـصـ الـوـحـيدـ الـذـيـ كـانـ يـنـامـ هـنـاكـ هوـ اـمـرـأـ اـخـيـرـتـ منـ.
قـبـلـ الـالـهـ نـسـهـ ، وـإـذـاـ ماـ صـحـتـ هـذـهـ الرـوـاـيـةـ فـأـنـهـ تعـنيـ اـنـهـ كـانـ هـنـاكـ ماـ يـشـبـهـ
الـحـرمـ الصـغـيرـ الـذـيـ يـكـرـسـ لـزـواـجـ الـالـهـ الـمـقـدـسـ . نـحنـ نـعـرـفـ اـيـضاـ
اـنـهـ كـانـ هـنـاكـ الـعـدـيدـ مـنـ الـمـقـاـمـاتـ الـمـقـدـسـةـ فيـ كـلـ جـانـبـ مـنـ الـبـنـاءـ وـبـمـسـتـوىـ.
الـطـابـقـ الـأـوـلـ . وـيـجـبـ أـنـ تـذـكـرـ هـذـهـ الـأـمـرـاتـ أـيـ بـحـثـ مـنـ هـذـاـ النـوـعـ.
عـنـ الزـقـورـاتـ .

لقد احيطت شهرة هذا البرج بهالة من التقديس في الاحاديث الانجليزية ،
الـاـنـهـ هوـ الـاـصـلـ الـذـىـ نـشـأـ عـنـهـ بـرـجـ بـاـبـلـ وـظـلـ الـاـمـرـ كـذـلـكـ حـتـىـ تـحـولـ الـبرـجـ
إـلـىـ اـكـمـةـ لـاـمـظـهـرـ لـهـ ، وـدـوـنـ اـنـ يـكـوـنـ مـنـ الـيـسـيرـ رـؤـيـةـ طـوـابـقـهاـ . وـعـنـدـمـاـ
جـرـتـ مـحاـوـلـةـ لـاـعـتـبـارـ بـرـجـ بـاـبـلـ مـطـابـقـاـ فيـ النـوـعـ لـزـقـورـةـ مـدـيـنـةـ (ـبـورـسـيـاـ)ـ
الـمـجاـوـرـةـ ، وـالـتـيـ تـبـعـ عـشـرـ اـمـيـالـ عـنـ بـاـبـلـ ، لـمـ يـفـحـصـ بـرـجـ بـورـسـيـاـ فـحـصـاـ
مـنـاسـبـاـ ، وـكـانـ هـذـاـ بـرـجـ قدـ نـجـاـ مـنـ مـحاـوـلـةـ نـسـفـ مـفـزـعـةـ اـرـادـتـ الـقـيـامـ بـهـاـ
بـشـةـ (ـفـرـيـسـنـلـ)ـ . عـامـ ١٩٥٢ـ مـ (**). بـعـدـ اـنـ بـدـتـ بـعـضـ السـطـوـحـ الـعـلـيـاـ.

(*) اوـنـگـرـ Eunger منـ الـاثـارـيـنـ الـاـلـمـانـ الـذـينـ نـقـبـواـ فـيـ بـاـبـلـ وـغـيرـهـ قـبـلـ
الـحـربـ الـعـالـيـةـ الـاـوـلـىـ .

(**) فـرـيـسـنـلـ Fresnel (ـفـوـلـجـانـسـ)ـ (ـ١٧٩٥ـ ـ١٨٥٥ـ)ـ دـبـلـومـاسـيـ عـمـلـ.
قـنـصـلـاـ فـيـ بـغـدـادـ وـاـشـرـفـ عـلـىـ التـنـقـيـبـاتـ الـتـيـ اـجـرـيـتـ فـيـ بـاـبـلـ سـنـةـ ١٨٥٢ـ .

متلوة اتفق كل من (فريستل) والكولونيل (رولينصون) على تجир لغه يوفر لها المال والوقت ، ويشطر البناء الى شطرين وبذلك ينكشف قلبه • ولحسن الحظ منع بعض الشواغل (فريستل) من هذه المحاولة •

ونعود الى القول بان برج بورسيا اقيم على شرف الاله (نابو) بن مردوخ ، ويحتمل ان تكون المساحة التي يشغلها مختلفة كثيراً عن برج بابل ، وبالاضافة الى المعابد الكبيرة التي طبعت بابل بظابع العاصمة الدينية ، علينا ان لا ننسى الكثرة الكائنة من المعابد الصغيرة والمذايحة التي كانت تبني في الشوارع ، اما بامتداد عمارة معينة او عنبد مفترق الشارع ، فهي تشبه اضحة السلاطين في اسطنبول • وجدير بنا ان نقبس بعض ما جاء في الكتابات المدونة الخاصة بهذه المعابد •

يوجد في بابل كلها ثلاثة وخمسون معبداً لكتاب الاله ، وخمسة وخمسون معبداً صغيراً مكرساً لمردودخ ، وثلاثمائة معبد صغير اخر لالهية الارض ، وستمائة معبد صغير للاله السماء ومائة وثمانون مذبحاً مقدساً للاله عشتار ، ومثل هذا العدد للالهين نيرگال و (ادد) ، واثنتي عشر مذبحاً مقدساً لختلف الاله • ولما كانت هذه الاعداد قلماً تصدق فأن اللوح يؤكّد وجودها بالفعل داخل المدينة •

الكهانة • الملك او الكاهن الاعلى :

كان الملك ، كما قد تتوقع ، على رأس الكهانة ، وهو مثل الاله على الارض • وقد تضمنت الالقاب الملكية القاباً مثل (كاهن عشتار) و (ممون معابد ايساغيلا) و (أزيدو) • ولم تكن هذه الالقب مجرد القلب فخرية • ذلك لأن الملك كان ، وبصفته الشخصية ، يقدم النذور ، كما كان يبيت في اجزاء بعض الاحتفلات ، ولا شك انه كان يتلقى المشورة لاداء هذه المهام من الكهانة الاعتيادية ولكنه كان يتمتع بحرية العمل الذي

كان جزءاً من اعمال مكتبه الكهنوتي الرفيع . وهذه التقاليد ضاربة في القدم . ذلك لأن الحسد كان يدفع بالملوك واحداً أثر واحداً ، إلى ادعاء اللقب . وما دام الملك غير قادر على إداء كل المهام التي تقع على عاتق الكاهن الأعلى ، فإنه يعين بديلاً عنه ليمثله ، أو يقوم مقامه في إداء هذه المهام . وغالباً ما يكون هذا البديل أحد رابطات الملك نفسه ، أو أحد كبار مجلس الكهان . وبالرغم من أن هذا البديل يستمد سلطاته من (الانعام الالهي) والذي يتجلّ في حسن الطالع ، إلا أن الملك نفسه هو الذي يتولى أمر تعينه ، وهو الذي يتولى تحليفه قسم الأخلاص . وسيرا على نفس المبدأ ، كان كل معبد تحت سلطة كاهن كبير .

لم يكن الملك يتولى تنصيب مثل هؤلاء الكهان حسب ، بل أنه يتولى تعين من يشغل منصبًا أقل خطورة . لقد أدى نظام التعين هذا إلى نشوء المنافسات . وكان على الملك أن يختار من يريد من بين المتسابقين على المناصب . اظر مثلاً هذه الرسالة ، المرفوعة إلى الملك من قبل أحد وزرائه .

(فيما يخص خليفة كبير المعبود قلت لسيدي الملك ان المنصب يليق بابنه وباين اخته . ان ابنه وابن اخته وابن (نابو بعليت) ، وهو بن عم مساعد رئيس الكهان ، سوف يتمثلون أمام الملك ، وسوف يعين سيدي من يجده منهم الأنسب للمنصب) .

يأتي الكهان العاديون ، من ناحية الترتيب ، بعد كاهن الملك الأعلى . وكبار أعضاء الكهنة الذين عهد إليهم الملك بالسلطات . لقد كان يطلق على الكهان العاديون اسم (سبانغو Sbangu) (الكهنان) ويشمل هذا الاسم الكهان الذين يديرون المعبود ، وكذلك الذين يشتغلون فيه كموظفين . يمكن حصر المظاهر العديدة لوظيفة الكاهن أساساً في نوعين . ويتمثل الأول في معرفة إرادة الآلهة ، وتفسيرها . أما الثاني فيتمثل في جعل المؤمن يعيش بسلام مع الآله اذا كان ذلك ضرورياً .

العرفون والمنشدون

يتولى العرافون انجاز أول هذه المهام ، اي معرفة اراده الآلهه وتقسيمها ،
اما المهمة الثانية فيتولى المنشدون انجاز قسم منها اذ يقومون بتلطيف قلوب
الآلهه بانشادهم وموسيقاهم . اما السحره فانهم ينجزون ما يتبقى من
المهام ، ووظيفتهم هي أن يتسلحوا القرابين المقدسة المقدمة من قبل الكهان
المتخصصين في استرضاء الآلهه ، وفي الحصول على بركتها ، والذين ينقذون
المؤمن من سلطات الفاريات التي تضطهدءه . ولاجل تحقيق ذلك يؤدي
هؤلاء الكهنة بعض الصلوات والشعائر الدينية .

لقد عَبَدَ العرّافون (واسمهم بارو Baru) كل الآلهة الذين
يتسمون الى مجتمع الآلهة البابلي . ولكنهم يزعمون بأنهم تحت رعاية آلهة
التبئ بالغيب ، وانهم يمثلون تقاليد مرعية جدا ، وان الشعائر التي كانوا
يمارسوها قد انحدرت اليهم ، كما كان يعتقد ، من (انميدورانكبي
Enmeduranki) ملك (سييار) قبل الطوفان ، والذي استمر
حكمه ، كما تقول الجداول المختلفة من (واحد وعشرين الف سنة الى اثنين
وسبعين الف سنة ٢١٠٠٠-٧٢٠٠٠) وما دام قد انعم على هذا الملك بمزايا
الكمال البدنى فان الدين يحلقوته يجب ان يكونوا مثله . والحقيقة ان
النصوص تقول انه لن يستطيع احد ان يكون قيماً على مراسيم شمش وادرد
(وهما الها الكهانه) من كان ابوه غير ظاهر ، وكان نفسه غير كامل الاطراف ،
او الملائم ، وغير سليم العينين او الاسنان ، او الاصابع او من كان يedo عليه
المرض ، او به دمامل .

لقد كان على العرّاف ، اي البارو ، الطموح ان يخضع
لدراسة طويلة ، وان يمر في تجربة تدريسية ، بالإضافة الى وجوب حلاقة

شعره كله ، او ان يحلق أم رأسه على الاقل ، لكي يكون موهلا لعمله ، او كما تقول الصيغة الخاصة بذلك (لقد ادى الحلاق عمله اليدوى عليه) .

وما دام المرء لا يستطيع ان يعيش حياته اليومية دون مساعدة الغرافين ، وما دام من الممكن الاستعانته بخدماتهم عند اية اشارة لذلك ، فقد خصص البعض منهم لاداء الواجبات المطلوبة في القصر ، او في المبعد المجاور له .

لقد كانت الرسائل التي كتبها هؤلاء الغرافون تكرر القول باستمرار :-
(لقد جعلني الملك ابحث عن هذا او ذاك ٠٠٠٠)

ولقد توجب على الغرافين الملحقين بالقصر ان يكونوا في حالة استعداد لتفسيير اي شيء يطلب منهم تفسيره . كما كان عليهم ان يؤدوا يمين الولاء باعتبارهم عن الموظفين .

فنجن نجد احد الموظفين يذكر الملك باليوم المحدد لاداء القسم الذي يتضمنه امر حضور الكتاب والグラفين والمعزمين والاطباء ومراتبي الطيور وموظفي القصر ، لقد اعتبر هذا القسم شيئا عاديا ، او انه شبكة تحتوي من يؤدي القسم . اما المعنى الحرفي للصيغة التي تقال عند القسم فهي :-
(سوف يشق طريقه في وسط القسم)

اما الجماعة الاخرى فانها تتالف من المنشدين او (الكالوا Kalu)
وهم الذين يرثلون الصلوات وينشدونها مع المتبعين وفي وقت واحد ، وترافق الموسيقى المناسبة هذا الانشاد ، وتتألف هذه الموسيقى من القرع الایقاعي لطبول كبيرة تشبه الصناديق ، بالإضافة الى القيثاره وآلاته موسيقية اخرى تشبهها وقد تم العثور على نماذج من هذه الآلات سليمة في مقابر (اور الملكية) ، هذا بالإضافة الى ما وجد من اشكالها منحوتا على التماثيل .
وتکاد تكون جميع القيثارات تحمل صورة ثور صغير ، او رأس ثور . ومن

المحتمل ان تكون انغامها عالية جداً ذلك لأن صوتها كان يقارن غالباً بخوار الثورة • ولقد وصفت بعض انواع الصلوات بها حاجة الى مرافقة صوت الناي ، ولقد رافقت اغاني المنشدين العدد الكبير من الاحتفالات الدينية ، بما في ذلك الطويلة جداً مثل الاحتفال الخاص باعادة بناء معبد متهدم •

لدينا جدول خاص بالترانيم ، وتمثل جميعها انواعاً مختلفة من النواح • وقد ادخلت في الادوار الموسيقية والفنائية الخاصة بكل منشد • ويوجد بين هذه الترانيم سبعة وخمسون ترنيمة كانت تتطلب مرافقة الطبل الكبير ، ثم اربعون ترنيمة كانت تتطلب وجود الناي ، وسبعة واربعون تتطلب رفع الايدي بالدعاء عند قراءتها •

المعزمنون :

كان المنشدون اجمالاً من المنشدين للتعاويذ • ذلك لأن هدف وموضوع ترانيمهم ونواحهم ، هو التطهير والحماية • يعتبر (الاشيو) Ashipu هو المساهم اكثر فعالية ونشاطاً في هذه المناسبات وتقابل حكمة (اشيو) في الاكادية الكلمة مشمش Mashmash (والصيغة السامية للكلمة الاخيرة هي مسماشو Masmashu) • وهناك اساس للظن باحتمال وجود شيء من الاختلافات بين هذه الكلمات • ولكننا لا نعرف سبباً لها • كان واجب (الاشيو) ينحصر في ان ينطق بالتعاويذ ، وهو يشبه العراف في استطاعته الادعاء بأنه يمثل تقاليد عريقة جداً • وتقول احدى التعاويذ التي كان يستعملها (انا ، الاشيو ، الذي خلق في اريدو ، نعم ، الاشيو الذي ولد في (اريدو في سوبارو Subaru) •

ان هذا يدل على ان (اريدو) كانت تعتبر المدينة الاقدم بين المدن السومرية في حين كانت (سوبارو) أول اسم عرف عن (آشور) المتأخرة • وهكذا فإن

الأشيو يدعى ان اصوله تضرب في اعماق بدايات حضارة بلاد بين النهرين .
انتا نسمع بوجود نوع اخر من الكهانة ويعرف باسم (إريبي بيستي Eribi biti) . ولهذا النوع حق دخول الحرم . ولن ننظر الى هؤلاء باعتبارهم طبقة منفصلة . وذلك لأن الاسم يشير بكل بساطة الى ذلك النوع من الكهان الذين لهم ، كما يدل اسمهم ، حق دخول الحرم ، وكانوا يعتبرون من بين الكهان الذين سبق ذكرهم .

صغر الكهان وموظفو المعبد

يقوم موظفو المعبد باعداد رجال المؤخرة ، بما في ذلك البوابون والحراس والموظرون الذين يؤدون مهام تقديم القربان وكانوا يعرفون باسم (حاملي السكاكين) ، ثم حاملو العرش . وما لاشك فيه ان واجبهم هو ان يحملو على اكتافهم النقالات التي يحمل عليها الآلهة في الموكب . ويفيد ان عددهم كبير ، وهذا ما يشير اليه تجمع العدد الكبير من تماثيل الآلهة في احد الاحتفالات .

لقد كانت تجري في المعبد مجموعة متنوعة من الفعاليات ومن بينها فعاليات صانعي الشراب ، وصانعي الحلويات والكمك الذين يصنعون الكعك المقدس الضروري في بعض الاحتفالات . لقد كانت قاعة المعبد الامامية المكرسة لعشتار في الفترة المتأخرة تجج باسراب الحمام الذي كان يمثل طيور الآلهة الشخصية وكانت هذه الطيور تعيش في قمة المعبد ، اما العناية بها فكانت تعتبر من الامور الدينية وكذلك اطعامها . وكان المتبدون هم الذين يقومون بذلك ، فيقدمون لها الكعك المصنوع في المعبد خصيصا لهذا الغرض .

السرقات والشغب في حرمات المعبد

كان بين موظفي المعبد رجال يقومون باعمال الحراسة وكان واجب هؤلاء هو منع ، او على الاقل اخماد الشغب ومنع السرقات التي كانت كثيرة الشیوع ، وذلك بسبب وجود دواعي الاغراء القوية المتمثلة في ملابس الآلهة وحلبيها والكنوز المتراءكة التي تشكل لوازم خاصة بالشعائر الدينية ٠

ومن امثلة التقارير التي كانت ترفع عن السرقات ، تقرير يقول :-
المضدة الذهبية التي فقدت من معبد (آشور) شوهدت في حوزة النحات س ٠٠٠٠ نوصي بان يتخذ الملك الخطوات لاستدعائه واستجوابه ٠
والذى لا شك فيه هو ان الملك سيقول :-

لماذا لم يرفع احد تقريراً إليّ بهذا الشأن ؟ لقد قلع الكاهن التابع لـ (شمس) السماء الذهبية من (اياسكيلا) وذلك عندما غادر بابل ٠
ثم يمضي التقرير ليقول :-

لقد لقت قائد خرسناد نفسه الااظار اليه بتعده فتح الظروف المختومة . انه الان يفتح غرفة المخزن التي تعود لأله الملك ، وحالما جاء قائد وحاكم نينوى واربيل بالفضة الى المعبد قام باخذها منها ٠

لقد كانت الاحتياطات الالزمه لحفظ المواد الثمينة تزاد باستمرار يقول احد الصاغة :-

(لقد صنعت تاج آنو) ٠٠٠ لقد تسلمت اثنا عشر مينساً من الذهب كهدية لبعيل ، واستعملته في صنع المجوهرات للالله (سربانيت) ٠ لقد اودع كل شيء في خزينة معبد آشور ولن يستطيع احد ان يفتح الخزينة الا بحضور الكاهن س ٠٠٠ جداً لو تفضل الملك وارسل شخصاً يخوله فتح الخزينة لكي ان تسكن من اتمام العمل وارساله الى الملك) ٠

قد تقع احياناً محاولات إغتيال في المعبد كما نرى في التقرير التالي :-
عند باب - اي - أنتا) الكبير أستل (س بن ي) خنجره معترضاً
طعن (ز) الذي عينه الملك رئيساً لموظفي (اي - أنتا) وعندما أحضر (س)
 أمام المحكمة قررت حجز الخنجر ، كتب في - الوركاء - لليوم الحادي
 والعشرين من شهر كسليف من السنة السادسة عشرة لحكم (نابونيدوس
 ملك بابل) .

الصلوات :

كان الوضع المتخذ أثناء الصلاة يتمثل في رفع اليدين نحو الأله مع
 القراءة العلنية بصورة خاصة ، وقد أشتملت الصلوات على عدد كبير من
 الترايم والادعية والتي يشارك فيها الجميع ويحدث توقف بين الحين والحين،
 واثناء هذا التوقف ينطق الجميع بنوع من النجع او النواح العام . ولم
 تكن المواكب تقام داخل المعبد حسب بل حتى في ارجاء المدينة كذلك . كما كان
 بين المشاركون العديد من الكهان وتماثيل الآلهة ، والممثلون الرسميون ،
 ويصادف احياناً وجود الملك والمتعبدين .

يعتبر تقديم الضحية اهم مظاهر العبادة . وكان الجدي هو مادة
 الضحية بصورة عامة . وفي مثل هذه الحالة يحرق قسم من الحيوان ، في حين
 يأخذ الكهان الباقى . وقد يأخذ تقديم الضحية شكل سكب الحليب والخمر
 والمعسل وتحتاج مهام شعائر التضحية بالحيوانات والتي تتراوح بين الطيور
 والثيران ، الى جيش لجب من صغار الموظفين كما تتطلب الصلاة الاداء الحرفي
 للعروض التقليدية ، وان اي فشل في ذلك سوف يفسد دلالة الاحتفالات
 والتي كان اهمها تلك الاحتفالات التي يرعاها الملك مثلاً في شخص كبير
 الكهان . لقد كان الاحتلال الديني مرافقا لكل عمل كبناء المعبد مثلاً . كما
 ان الركن الاساسي في كل صلاة هو التظاهر بصورة تامة ، ذلك لأن البابليين

كانوا يعتقدون ان عدم الطهارة امر يثير الرعب لانه يفسح المجال للدخول
 الفاريت •

لقد كانت احتفالات الاستطاف وتقديم القصعية في سبيل الاسترضاء ،
 مهمة ايضا لفرض مكافحة الآثار السيئة التي خلفتها أيام او اشهر معينة ،
 والتي قد تشمل فرض الحظر حتى على اكثرا الاعمال شيوعا في الحياة اليومية .

الاعياد الدينية

كان لكل الله اعياده الدينية المعينة . وكان اهمها عيد رأس السنة الجديدة . يحل هذا العيد في الربع في شهر نيسان . وبمرور الوقت اكتسب صفة ثنائية . وقد نشأ هذا العيد اصلاً كعيد من اعياد الطبيعة وهو يتميز بنوعين من المظاهر فيعبر المظهر الاول عن حزن الطبيعة على موت كل الاشياء النامية ويعبر المظهر الثاني عن فرحة الطبيعة بعودة الحياة الى هذه الاشياء . واضيف الى هذا العيد تمجيد مردوخ فيحتفل بالآثار التي دفعته الى مقامه الجليل بين الالهة . ويستمر عيد السنة الجديدة في بابل اثنى عشر يوماً . وفي معبد (ايساكيلا) يستقبل مردوخ آلهة المدن الاخرى في شخص تماثيلهم واول من يقدم له الولاء ابنه (نابو) الذي كان يعبد في مدينة (بورسيا) المجاورة .

ان من الصعب التأكد من الدلالات المختلفة للعيد ولكنه كان يضم احتفالاً بعودة مردوخ الى الحياة ، فيتحول الحزن الى فرح ، ثم يسير مجموع الالهة برقة الموكب الكبير الى المعبد خارج المدينة ، والذى يعرف باسم (اكيتو) وهو الاسم الذى يطلق على المعبد ايضاً وفي اثناء هذه الفترة يمثل نوع خاص من المسرحيات التى تصور حوادث ملحمة (كلكامش) ، ومنها نداء الاله الى مردوخ لكي يكون بطلهم في مقاومة (تيامات) أو (كاوس) كما تصور النصر الذى احرزه وتصبىه رئيساً لجمع الالهة واداء اهم الواجبات الرئيسية ، وبخاصة تثبيت مصائد مدينة بابل . وتشمل مراحل العيد اداء بعض العبادات الطبيعية والتي تتالف من تنفيذ عملية الزواج المقدس التي تسمى في المعبد لزوجين من الالهة مختلفين اما بتمثال آلهين ، او بكاهن كبير وكاهنة كبيرة . وهنا يختتم العيد ثم تعاد التماثيل الى معابدها القرية والبعيدة . لقد كان لكل مدينة كبيرة طريقتها الخاصة بها للقيام يمثل هذه الاحتفالات . وكان اي خطأ او تقصير في تنفيذ مراسيم الاحتفالات يعني نذيراً بكارثة .

الكهانة ومبرراتها

تعتبر الكهانة ، والسحر والطب ، الميلادين الثلاثة المتداخلة والتي تقوم مقام نقاط التماس العميقية جداً بين الحياة والمبادئ الدينية عند سكان بلاد بين النهرين . يستطيع العالم الحديث بمساعدة العلم أن يتتبأ بالكثير من الظواهر الطبيعية ، كحالة البحر ، او سير الوباء ، وبالتالي فإنه سرعان ما يعرف ماذا حدث في أي مكان عن المعمورة .

لم يكن البابليون ، بالطبع على هذه الشاكلة ، لأنهم افتقدوا مثل هذه المزايا والمنافع . ولذلك راحوا يبحثون عند الآلهة عن المعرفة لكي تنتقد لهم من كبرى الحوادث وصغارها على حد سواء . لقد اعتقادوا بأن الآلهة يكشفون عن ارادتهم واهدافهم في المستقبل ، بالف دلالة يمكن ان تفسر تقسيراً جيداً ومناسباً ، بفضل كشفها اسرار التكهن بالغيب لانميرورانكي وهو واحد من الملوك الاسطوريين قبل الطوفان . ولقد ارتفعت قيمة هذا الكشف الاصلي عن الغيب بما رافقه ما كان يتم الحصول عليه يومياً ، فصار بمستوى العلم وبذلك امكنه ان ينال القبول على اساس انه مصدر للمعلومات الرسمية .

كان الملك يستشير كهنة القصر باستمرار قبل ان يتخذ اي قرار خطير . وكان البابلي العادي يفعل نفس الشيء لكي يعرف شيئاً عن الحوادث التي تقع في حياته اليومية . كان التأكد من ارادة الآلهة امراً ضرورياً دائماً في بلاد بين النهرين وقبل القيام بأي عمل .

اللهة التكهن بالغيب ، الكهان

كان هناك الهان يعتبران الهي التكهن بالغيب وهذا الالهان هما (شمس) و (أدد) فاما الاول اي شمش ، فإنه لم يكن يرى كل شيء حسب ، بل كان يعرف المستقبل ايضا . وكانت هذه احدى صفات (أدد) كذلك ، والذي لم يكن ينتمي الى مجتمع الالهة العراقي القديم ، ولكنه كان يعتبر ، بلا شك مالكا لنفس الخصائص في بلاد الغرب التي جاء منها لقد كان هو الله الطقس وقد لعب دوراً بارزاً في السحر البابلي .

ولما كان التكهن بالغيب ^{إلهياً} أصلاً ، فمن الطبيعي ان يمارسه الكهان ، اما التطير فقد كان من اختصاص من عرروا باسم (بارو Baru) ومعنى هذه الكلمة هو الرجل الذي كان يرى او يفتش ، والذي يواصل عمل تقالييد (إنميدورانكي) ولذلك يجب ان يكون كسابقه كامل الخطقة ، ويطلب تدريبيه فترة طويلة من الدراسة ينقطع بعدها الى عمله . فهو يبقى رأسه طليقاً دائماً ويصبح عضواً في مجلس الكهان الملحق بالمعبد .

يجد التكهن له مجالاً في كل مادة ذلك لأن كل شيء يمكن ان يكون نذير خير او شر وكانت هناك قواعد محددة تحديداً دقيقاً ووثيقاً لتنظيم الطرق المختلفة المستعملة في تفسير الفأل ، كما ان "العرف" لا يمكن ان يكون في حيرة من امره ، وذلك بفضل المجموعة الكبيرة من الا لوائح التي غالباً ما تستنسخ وتضاف الى المجموعة السابقة المتراكمة عبر القرون . وبالاضافة الى ذلك كان "العرف" يحتفظ بسجل خاص لظاهر مألوفة كان قد واجهها اثناء تقديم الضحايا ويحتوي هذا السجل على الكثير من الحلول التي اذا ما درست في الوقت المناسب فانها تمكن من التعرف على آية علامة جديدة .

لقد لعبت قراءة الطالع دوراً بارزاً فيما كانت تواجهه عبقرية الكاتب من طلبات غالباً ما كانت هامة . فإذا ما لوحظ مثلاً وجود الطائر عن يمين السائل ،

فإن هذا يعني الشر للبلد المعادي • وإذا ما كان الطائر على اليسار فإن الآية تتعكس • وهكذا يمكن أن نستنتج من هذه المظاهر أربعة أنواع من الطالع هي الخير ، والشر ، والنصر ، والهزيمة ؛ وقصاري القول كان الكاتب يتفحص كل ما يفهمه عن أسباب التغيير الذي يطرأ على ما يواجهه من بشائر ونذر وذلك لكي يستخلص أنواعاً جديدة مختلفة من البشائر والنذر ، ولكن يشترط أن يكون مستواها منسجمًا مع الظاهرة الأصلية • وجدير بالذكر أن التورية التي ذكرنا أهميتها سابقاً ، تلعب دورها في هذه العملية • فإذا ما رأى الباحث طيراً فان تفسير ذلك يكون بتكرار كلمة يتم التلفظ بها مثل صيغة فعل له معنى (أن ينتقد أو أن يُنتقد) وتتوقف شروط الجواب على الصيغة الأصلية للسؤال •

اعتقد سكان بابل بأن العرّافين يأخذون تفسير اتهم عن طريق الوحي ، ولذلك فأنهم بعد من أن يكونوا موضع شك عند أحد • بل أن هناك المزيد من الأدلة التي تدعم قابلية تصديقهم • وكان الناس يذكرون جيداً الطوالع التي ساعدت بعض الملوك القدميين في التغلب على أزمات أيامهم • فإذا ما كرر ذكر أحد هذه الطوالع سارع الناس إلى اقتباسه باطمئنان •

انواع مختلفة من التكهن - الاحلام

يعتبر اعطاء الجواب الالهي من ابسط انواع التكهن الموجودة في النظام المقارن للتكنون ، والذي نعرف بواسطته اهمية كل نوع . أما من ينطق بهذا الجواب فهو والله نفسه، أو واحد من يقومون على عبادته كالكافنة مثلاً والتي تتمتع بسجايا التنبؤ . وإذا ما كان الجواب الالهي غامضاً فأن العراف يتولى تفسيره . وغالباً ما كانت الاحلام أكثر حاجة إلى التفسير . كانت الاحلام في كثير من الأحيان الواسطة التي عن طريقها تنقل التحذيرات وقد جمعت الكثير من هذه الاحلام . وجدير بنا أن تذكر أن المواطن البابلي كان يعتبر الحلم مساواً للحقيقة ، وبناءً على ذلك كانت رؤية الآلهة في الحلم تعني نفس رؤيتها في الحياة الحقيقية ، إذ ليس من المهم أن يكون الإنسان نائماً أو ماشياً؛ ومن جهة أخرى فإنه لم تكن ثمة حدود لتنوع المادة الموضوعية للحلم ، أو لاستحداثها بالنسبة للإنسان ؛ فإذا ما رأى الباحث الحديث أعمالاً مستحيلة تنساب إلى كائنات إنسانية فإن عليه أن يسلم جدلاً بأن السبب هو تفاسير الاحلام .

على من يدرس مجموعة الطوافع التي جاءت بها الاحلام ألا يدهش إذا ما وجد تكراراً لها في النصوص الاغريقية أو اللاتينية ، بل وحتى في كتب عصرنا الحاضر التي تستهدف تفسير الاحلام . ذلك لأن هذا النوع من التكهن قد استطاع أن يعيش عبر العصور دون أن يتبدل تبديلاً فعلياً .

التنبؤ عن طريق الكبد Hepatoscopy.

لقد كان هذا أحد أنواع التنبؤ المهمة . ولكن المصادر الازمة للقيام به جعلته مقصوراً على الملك وكبار الموظفين ليس الا . كان البابليون يعتقدون انه حينما يضحي بجدي او نعجة فان الله يكشف عن ارادته بالتغييرات التي تحدث في شكل الاجزاء المختلفة للكبد الضاحية . وقد انبثقت طريقة تفسيرهم هذه من تقاليد قديمة احتوتها مجاميع متعددة نملكتها نحن رغم انا نجهل معرفة الاجزاء والتغييرات المشار اليها .

لقد طبقت هذه الطريقة من التنبؤ على نطاق واسع من قبل العيشين و (الاتروسكانينين) (*) . وبعد ذبح الحيوان وفتح بطنه يقوم مقدم الضاحية باخذ استنتاجات تمييدية ، وبعد ذلك يخرج الكبد ويعرضه لفحص دقيق ؟ ولكي يتمكن العرّافون من ممارسة هذه الصنعة فانهم كانوا يستعملون نماذج من الطين للكبد . وتصور هذه النماذج انواع التغييرات والتكتونيات الشاذة .

التجييم :

كان هناك الكثيرون من المشتغلين بالتجييم . ولم يكن هذا التجييم مثل التجييم الذي ألقه وعرفه الافريق وعالم العصور الوسطى ، وكما هو ممارس اليوم . لقد احتاج المنجمون في سبيل معرفته الطالع عند الولادة ، الى نوعين من المعرفة ويتمثل الاول في دائرة البروج ، في حين يتمثل الثاني في استقبال الاعتدالين الربيعي والخريفي . ولم يكن النوع الاول من المعرفة معروفاً في بلاد بين النهرين قبل نهاية العصر الموجل في القدم ، اما الثاني فلم

(*) كان الاتروسكانيون يسكنون شمال نهر التiber في ايطاليا واصلهم غير معروف بالضبط ولكن يظن انهم من سكان بحر ايجه وقد هاجموا اللاتينيين واحتلوا روما في القرن الثامن ق . م .

يعرف الا في نهاية تأريخه (الذى ارتبط بالكون البابلي) . لقد اتخد التنجيم البابلي من الانواء الجوية قاعدة له ، ذلك لانه كان يقوم على أساس مراقبة الرياح ، والوان النجوم والكواكب السيارة ، والخصوص والكسوف . أما النصيحة التي كان يقدمها فانه من الممكن تفسيرها بعدة وجوه لانها لم تكن تشير الى مسائل السياسية ذات المستوى العالى بل الى الحياة اليومية للانسان العادى كالزراعة . لقد كان التنجيم فى الحقيقة معادلا من قريب او بعيد ، للتنبؤات الجوية الحديثة .

معرفة الطالع عن طريق الولادات واللقاءات العرضية

كان يوجد نوع آخر من معرفة الطالع الذي يستحصل من ولادة الكائن البشري والحيواني ، او من الظروف الشاذة التي تحيط بهذه الولادة . وقد اعتبرت مثل هذه الظروف مناقضة للطبيعة كما اتها اعطيت (علامة) تدل على كائن رهيب او (غول) . وكان تفسير مثل هذه العلامات شائعا عند عامة السكان .

لقد كان هناك العديد من أنواع معرفة الطالع . وقد دُعيت هذه الانواع باسم (التكهن التابع) وقد سمي بهذا الاسم لانه يعتمد على دراسة ومراقبة طيور الطيور . وكانت مثل هذه الطريقة متتبعة عند الحشيشين والاتروسكانين . كما اعتمد هذا التكهن على ملاحظة الاشكال التي يكونها الزيت المشور فوق الماء ، كما انه كان يعتمد على تحليل كل مظاهر البيئة البشرية . ولدينا الواح عديدة فيها نصوص عن معرفة الطالع الذي اريد الكشف عنه بطرق عديدة وكثيرة مثل معرفة ما يمثله الماء المسكوب على الطريق ، او مصادفة حيوان ، او بنات معين . ويدأ احسن الالواح بالقول :-

(اذا كانت المدينة تقوم على تل ٠٠٠٠) .

ولعل احسن فكرة عن الدلالات التي ترتبط باللقاءات العرضية هي تلك التي تحصل عليها من عنوان مجموعة عن اصول معرفة الطالع وتعرف هذه المجموعة من كلماتها الاستهلاية مثل :- (عندما يكون المعزّم في طريقه الى بيت احد المعددين ٠٠٠٠) وتكميله هذه الجملة هي :-

(ان كل شيء يقابل المعزّم سوف يؤثر على حياة المريض) قد يكون التكهن بهذه الطريقة وبهذا الاسلوب مدعاة لفرح المستهم او نكبته . وهذا يتوقف على الحيوان الذي يحصل عليه ؛ ولكن المظهر المحزن يجب ان يكون

في خضوع الفرد الذائم لكل مظاهر من مظاهر العالم المادي والذي يلي على هذا الفرد نمط سلوكه .

لقد كان الانسان البابلي ، كما رأينا سابقا ، هدفا لهجمات العفاريت . ونجد الان يجري التعديل على طريقة حياته اطاعة منه للطوالع الموجودة في كل مكان ، واذا ما اعتقاد ان هذه الطاعة تكسبه وقتا يستطيع فيه الحصول على تأجيل احكام الطوالع ، واذا ما اعتقاد ان الطوالع تتصل نوعا معينا من العمل ، فإنه سيقع ضحية لاوهام ضالة تصور له ان الاخطار الشديدة تحيط به وان عليه ان يتذكر ان معرفة يوم الخير ويوم الشر قبل ان يقدم على اي عمل يمثل امرا هاما . فاذا ما كان هذا العمل غير صالح بحد ذاته ، فلربما ستبدل صفة اليوم الذي يريد ان يعمل فيه ، طبيعة العمل من اساسها .

السحر :

ارتبطت ممارسات السحر في بابل بشعائر التعزيم المضاد للعفاريت، ولم يكن السحر معترفا به رسميأ حسب بل كان اداة لخاطبة الآلهة ، كما كان يمارس من قبل الكهان في المعبد بالإضافة الى كونه جزءا مكملا في الديانة البابلية . وكانت دراسته تدخل ضمن دائرة الدراسات الاثارية الخاصة بالشرق الادنى ..

لدينا الكثير من تفاصيل الشعائر التي استخدمنا الكهان البابليون في هذا المجال وعندما تقرؤها ندرك ان هدفها كان في جوهره خيرا ، وأنها كانت تهدف الى ضمان الخلاص من العفاريت . لقد كان السحره غير الشرعين ينتفعون بهذه الشعائر ، ويعتبرونها من وسائل الدفاع ضد العفاريت . ولما

كان هذا الصنف من السحرة خصماً للكهنة فاتنا لا نعرف بالتفصيل الوسائل التي كانوا يتبعونها ل מהاجمة الضحية . ولكن الممارسات التي كانت تستعمل لرد هذا المجموع ، تعطينا فكرة لطيفة جداً عن طبيعة هذا السحر غير الشرعي . وفي الحقيقة فإن الممارسات التي كان يستخدمها الساحر غير الشرعي لتعبأة قوى الشر ، هي نفس الممارسات التي استخدمها الكهنة للحصول على مساعدة القوة المتعوقة والتي لا يسكن أن تخيب في تحقيق النصر .

اللهة السحر ، الكهان واساليبهم الفنية ، الرقية

كان الآلهة ، وبخاصة (مردوخ وايا) يمثلون القوى المتنوقة بالإضافة الى خدمتهم من الجن الصالحين . وفي زمن الاصلاحات المدنية التي جرت في عهد السلالة البابلية سلم (ايا) كل صلاحياته الفعالة تقريرا الى ابنه (مردوخ) على الرغم من انه ظل المرجع الذي يلاذ به في وقت الشدة وغالبا ما كان ابنه يستعين به طالبا العون منه ، ومعلوم ان (يا) كان الله كل المعرفة ، وصانع الخير للانسان .

اننا نعرف الان ما يحصل عليه الانسان او الشيء من قوة ، بتأثير سلطان الاسم ، وذلك عن طريق معرفة هذا الاسم او النطق به بنغمة معينة ، او حتى عن طريق كتابته او تصويره تصويرا ماديا .

لقد اكتسب السحر طبيعته الجوهرية من تطبيق هذه المبادئ ، من قبل الكاهن المزرم الذي كان يطلق عليه اسم (ماسماشو masmasnu او أشيبو Ashibu) ويعني هذا الاسم (الكهان الذين يقرأون التعاويد) ولم تكن للكاهن المزرم اية فضيلة موروثة بالقطارة . وهو يستمد سلطاته من تعبده ، ومن كونه مثلاً لآلهة السحر الذين يعتمد عليهم في ممارسته لعمله المقدس . كان الكاهن المزرم يصبح اثناء ممارسته لعمله قائلاً : - (الأشيبو الذي خلق في أريدو ، مدينة ايا المقدسة ، انا هو) . ثم ينطق بالكلمات الخاصة بالشعائر الالزمة لطرد العفاريت ويكون المزرم في هذه الحالة لابسا الرداء الاحمر لأن اللون الاحمر هو اللون الواقي من الارواح الشريرة ، كما قد يلبس جلداً يشبه السمسكة ليؤكد صلته بـ (ايا) الـ المياه والـ الماءوية . اما الكلمات التي ينطق بها فلا يقولها إرتجالاً بل انها وهي الآلهة وتبقى كذلك دون ان يصيغها اي تغيير . كان الكائن ينادي خصمه بالنيابة من آلهة السماء والارض وهذا النداء يجرده من قوته ، ثم

يناشد المزعزع المُعْذَب لكي يتوقف عن تعذيب المؤمن وان يرحل ، ثم يدعوه المزعزع كل الالهة لمساعدة المُعْذَب ويقرأ بعد ذلك التعويذة الخاصة بطرد العفريت وتُعزز هذه الشعائر بعدد من الاعمال الرمزية كحرق مواد يظن فيها أنها تشبه الارواح الشريرة ، وحل العقد التي يعتقد فيها ان الساحر الشرير قد ربط بواسطتها ضحيته ، وأخيرا تلقى تعويذة تبطل تأثير تعويذة الساحر الشرير التي رمى بها ضحيته .

وكانت هذه التعويذة مشابهة في الاصل للتعاويذ التي كانت مستعملة في أوربا في العصور الوسطى ، وهي تتتألف من صنع تماثيل تعرض للعذاب والتدمير ، وبكلمة اخرى فانها تعني ممارسة (سحر الاستعطاف) . ذكازن (الأشيو) يرسم ، اثناء هذه المراسيم ، دوائر حول نفسه بالعصا السحرية وكذلك يرسم هذه الدوائر حول من يريد ان يجبره ، ناطقا بالكلمات التالية :-

(ييدي احمل دائرة سحر - ايَا - ، ييدي احمل عصا الصنوبر ، سلاح ايَا المقدس ، ييدي احمل غصن شجرة الشعائر العظيمة) ولم تكن هذه هي حدوده صلاحيات الساحر انه هو الذي يحيط تماثيل الآلهه وادوات عبادتهم بهالة من التقديس ، وهكذا يبعدهم الى الحياة بفشل وفتح افواههم ، وتنتألف هذه العملية من لسهم باداة مناسبة ، وكذلك من تلاوة بعض الصيغ . وبهذه الوسيلة تعود التماثيل الى الحياة ومعها تعود كذلك المواد التي تستعمل في الطقوس الدينية الخاصة بها كالادوات الموسيقية ومنها الطبقة المقدسة والتي تعرف باسم (ليلىسو Liliissu) والتي تستعمل في العزف الموسيقي . كان (الأشيو) يقدم احيانا المساعدة الى الآلهه فعندما كانت العفاريت تهاجم الله القمر (سِن) وتضطهدنه ويؤدي ذلك الى الخسوف ، يشارك (الأشيو) بقية الآلهة في إنقاذ الله القمر ، وذلك بتعاويذه وصلاته . تؤدي كل هذه المراسيم بمصاحبة الترانيم التي تتتألف من كلمات تزداد .

قوه بطريقة النطق بها ، كما ان لعدد المشاركين في هذه المراسيم اثره الفعال ، وبالاضافة الى هذه الترايم هنالك عدد من الرقصات التي تعاكي في هيئتها الاعمال التي ينوي (الاشيبيو) القيام بها لكي تشارك هي الاخر في المراسيم المذكورة . وهذا هو التفسير لانشيد العرب والحب والرقصات الحربية ، والتي يراد بها جعل الطريدة لا حول لها ولا قوه .

هناك سبب يدعو للظن بأنه اذا ما ادى (الاشيبيو) مجموعة الشعائر كاملة فانه سيجعل حتى الآلهه يتضجرون من الاحراج . ذلك لأن عمليات سحر الاستعطاف لها رد فعل في السماء بسبب الصلات والروابط الموجودة بينهما ، ومن امثلة سحر الاستعطاف سقي الباتات لاستدرار المطر وتزويج البين ممثلين بتماثيلين او كاهن وكاهنة لتشجيع الخصوبة على وجه الارض . هناك مثال آخر تستطيع ان تجده في اللغة التي يمكن ان تتحقق اذا كانت كلماتها اكثرا من مجرد تفخة فارغة وهناك حالة واحدة تجدها في (ملحمة كلكامش) وقد حقق فيها الاله اللعنة على الرغم منه . فعندما لعن (انكيدو) عاهرة المعبد تجل الاله (شمش لانكيدو وعتقه على موقعه من انسان احسن اليه كثيرا ، ومع ذلك فإنه بالرغم من تعنيفه لانكيدو بسبب تلك اللعنة ، اضطر « شمس » الى ان يحول عاهرة المعبد الى كلبة .

الاحتمالات الكامنة في السحر البابلي

يظهر التفحص السريع للمارسات البابلية للسحر ، ان هذه الممارسات كانت عبادة في نوایاها ، وان هدفها كان اخلاقيا خالصا وانها قد تماشى كل الغايات المادية التي ادعت الانظمة المتأخرة انها بلغتها .

لم يقدم السحر البابلي احسن السبل واقصرها للحصول على المال والشرف ، ولا الوعود بالشباب الدائم . وعلى الانسان البابلي الذي يريد هذه الاشياء ان يستعين بالساحر غير الشرجي ، لا بالاشيئر الذي لم يكن عنده شيء من هذا القبيل .

ان ما عندنا من تمائم يعزز هذا المفهوم وتتمثل بعض هذه التمائم رموز الالله التي اريد منها احلال الصلح والوقاية بين الانسان والاله ، وذلك لجعل الانسان تحت الحماية الالهية . كما تمثل بعض هذه التمائم ارواحا شريرة يمكن ان تكون عديمة الاذى اذا ما نظر اليها بوضوح ، او اذا ما ظهرت كما هي . ومرة ثانية نقول ان هناك نوع آخر من التمائم التي تحمل مشاهد صيد وبالاخص مشاهد قطعان من الحيوان (وهذا منظر مألوف في الاختام الاسطوانية) ويبدو ان هذه المشاهد قد صفت لتضمن نجاح اعمال مالكي التمائم ومن الواضح ان السحر البابلي ، كالكهانة البابلية ، كان يتحدى قوانين التغير فظل ثابتا لعدة قرون .

الطب البابلي . المرحلة الكهنوتية

يشبه الطب البابلي السحر من حيث اعتماده على الاضطراب لاكتشافه اسباب الشر . وقد اشتغل على اساليب السحر الفنية ممزوجة بالتكهن بالغيب . وكانت ممارسته في اطواره الاولى من ضمن اختصاص الكهنة . كان (المقعد) انسانا ممسوسا ، اي مصابا بروح شريرة ، او مبتلى بعفريت ، واعتبر ذلك سببا لمرضه . ولما كان هناك تعريف يقول ان كل مقعد آثم ، ولا كانت هذه الحالة يستعصي تشخيصها وبالتالي يمتنع على المعالج التعرف على العفريت المسبب لها ، لذلك صار من الضروري اكتشاف الاثم . وما اذ يتحقق هذا الاكتشاف حتى يكون معاذلا لازاحة الس Starr عن العفريت المسبب . وبعد ان يتذكر (الاشيو) هذا الامر يأخذ في قراءة جداول الآلام فلعل المريض قد اقترف ببعضها منها ان عددا وان سهوا . وما اذ يشخص الذنب موضوع البحث حتى يمكن (الاشيو) من قهر العفريت الذي استغل الذنب لكي يحل في جسم المريض . اما اذا كانت اعراض الحالة معروفة جيدا من قبل ، فان العفريت يعرف انه سيشخص بسرعة . وتسعمل مثل هذه الحالة طريقة علاج تلقى القبول بصورة تدريجية ، وتوازي هذه الطريقة التعويذات وباستطاعتها ضد هجمات العفاريت ، كما انها تكون مصممة لتجبرها على أن ترك المريض .

لقد ادت هذه الطريقة في الماضي الى استعمال الدواء الذي كان يركب من المخاط والمواد العفنة بل وحتى من البراز . وغالبا ما كان هناك تتبع لاتجاه المرض في المستقبل ويقع هذا التتبع على بعض الاعراض التي كانت تعتبر طوال تطورات متأخرة ؛ وعندما يتم فهم هذه الاعراض بصورة افضل فانها تصبح عناصر في تكوين معرفة سير المرض واتجاهاته .

يعني العلاج الذي يثبت فشله وفق هذه الاسس ، وجوب التخفيف من حدة تحديدات المعزمين ، وذلك من طريق اعطاء الوعود التي تغري العفاريت بالرحيل من

جسم المريض ومن بين الاساليب التي كانت متتبعة بهذا الشأن ما يفعله الكاهن، اذ يأخذ خنزيرا رضيعا ، وبعد اجراء مقارنة بين رأس وجسم واطراف الخنزير وبين ما يقابلها من اعضاء المريض ، يستدرج العفريت ليتخد مسكننا له في جسم الخنزير ، ان هذه الطريقة تمثل بكل بساطة محاولة لاغراء العفريت لكي يقوم بعملية مبادلة .

هناك حالات اخرى تستعمل فيها قصبة حقيقة بدلا من الخنزير وهنا نستطيع ان نرى سعيا غير متظور وغير واع لمعرفة ما يسمى الان باسم (نقل قابلية الاحساس) . وهناك طريقة بديلة تمثل في القراءة بصوت عال لقائمة هدايا سوف يتسللها العفريت حال خروجه من جسم المريض ، وبالطبع فان الهدف هنا هو اعطاء هدايا غير مادية ، وهذا تطبيق لنفس مبدأ قوائم النذور الموجودة على الاشواح المصرية القديمة والتي يتمس من المارة قراءتها . وهكذا فاتنا نجد ان العفريته (لاماشتو Lamachtu) التي كانت تقتل النساء الحوامل والاطفال ، قد قبلت رشوة تضمنت تقديم ما يلزمها من مؤونة في رحلتها الى العالم السفلي واعطيت هذه العفريته حل وحمارا تقطع به الصحراء وزورقا لمبور المياه الموجودة تحت الارض . [اللوح ٢٤]

يظهر لوح برونزي من مجموعة الواح (الميسيد كليرك De Clerq) منظرا تماما لعملية التعزيم . ويرى المريض ممددا على السرير يحيط به المزمون ، وهم يرتدون ملابسهم الخاصة ، ومعهم الجن الصالحون ، وقد انهمكوا في ابطال مفعول هجمات الشياطين السبعة سيء الصيت ، في حين تتراجع العفريته (لاماشتو) مثقلة بحمل الهدايا التي وعدت بها .

الظهور المفاجيء للروح الانتقادية

لقد بدأت سرعة التصديق تتراجع تدريجيا امام الروح الانتقادية وبدأ
فن العلاج يستخدم مواد اثبتت قيمتها العلاجية ، او انها ارتبطت ، ان شكلها
وان لونها ، بحالة المريض . لقد كان العصر عصر المرأة الحكيمية التي توحى
بان يعالج اليقان ، مثلا بجرعات من دواء اصفر تماما . كما كان الناس
يفعلون ذلك في اوروبا خلال القرون الوسطى عندما كانوا يؤمّنون باستعمال
قررون الايل الذكر ، او قشور الروبيان المسحونة لأنها تحتوي على فوسفات
الكلاسيوم . انه الوقت الذي بدأت فيه وصفات السحرة تؤكّد على أهمية
جمع النباتات ذات القيمة الطبية في لحظات تعين تعينا دقيقا . ولا يزال
الممارسون العصريون للتداوي بالاعشاب يراعون هذه الشعائر ، ذلك لأنهم
يعلمون جيدا ان القوة النسبية لعناصر دوائهم المختلفة تتباين من شهر لشهر
، ومن ساعة لساعة .

الطب قبل ابقراط :

شهد الالف الاول من السنين قبل الميلاد تغيرا اساسيا ، وبدأ التعزيم
يتضاءل حتى صار ذا اهمية ثانوية . وباستثناء بعض الاماكن البدائية جدا ،
فإن وسائل فنية مختلفة بدأت تطبق تبعا لكل شكوى ، في حين بدأ تشخيص
المرض يدخل في حسابه مفهوم الايام الحرجية لمدرسة ابقراط .

لقد كان ممكنا في عهد السلالة السرجونية معالجة المريض بالطريقة
الطبية التي كانت سائدة قبل (ابقراط) والتي كان الآسو يستعملها وهذه

الكلمة من الكلمة السومرية (آزو Azu) وهي تعني الشخص الذي يكتشف المعرفة من الماء . لقد كان (الآسو) او الاطباء يؤلفون طائفة ، وكان اطباء الملك يؤخذون من بين اعضاء هذه الطائفة . وتظهر المراسلات التي جرت بين هؤلاء وعائلة الملك انهم ظلوا صابرين على ما يلاقونه من سوء معاملة من مرضى العائلة المالكة .

الموت . النبلاء . والعوام والجناز . الآخرة

لم يكن قبر الانسان العادي في بابل وآشور محاطا بشيء يدعو للدهشة في حوالي منتصف الالف الاول ق.م . وبالاضافة الى القبر الحجري البسيط دخلت التواصيت الصخرية الرقيقة حيز الاستعمال . وكانت توجد على السطح الاعلى لهذه التواصيت فتحة يضوئها الشكل تدخل منها الجثة ثم يغلق الغطاء . وعلى ما يظهر فان التواصيت من هذا النوع قد تبناها الجميع وتوجد مقابر كاملة لها ؛ ويرجع تاريخها الى المهد الفرثي وكما كان الحال في عهد أستق ، فلم يكن لاماكن دفن الفقراء مظاهر متميزة .

كان موت الملك يمثل حداثا جللا يشمل بتأثيره كل انسان دون استثناء . ذلك لانه نذير شؤم في غاية الخطورة بالنسبة لمستقبل البلاد . فهو بوفاته يجتاز الثغرة بين الارض والسماء . ولذلك صار من الطبيعي أن تربك وفاته النظام المقرر للأشياء ، في حين نجد ان الطوالم السيئة تقرن وفاة الملك مع ذبول الخضراءات ، وهبوط مناسبات الانهار بالإضافة الى تأجيل عمل اي شيء يجعل الارض مشرة وذات فائدة .

وعلى التقىض من ذلك نجد ان التسويف يزيد من سرعة تفتح الحياة ، ومن زيادة المحاصيل زيادة شديدة ، وحلول طقس ملائم لنمو النباتات .

لقد تكلم كل من حمورابي في مقدمة شريعته ، وآشور بانيبال في حولياته ، عن سنوات افتتاح عهديهما بقولهما ، ان هذين العهدين يمثلان عصر ذهبيا ، وذلك بفضل الثقة التي أولاهمها اياها الآلهة ، ونتيجة لذلك فانه عندما يموت الملك يعلن الحداد في جميع ارجاء البلاد .

وتقول رسالة من آشور ما يلي :

(في اليوم الذي نسمع فيه بموت الملك ، ييكي شعب بلاد آشور) .

لدينا نص عن آشور بانيال وهو يظهر في هذا النص مودعا جنازة احد رجال بلاطه ، ويحاول ، بالطريقة التي كانت مألوفة في العالم القديم ، ان يحمي قبره عن طريق ازالة اللعنات المألوفة على من ارادوا اتهاك حرمة قبر معين . يقول النص :-

(في اليوم الذي يشهد فيه قصري لقاء القائد (نابوشار أو شور) لمصيره وشرفه غير مثوم ، فسيدفن في المكان الذي يرغب فيه لكي يرثى في المكان المنفصل عنده ، وانه لن يقل منه . ليكف كل انسان عن مدیده بسوء الى المكان . لقد كان انسانا صالحًا وشجاعا . واذا ما ازعجه اي انسان وهو في قبره ، فان الملك ، سيده سيسناء من ذلك ، ولن يرحم من يسب هذا الازعاج) .

لم يكن هذا كله تعبيرا عفويا عن العزف على فقد صديق عزيز ، بل انه يمثل بداية عصر الحداد الرسمي . ويشكل هذا تعبيرا عن الاسف الرسمي لحدوث مصيبة عامة .

نستطيع الان ان نقرر قيمة العلاقة المزعومة بين موت الملك وذيول الخضراوات . وذلك من الطريقة التي يساوى فيها الملك بـ (تموز الميت) . فالتعابير التي كانت تستعمل في اظهار الاسى على موته ، تشبه كثيرا ما كان يستعمل عند موت الآله ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفكرة هي السبب في ظهور المراسيم الخاصة بالجنازة الملكية . لقد سجى جثمان تموز يومين او ثلاثة ايام لكي يراه من كان يعبد . ولدينا رسالة موجهة من (اسرحدون) الى الملك وهي تطمئنه على اطاعة اوامره كما تخبره بوجوب تسجية جثمان سلفه الملكي ثلاثة ايام ثم ل يوم اخر زيادة ، وذلك في مدينة ارييل . ويجري عرض الجثمان اما داخل القصر او خارج احد ابواب المدينة الكبيرة مباشرة ولدينا رسالة تبين ان باب المدينة الكبيرة قد فتح ، وسمح للناس بالمرور منه

ليظهرروا حزفهم امام الملك الميت . وغالبا ما كانت فترة الحداد طويلة . فمثلاً عندما تموت ام الملك يدخل الامير والجيش فترة ثلاثة ايام من الحداد وذلك في بداية شهر نيسان (وهو الشهر الاول من السنة) ويبدأ الحداد الرسمي . في الشهر الثالث من السنة اي (سيوان) ويبدأ الحداد بخروج الاشوريين من باب المدينة ، ويستعرض القائد ضباطه امام حاكم المدينة الذي يرتدى الملابس الحمر والاسورة الذهبية . ويتقدم الباكى هؤلاء الناس (*) يرافقه ابناءه (وهم جوقة من اتباعه) وي يكنى هؤلاء في مقدمة المستعرضين وهذا دليل على مشاركة الباكين الرسميين تحت قيادة قائد .

مراسيم الجنازة :

تنتقل الان الى الجنازة . فبعد ان يضمح الجنمان بانواع الروائح العطرية الطيارة ، ويدهن بالزيت الحالص ، ويلبس الملابس الملكية يوضع في تابوته الصخري الذي يمثل خزانة صخرية مستطيلة الشكل لها غطاء وحلقات عظيمة تستعمل لتحريرك التابوت وذلك بوضع العبال والقضبان في هذه الحلقات . يعرض الجنمان لضوء الشمس لآخر مرة ثم يحكم ثبيت الغطاء في مكانه بانطقة برونزية ، ثم تثبت رقعة مكتوبة فوق التابوت تستنزل اللعنات على كل من يحاول فتحه ، ثم يجري الدفن بعد ذلك داخل القصر عادة وبعد ذلك تقدم النذور نيابة عن العاهل الميت .

ولقد كشفت التنقيبات التي أجريت في مدينة (آشور) عن العديد من ملوك الآشوريين الذين دفعوا في منطقة واحدة . وكان الكنز الذي دفن مع الملك يمثل تهديدا دائمأ للضریح الملكي (بسبب من احتمال سرقته) . ولم يتم اكتشاف أي من هذه الاضرحة كاملاً مع محتوياته . كان تابوت.

(*) يطلق على الباكى في البابلية والاشورية كلمة كنتسا

(شمسي ادد) الموجود حاليا في متحف برلين ، يمثل خزانة مستطيلة واسعها عند الرأس اكثرا من اتساعها عند النهاية بقليل ، وهي ترتفع عن الارض بواسطة حافتين صخريتين وبالاضافة الى اللسان الذي يشبه الحلقة يحمل الغطاء في كل نهاية منه قبضة تشير الى عبارة تقول :-

(ساختم فتحة التابوت بالبرونز الصلب) .

ومما لا شك فيه ان الاختام كانت تثبت اصلا حول القبضات وحول التابوت كله .

البديل الملكي :

كنا نظرنا ، عند بحثنا موضوع الطب والتداوي ، في بعض اوجهه - البديل - . اتنا نجد مثالا اخر في (البديلين الملكيين) الذين لم تكون وظائفهم مجرد اداء وظائف الملك ، بل كانت تشمل ايضا معافاتهم ، بالنيابة عنه ، المصائب التي تغتزنهما الآلة للملك ، وابسط مثال على ذلك هو (العباءة الملكية) التي كانت تعتبر رمزا لسلطة الملك ، وكانت قادرة على ان تحل محله في احتفالات معينة . ولم يجد المحتفلون فيها اكثرا من كونها علامة للسلطنة الملكية .

ومن جهة اخرى نميل الى النظر اليها على انها تعجيز غير محسوس ولا يخطي للملك . فقد يحل احيانا احد التمايل محل الملك ، وتتحقق على هذا التمثال في مثل هذه الحالة الكسوة الملكية . وعندما تكون الطوالع غير حسنة ، يجري انتخاب بديل انساني وهو اما من صغار موظفي الملك او من بين حاشية الملك وهذا هو اكثرا شيوعا .

وعلى الرغم من ان البديل (بولو Pulu) كان يعيش في القصر ، خان الملك يواصل الحكم من وراء الستار . اما لماذا ينتخب البديل فاتسـ

نقول ان مثل هذا يحدث اذا كان هناك طالع ينبي بكارثة او اي شيء مما قد يحدث مستقبلا ، ويتحذذ تاريجا^(*) . فمثلا تقول احدى الرسائل :-
(اذا امكن رؤية المشتري أثناء الخسوف ، فان هذا يعني سلامة الملك .
ولكنه يعني كذلك موت بديل عنه وقد يكون شريفا او نحيفا)

ان سلامة الملك تتوقف شرطا على سلامة الجزء الثاني من الطالع . فإذا لم يتحقق فانه سيرتد اليه ، واذا لم تقع اية وفاة بين كبار رجال القصر او صغره . فان البديل سيركب المخاطر بنيابة عن الملك ويدخل بها ، ولن يعود الى مكانه السابقة الا بعد حدوث الموت المتوقع اللاقى .

واذا ما استمر الطالع في تهديد الملك ولم ترض الآلهة إلا بموته . فان الكهنه سيأمرؤن (البديل) بان يلقى مصيره ، اي ان يقتل . وقد حدث هذا بالفعل في حكم اسرحدون وكان (دامكي) بن وكيل الدولة في اكد هو (البديل) وقد قدم نفسه ليكون كذلك وقد اختارتة احدى العرافات قائلة له : (انك ستسترجع الملوكية) فما كان منه الا ان وهب نفسه مع الاسلحة الملكية في وسط حشد كبير من الناس . ومنذ تلك اللحظة صار (دامكي) الحاكم الظاهري لبلاد (آشور وبابل) ولكن الطوالع راحت تتردى وتتردى . وانقاداً لحياة الملك (أمت دامكي ودفن) مع اوسمة الشرف الملكية وقد شُيّد ضريح له ولوصينته التي كانت من البلات الملكي ايضا ، والتي تحتم عليها اذ تموت مع زوجها ، وعرض جثمانهما امام الناس وبصورة لافتة ثم اعلن الحداد عليهمما كما قدمت الذبيحة المحروقة لعائلتيهما لكي تكون بمثابة التعزيم اللاقى بالطوالع الشريه . وبعد ان تقدم الرسالة وصفا تماما لما جرى تختتم بالكلمات التالية .

(لقد أكملت مراسيم تقديم الكفاره وسيرتاح فؤاد سيدى الملك)

(*) هذه اشارة الى اتخاذ العوادث الهامة اساسا للتاريخ وهو امر كان شأنها انذاك ولازال مألوفا في مجتمعاتنا كالقول (ولد يوم حدوث ..)

حالة الميت

يدخل كل انسان ، ملكا كان او من عامة الشعب ، بعد الموت الى (الألتور Arallu) او العالم السفلي . وبسبب من اسوار وابواب هذا العالم السبعة ، والتي تحيط به ، وتحرسه حراسة جيدة ، فانه استحق اسم (ارض الاعودة) ولقد عرفنا الشن الذى دفعته (عشتار) لدخول هذا العالم . يوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن حالة الموتى أثناء اقامتهم المؤقتة هناك ، وتنقسم هذه الروايات الى مجموعتين . فالجموعة الاولى ، وهي الغالبة ، تصور الموتى وكأنهم طيور مجنة . وهذا ما يذكرنا بالنظرية المصرية الى الميت باعتباره يشبه الطير ذا الرأس الانساني . اما الرواية الثانية فانها مأخوذة من حلم (انكيدو) الوارد في (ملحمة كلكامش) فعندما نزل الى العالم السفلي سهل عليه التعرف على الملوك وكبار الكهان واولئك الذين شغلوا مناصب كبيرة . وقد سجل اجد النصوص زيارة احد ملوك (آشور) للعالم السفلي في الحلم . وتعتبر هذه الزيارة مساوية من وجهة النظر الاشورية للزيارة الحقيقة . وقد رأى هذا الملك هناك كل سكنته العالم السفلي ، وقد أضيفت عليهم الصفات التي كانت منسوبة اليهم على الارض . وهناك رواية ثالثة لعلها تستحق الذكر ، وهي تقول انه بعد موت (انكيدو) استطاع الحصول من (نيرغال) على إذن بالصعود ثانية الى الارض ، وهناك تحدث مع صديقه (كلacamش) . تقول الرواية :

(لقد فتح الاله الارض كما يفتح الباب المسحور ، ومر من خلاله روح (انكيدو) ذاهبا الى صديقه كما يمر السحاب او البخار) . وفي هذا العالم الذي لا ينيره اي شعاع من نور ، والذي يلفه الغبار لفاما ، والذي ينعدم فيه الهواء وينقصه الطعام والشراب ، لا تجد ارواح الموتى ما تعيش عليه الا ما يقدم للموتى من نذور وقرابين . فاذا لم يتذكراهم احد فانهم سوف يردون الى الارض ليملأوها اوبثة ، وآنذاك سيعيشون على ما يجدون من

فضلات في المجاري . اما ارواح الموتى الذين حققوا مجدًا في الحرب فلهم امتياز خاص بها . ويتمثل في اذ تصبح عوائلهم قرية منهم كما انهم يعيشون في رغد ويسربون انة العذب .

لقد كانت هذه الفكرة قديمة جدا ونجدتها في اقدم نصوص ملحمة كلکامش في (قلق البطل من اجل الحصول على شهادة له) .

ليس هناك اية اشارة واضحة الى فكرة الحساب بعد الموت على الرغم من ان بعض النصوص توحّي بوجود واحدة من هذه الاشارات ، ومع ذلك يبدو انه على الرغم من قدرة آلهة العالم السفلي على الحساب الا ان هذا لا يشمل الا الاحياء ، اي انه كان بإمكان الآلهة ان يجعلوا ايام الاحياء على الارض قصيرة ، وان يصيّبواهم بالمرض ، وكون هذا المبدأ غير مؤكّد ناتج من تقاليد آنية وكانت سائدة في الاوساط الدينية في بلاد ما بين النهرين .

لقد اكملنا الان تتبع الخاتمة النهاية لحياة ساكن ذلك البلد في حوالي عام (٦٠٠ ق.م) .

الخاتمة :

قد يكون الانطباع الذي نستلخصه من هذا المسح الطويل ، وعلق
الاقل بالنسبة الى المستوى المادي ، هو ان حياة سكان بلاد بابل في حدود
سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، لابد وان كانت تشبه بصفة وثيقة حياة اي من سكان
الشرق حتى الى ما قبل زهاء خمسين سنة خلت ، قبل ان ادى ظهور الماكنة
ذات الاحتراق الداخلي الى تمزيق المجرى اليسيير والمطرد لوجوده ٠

ففي الاحياء المأهولة بشكل كثيف من بغداد تستطيع ان ترى ، دون
شك ، المظهر المجدل لشوارع بغداد ، باسواقها المكشوفة في الهواء الطلق ،
وهي تعرض ذات السلع ، والادوات الصغيرة للحرفيين ، وطراز بناء بيوتها
حسب ذات المخطط الذي كشفت عنه التنقيبات في اور ، والتي يعود تاريخها
الى حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد في زمن ابراهيم (*) ٠

ولابد ان شهد حكم نبوخذنصر ذات النوعية من الشواهد التي يمكن
رؤيتها اليوم ، وذات الرقصات التي تتألف من صفين من الراقصين الذين
يتقدمون ويتراجعون لمصاحبة النسوة اللواتي كن يولون ويصفقن بايديهن
طبقا لرتابة الرقص ، واللواتي لابد وان كن يسمعن نغمات ذات الادوات
المusicية ٠

لابد وان تهدمت المعابده ولكن وجود جامع ايا صوفيا في اسطنبول (**)
يشير الى شدة صرامة مظاهره الخارجية التي غطتها الزخرفة السطعية ٠
وكذلك مضت الزورات ايضا ونستطيع ان نشاهد اليوم صنوها في
البرج المدور في سامراء(***) ومظهر سلمه العظزوني ٠

(*) يقصد بذلك النبي ابراهيم الخليل عليه السلام الذي ولد في اور
ونشأ فيها ودعا القوم الى نبذ عبادة الاصنام ثم غادرها بعد ان انجاه
الله من عملية الحرق المبسوطة في القرآن الكريم ٠

(**) اقيم جامع ايا صوفيا في اسطنبول على انقاض كنيسة ذكرها المؤلف باسم
القديسة صوفيا ٠

(***) يقصد بذلك ماذنة الجامع العباسي الكبير المعروفة باسم الملوية ٠

وادا ما راقبنا تصرف الحشود أثناء التمثيليات الدرامية التي يحتفل فيها الشيعة بالمنحدرين من نسل «علي» (رض) نستطيع ان تصور مهرجان الآله مردوخ في مدينة بابل ، وان ارتفاع اصوات النائحين وهبوطها في هذه الايام ، لابد وان يردد صدى المناحات التي كانت نسمع اثناء دفن الجنائز في العصر الاشوري الحديث ٠

غير ان في الحياة الروحية فجوة عميقة لا يمكن سدها هي ان تلك الحياة، وان كانت تحيا تحت سماء مشعة لابد وان يظن المرء بانها قد ادت الى وجود متعة ، والتي استطاعت بالحفظ على الدين الطبيعي ان تضفي روحًا ومجداً جديدين للقوى الحيوية ، كانت مع ذلك ورغم كل هذا ، تعاني الضغط من جراء عقيدة كانت بحق من اشد الاديان صرامة التي مارسها الانسان ٠

لقد كان الالهة العنيفون المسارعون الى الغضب لا يكفون عن المطالب التي يبتزونها من البشرية ، والتي كانت تلف كل عمل من اعمال الحياة الدينية في شبكة من التزامات خالية من الرحمة ، من امثال تصوّر العالم وهو مأهول بالعفاريت واللاتنة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها مليء بالعفاريت واللاتنة التي تطارد فرائسها ، والطبيعة المعادية وكل نقطة فيها مليئة الاهمال او الالتزام وحياة في الآخرة اكثـر شقاء من الحياة الارضية حيث ينبغي ان ينفصل كل ناتج عن ضوء الارض ، وان يدفن في غبار الشرق، ذلك الفزع الذي لابد من تجربته قبل ان يتم الایمان به ، وهذا هو الانطباع عن الشقاء المستور الذي كان يخلفه الدين الذي لايرحم والذى كان سكان بابل من أسراره ٠

لقد كانوا اسرى حقا لان الملك لم يكن اقل من فلاح ٠ وبغض النظر عن الكيفية التي كان فيها عامة الشعب يحسدون ملوكهم ، فانه لم يكن اقل

ـ مما كانوا هم الفسهم ضحية تحت رحمة كهنته ، وعبدا لتعقيدات شعائر
ـ مدمراة ٠

ـ واذ كانت حياة البابلي شاقة مثل حياة المصري فانها لم تستطع ان تحطم
ـ يشاشته الطبيعية الصالحة وبهجته ومرحه اثناء عمله اليومي ٠
ـ غير ان انسان بلاد الرافدين كان غريبا عن الضحك ويدو باه لم يكن
ـ قد تعلم كيف يلهمو ٠

ـ لقد خلقت جهوده مدينة مشرقة ليست اقل قوة من مدينة مصر ومن
ـ المدينة الكبرى التي ولدت مجددا في اوربا الغربية ، والتي كانت تكمن عميقا
ـ في استداتها بصفة اكثـر ، من الحضارة التي ازدهرت على ضفاف نهر النيل ٠ غير
ـ ان المدينتين كانتا من الناحية الروحية قطبين كل على حدة ٠ ذلك ان الشهـرة
ـ العالمية لمدينة بابل كانت تتوج العالم القديم وهي تستحق ذلك تماما ٠ ولكن
ـ كيف تستطيع اقلية من يبتـنا ان تخـارها كمواطنـ لنا ٠

الملحق (١)

تفسير القضية الحسابية رقم (٢)

هذا عرض اورده توريو دانجان في كتابه « نصوص رياضية بابلية » .
[ملاحظة استعملت الاشارات عن الدقة والثانية هنا لكي تشير الى اجزاء القوى المتعاقبة للعدد] وعلى هذا الاساس تكون دقة واحدة وثلاثون .
وعلى هذا الاساس تكون دقة واحدة وثلاثون ثانية تساوي .

$$\begin{array}{r} 30 \\ \times 1 \\ \hline 60 \times 60 \\ 60 \end{array}$$

$$50 + \frac{1}{7} \times \frac{1}{11} = 525 \times \frac{1}{7}$$

$$525 - 50 = \frac{1}{11} \times \frac{1}{7} \quad \text{او}$$

$$525 = (11 - 1) \times \frac{1}{11} \times \frac{1}{7} \quad \text{او}$$

$$\frac{10}{7} + \frac{5}{50} \quad \text{او}$$

$$S = \frac{55 \times 7}{10} = 35 \text{ ، } 3^{\text{rd}} \text{ من المينا}$$

$$\frac{1}{10} = 3 \text{ شاكل}$$

ان هذا المثال العملي هو الحالة التي تكون فيها العملية ذاتها غير صحيحة . فالنتيجة تكون صحيحة لكن الجواب كان على اكثر احتمال معروفا قبل الخطوات التي اتخذت لتركيبه .

الملحق بـ

طرق احتساب ابعاد النجوم

من مقالة لشوريو دايغان في مجلة «الاشوريات والآثار الشرقية» المجلد ٢٧ (سنة ١٩٣٠) العدد ٢

يعبر عن المسافة بين النجوم التي تكون مواقعها [بالنظر للنص موضوع البحث] في ذات التوازن [برج السرطان] ، بثلاثة أنظمة لقياسات حسب النسبة التالية :

١ - الطالين او ٦٠ مينا = ١٢ دانا [اي بيو اكدي] ،
او ٣٦٠ كش Ges على الارض (اينا ككوري) = ٦٤٨٠٠ دانو في السماء [اينا شامي] .

ففي النظام الاول تكون المقاسات بمقدار الوقت : ذلك ان وزن الماء الذي يسقط من ساعة مائة يقيس الوقت بين مرور نجمين عند الاول (طالين واحد من الماء = يوماً نجومياً واحداً) .

اما في النظام الثاني فتكون المقاسات بمقدار حجم القوس .
وفي النظام الثالث تكون المقاسات بمقدار الطول . ذلك ان « الدانا »
والگش ايماككوري تعادل على التوازي — و — من دائرة تخيلية
يفترض فيها انها تقع على الارض فالدانا والگش شامي مقاسات لمسافة التي

يقصد التعبير بها عند مسافات حقيقة في السماء .
فبرج السرطان يمكن ان يقيس ٤٨٠٠ دانا او $٤١٦/٠٠٠$ متر (حوالي اربعة ملايين وثلاثمائة الف ميل) .

وإذا ما افترضنا أن طول خط الاستواء يكون بنسبة ١٠ : ٩ بالنسبة إلى خط استواء برج السرطان فإن قياسه سيكون في حدود

$$\frac{648000}{9} \text{ دانا ، أو حوالي } 72000 \text{ دانا}$$

في النظام الثاني تستخلص قياسات القوس أصلاً من قياسات الوقت ، فالمسافة بين نجومين يقعان على ذات المستوى ، يمكن أن يعبر عنها قطعاً بالاجزاء . $\frac{1}{360}$ \times 360 \times 10 $=$ 10 \times 72000 دانا

ويبدو أن البابليين لم يكونوا يميزون الكش لوقت طويل ،

$\frac{1}{360}$ كقياس للقوس ($\frac{1}{360}$ من الدائرة) ، والكش

$\frac{1}{360}$ كقياس لوقت ($\frac{1}{360}$ من اليوم)

وي يكن رؤية الدليل على هذا الأمر في حقيقة أن البابليين كانوا ، كما يظهر ، يقسمون سمت الشمس مثل المتوازيات إلى 360 ثانية في تاريخ متأخر ليس إلا .

المحتويات

الصفحة

٥	١١ - كلمة المترجمين
٦	٢ - مقدمة المؤلف
	٣ - الفصل الأول
	معلومات عامة
١١	البلاد
١٩	تاريخ بلاد الرافدين في الفترة ٧٠٠ - ٥٠٠ ق . م
٢٦	سجل الواقع التاريخية
٣٢	تركيب المجتمع ، العائلة ، البيت
٤٠	الارقاء
٤٣	بيع الرقيق
٤٥	ارقاء المبد
٤٧	عنق الرقيق
٥٠	المنازل
٥١	البيت
٥٣	استعمال الطين
٥٧	السقف والطابوق العلوي
٦٠	الرخوفة
٦٢	اثاث البيت
٦٣	الانارة والتندفة
٦٤	المدينة ومقطعها
٦٥	مدينة بابل
٦٧	المباني الكبرى ، المركز
٦٨	نهر الفرات وجسره
٧٠	تحيير الماء
٧١	الاسوار
٧٣	الابواب
٧٤	الريف ، القنوات
٧٦	الخصب يعود الى الري
٨٢	الملاحة
٨٥	الغففة ، الكلك
٨٧	صيد السمك

الصفحة

٨٨	البساتين
٨٩	بستان ميروداش بلدان
٩٢	حرب المزرعة
٩٤	الزراعة على نطاق واسع وحاصلات الحبوب
٩٥	الحاروف والحراث
٩٧	دراسة القمح
١٠٠	بيع القمح واعارته
١٠١	الحيوانات الداجنة
١١٤	بيوع الدواجن
١١٧	الحيوانات الوحشية / القنص
١١٩	طرق النقل
١٦١	القوافل
١٢٢	الحياة اليومية - تحية الصباح
١٤٤	الفخاريات
١٤٧	العمل والتجارة
الفصل الثاني	
المملك والدولة	
النصر الملكي	
١٨٥	
٢٠٠	الخرفة والمنحوتات النائمة
٢٤٤	اطلالة الدولة ، الدبلوماسية
٢٥٠	(العرب)
٢٦٠	حملة سرجون الثامنة
٢٦٦	نهب مصاصير
٢٦٨	العرب ضد عيلام ونهب سوسة
٢٧٢	السفن الحرية
الفصل الثالث	
الفكر في بلاد ما بين النهرين	
مفاهيم عامة	
٢٧٣	
٢٧٦	مبدأ الاسم
٢٧٨	اللهوت ، الأسماء الشخصية

الصفحة

٢٨٠	طريقة النطق بالتعاونيد
٢٨٢	أهمية إخفاء الاسم الحقيقي
٢٨٤	سلطان الأعداد
٢٨٧	التورية المنطقية والمكتوبة
٢٨٨	الاحاجي
٢٩٢	الياس مردوخ
٢٩٥	برغيب ، ملك كتك
٢٩٧	الرموز الآشورية
٣٠٠	المعرفة
٣٠٥	تطور الكتابة
٣١٤	فك الرموز
٣١٨	فن الكتابة السرية
٣٤٦	الاساطير – آدابا وآنانا
٣٥٠	الشعر الفنائي ، بعض الترانيم
٣٥٢	الخرافات
٣٥٤	تدوين التاريخ
٣٥٧	الاسلوب التاريجي وصلاحيته
٣٥٨	المراسلات الخاصة – المراسلات الملكية
٣٦٢	العلوم ، موضوع الالهام
٣٦٤	جمعيات العبادة السرية
٣٦٧	الرياضيات
٣٧١	مجموعة من الاسئلة
٣٧٤	الجغرافية – رسم الخرائط
٣٧٦	التقويم ، علم الفلك
٣٧٩	جدل حول النجوم الثابتة
٣٨٢	العلوم الطبيعية
٣٨٥	الكيمياء
٣٨٧	الاعراف الفنية

الصفحة

٣٨٩

النحت

٣٩١

النحوتات المحفورة

٣٩٢

الاشكال المنظورة

٣٩٧

الجري السريع في الفن

الفصل الرابع

الحياة الدينية

٤٠٠

الشواهد الوثائقية

٤٠٣

التكلبات والتناقضات

٤٠٥

اصلاحات سلالة بابل الاولى

٤٠٧

ديانة الطبيعة البدائية وتطورها

٤١٠

تركيب الهيكل او مجمع الآلهة

٤١٤

الثالوث الثاني : سن - تمس ، عشتار

٤٢١

العفاريت

٤٢٥

- تصوير الآلهة

٤٢٧

شعارات ورموز الآلهة

٤٢٩

الارقام ونجوم الآلهة

٤٣١

تماثيل الآلهة

٤٣٣

الانسان - ابن الآلهة

٤٣٨

بدايات التصوف

٤٤٠

- القيمة الانسانية للآلهة

٤٤٣

السلطات الالهية ، المصير

٤٤٧

الخطيئة والاعتراف

٤٥٠

الشك

٤٥٢

(المابد)

معبد مردودخ في بابل

٤٥٤

الزورات ارج المعبد

٤٦٠

"العزافون" والمشدون

٤٦٦

صفار الكهان وموظفو المعبد

٤٧٠

السرقات والشغب في حرمات المعبد

٤٧١

الاعياد الدينية

٤٧٤

الكهانة ومبرراتها

٤٧٥

الصفحة

- | | |
|-----|---|
| ٤٧٦ | الهة التكهن بالفيف ، الكهان |
| ٤٧٨ | أنواع مختلفة من التكهن – الاحلام |
| ٤٧٩ | التتبوء عن طريق الكبد |
| ٤٨١ | معرفة الطالع عن طريق الولادات واللقاءات العرضية |
| ٤٨٤ | الهة السحر ، الكهان واساليبهم الفنية |
| ٤٨٧ | الاحتمالات الكامنة في السحر البابلي |
| ٤٨٨ | الطب البابلي والمرحلة الكهنوتية |
| ٤٩٠ | الظهور المفاجئ للروح الانتقادية |
| ٤٩٢ | الموت ، النبلاء ، والعوام والجناز ، الآخرة |
| ٤٩٩ | الخاتمة |

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

هذا الكتاب

جورج كونتيتو - مؤلف هذا الكتاب
من مشاهير الأثاريين الفرنسيين
والباحثين في تاريخ الشرق القديم
والعراق بصفة خاصة ولاسيما
النواحي النفسية منها.. وكتابه هذا
يتميز بالشمولية، ويصف الحياة
اليومية التي كانت سائدة في بلاد
الرافدين وصفاً دقيقاً ويعطي صورة
واضحة المعالم لكل مكان سكان
الرافدين يمارسونه من اعمال
وبيتدعونه من افكار.

دار الشؤون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والإعلام

السعر ثلاثة دنانير ونصف

Bibliotheca Alexandrina

0510608